الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات

دراسة وثائقية للحركة الطلابية ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧



تأليف
د. هشام السلاموني

مكتبة جزيرة الورد

الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات

دراسة وثائقية للحركة الطلابية ١٩٦٨ - ١٩٧٧

تأليف
د. هشام السلاموني



القاهرة ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات

المؤلف : د. هشام السلاموني

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٧٢١

الطبعة الأولى ٢٠١٠



إهداء

إلى الطالب العادي ..

إلى كل الزملاء الذين تواجدوا طلابًا في الجامعات المصرية (وفي المدارس الثانوية .. بل والإعدادية) على اتساع الوطن في الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧٧ كلهم بلا استثناء .. فهم مفجروا الحركة الحقيقيين ، وهم مصابيحها الهادية ، وهم أصحاب برنامجها ، وهم الذين ضغطوا ليحققوا لمصر آمرين على أكبر جانب من الأهمية والعظمة ، عبور أكتوبر الخالد ، وقد كان إنجاز صيحاتهم المؤثرة التي انطلقت من الجامعة ، وإنجاز دمائهم أيضًا التي بُذلت في سبيل الوطن بين صفوف المجندين وضباط الاحتياط ، الذي حققوا نقلة كيفية متقدمة للقوات المسلحة ، مكنتها من الانتصار ، وقطع يد إسرائيل الطويلة ، وتدمير نظرية أمنها ، التي لن تقوم لها قائمة .

أما إنجازهم الثاني العظيم فكان فتح باب الديمقراطية ، صحيح أن الألاعيب التي لا تنتهي تضغط باستمرار لكي يظل الباب مواربًا ، لكن أحدًا لن يستطيع إقفاله بعد أن فتحوه ، بل إنهم - فاتحوه - هم الذين سيوسعون فرجته التي ستدخل منها آمال هذا الشعب العظيم .

إليهم جميعًا .. تعبيرًا عن إنجازهم الضخم .. هذا الكتاب (*) .

د. هشام السلاموني .

(*) الذي ينظر إلى تكوين التاريخ النضالي لنادة كفاية ، وما تولد عنها من حركات وجماعات سيرى تحقق هذه النبوءة التي سبقت ظهور كفاية بأربعة أو خمسة أعوام.

مقدمة الطبعة الثانية

مياه كثيرة مرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ .

ومياه كثيرة مرت من تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ الطبعات الأوليَّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ .

لعل أهم تلك المياه هي أن صار الجيلُ الذي واجه عبد الناصر والسادات الجيلَ ، ويواجه مبارك الأب والابن .

والغريب أن فحوى المواجهة واحد . الديمقراطية ، والمشاركة الشعبية السياسية في صنع القرار ، وفي الرقابة الفعلية والفعالة على تنفيذه .

لقد كانت كفاية هي الاستمرارية التي نجح هذا الجيل ـ جيل الحركة الطلابية ١٩٦٨ ـ ١٩٧٧ ـ في أن يتحرك بها نحو هدفه الديمقراطي ، أمل هذه الأمة .

وأظن أن من حقي أن أقول ـ بل أقرر ـ أن كان لهذا الكتاب ـ منذ كان مقالات ـ فضل ـ كبر أو صغر ـ فيما تم .

لقد غير هذا الكتاب ـ منذ كان مقالات ـ اللغة التي كان يتكلم بها المثقفون ، في لقاءاتهم ، وفي كتاباتهم ، غيرها من العداء ، وانتصار كل فريق لنفسه ، ظالما أو

مظلوما ، إلى لغة مستعدة للتفاهم مع الآخر ، أو على الأقل الاستماع إلى ما يقوله بتمعن ، أو ببعضه .

كانت الخياة السياسية في مصر ١٩٧٧ ـ ١٩٩٧ قد أفسدت الجيل سياسياً ، بأحزابها العلنية ، والسرية (والسرية أكثر) ، وأصبح الشيوعيون في عداء مستحكم مع الناصريين ، والناصريون في عداء مستحكم مع الإخوان ، والإخوان في عداء مستحكم مع الديمقراطية ، ولم يكن من الممكن لتيار من التيارات أن يسمح لنفسه بأن يبقي أذنيه مفتوحتين إذا ما تكلم التيار الآخر .

ولعلي ألجأ إلى واقعة ـ شاركني فيها كالعادة الصديق الأخ د. عاصم الفولي ـ لتشرح للقارئ الكريم الوضع الذي كان .

ذهبنا ـ عاصم الفولي وأنا ـ إلى المرحوم عادل حسين لنتكلم عن عمل توافقي حقيقي ندعو له كل التيارات في الساحة ، يجابه السلطة ، ببرنامج ديمقراطي ، ويصر شعبيً على تحققه (عادل حسين بصفته كان مناضلاً شيوعياً صلباً ، ثم تحول إلى مناضل إسلاموي صلب ، وأنا بصفتي شيوعيا، وعاصم بصفته متعاطفًا مع الإخوان والاتجاهات الإسلاموية) ، والحقيقة أن عادل حسين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ استمع لي بشكل كان مزيجا من الاهتمام الحقيقي والأدب الجم ، مما شجعني على أن أُفرِّغ أمامه كل ما كنت أفكر فيه ، بعدها فوجئت به يقول لي :

ـ ما تسيبك من كل اللي بتقوله ده ، وتيجي معانا .

غيَّر هذا الكتاب ـ منذ كان مقالات ـ من هذه اللغة .

غيرها بشكل فني !!.

التزم هذا الكتاب بالصدق (بأقصى ما استطعت) ، وإثارة الحنين بإعادة تكوين البانوراما ، التي كانت موجودة في السنوات ، التي تكلم الكتاب عنها ، فعاد قارئوه

من صناع الأحداث إلى الفترة التي عملوا فيها معا ، واستطاعوا فيها معا (عمال وطلبة ، ومثقفين ، ونقابات) إجبار السادات ، صاحب المفرمة الشهيرة ، على إحناء رأسه للمعارضة ، والاضطرار إلى دخول الحرب .

وأذكر - بتدبير من المهندس عاصم الفولي - أن تلقيت زيارة كريمة من الأخ الصديق المهندس أبي العلا ماضي ، وهو من أصحاب الاتجاه الإسلاموي المنفتح ، والمؤمن بالديمقراطية ، وكان اللقاء خصباً ، نقلت كل ما قيل وما حدث فيه لأخي أحمد بهاء الدين شعبان ، وعن طريقه للأستاذ أمين اسكندر (من الناصريين) ، وإلى الأخ فريد زهران.

وفي دعوة كريمة من حزب الوسط على إفطار رمضاني ، تكلم المناضل الشيوعي الكبير ميلاد حنا عن القوى الوطنية ، وأن ليس بينها ما يجعلها قادرة على العمل التوافقي المشترك ، برغم أن ما يحدث لمجتمعنا ، وفي مجتمعنا يجبرها إرغاماً على قبول الفكرة ، لصالح مستقبل هذه الأمة ، طلبت الكلمة ، وقلت ما ركزت عليه في مقالاتي عن الجيل ، وقلت :

- هل يسمح لنا مناضلونا الكبار ، في الأحزاب السرية والعلنية ، والنقابات ، ونحن أصحاب خبرة وتجربة في العمل السياسي التوافقي بين تيارات مختلفة ، أثناء الحركة الطلابية ١٩٦٨ - ١٩٧٧ أن نبدأ في وضع الخطوط العريضة لتوافق حول الديمقراطية ، وتسيرون معنا فيه ، إذا ما وافقتم عليه.

وقال الأستاذ ميلاد ضاحكاً:

- يا خويا إيدي على كتفكم ، يا ريت .

بعدها تكونت لجنة من وحيد عبد المجيد ، وأحمد بهاء الدين شعبان ، وأمين اسكندر ، وفريد زهران ، لتتولى استكتاب العديد من الشخصيات الهامة في المجتمع

عن النموذج الديمقراطي التوافقي المصري ، وأصدرت بعد لأي كتاباً (مصر والنموذج الديمقراطي ، سلسلة حوارات المستقبل ، المحروسة لنشر الخدمات الصحفية والمعلومات ، يناير ١٩٩٩ . القاهرة) أشرف على تحريره أبو العلا ماضي ، وأمين اسكندر ، فريد زهران ، وحيد عبد المجيد .

والحقيقة أن الكِتاب « مصر والنموذج الديمقراطي » حمل بعض مواصفات وأخطاء ، وخطايا الحركة السياسية (وأفظعها أن ندخل إلى العمل التوافقي من باب تجنيد الآخرين لأفكارنا نحن ، بلهجة تعليمية متعالية ، وليس البحث عن أرضية مشتركة يعمل عليها المختلفون لتحقيق هدف أو أهداف نضالية ، تمهد الطريق لحركة سياسية ديمقراطية ، يستفيد منها الجميع ، وتقضي على احتكار السلطة في بلدنا (وبلداننا العربية) .

لكن الأهم أن الأطراف المتباعدة التقوا ، والعمل المشترك أظهر نفسه كضرورة ، وأن روحًا جديدة سرت في جسد الحياة السياسية المصرية ، ووُلدت كفاية التوافقية ، ووَلدت كفاية التوافقية حركات احتجاجية مطالبة بالديمقراطية عديدة .

هكذا كنا ، وهكذا أصبحنا .

مياه أخرى جرت تحت الجسور - ومن فوقها - منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ ، ومنذ الطبعات الأولَيَّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ ، كانت هي الأهم عندي .

كانت هذه المياه أن الشباب الجديد قرأ الفترة التي عشناها (ولم يعشها هو ، أو عاشها غير واع لصغر سنه) في نهاية الستينيات ، ولا أنسى الناقدة المسرحية الكبيرة قدراً مايسة زكي ، وهي تتصل بي تليفونيا :

- إيه ده يا هشام .. إيه اللي انت عامله ده ؟! ..

ـ خير عملت إيه ؟!..

ـ الجيل الذي واجه ....

ـ ماله ؟! ..

ـ انت كتبت البلد يا هشام ، موش كتبت كتاب !! .

ـ قصدك كتبت البلد في نهاية الستينيات ..

ـ وهي اتغيرت ؟! ..

ـ انت رأيك إيه ؟! ..

ـ رأيي إن التغير في الدرجة ، لكن المصيبة هي المصيبة .....

وأجيال أصغر قرأوا البلد ..

ولا يستطيع أحد أن يتصور مدى فرحتي حين يكلمني أحد من الأجيال الصغيرة ليقول لي إنه عاش في القراءة ما عشناه .. وأنه فهم ما فهمناه ..

مياه أخرى جرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ ، ومنذ الطبعات الأوليّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ .

مياه أنصفت رجلاً عظيما ، هو في رحاب الله منذ سنوات ونحن اللاحقون .

الرجل هو اللواء الحناوي ـ قائد سلاح الطيران في فترة مظاهرات ١٩٦٨ ـ الذي قال لي إن عبد الناصر أمره ـ عن طريق الفريق فوزي ـ بضرب الطلبة برشاشات الطائرات المعدلة في طريق جمال عبد الناصر !! (كورنيش البحر في الإسكندرية) ، في نوفمبر ١٩٦٨ (الكتاب يتضمن فصلين وملاحق عن هذه القضية) ، ولما نشرت ما قاله قامت الدنيا ، قامت غير مصدقة ، ولكنني أسكت الدهشة ، ولا أستطيع أن أقرر أنني أقنعت الجميع .

ذات ليلة من العام ١٩٩٩ تلقيت مكالمة تليفونية مهمة ..

ـ دكتور هشام السلاموني ؟ ..

ـ أيوه يا فندم

ـ أنا الدكتور حماده حسني ، أستاذ مساعد بقسم التاريخ الحديث جامعة عين شمس ..

ـ أهلاً وسهلاً ..

ـ حضرتك كتبت عن إن عبد الناصر أمر بضرب الطلبة بالطيران ..

ـ أيوه ..

ـ أنا معايا ليك هدية ، وأخذت نمرة تليفونك من الأستاذ عبد الغفار شكر (المناضل والمعلم الكبير بحزب التجمع) عشان أوصلهالك ..

ـ أنا عاجز عن الشكر ..

ـ موش لما تشوف حضرتك الهدية الأول ..

وشرفني الدكتور حمادة حسني بالحضور ، وكدت أطير من الفرح ، وهو يقدم لي هديته الجميلة ، وقائع الجلستين التاسعة والعاشرة للجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، وفيهما اعتراف كامل من جمال عبد الناصر بأنه أمر الطيران بضرب الطلبة .

رحم الله اللواء الحناوي ، لقد فرحت له وما زلت ..

مياه أخرى جرت تحت الجسور ـ ومن فوقها ـ منذ كان هذا الكتاب مقالات في روزاليوسف عام ١٩٩٧ ، ومنذ الطبعات الأوليَّات لهذا الكتاب ابتداء من ١٩٩٩ .

كانت تلك المياه مقابلة لم أكن أتصور أن ستتم ، وقد بدأت هي الأخرى بمكالمة تليفونية ، في ليلة شتوية من العام ٢٠٠١ :

ـ آلو .. أنا المهندس عاطف الشاطر ..

ـ معقوله !! ..

ـ أيوه معقوله ..

وعاطف الشاطر هو من أسميته في هذا الكتاب بالبطل التراجيدي لأحداث مظاهرات الإسكندرية في نوفمبر ١٩٦٨ ، وكانت هناك رواية عنه ، أصبحت شبه رسمية ، خرجت من السجن ، حيث جمع الطلبة من كافة الكليات ، والجامعات ، وكنت متشككاً في هذه الرواية (ستطالع الرواية وتشككي في الكتاب بين يديك) ، ولقد كتبت تشككي في الرواية ، وقلت إنه (عاطف الشاطر) أكثر من دفع ثمنا من الطلبة إذ رفت من الكلية ـ مع آخرين ـ وتم تجنيده في برنيس على الحدود بين مصر والسودان جنديا ، على أساس أن لا مؤهل عال معه (بعد فصله من الكلية) ، وهو بعد أن أنهى تجنيده ، هاجر (تقريبا) إلى المغرب ، ومن يومها وهو هناك يعمل في تخصصه :

ـ أنا لما قريت اللي كتبته في روز اليوسف ، قلت إنك إنسان محترم ، واتصلت بالمجلة ، أثناء نشر المقالات ، وطلبت رقم تليفونك ، وللأسف لم يعطوني الرقم ، ومرت أربع سنين على ما قدرت أجيب الرقم .

ـ موش لازم تمر أربع ساعات قبل ما نلتقي .

ـ إديني العنوان من فضلك ..

أسرعت بالاتصال بصديقي الدكتور نادر الطويل (دكتوراه من ألمانيا في تسليح

الخرسانة) ، وهو خريج كلية الهندسة جامعة الإسكندرية ، وقد عاصر عاطف الشاطر في الكلية ، وطلبت منه أن يحضر اللقاء بيني وبين عاطف الشاطر ، ليرى إذا ما كان الكلام كله حقيقة ، أم أن فيه ما يريب ، وجاء عاطف الشاطر مصطحبا معه المهندس نادر الشناوي ، رئيس اتحاد الطلبة السابق على عاطف الشاطر ليكون شاهداً على ما يقول ، وقلت ضاحكاً ، والتعارف يتم بيننا جميعاً :

ـ بصرة ..

وبانت الدهشة في وجه عاطف الشاطر ، قلت :

ـ انت جبت نادر ، وأنا جبت نادر ، يبقوا بصره ..

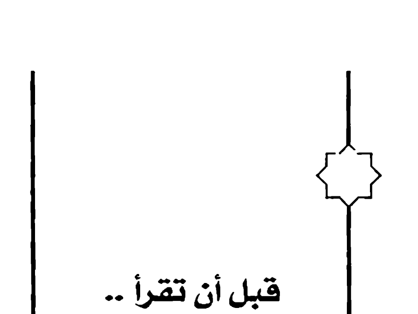
واعتذر عاطف الشاطر ـ دون حاجة لاعتذار بأن البقاء خارج مصر طويلاً أنساه حلاوة القفشات المصرية .

يومها سجل لي عاطف الشاطر ، ونادر الشناوي خمس ساعات ، المهم عنها ، أنها أكدت أنني كان يجب أن أتشكك (متأسفاً) في رواية رفيقي الشيوعي للأحداث ، أما ما قاله لي عاطف الشاطر ، فكنت أزمع أن أضمه إلى هذه الطبعة ، ولكنني فضلت أن أخرجه في كتاب وحده ، ربنا يعطيني عمرا ليكون بين يديك في العام ٢٠١١ .

مياه أخرى ... ، ولكنني سأكتفي بما قلت ، وسأتقدم بالشكر للأستاذ فتحي هاشم ، ناشر الكتاب ، الذي قرر أن يتيح لأجيال أصغر أن يقرأوه .

د : هشام السلاموني

المهندسين ٢٠١٠



قبل أن تقرأ ..

محاولة للفهم ..

للكتاب قصة ..

أو لنكن أكثر دقة ولنقل أن للمقالات التي نشرتها «روز اليوسف» في الفترة من ١٧ فبراير إلى ١٢ مايو ١٩٩٧، (والتي أجمعها في هذا الكتاب بإضافات ضرورية..) لنكن أكثر دقة .. ولنقل .. إنه كانت لتلك المقالات قصة .

ولعل من المفيد قبل أن أروي تلك القصة ، أن أعترف ـ من أولها ـ بأن بداية قصة تلك المقالات ، وهذا الكتاب ، قد تأخرت عشرين سنة كاملة!

عشرون سنة مضت بين البداية الحقيقية (الطبيعية) لتلك المقالات ، وبين البداية الفعلية !! (وضعت علامات التعجب على أساس أننا نهتم بالزمن!!) .

وباعترافي هذا .. تكون لدينا بداية فعلية .. وبداية حقيقية.. وقصة .. فلنبدأ .

***

البداية الفعلية ، جاءت ـ مباشرة ـ بعد صدور العدد ٣٥٨٢ من «روزاليوسف» في فبراير ١٩٩٧.

في ذلك العدد قرأت مقالين ممتازين .

كان أولهما لعادل حمودة [الصحفي القدير «ابن جيلنا» ، الذي جعل روز اليوسف واقعًا مقروءًا ومؤثرًا في كل بيت مصري ، وخاض بها وفيها صراعًا ناجحًا ضد التابوهات (الممنوعات.. المحرمات) ، التي لم يكن يُسمح لأحد بالاقتراب منها ، وهي السلطة المطلقة (التي تتجمل تجملاً مفضوحًا) ، وقداسة رجال الدين ، التي يحرص عليها البعض، ربما أكثر من حرصهم على مصالح الناس . بل وعلى

الدين نفسه (القداسة للدين .. وليس للدين رجال.. الدين لكل الرجال .. لكل البشر) .. وثالث الممنوعات .. الأسس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للممارسات الجنسية (سوية كانت أو غير سوية) .. ولقد أصاب عادل حمودة كثيرًا . وكانت المحصلة في صالحه .. وصالحنا بدون شك] .

ثاني المقالات ، كان عنوانه «الانفجار .. عملية احتلال ميدان التحرير» كتبه عبد الله كمال (صحفي شاب، يملأ قلمه بماء النار ، ويحترف الكتابة به عن المحظورات بحروف مشتعلة ، كاوية ، تحفر في الجسد العربي .. الذي يظنه الواهمون قد آثر الدعة..) .

قرأت المقالين .. ولنبدأ بثانيهما .

المقال الثاني : «عملية احتلال ميدان التحرير» ، كان تلخيصًا وافيًا ، وواقعيًا لحدث مرت عليه خمس وعشرون سنة ، هو حركة الطلبة في يناير ١٩٧٢، تلك الحركة (العظيمة) التي بدأت بمجلات حائط ، أعقبتها مؤتمرات في كل الكليات - كانت الأكثر سخونة بينهما مؤتمرات كلية الهندسة جامعة القاهرة ، فلا عجب أن تحول واحد منها (من مؤتمرات كلية الهندسة) إلى مؤتمر عام لطلاب جامعة القاهرة - انتقل بعد ذلك إلى قاعة الاحتفالات الكبرى بالجامعة (كانت في عين شمس نفس الخطوات ، وكان لجامعة عين شمس نفس التأثير ، لكن اعتصامًا لم يجر في عين شمس إلا في ١٩٧٣) ، وقد قرر المؤتمر العام الاعتصام لحين جلاء الحقائق المتعلقة بصراعنا الأمني مع إسرائيل ، مطالبًا (الاعتصام) بالديمقراطية ، وبحق مشاركة الجماهير في تسيير أمورها ، حتى تستطيع الجماهير أن تكون رقيبة على تحقيق أمانيها ، وحتى تضمن ألا تكرر السلطة نوعية المآسي التي وصلت إلى ذروة حقيقتها في نكسة يونيو ١٩٦٧ ، بعدها تدخلت الحكومة .. واقتحمت الجامعة فجرًا (عودتنا

السلطة العسكرية في مصر الانقضاض في الفجر، والانقضاض على الفجر!) وقبضت على المعتصمين، لتفاجأ ـ السلطة ـ والشمس في كبد السماء ـ في ظهيرة نفس اليوم ـ بأن عشرين ألفًا من طلاب جامعة القاهرة، وأعدادًا هائلة من طلاب جامعة عين شمس، يحتشدون في ميدان التحرير، ويحولونه لمكان اعتصام جديد في حضن المصرية الصاخب، ويكونون لجنتهم الطلابية العليا الثانية، ويرددون الصوت الذي ظنت الحكومة أنها قد أخرسته في الفجر (في الجامعتين)، ويؤرقون انفرادها واستفرادها بالأمور كما لم يؤرق من قبل.

كان المقال تلخيصًا وافيًا للحدث .. تساءل كاتبه ـ في آخره ـ عن هؤلاء الذين فجّروا الحدث الكبير .. عن مصيرهم .. أين هم الآن؟ .. وماذا يفعلون؟! .. قائلاً:

«هؤلاء الطلاب الذين فجروا تلك الأحداث، تذكروا الآن بعد ربع قرن ما حدث (كان يقصد عزم جيل السبعينيات وقتها على الاحتفال بمرور خمس وعشرين سنة على حركتهم العظيمة، والذي تم بعدها بأسبوعين).

واستطرد ...

«ونحن أيضًا نتذكر هذا معهم الآن، ونتساءل، أين عشرات منهم بعد كل هذه السنوات، وكيف صاروا؟!! .. أين حسام الدين عبد الله، وهشام السلاموني، وصلاح يوسف، وهاني شكر الله، ونبيل عتريس، وشوقي عقل، وعاصم الفولي، وهاني عنان، وأحمد بهاء الدين شعبان، وأحمد عبد الله، وفريد زهران[1]، وعشرات غيرهم».

كان من الواضح أن كاتب المقال يبحث عن مصائر هؤلاء الذين تصورهم ـ مشكورًا ـ الذين فجروا تلك الأحداث (الجيل كله فجرها، وكانت الحركة العظيمة

(١) فريد ظهران كان من جيل الحركة الثالث ٧٥/ ٧٧، ولا أظنه كان في التحرير في ١٩٧٢.

حركته، وكان بطلها، وليس في هذا افتعال للتواضع .. بل وضع لحقيقة في نصابها، وكان جهد المقالات التي ستقرأها ينصبّ في إرساء قواعد هذه الحقيقة) وكانوا وراء تلك الضربة (كانت بالحق ضربة) التي قضت على أسطورة الدولة المنفردة المستفردة بكل الأمور، وفتحت الباب للديمقراطية (الباب الذي لم يستطع أحد إغلاقه بعدها، وإن نجحوا في جعل الجيل لا يبالي بها، بكثرة ما افتعلوه من ألاعيب محبطة لا ينقطع لها مدد!!، (من عباقرة التحايل، وترزية القوانين)، ورداحي «فرش الملاءة» من الصحفيين وسائر الإعلاميين) وأرغمت السادات.. وكان ذلك هو إنجازها الآني العظيم الضخم - على ألا يتهرب من معركة مع إسرائيل، لم يكن يريد خوض غمارها (وإن فتر بعد ذلك في أن يخوضها محدودة[1]. وبقي على فكرته برغم الأداء بالغ العظمة للقوات المسلحة المصرية في حرب أكتوبر المجيدة - بجناحيها النظامي والاحتياط!! مضيعًا الفرصة التي كانت متاحة أو محسوبة فعليًا، قبل أن يصل أي مدد عسكري أمريكي لإسرائيل.. كانت المدة المحسوبة من ٨-١١ يومًا).

كان ذلك هو المقال الثاني، وكان لكاتبه «عبد الله كمال» فضل التذكر والتذكير وأيضًا، فضله في أن سبغ علينا ما لا نستحقه.

أما المقال الأول - التحليلي - الذي كتبه عادل حمودة، في نفس العدد فكان بعنوان «عبادة الشيطان وندابات المجتمع» (فقد كانت تلك الفترة - فبراير ١٩٧٧ والتي كتبت فيها المقالات - قمة الحوار الناشب في المجتمع، بين كافة التيارات وكل الاتجاهات، عن شباب حول العشرين سنة من أعمارهم، وأغلبهم دونها، ضبطوا - أو هكذا قيل - يعبدون الشيطان) وقد شخص عادل حمودة الظاهرة - ظاهرة عبادة

(١) راجع محمد حسين هيكل (أحد أبرز المخططين لمحدوديتها) في كتابه «خريف الغضب».

الشيطان - تشخيصًا (يحسد عليه!) وألقى المسئولية ، كل المسئولية ، على المجتمع ، نازعًا الفتيل من يد حكومة تدينهم ، ومفتي (بعكس شيخ الأزهر الشيخ سيد طنطاوي) ينادي بإقامة حد الارتداد عليهم (القتل .. لشباب دون العشرين!) بحجة ارتدادهم عن الدين!، أو بابا المسيحيين الذي استند على الكتاب المقدس ليذوقوا نفس المصير ، ورئيس تحرير الوفد (الحزب المطالب بالديمقراطية) . الذي أراد تحويلهم إلى محكمة عسكرية حتى لا يستفيدوا بفرص النجاة التي يوفرها لهم قاضيهم الطبيعي (الديمقراطيون الليبراليون يطالبون بمحاكم عسكرية!!)، وأيضا من يدي الكاتب فهمي هويدي الذي راح يحاكم فيهم - كعادته . دعاة الفكر الحر !! (كأن الحرية هي التي تقود إلى عبادة الشيطان) .

قال عادل حمودة في مقاله :

«للحزن ، للوجع ، للفشل ، للإحباط أبناء يكبرون » .

«للخرافة التي تسكن العقول، للقدوة المفقودة في المدارس والمنابر والبنوك ، للفكر التافه كقشرة موز في مناقشات ومشاجرات المثقفين ، للتاريخ المشوه كممسحة لأخطاء الحاكم .. أبناء يكبرون» .

«للتطرف ، للتعصب ، للفساد ، للتشنج ، لعذاب القبر ، والثعبان الأقرع .. أبناء يكبرون » .

وقال عادل حمودة :

«لم يسأل المحققون أين الشيطان في تصرفات الكبار! » .

«إن الشيطان يسرب الامتحانات في الجامعات ، ويمنح القروض بالمليارات في البنوك ، ويزور الانتخابات في سيرك الديمقراطية ، ويدعم الإرهاب في الصحف القومية ، ويستخدم الفتاوى حسب هواه في العبث بعقول الناس ، فلماذا نلعن

أبناءها إذا لجؤوا إليه ؟!» .

وأنهى عادل حمودة مقاله بالكلام عن مظاهرات الطلبة في عام ١٩٦٨، موضحًا أن كل جيل يبدأ بالرفض .

أحسست وأنا أقرأ لعادل حمودة مقاله أن جيلنا (الذي يربط الظواهر الشاردة في سياق حقيقي ، ربما يبدو للآخرين بعيدًا عن التصور!) يتكلم .

أحسست أن جيلنا يتكلم ، فقررت أن أتكلم معه .. وأن أرد على «عبد الله كمال» (وكان هو المفجر الحقيقي لقضية عبدة الشيطان) والذي ـ لعلك تذكر ـ تساءل «أين هم الآن». وكان يقصدنا نحن .

أعددت ردى .. وذهبت إليه .

كان الرد بعنوان : «لا تسألوا عنا اسألوا عمن ضربوا فكرة المشاركة ، وأوقعوا الوطن في براثن العنف ، حتى عُبد الشيطان في هذا البلد !!» .

قلت في الرد :

«لقد حاول جيلنا المشاركة في صنع بلاده كما يحلم بها .. فضُرب .. وشُوه ، بعد أن فشلوا في احتوائه على طريقتهم ، وفي طريقهم فكان الرد الطبيعي ممن هم أقل ثقافة في جيلنا ، هو اندلاع العنف في المجتمع بأشكال مختلفة ، وبأقنعة يتم تبادلها : عنف على الذات ، وعنف ضد الآخرين ، وعنف ضد المواطنة ، وعنف ضد الوطن .. بل وعنف ضد الإنسانية .. عنف يتخفى في صورة تفشي ظاهرة الإدمان .. (عنف على الذات) ، وفي الجرائم العادية (زيادة عدد الطعنات حتى وصلت إلى سبعين في جثة واحدة ، وقتل الأب والأم والإخوة بممارسات شرسة ، وحالات الاغتصاب التي يراد بها إذلال الضحية وخطيبها ، وليس تصريف حاجة وقتية ، وجرائم النصب الاقتصادية و... و... و... وكلها عنف على الآخرين) . وفتنة

طائفية مصنوعة ومزعومة ومفتعلة ، تختفي لتظهر ، وتظهر لتختفي (عنف على المواطنة) ، وعنف على الوطن (الانتماء ثقافيًا لمجتمعات حولنا ، أو بعيدة عنا ، مع أننا الأطول قامةً ثقافيًا ، (حتى لو سكتت عن ذلك) ، أو اعترفت به تلك المجتمعات!!) وعنف ضد الإنسانية نفسها (عبادة الشيطان) وكل ذلك فضلاً عن العنف السياسي (الذي تغمض الحكومة عينيها عن كل الأشكال عداه ، خصوصًا في تلك اللحظات التي يطول فيها - أو يكاد - لحمها الحي) لجماعات أرادت - أن تستند على الأقوى (الله) في مواجهة قوى لا قبل لها بها، (هي قوى السلطة المطلقة الغاشمة ، وإن فعلت في المواجهة ما لا يقبله الله .. وما لا يقبله الوطن !!).

وقلت :

«لقد اغترب الإنسان المصري في بلاده .. وخارجها .. بعد أن سدت في وجهه عمدًا ، وبألاعيب محكمة أبواب المشاركة ، والمغترب ، مستوحش ، والمستوحش وحش!.

وأخذ عبد الله كمال الرد .. وأخذني إلى عادل حمودة (رفيق الكفاح القديم والجديد) وقرأ عادل حمودة الرد.. وغاب في سهوم (اعتاده من يعرفه) .. وقال بعده :

- هشام.. اكتب عن جيلنا .. عن الحركة الطلابية .. اكتب تحقيقًا سياسيًا تأخر صدوره خمسًا وعشرين سنة (هكذا وضع عادل حمودة العنوان بحسه الصحفي المذهل قبل أن أكتب!!).

وقال عادل حمودة (الصديق) :

- خذ من الصفحات ما تشاء .

لكن رئيس التحرير قفز بسرعة من داخله ، فقال :

- أربع صفحات في كل عدد حتى ينتهي ما تريد قوله .. كويس؟

قلت :

- كويس جدًا .

قال :

اتفقنا.. وضب صفحاتك كما تشاء ، واملأها بما تشاء .. أنت تعرف كيف نكتب (كان يقصد كيف يكتب جيلنا).. واعتبرني قارئًا لمقالاتك، بعد أن تصدر في المجلة .

وكان عادل حمودة ـ صادقًا ـ عند كلامه .. لم يتدخل مطلقًا .. في المقالات .. وكانت تلك هي البداية «الفعلية» للمقالات التي صارت الآن كتابًا بين يديك .

■ ■ ■

لكننا قلنا إنه كانت هناك بداية «حقيقية» للمقالات .. وقلنا أن تلك البداية «الحقيقية» ، تأخرت عشرين سنة .. أو كان المفترض أن تتم منذ عشرين سنة .. وهذا واقع .. وحقيقي.

كان المفترض أن تكون البداية الحقيقية لتلك المقالات وهذا الكتاب في العام ١٩٧٧! .

ففي ذلك العام ١٩٧٧، فوجئت الأمة المصرية بحدثين مروعين مدويين!! . وراحا دون أن ينتبه أحد لمغزاهما .

أول الحدثين : كان انفجار مظاهرات الجوع في يناير ١٩٧٧، وذلك الحجم الهائل من العنف الجموح الذي صاحبها [1] . (تلك الانتفاضة التي أصر الرئيس السادات على أن يسميها «انتفاضة الحرامية»، على عادة العسكريين في تشويه كل مبادرة

---

(١) خسرت مصر في تلك الانتفاضة ٩٠٠ فرد غال بين قتيل وجريح ، وقبض على ١٢٥٠ ، نسبة كبيرة منهم من الطلبة .

جماهيرية وجيهة الأسباب!) .

ثاني الحدثين : كان اغتيال «الشيخ الذهبي» على يد جماعة «شكري مصطفى» (جماعة المسلمين) ، (التي أسمتها المباحث العامة «التكفير والهجرة») .

الحادث الأول جاء في يناير في بداية عام ١٩٧٧ .

والحادث الثاني جاء في يوليو ، في منتصفه .

كنت وقتها مجندًا في القوات المسلحة ، ممنوعًا من الاتصال بالصحف.. وبرغم ذلك .. قررت أن أكتب لصباح الخير (كان الرئيس السادات ، بعد انتفاضة الجوع قد أزاح عن «روز اليوسف» طاقمها الممتاز «عبد الرحمن الشرقاوي ، وصلاح حافظ ، فتحي غانم» ، وأتى بمن انتزعوا أنياب المجلة الصحفية ، فتهاوى توزيع المجلة الذي كان قد وصل وقتها إلى عنان السماء ، وتهاوى تأثيرها! [1] .

في مجلة «صباح الخير» ولم أكن أعرف من وقتها فيها أحدًا - سلمت المقال .. (المقال الذي لم ينشر .. وكان المفترض أن يكون البداية الحقيقية لهذا الكتاب) .

كان عنوان المقال : «العنف .. يدق أبوابكم بمنتهى العنف !!» .

قلت في المقال : «لابد وأن ننتبه ، وإن جاء انتباهنا متأخرًا ، إلى تغيير كيفي يحدث في الشخصية المصرية ، إن لم يكن - حتى الآن - هو اتصافها بالعنف .. فإنه سيقودنا إلى عنف قادم أشد هولاً .

وربطت في ذلك المقال بين تصرفات الجموع العنيفة في مظاهرات الجوع (انتفاضة يناير ١٩٧٧) ، وبين ذلك المدد الكبير من الشباب ، الذي استطاع «شكري مصطفى» أن يحصل عليه ، ليكون منه جماعته الشرسة ، ثم ربطت بينهما

(١) نفس الأمر الذي حدث لعادل حمودة منذ وقت قصير وللمجلة «روز اليوسف» أيضًا .

وظواهر عنف مرت بنا دون أن نلاحظها الملاحظة الدقيقة الواجبة (حادث الفنية العسكرية ١٩ أبريل ١٩٧٤، والذي قام به تنظيم صالح سرية المكون فقط من الشباب ومن الطلبة .. حادثة ضباط الاحتياط ، التي نتجت عن مشاجرة في ميدان العتبة ، اشتعل فيها الميدان والناس ، وتحطم فيها قسم الشرطة ، واعتُدى على ضابطه ، بل وجرت فيه محاولة ـ مبكرة لنهب «السلاحليك» ـ وهي الحادثة التي ـ ربما ـ كانت السبب وراء إصرار السادات على تجويع الشباب المدرب على السلاح ، وبعثرته في بلاد الناس ، إبعادًا له ولخطره ، الذي رأى بوادره) وبين ظواهر أخرى ، اجتماعية تتصف بالعنف .. وقلت : إن شيئًا لا يجمع هذه الظواهر كلها ، إلا بذرة العنف التي ستورق في احمرار ، وستروعنا في السنوات القادمة ، إذا ما بقي التجاهل السطوي للمشاكل الحقيقية للناس في مصر ، ولحقِّهم في المشاركة الفاعلة في تسيير أمور الوطن .

وشرحت (إن اعتمادنا السخيف ـ الذي نركن إليه دائمًا ـ على ما تعارفنا عليه بأنه «الشخصية المصرية» التي لا تميل إلى العنف .. هو تكيد لأسلوب غير علمي ، ودفن للرؤوس في الرمال .. فالعلم يؤكد أن في الإنسان طاقة عدوان، إما أن توظف في التفوق (وهو عدوان مشروع على الآخرين) أو تسعى جامحة إلى التحطيم (تحطيم الذات ، وتحطيم الآخرين) .

وقلت : إن الإنسان المصري .. لا يختلف ـ في هٰذه ـ عن أي إنسان آخر في أي زمان ومكان .. وإذا ما كانت البيئة تشارك في صنع طبيعة الإنسان ، فإن التغيرات الحادثة في البيئة ، تساهم في تغيير ما اعتدنا أن نسميه ، «طبيعة الإنسان المصري» .

وقلت : إن البيئة قد تغيرت في مصر .

الانفتاح : جاءنا بالتوحش المسعور من جانب الأقلية ، وجاءنا بعجز السواد

الأعظم عن تحقيق ما أصبح متاحًا وميسورًا ـ بدون مبرر ـ لتلك الأقلية .. جاء «بفتارينه» العريضة في المحلات، في نفس الوقت الذي تتآكل فيه قدرة السواد الأعظم الشرائية ، لقد أصبح السواد الأعظم وليس لديه الاستطاعة إلا في أن يراقب ما يحدث في بلاده .. وأن «يشاور عقله!!» ، فهناك ـ ممن هم حوله ومنه ـ من انطلقوا بسرعة الصاروخ من تحت خط الفقر إلى آفاق «المليون» ، دون سبب واضح ، دون قوة حقيقية ، إلا اقترابهم من أصحاب النفوذ.. (صغروا أصحاب النفوذ هؤلاء أو كبروا... لقد كان الاقتراب من أصحاب النفوذ يعني الاقتراب من التوكيلات الانفتاحية (أو لنقل الانفتاحية).

الحل الجمعي : يتم ضربه تحت لافتة الهجوم على جمال عبد الناصر وعصره «الانغلاقي».. بينما الحل الجمعي هو مسؤولية المجتمع عن أفراده .. أو مسؤولية الأفراد عند الأفراد.. لقد ترك الباب مفتوحًا للحل الفردي .. «أنت مسؤول عن نفسك وحدها .. خذ فرصتك بيديك» .. (والذي سيأخذ فرصته بيديه ، لو لم يجد فرصة.. فسوف يستعمل يديه في شيء آخر .. العنف) ، إن الرئيس السادات عندما أطلق «بغرض التشويه» على انتفاضة يناير ١٩٧٧ ، اسمًا هو «انتفاضة الحرامية» لم يتساءل ولم يسمح لأحد بأن يسأل.. لماذا يمد المصريون أيديهم ليلتقطوا فرصتهم سرقةً، وهم يمارسون العنف في عصره؟! .

الحكومة تتراجع : عن مسؤولياتها (عن مسؤليات كل حكومة في أي مكان من العالم) بدعوى مغلوطة يروج لها ، هي أن الحكومة لا تستطيع أن تفعل كل شيء .. (الحكومات في العالم لا تترك أي شيء .. الحكومات تنظم كل شيء .. سواء قامت به هي من مصادرها السيادية ، ومنها أموال دافعي الضرائب (يمكن القول أن عصر الرئيس السادات ، كان العصر الذهبي للتهرب الضريبي ، بل العصر الذهبي

لتصالح الحكومة مع التهرب على حساب الشعب الفقير .. والذي يتم إفقار فقرائه بمنتهى الضراوة ، ودفع الطبقة الوسطى فيه إلى أسفل ، الأمر الذي انعكس على القيم - والطبقة الوسطى خزائنها - فانهارت . وتغير وجه المجتمع الجميل إلى تلك الملامح الشائهة التي لم نعد نرى غيرها الآن .. أو قام به الأفراد (القطاع الخاص) إن الحكومة لا تخلع يدها من الأمور .. وإلا فما هو المبرر لوجود أي حكومة؟ ... على سبيل المثال فإن على الحكومة أن تضمن لشعبها رعاية صحية متكاملة .. سواء قدمتها بالمجاني ، وأنفقت من مواردها السيادية ، التي تستطيع زيادتها بالضرائب المباشرة وغير المباشرة ، على القادرين ، أو لم تقدمها مجانية . وسمحت للقطاع الخاص بأن يشارك في نسبة كبيرة من مؤسسات الرعاية الصحية ، إن الحالتين لا تنفيان دور الحكومة في ضمان وصول الخدمة الطبية إلى مستحقيها وأن تجعل الدخول قادرة ألا يحرم أحد من تلك الخدمة الضرورية مثلما تقر حقوق الإنسان .. هذا مثال يمكن القياس عليه في كل الأمور ، وإلا - فمرة أخرى - أي مبرر يجعلنا نقبل بوجود حكومة !!) .

ولقد كان من أهم الأمور التي تراجعت عنها الحكومة .. وخلعت يدها منها .. (فقد صارت عملية خلع اليد فلسفة من ذلك الوقت [1])، هو التزام أي حكومة بأن تعطي موظفيها ، وأن تضمن لغير موظفيها بالقانون ، مرتبات - مقابل أعمالهم - تفي باحتياجاتهم الحياتية الضرورية الكريمة ، وأن تقاوم بهم (بإنتاجهم) ومعهم

(١) بدأ الترويج لهذه الفلسفة الزائفة للإخوان على ومصطفى أمين - بمجرد إسقاط قضية التجسس عن الأخير ، وإطلاق سراحه ، بزعم أن حالته الصحية لا تتناسب وسجنه ، ثم حمل لواءها أفراد الكتيبة الصحفية التي كونها الإخوان - مصطفى وعلى - وآخرين، بتمويل رتبه - فيمن رتبوه - عثمان أحمد عثمان والشيخ عبد الحليم محمود ، حيث تم دفع مبالغ كبيرة في مقابل أي كتاب - غث - يكتب لتشويه الفترة الناصرية ، وقد يلاحظ القارئ - كما لاحظت - أن أغلفة تلك الكتب رسم معظمها الفنان (!) مصطفى حسين ، لقد كان هؤلاء الذين حصلوا على الثمن دعاة خلع يد الحكومة من مسؤولياتها في الصحف القومية .

(بالإشراف) الارتفاع الزائف للأسعار ، خلعت الحكومة يدها من الأمر بدعوى أن ليس لديها ما هو أكثر ، وأنها تعطي ما في يدها ، وما في إمكانياتها (الحكومة مسؤولة عن أن تفي إمكاناتها بالضروري .. المطلوب) ، وذلك في نفس الوقت ، الذي كانت تخطط فيه لانفتاح استهلاكي يقضم من الدخل القومي ولا يضيف إليه ، (لكي ينقص ما في يدها ، وما في إمكاناتها!!) ضاربة كل فرصة لاستثمار إنتاجي (بتحويل المدخرات إلى الإشباع الاستهلاكي) يوسع فرص العمل بنسبة مستقبلية مناسبة ، ويوسع أيضًا فرص العائد على العمل ، أيضًا في نفس الوقت - الذي تسمح فيه (الحكومة) لموارد آتية من قروض أثقلتنا بها دون عائد منذ عام ١٩٧٤ (وزارة د. عبد العظيم حجازي)، ولنهر موارد من منح دول النفط العربي ومن تحويلات المصريين من الخارج ، أن يختفيا في غلاء مصطنع قائم على المضاربة (لا عائد من ورائه .. فهو مجرد بيع وشراء بقيم مصطنعة) وفي جيوب البعض من الفاسدين ومن المستفيدين من أكذوبة الاستيراد «بدون تحويل عمله» ، الذي التقط العملات الحرة من منابعها - في الدول العربية من العاملين المصريين بها - وأدخلها البلد سلعًا استهلاكية بأسعار شديدة الارتفاع ، تماثل أسعارها في الأسواق العربية المفتوحة ، أسواق الوفرة التي لا ضابط ولا رابط بها ! ، ثالثًا - في نفس الوقت - الذي لا تمل فيه الحكومة عن الادعاء بضعف مواردها وبحاجتها الملحة للعملات الحرة التي لا تجد رائحتها (!!) ، تغض النظر عن المفسدين والفاسدين (حتى يصبح الواحد منهم غولاً لا يبقى ولا يذر) وتصالحهم ضريبيًا - أيضًا - على حساب مواردها السيادية !!! ، أو تصالحهم عند المدعي الاشتراكي !! .

أسلوب «العقلنة» : في التعامل مع المغرب .. وأسلوب العقلنة ، لم ولن يعني أكثر من أن نرتضي نحن بما يرتضيه الغرب ، فنحن لا نتشنج »[1]، ولا نضرب رأسنا

(١) كلمة الرئيس السادات الأثيرة ، التي كان يعتبرها فارقًا بينه وبين جمال (الله يرحمه) .

بالحائط ، ولا ننطح الصخر الأمريكي ، وهكذا نكون عاقلين ، عقلانيين ، متعقلين ، متعقلنين ، نفهم المتغيرات من حولنا كما يجب أن تُفهم !!! ، أسلوب العقلنة هذا (الذي هو رضوخ كامل) ضَرَبَ العزة الوطنية والقومية (طاقة العدوان المشروعة في مسارها الصحيح «التفوق» ، والتي لا تسمح في نفس الآن بظلم الآخر والانتقاص من حقوقه) ، ضرب العزة الوطنية في مقتل .

وقلت في المقال « ألا زلت تذكر ؟ » : « إن رد السواد الأعظم الوحيد والممكن ، على كل ما سبق ، لن يكون إلا العنف ، ذلك العنف الذي يختفي تحت أقنعة مختلفة ، والذي سوف ينفجر ـ بعد ذلك ـ مفضوحًا واضحًا » .

لم تنشر المقالة « وأنا أعذر صباح الخير ، فقد كانت حساسية الرئيس السادات ، الذي قرر وقتها التراجع عن الديمقراطية [1] ، تزداد في مواجهة كل كلمة مكتوبة ، وضد كل من يسمح بنشرها ، كان السادات وقتها ـ بعد انتفاضة يناير ١٩٧٧ ــ قد كشر ـ تمامًا ـ عن أنياب ديمقراطيته ! » .

وهكذا وئدت «البداية الحقيقية» لهذا الكتاب ، وتأجلت عشرين سنة كاملة !

■ ■ ■

والحقيقة أن تلك البداية الموؤدة لهذا الكتاب ، دشنت قصته .

ألم نقل منذ البدء أن كانت للكتاب بداية حقيقية ، وبداية فعلية ، وقصة الآن جاء دور القصة .

منذ حُجب المقال عن النشر ، لم يعد لي هم ، إلا تعميق تلك الفكرة التي احتواها ، والتي تؤكد أن بديل الديمقراطية « المشاركة الحقيقية الفعالة في تسيير أمور الوطن »

---

(١) راجع « حريف الغضب » لمحمد حسنين هيكل ، و« مذكرات صلاح حافظ » مايسترو الصحافة المصرية ، لرشاد كامل .

عنف .

وإن بديل العدل الاجتماعي ... عنف !!

وبديل العزة الوطنية والقومية ... عنف .

وأن للعنف مظاهر لا تتم دراستها ولا الانتباه إليها ، وأن الحكومة لا تركز تفكيرها ، وقدراتها إلا على العنف السياسي الذي يطول لحمها ـ هي الحي ، أما المصري ، وقيمه ، ومستقبله، فموضوع لا يخطر على الأذهان !!

ورحت أجمع مادة الكتاب .

■ ■ ■

كان السادات وقتها قد أسكت الصحف القومية ، وراح يتوعد الأحزاب وصحفها المعارضة ـ علنًا ـ متهمًا ما تكتبه بأنه « تجاوز وبذاءات » ، مهددًا بأن للديمقراطية أسنان ، وأنياب .

لقد أرادها هي الأخرى ـ الأحزاب وصحفها ـ أن تسكت .

أما هو فلم يسكت .

كان قدره ـ وقتها ـ يقوده إلى نهايته .

كان في ورطة شديدة الغور ـ في عام ١٩٧٧ ـ أوصل نفسه ، وأوصلنا إليها ، بسياسته التي يحلو للبعض أن يصفها بالعبقرية !!

وكانت ورطته شديدة الغور تعبر عن نفسها داخليًا وخارجيًا .

داخليًا ، لم يكن يستطيع التراجع أو العمل لصالح الجموع الغفيرة ، تلك الجموع الغفيرة « السواد الأعظم »، التي روعته في يناير ١٩٧٧ ، وأرته نهايته ، قبل النهاية الفعلية بأربعة أعوام ، وشهور تسعة « تقل قليلًا » ، كان التراجع يعني أن يتخلى عن

الطبقة الانفتاحية « المسعورة » ، التي أفرزها عصره ، والتي أنشبت أظافرها في كل شيء من حوله ، حتى أصبحت « فعليًا ، وثقافيًا بممارسة الردح الإعلامي ضد مهاجميه » هي التي تحميه ، فضلًا عن أن أحلامه وأحلام أسرته الصغيرة والكبيرة ، كانت ضمن أحلام تلك الطبقة ، لقد تصور السادات أن عليه أن يرسخ قواعد تلك الطبقة السعرانة ! كي تترسخ قواعد حكمه ، غير هذا ، كانت صورته أيضًا لدى الغرب وأمريكا بالذات « التي لم تحم أحدًا من أنصارها من قبل » على أنه المؤيد للرأسمالية ، تلك الصورة التي كانت تهم طموحاته كثيرًا ، ستهتز إذا ما تراجع ، أيضًا صورته في مرآته هو ، التي رسمها لنفسه ـ خطأ ـ على أنه آخر الفراعين ـ المؤمن ... الملهم ، و... كانت سترتج ، ولم يكن السادات مستعدًا لاهتزاز صورته لدى طبقته ، ولدى الغرب ، أو في مرآته الخاصة .

سبب آخر مهم كان يمنع السادات من التراجع ، هو : أن الاتجاهات الدينية التي لم يتوان السادات عن النفخ في قدراتها « كانت هناك اتجاهات دينية أخرى يعتبرها السادات من أعداء نظامه ، أو من أنصار العدالة الاجتماعية ووصف أعضائها فيما بعد بأنهم شيوعيون أطالوا لحاهم » إذ رآها ـ الاتجاهات الدينية التي كانت يؤيدها وتؤيده ـ حليفة طبقته الجديدة الوحيدة ، في مواجهة اليسار « من الشيوعيين الناصريين الذين راح يضربهم بعنف ، بعد أن حمّلهم آثام انتفاضة الحرامية في يناير ١٩٧٧ والتي كانت بحق انتفاضة ضد الحرامية وفي مواجهتهم » .

وراح يصفهم بأنهم : « المتاجرون بآلام الشعب » كانت تلك الاتجاهات الدينية لن تقبل تراجعَهُ ، فقد كانت ضد أي صيغة ـ ولو مهتزة ـ للاشتراكية ، لقد كانت تلك الاتجاهات في حقيقة أمرها ـ تستخدم الفقراء لتحقيق مصالح طبقية ، رأسمالية ، بدعوى أن الاشتراكية ـ بهتانًا ـ هي الإلحاد ، وهي الوقوف ـ افتراء ـ ضد سنن الله

في عباده ، وأن الزكاة ـ قصورًا ـ هي المشروع الاقتصادي الإسلامي ، القادر على حل مشاكل الفقراء ، وأن الإسلام ـ ظلما ـ دين التكافل الاجتماعي « فدعونا من العدل وسيرته ، التكافل أحسن » !!

وهكذا ظن السادات أن تراجعه يعني انقلاب كل حلفائه ـ في الداخل والخارج ـ عليه .

خارجيًا ، كان السادات في ورطة رهيبة ، فهو من باب « العقلنة » وعدم التشنج « اللذين يعنيان ارتضاء ما يرتضيه الغرب لنا » كان قد ضحى بالاتحاد السوفيتي ـ وقتها ـ كمصدر رئيسي لتسليح قواته المسلحة ، « ظانًا ـ وبعض الظن إثم ـ أن الغرب سيسلحه » ، وكان قد انغمس حتى أذنيه في متاهة فض الاشتباك ، على مراحل ، مع العدو الصهيوني ، برعاية الولايات المتحدة الأمريكية ، الأمر الذي كان يتعثر تعثرًا مخزيًا ، لقد بات واضحًا أن مصر التي انتقلت من صفر الهزيمة وتحطيم أداتها العسكرية بالكامل ، إلى الفعل الأكتوبري المبهر « بكل المقاييس » في ست سنوات « كان من الممكن أن يقلوا عن ست » ، مصر هذه ـ التي خرجت من الحرب منتصرة « رغم أنف المتعقلين » تتعثر أربعة أعوام ـ كاملة ـ في طريق فض الاشتباك الوعر ، الذي صمم السادات - استراتيجيًا وإرضاء للغرب ـ على أن يخوضه ، وها هو ذا في ١٩٧٧ لا يرى له نهاية ، وها هو ذا يرى وقد ضحى بمصادر تسليحه « لقد كانت التضحية بالاتحاد السوفيتي كمصدر للتسليح خطيئة كبرى ، فقد كان الاتحاد السوفيتي منذ النصف الثاني من السبعينات ، مستعدًا لبيع أي شيء ، ولا أظن أن الهند النووية ، والباكستان النووية إلا نتاجًا لاقتناص تلك الفرصة » ، ها هو يرى وقد ضحى بمصادر تسليحه أن التوازن التسليحي الذي اختل في معارك أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة لصالح مصر « خرجنا من الحرب والميزان العسكري

يتراوح في الطيران بين (٣: ١) لصالح مصر، وفي الدبابات (٤: ١) لصالح مصر، ناهيك عن المدد البشري الضخم في مصر» قد تم تعويضه كاملًا لصالح إسرائيل، في الفترة من (٧٣ إلى ١٩٧٧) [١]، وأن الأمريكيين الذي لا يكيلون أبدًا بمكيال واحد مصممين على تدعيم التفوق التسليحي لإسرائيل، وأن يكون الميزان ثقيلًا في كفتها إذا وزنت مع كفة العرب مجتمعين« وبالطبع لم تكن طبقته الانفتاحية وحلفاؤها من الاتجاهات الدينية، يقبلون عودته للاتحاد السوفيتي، ولو كمصدر تسليح، فضلًا عن أنه كان قد قطع كل الجسور بينه وبين الروس».

كانت تلك ورطة السادات داخليًا وخارجيًا «التي أوصل نفسه وأوصلنا إليها بسياسته» ونتيجة لتلك الورطة، كان على السادات العاقل، المتعقلن أن يأتي بأفعال لم يكن من الممكن أن تتصف بالعقل.

في مواجهة اليسار «المغامر، المتاجر بآلام الجماهير» راح يتاجر هو بالرخاء العميم القادم «بينما سياساته تبشر بتركيز الثورة في أيدي القلة من البعض، وسحق الجماهير العريضة».

وفي مواجهة العنف الشعبي المتصاعد، راح يعد مسارًا تسريبيًا لعنف هو «الفتنة الطائفية» «راجع تصريحات السادات عن ضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية على كل المصريين، وتصريحاته ضد البابا والمسيحيين [٢]، ووصول الأمر إلى ذروته بعزل البابا الذي التجأ إلى دير وادي النطرون».

في مواجهة فشله سياسيًا في تحقيق النتائج التي أسفرت عنها حرب أكتوبر الخالدة التي قلبت نظرية الأمن الإسرائيلية رأسًا على عقب ـ حقًا وصدقًا ـ راح

(١) راجع أمين هويدي، الفرصة الضائعة.

(٢) اتهم المسيحيين بأنهم يحاربون القوى العربية والوطنية في لبنان.

يعد للصلح مع إسرائيل ، وإلى نزوله السينمائي في مطار تل أبيب « التعبير لجولدا مائير » ، ووقوفه في الكنيست الإسرائيلي يخطب السلام ، وفوق رأسه حفر غائر على الحائط يقول : إن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، زاعمًا - وبعض الزعم إثم - أن المشكلة لا تزيد عن كونها مجرد حاجز نفسي بين العرب وإسرائيل ، بينما بيجن يتكلم عن يهودا والسامرة مملكتي إسرائيل اللتين أقامهما داوود المحارب « صاحب النجمة السداسية » المملكتين اللتين تلتهمان مزيدًا من الأرض العربية، غير ما تسيطر عليه إسرائيل الآن بالفعل .

اضطر السادات العبقري (!!) إلى تلك الأمور الثلاثة ، وكان في تلك الأمور الثلاثة مقتله .

لقد تصرف وبوحي عبقريته « التي روح لها أنصاره وجوقته الإعلامية » مضطرًا فقتلته اضطراراته ، وقتلته العبقرية المزعومة .

كان الرخاء الذي لم يأت ، عاملًا مؤثرًا في مقتله .

وكانت الفتنة الطائفية عاملًا .

وكان صلحه مع إسرائيل قشة ضربت ظهر البعير فقسمته .

اتهم المسيحيين بأنهم يحاربون القوى العروبية والوطنية في لبنان .

لقد كان القدر يعد لعبقرية السادات منذ بداية العام ١٩٧٧ إلى نهاية السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، ضربات ستقود البطل التراجيدي إلى حتفه المقدور .

فالسادات الذي فرح بتحطيم حركة الصغار « الطلاب » واليساريين « شيوعيين وناصريين » ، تلك التي واراها وراء قضبان ثخينة ، من التشويه ، والقمع ، والتهديد ، واستعداء التيارات الدينية الموالية لطبقته الحاكمة عليها ، ووارى زعماءها في زنازين مقفلة ، السادات الذي فرح بذلك ، طلعت له حركة معارضة

من الكبار « المعتدلين » تحت قبة البرلمان « نجومها الأستاذ محمود القاضي ، والأستاذ ممتاز نصار ، والدكتور محمد حلمي مراد ، والأستاذ علوي حافظ ، والأستاذ عادل عيد ، وآخرون » كانت محمية بالحصانة التي لم تكن للصغار ولليساريين ، ولقد رأى السادات من تلك المعارضة ، التي حل مجلس الشعب ، وزور انتخابات البديل الجديد ، ليتخلص منها بعد زيارته لتل أبيب « لم يستطع التخلص من الأستاذ ممتاز نصار ، فقد وقف أنصاره في البداري التابعة لأسيوط بالسلاح « العنف » في مواجهة التزوير بالعنف » .

رأى السادات من تلك المعارضة هولًا ، إذ تركزت ضد الفساد الذي استشرى في عصره ، والعمولات « التي لم يبرأ هو منها » ، وضد معاهدة الصلح مع إسرائيل ، وضد عدوانه السافر على الديمقراطية ، وقوانينه العجيبة ، من نوع « قانون العيب » و«حماية الوحدة الوطنية» ، التي هندسها الأستاذ أنور أبو سحلى ، الذي بدأ بمصادرة صحف المعارضة (الأهالي) في كرسي القضاء ، وانتهى مفصلًا للقوانين ، القائلة للحريات في مقعد الوزارة « وزارة العدل » رأى السادات من رموز المعارضة هؤلاء ما لم يكن يحب أن يراه ، أو يتصور أنه سيراه ، خصوصًا عندما انضمت لهم النقابات « وأبرزها نقابة المحامين في ذلك الوقت » .

والسادات الذي عمد إلى تسريب العنف في متاهات الفتنة الطائفية ، وراح ينفخ مزيدًا من القوة في صدور الاتجاهات الدينية المناوئة لليسار في الجامعة حتى سيطروا على عدد ضخم من اتحادات الطلاب بعد أن خلت الساحة لهم « في ديسمبر ١٩٧٧ » ، وفي صعيد مصر « حيث الأقباط الأثرياء » ، متمركزين بحركتهم حول أسيوط الجامعة تحت رعاية منشئهم ، وراعيهم محمد عثمان إسماعيل « ولقد وصل الأمر بالسادات في ١٥ مايو ١٩٨٠ ، إلى أن يتهم الأقباط المصريين ـ علنًا ـ بأنهم يحاربون

في صفوف الميلشيات المارونية في لبنان ، بالطبع ضد العروبة ، والإسلام ، وأن يتهم البابا شنودة الثالث نفسه بأنه يسعى إلى إنشاء دولة للأقباط في صعيد مصر وأنه يرتب لأن يتخذ أسيوط عاصمة لها » ، السادات الذي فعل كل ذلك « وأكثر » لتهييج الفتنة الطائفية ، وجد نفسه في « حيص بيص » ، مع الغول الذي صنعه « الجماعات الدينية والتيارات الإسلامية الموالية له » عندما قرر أن يستضيف الشاه المخلوع بثورة إسلامية في إيران (ربما ليقول لأمريكا : لا يصح أن تخلعي يدك هكذا من أنصارك) ، بل وعندما أراد أن يواجه البابا شنودة ، فقال : « لا سياسة في الدين ، ولا دين في السياسة » ، فاعتبرها الأنصار موجهة لهم أيضًا ، وأيضًا حين سعى للصلح مع إسرائيل « اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للمؤمنين » .

ولوجه الحقيقة وللتاريخ [1] ، فإن السادات لم يفهم الجماعات الإسلامية في مصر ، أما هم فقد تصوروا أنهم فهموه ، كان السادات ينظر إليهم على أنهم « أداة » يستطيع ـ بل يسهل ـ عليه استخدامها « هذه النظرة اكتسبها قبل الثورة في علاقته بالإخوان المسلمين ، وبعد الثورة كممثل لمصر في المؤتمرات الإسلامية ، ومن علاقته بكمال أدهم ، صهر الملك فيصل ، ومن علاقته بعثمان أحمد عثمان الذي أجاد اللعب على ذلك الوتر الديني خارج مصر في عهد عبد الناصر ، وفي داخلها في عصر صهره وصديقه ورفيقه أنور السادات » وكانوا ــ الجماعات الإسلامية ــ هم ينظرون إليه على أنه فرصتهم التاريخية ، أما الحقيقة فكانت عكس تصورات الطرفين .

للحقيقة ، لم تكن التيارات الدينية أداة في يد السادات يسهل استخدامها ، فالتيارات الدينية في مصر لم تكن في أي وقت من الأوقات كمًا متجانسًا ، ففضلًا عن أن التيارات الدينية الناشئة بعد نكسة ١٩٦٧ ، كانت تختلف كيفًا عن سابقاتها

(١) لي كتاب عن « العنف القادم في مصر » سيصدر قريبًا وسيوضح الصورة .

اللاتي نشأت قبل ٦٧ ، وكان منشأ الاختلاف ، أن التيارات الإسلامية قبل ٦٧ فرحت بالنكسة ، إذا كانت دليلًا على فشل النظام الذي كانت تواجهه « تذكر قول الشيخ الشعراوي : لقد سجدت لله شكرًا على نكسة ٦٧ » ، وكانت تؤذن ــ النكسة ــ بنهاية الجبار « جمال عبد الناصر » الذي روعهم في معتقلاته الرهيبة ، « انظر البوابة السوداء ، أحمد رائف ، الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٥ » ، أما التيارات الجديدة « بعد النكسة » فقد نشأت في مواجهة النكسة وضد الهيمنة الغربية بمحاولة الاستعلاء العرقي والديني عليها ، صحيح أن الاثنتين « تيارات ما قبل النكسة والتيارات بعدها » قد استخدموا النكسة في مواجهة النظام ، لكن الفارق يكمن بين من فرح بها ، وكان يفكر أمميًا، وله تراث في استخدام علاقاته بالغرب ، وفي استعدائه أيضًا على مناوئيه في الداخل ، وبين من أغضبته النكسة ففكر وطنيًا « أتكلم هنا عن التيارات الإسلامية حتى مقتل السادات ، وليس عن التيارات الأحدث بعد ١٩٨٤ » ، وصحيح أيضًا أن الأمميين والوطنيين « لا أنفي صفة الوطنية عن الأمميين ـ أتكلم هنا عن أسلوب تفكير لبعض الجماعات » كانوا يرون في السادات فرصتهم التاريخية ، لكن الأمميين كانوا أكثر استعدادًا للمهادنة ، إن لم يكن للقبول به ، « وصحيح أيضًا أن كل التيارات الإسلامية ، أممية ووطنية ، كانت ضد الصلح مع إسرائيل من موقف ديني » ، والسادات عندما صنع تيارًا دينيًا إرهابيًا يساند سلطته ، لم ينظر إلى وجود تيارات دينية تخالفه نظرة فيها تعمق ، ولم ينظر أيضًا إلى أن محاولاته في ضربها لاستحداث تياره الديني الخاص ، لن تمر بسهولة ، ولهذا بقيت التيارات الدينية المعارضة للسادات تحت الأرض مستفيدة في حركتها من حركة « السماح » الواسعة التي أولاها السادات لتياره الخاص .

وعندما اختلف السادات مع التيارات الدينية كلها حين قال : « لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة » ، اختفى التيار المصنوع « وهذه طبيعة الانتهازية فيمن

يتم صنعهم » وانشقت الأرض عن التيارات المعادية له ، في وقت كانت التيارات الدينية الأممية « الإخوان المسلمون ومن خرجوا من عباءتهم ، وليس من خرجوا عليهم كصالح سرية وشكري مصطفى » يمسكون بالعصا من منتصفها ، ألسنتهم ضد الخوارج وقلوبهم معهم .

ذلك التقسيم « بين غير المتجانسين » لم يفهمه السادات ، وأيضًا لم ينتبه إليه المحللون الذين يتكلمون عن التيارات الدينية « ككم متجانس ، وتيار واحد صنعه السادات ثم انقلب كل منهما على الآخر » .

هكذا بدت وقائع ثلاث مستعصية على التفسير ، ضمن كثير غيرها ، « وقد حدث خلل كبير في تفسيرها » .

الواقعة الأولى : حدثت بينما كان القاضي يعلن بإعدام شكري مصطفى عام ١٩٧٨ .

الواقعة الثانية : حدثت في جامع صلاح الدين عند كوبري الجامعة عام ١٩٨٠ .

الواقعة الثالثة : حدثت والرصاص ينهمر على أنور السادات في المنصة عام ١٩٨١ .

كان شكري مصطفى « أثناء إلقاء القاضي الحكم بإعدامه » يغلوش صائحًا : « يا عملاء الصهيونية ، يا أصدقاء بيجن وشامير ، يا عبيد الأمريكان » ، ولم يذكر غضبته الدينية في « غلوشته » « ولا مجال للظن ـ طبعًا ـ بأنه كان ، يريد أن يؤلب الناس ضدهم بما يكرهه الناس لا بما يكرهه هو ، لقد كان يعلم أنه مشنوق ، وكان يعلم أن الجلسة سرية ، ثم إنه لو كان يريد أن يؤلب الناس على شانقيه ، لاختار أن يؤلبهم بالدين » .

الواقعة الثانية : حدثت عندما أرادت الجماعات الدينية بالجامعة « وعلى رأسها الجماعة الإسلامية » أن تقيم معسكرًا داخل حرم جامعة القاهرة (١٩٨٠) ، ورفض التصريح لها ، فصممت على إقامته دون تصريح ، فواجهتهم قوات الشرطة

واقتحمت الجامعة، وأخرجتهم منها « الناس تتصور أن السادات اقتحم الجامعة مرة واحدة في يناير ١٩٧٢ » ، فاندفعوا إلى جامع صلاح الدين عند نهاية كوبري الجامعة أو بدايته القريبة من قصر العيني واحتلوه ، وفتحوا مكبرات الصوت فيه ، وهاجموا الفساد ، والصلح مع إسرائيل ، و« التتار الجدد » الذين يتظاهرون بالإسلام ، بينما أفعالهم بعيدة عن تعاليمه « إذن لم يكن الأمر أمر دين فقط، لكن التدين كان تعبيرًا عن غضبة سياسية عارمة » .

الواقعة الثالثة : حدثت أثناء تنفيذ اغتيال الرئيس السادات ، إذ تصايح الذين هاجموه ليقتلوه : « تحيا مصر » ، وكانوا أعضاء في تنظيم الجهاد ، « حدث هذا بينما المصريون جميعًا مسلمين وأقباط ، كانوا يصيحون : « الله أكبر » ، في لحظة العبور العظيم » .

هذه الأحداث الثلاثة ، تظهر أن تيارات ما بعد ١٩٦٧ الدينية ، قد اختلطت لديها الوطنية، التي سفح دمها على رمال سيناء ١٩٦٧ ، وفي محادثات فض الاشتباك على مراحل الرضاء ، والمتعقلن بما يريده للغرب لنا ومنا ، والصلح مع إسرائيل ، مع محاولة الاستعلاء العرقي والديني على الغرب واليهود المهيمنين علينا رغم قدرتنا عليهم التي أظهرتها معارك أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ « استعلاء تعويضيًا ، في مواجهة الانسحاق القومي الذي جاءت به الهزيمة الشنعاء ، والعقلنة الانهزامية ، وللأسف الشديد إن أحدًا لم يتتبع ولا يريد أن ينتبه إلى القضية القومية والقضية الاجتماعية لهؤلاء الذين اتخذوا الاستعلاء العرقي ـ الديني ـ وسيلة لمجابهة سلطة غاشمة كانت دومًا « أسدًا علينا وفي الحروب نعامة »، برغم دمائنا المسفوحة المنتصرة في مواجهاتنا مع الغرب « وضمن الغرب اشكيناز إسرائيل وهم اليهود الغربيون » ، مستندين على « الله » الذي لا يمكن أن يخذلهم مثلما خذلهم قادة ثورة يوليو ١٩٥٢ ، في مرحلتها الثورية والتراجعية » .

وهكذا أضاعت القوى الوطنية فرصة عظيمة للتحالف والوفاق من أجل انتصار قضايا مشتركة ، وعلى رأس تلك القوى الوطنية التي أضاعت الفرصة تلك الجماعات الإسلامية الوطنية نفسها ، ذلك أن قياداتها كانت في أغلبها مخدوعة بالسلطة المشتهاة لرجل الدين .

المهم الآن ... اختلف السادات مع حلفائه في الاتجاهات الدينية ، فقويت شوكة غير المؤيدين لسياساته من هذه الاتجاهات ، وتسيدوا الساحة ، بعد أن مهد « هو » لهم الأرضية بنفسه ، وعندما صمم على تأديبهم واجهوه ، ولما اشتموا رائحة رغبته في القضاء عليهم قتلوه .

لقد قتل الرئيس السادات ، وكل الاتجاهات في مصر تعارضه « عدا طبقته الانفتاحية الشرسة التي لم ينفعه ردحها الإعلامي » من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار .

وفي تلك اللحظة كان العنف قد استفرد بالصورة واضحًا جليًا بلا أقنعة ولا تزويق .

■ ■ ■

بمقتل السادات واستفراد العنف بالصورة ، كانت مرحلة أخرى من قصة هذا الكتاب على وشك أن تبدأ .

كنت قد نشرت قصيدة عامية في «صباح الخير » («حملها إليهم شاعر مصر العظيم فؤاد حداد الذي شرفت بصداقته في سني حياته الأخيرة ، وهي سني مجده الشعري الطاغي الذي لن يموت ») بعدها طلب الأستاذ لويس جريس « الذي أدين له بفضل كبير وأكن له احترامًا أكبر » أن يقابلني ، كانت القصيدة قد نشرت في عدد صباح الخير الذي صدر يوم الثلاثاء ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، يوم مقتل السادات ، « كانت صباح الخير ، منذ تولى رئاسة تحريرها الأستاذ لويس جريس، تصدر يوم

الثلاثاء بدلًا من الخميس ، وإن ظلت تحمل تاريخ الأخير ، تجنبًا للخميس الذي تتكاثر فيه المجلات الصادرة المنافسة » .

ذهبت للأستاذ لويس في مكتبه لأتعرف عليه « لم يمنعني قتل السادات والاضطراب القائم بعد الحادثة أن أذهب ، بل وأعترف بأنني ذهبت متحينًا فرصة الاضطراب لغرض في نفس يعقوب » ، وعندما قابلني الأستاذ لويس مقابلة تليق بأخلاقه الرفيعة الرقيقة ، تشجعت وفتحت معه موضوع العنف ، وموضوع تلك المقالة التي ذهبت بها إلى صباح الخير عام ١٩٧٧ ، ولم تنشر « وكان من المفترض أن تكون البداية الحقيقية لهذا الكتاب » وقلت للأستاذ لويس : إن تلك المقالة كانت تحذر مما نحن بصدده الآن .

ابتسم الأستاذ لويس ، وبعد تفكير قال :

أظن أننا الآن نستطيع أن ننشر هذا الكلام .

لحظتها بدأت كتابة المقال الثاني ، وذهبت إلى « صباح الخير » ، ليكون عليَّ أن أنتظر أكثر من شهر حتى أراه في المجلة « فهمت من الأستاذ لويس وقتها أن فترة التأخير تلك ، كان يتم فيها تبادل الآراء ، مداولة بينه وبين الأستاذ المرحوم صلاح حافظ ، عن تحين الفرصة الملائمة لنشر المقال » .

صدر المقال بعنوان « على غلاف العدد ١٣٥٣ الصادر بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٨١ » جامعي يكشف حقيقة الإرهاب : الكبار مسؤولون عن غرس الإرهاب بين الطلبة ، وكان العنوان الداخلي على الصفحة السابعة « المقال نشر في الصفحات ٧ ـ ١٣ » « شاب مصري يقلب المائدة : الإرهاب مسؤولية الكبار » ، وبمقدمة كتبها الأستاذ لويس جريس تسببت في رعبي وفي « موقف شديد الغرابة » .

كتب الأستاذ لويس جريس في المقدمة :

« قرر شاب مصري أن يقلب المائدة ، أزعجه اتهام الشباب بالمسؤولية عن حركات الإرهاب الديني، « ثم خل بالك من هذه » التي كان عضوًا فيها « كتب الأستاذ لويس هذا في وقت كان يقبض فيه على من تكاسل عن حلاقة لحيته في الصباح » بينما الحقيقة أن الكبار كانوا وراءها » .

الحقيقة أن انزعاجًا « بل رعبًا » شديدًا أصابني من جراء « الذي كان عضوًا فيها » هذه « والذي دخل المعتقلات والسجون ، يعرف خطورة ما يحدث لواحد لا ينتمي للاتجاه وفصائله المنظمة ، وغير معروف لأحد منهم ، عندما يجدونه بينهم في السجن » .

في الصباح وجدني الأستاذ لويس جريس أدخل عليه ، ولابد أن وجهي كان مصطبغًا بما هو في داخلي ، فهو ما أن رآني داخلًا ، حتى انتابته موجة ضحك طويلة مقهقهة ، وقال دون أن أنبس بكلمة :

ما تخافش يا سيدي ، احنا كتبنا إنك عضو في الجماعات الدينية الإرهابية ، بس المباحث صححت لنا المعلومة ، وقالت لنا : المذكور شيوعي .

وهكذا تأرجحت في ليلة واحدة وصباحها بين أقصى اليمين وأقصى اليسار .

والحقيقة أن تلك الأرجحة ، كان لها ما يبررها .

افهمني ـ وقتها ـ الأستاذ جريس « بدماثته المعروفة » ، إن المداولات التي طال أمدها وسبقت نشر المقال ، قد استقرت على تنفيذ نصيحة قدمها الأستاذ صلاح حافظ بأن المبرر الوحيد الممكن لنشر مثل تلك المقالة ، هو نشر تلك المقدمة « بالجزء الذي أوردته من قبل » لكي يجيء ـ في المقدمة ـ ما يلي :

« وفي رسالة بالغة الصراحة ، طلب الشاب من صباح الخير أن تنشر شهادته ، وقد لا تؤيد صباح الخير « هنا مربط الفرس » كثيرًا من وجهات نظره ، ولكن

الوقائع التي يستند إليها لا يمكن إغفالها ، خاصة وهي منشورة ومعلنة على الملأ وتحت نفس العنوان ـ أسرار الحركة الطلابية [1] .

وضحك الأستاذ لويس جريس مردفًا :

لم يكن من الممكن أن نقول : إليكم شيوعي يدافع عن الاتجاهات الدينية ، أو إليكم كاتب محايد يدافع عن القتلة ويتهم القتيل ، الذي هو رئيس الجمهورية !!

ثم اكتست ملامح الأستاذ لويس بالجدية وقال :

الممكن الوحيد ، كان أن نصور الأمر على أننا ننشر آراءهم ، وعلى لسانهم لكي نبرر النشر ، فآراؤهم ليست آراءنا بالتأكيد .

والحقيقة أنني لم أكن شيوعيًا يدافع عن الاتجاهات الدينية « برغم أن الأستاذ لويس أكد لي في هذه الجلسة ، بحسه الصحفي الذي يستشرف ما سيكون ، أن المحامين لن يجدوا شيئًا أكثر من كلماتي ، ومن منهجي ، ليدافعوا به عن قتلة السادات ، وقد حدث ما توقعه الأستاذ » .

والحقيقة أيضًا ، أنني لم أكن كاتبًا محايدًا يدافع عن القتلة ويتهم القتيل .

الحقيقة ، كل الحقيقة ، أنني كنت كاتبًا يتهم القتيل .

لقد كنت أتهم السادات بشيء أكبر بكثير من كونه تسبب في مقتله .

ولابد الآن أن أقتبس أجزاء من المقال ، لعل هذه الأجزاء توضح ما كنت أرمي إليه ، قلت في المقال :

---

(١) كان ضمن ما اعتمدت عليه للمقالة ، كتاب المهندس وائل عثمان من أقطاب الاتجاه الديني في جامعة القاهرة شباب الإسلام في الأعوام (٦٨ ، ٧٤) ، وهو كتاب أسرار الحركة الطلابية ، القاهرة ١٩٧٦ ، وقد تميز كاتبه بالصدق الشديد فيما أورده ، وفي شرح وجهة نظره المعارضة للشيوعيين الذين رآهم يسيطرون على الحركة .

« لم يعد على السطح الآن إلا غول الإرهاب البشع ، وقد أصبحت القضية الآتية ، هي محاربة هذا الإرهاب ، هذا الغول ، والقضاء عليه تحقيقًا للأمن » .

« وأخاف أن نقضي على طليعة إرهابية ، وبلا رغبة نحول البعض منهم إلى شهداء ، ينسى لهم من يجيئون يعدهم كل شيء إلا الانبهار بالشهادة ، ولا يرون فيهم إلا الهالة التي تحيط بالشهداء والنور الذي يتضوع منهم ».

[أظن أن تلك النبوءة قد تحققت] . وقلت :

لا نستطيع الآن أن نجزم بأن « العنف فوق المنصة » سوف يكون آخر محطات القطار المخيف ، قد تكون محطات أخرى في انتظارنا ، وفيها هول تقشعر منه أبدان وتتخبط في دمائها منه أبدان ،

[وأظن أيضًا أن تلك المخاوف قد تحققت].

قلت أيضًا :

« إن فلذات أكباد تضيع ، فلذات أكباد تتحول ملامحهم الرائعة البهية ، إلى ملامح قاسية ، تضمر الشر ، فلذات أكباد نكرههم وكانوا جديرين بالحب ، لولا أن شاهت ملامحهم الجميلة ، نكرههم ، لكن حسرتنا عليهم تبقى أكبر بكثير من كراهيتنا لهم ، إنهم ـ من قبل ومن بعد ـ فلذات أكباد .

« وآه كم ضاع من فلذات أكبادنا بعد ذلك » .

وقلت :

« إن رحلة طويلة قضاها الشباب المصري في دروب الضياع « والقطار الذي يروعنا ليس قطار العنف ، إنه قطار ــ الضياع ، يعبر عن غضبه بالعنف » رحلة كانت نكسة ٦٧ أولى خطواتها » .

وأوضحت « في المقال » أن بنكسة ٦٧ ضاع الحلم ، وقد كان على المجتمع أن

يتغير إلى الأفضل لكي يعيد ما ضاع ، أو يضيع المجتمع في متاهات العنف ويقع في براثنه ، من أجل هذا طالب جيلنا بالتغيير ، وعندما لم تبد في الأفق ملامح التغيير المطلوب ، خلع الشباب ثوب الانتظار ، وارتدى ثوب الغضب ، وللحق لم يكن غضبه عشوائيًا ، كان دعوة للتغيير ، التغيير إلى الأفضل ، وكان ـ الغضب ـ دعوة لمشاركة « بل فرضها لها » يريدها الشباب بالديمقراطية ، وحرية الرأي وحرية الصحافة ، وحرية وجود تنظيماته المستقلة ، في تسيير أمور بلاده ، حتى لا يفاجأ بأن أحدًا أضاع البلاد ، وأن السلطة عندما حرمت الشباب من المشاركة « ليست المشاركة ثوب الغضب » .

وتساءلت : ماذا تريدون من شباب « يطالب ... يضيع صوته ، يشارك ، لا يجد مكانًا ... أكثر من هذا يشوه ويدان دون ذنب جناه ؟ » ، وقلت : « إننا نتساءل الآن ، لماذا شوهوا الصوت البريء ؟ لماذا دفعوه دفعًا إلى المعارضة الغاضبة ؟ ولماذا يفزع المشوهون « بكسر الواو » من وجه الغول المخيف وكفيه الداميتين ، ألم يكونوا يعلمون أنهم يخلقونه ؟ » .

كنت أقصد « وقد وضحت قصدي ذلك » بالغضب ، وبالمعارضة بالغضب ، حركة الطلاب الصاخبة من (٦٨- ١٩٧٧) .

ثم عرضت لكتاب المهندس وائل عثمان ، أحد زعماء الاتجاه الديني الشريف « وأشد الناس عداوة للتيار الذي أنتمى إليه » ، لأوضح وأنا أحلل كلماته الصادقة ، كيف عمل السادات على تكوين جماعات دينية عنيفة بغرض القضاء على الشيوعيين « كانت تلك هي المرة الأولى التي يعلن فيها ذلك الأمر » ، وكيف توصل الكاتب الشريف إلى ما يكمن وراء الستار قائلًا : « أدركنا أن هناك مَن يعمل على ضرب الشيوعيين وشباب الإسلام « الجماعة الشريفة الدينية في الجامعة التي كان ينتمي

إليها » ، في نفس الوقت ، وأن التعليمات كانت تصدر لهذه المجموعة « التي ترفع شعارات دينية وتستخدم العنف والمطاوي ضد خصوم السادات اليساريين » ، من مكتب أمين التنظيم في الاتحاد الاشتراكي محمد عثمان إسماعيل .

ثم قلت : إن حرب ٧٣ هدأتنا ، لكن بعدها المشاكل لم تحل ، تزايدت ، الزواج أصبح مستحيلًا ، التعليم لا يجلب شيئًا من همه ، فئات طفيلية تكون ثروات خيالية يظهرون للشباب أن الفهلوة أجدى ، ومن يرفض الفهلوة فلينعزل ، وليغتظ ، وليتجه به غضبه إلى العنف .

وقلت مدينًا السادات ، وخلقه أو 'ختلاقه ، لجماعات الإرهاب المتخفية في مسوح الدين ، على حساب جماعات دينية شريفة وطنية تعارضه ، الأمر الذي هيأ الأرض لمعارضيه المتسمين بالعنف ، والذين كان خطابهم ، نفس خطاب الجماعات المصطنعة ، فلم يفطن لهم بينهم ، قلت « فوجئنا بهم ، وقد طالت لحاهم ، يشبهون الشيوعيين « كل من يعارض السادات شيوعي وعميل في نظره » ، ويقولون نفس كلامهم « يعارضون الفقر ، والفساد ، والفشل الإداري المعهود في حل مشاكل الناس ، والاستسلام للغرب بدعوى العقل والعقلانية ، والصلح مع إسرائيل » فقال السادات : « إن الشيوعيين تخفوا داخلهم « وكان هذا أغرب تحليل للأمر تفتقت عنه عبقرية السادات ورددته جوقته من محترفي الردح الإعلامي ، ألم نقل إن السادات لم يفهم » وتساءل البعض كيف اجتمع الشامي والمغربي ؟

وقلت عن تلك الجماعات : قيل لهم أنتم المخلِّصون ، واقتنعوا ، ولأنهم كانوا يلبسون ملابس فضفاضة ، كانوا يُستفزون من كل من يرى أنهم ليسوا في حجم ثيابهم .. أنهم لا يملؤونها ولأنهم كانوا يتكلمون بالقرآن والحديث وابن قتيبة وابن حزم وابن كثير ، وأحاديث آخر الزمان وغيرها ، لم يستطع أحد أن يقف أمامهم ،

واتجهوا للعنف وهم يحملون غيظًا من المشاكل الاجتماعية وكلهم من أبناء الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة التي جعلتها الأسعار تندفع منحدرة إلى قاع المجتمع » .

« ليس الأمر شيوعيين أو فتنة طائفية » .

« الأمر غضب شريف للشباب ، يشوه ويقمع فينحرف إلى ساحات العنف » .

وقلت :

«لن يكون العنف فوق المنصة آخر الخطوات أو آخر المحطات لقطار الضياع ، إلا إذا استطعنا أن نوقف القطار نهائيًا ، وهذا يستلزم منا الكثير ، إلى جانب القبض على البعض ، والمحاكمة ، والجزاء ».

كان هذا بعض ما كتبته في المقال ، ودم السادات لم يجف بعد !!

وبدون ادعاء زائف للتواضع ، انقلبت المائدة !! « كما جاء في وصف الأستاذ لويس جريس لما كتبته » وتحول الأمر من مجرد مهاجمة التيارات الدينية العنيفة إلى محاكمة « بالرأي » للمسئولين عن أزمة الشباب ، وعن زرع بذرة العنف « وعلى رأسهم السادات بالطبع » وكان ذلك ما قصدت إليه تمامًا .

أيضًا ، وبدون ادعاء زائف للتواضع ، أصبح قاموس المقال « العنف ، غياب الحلم ، حادثة المنصة ، عزلة الشباب ، الغضب الشريف ، وغيرها .... » مدارًا « بل وعناوين » لكتب كبيرة فيما بعد ، كتبها كبار للغاية [1] .

وبرغم أن صباح الخير « معذورة » لم تستطع وقتها ـ أن تفسح لي مساحات أخرى لاستكمال تلك البداية الثانية ، بعد البداية الحقيقية الموؤدة « أيضًا أعذرها في

(١) وإن كان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد قصر وصف الغضب على ذلك الخريف الذي اغتيل فيه السادات ، ولم يكن قد مضت على بدايته غير خمسة عشر يومًا !! أقصد الخريف .

ذلك » إلا أن ما حدث كرد فعل للمقال شجعني على أن أعد كتابي هذا « الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات » ، ومن الجيل تلك الجماعات الدينية التي مارست العنف وكتابًا آخر ، أرجو أن يظهر قريبًا عن « العنف القادم في مصر » !

■ ■ ■

في الفترة من أكتوبر ١٩٨١ وحتى منتصف عام ١٩٨٤ ، كان العنف قد هدأ تمامًا ، واختفت الفتنة الطائفية كأن لم تكن ، برغم هذا لم أتصور للحظة واحدة أن العنف لن يندلع مرة أخرى ، وبصورة أخرى ، ذلك أن أسبابه كانت ما تزال سارية وبالطبع لم تكن الصحافة مستعدة لفتح السيرة « مرة أخرى » ، حتى بدأت شواهد جديدة لعنف آت تظهر حول المساجد ، أو الزوايا في مناطق الفقراء العشوائية في الفيوم ، ومدن أخرى من مدن الصعيد ، حتى وقد بدأت الجرائم ضد ممتلكات الأقباط وفي كنائسهم في الوجهين البحري والقبلي والقاهرة ، تلك الجرائم التي تقوم على مبدأ « الاستحلال » ، ولا يكون الهدف منها كما عودنا أبطالها ، إلا تمويل موجة عنف قادمة ، برغم كل هذا لم تكن هناك أذن تريد أن تسمع شيئًا عن العنف ، « بدأت الشواهد الجديدة في العام ١٩٨٤ » ، إلى أن صحت الآذان جميعًا على صوت انفجاراته المدوية ، ومنظر نزيفه الهادر .

حاولت الكتابة ولم أستطع النشر .

إلى أن أنقذني صديقي الشاعر الجميل جمال بخيت ، أنقذ هواجسي التي لا تريد أن تتركني ، والتي كان من الواضح أنني لن أتخلص من تأثيرها المدمو إلا إذا كتبت عن الموضوع .

أنقذني جمال بخيت وأنقذ هواجسي ، وأنقذني منها .

كان ذلك في فبراير ١٩٨٥ .

في ذلك الوقت اندلعت سلسلة من جرائم الاغتصاب ، « فتاة المعادي وخمس حالات أخرى » وكتب جمال بخيت عن السلسة الآثمة متهمًا الكبت الجنسي الذي يعاني منه الشباب ، الشباب الذي أطاحت الظروف الاقتصادية ـ بعيدًا عنه ــ بسن الزواج .

قال جمال بخيت في نهاية مقاله « بصباح الخير » :

احذروا الظن بي ....

أنا لا أخرف .

« وإنني على استعداد لأن أترك هذا الموضوع إلى الأبد ، وعندي من الحماسة ما يكفي لحملة صحفية تتناول محاكمة الكبت ، وإثارة هذا الموضوع مع رجال الدين والتربية والأطباء والمسؤولين عن الإسكان » .

كان من الواضح أن جمال بخيت يتوقع أن تفتح عليه فرقة « الردح الإعلامي » الجاهزة أبدًا ، نيران أبواقها ، لتتهمه هو ، وتغلوش على الموضوع ، كان يتوقع ذلك وإلا لما قال إنه على استعداد لأن يترك هذا الموضوع إلى الأبد .

أخذتها فرصة وقررت أن أكتب مرة ثالثة عن العنف ، وأيضًا في صباح الخير ، وقلت في المقال :

« تعرض جمال بخيت لقضية خطيرة، في مقاله « حاكموا الكبت أولًا » ، هي قضية الكبت الجنسي الذي يعاني منه الشباب والذي يكمن وراء حوادث الاختطاف والاغتصاب، وأشار ككاتب واعٍ إلى الأزمة الاقتصادية بأصبع الاتهام ــ تلك الأزمة التي تهددنا بأن « جيلًا كاملًا لم يوفر له المجتمع فرصة ممارسة الجنس بالطريقة المشروعة التي حددها له الدين ، وتحددها القيم عن طريق الزواج ، فلا

عمل مناسب ، ولا شقة تسمح له ببدء حياة زوجية شريفة في سن مناسبة » .

وقلت : إن جمال بخيت « على حق فيما وصل إليه ، ولكن ، هل المشكلة كبت جنسي فقط .

وقلت :

إن هناك كبتًا « أكبر بكثير من أن يكون جنسيًا فقط » يعبر عن نفسه بالرغبة في العنف ، وإن اتخذ شكل الممارسة الجنسية ، وهذا الكبت ليس جنسيًا ؛ لأنه لن يحلل ظاهرة العنف تحليلًا كاملًا » .

ذلك أنني كنت قد لاحظت شيئًا وراء جرائم الاغتصاب ، هو نفس الشيء. الكامن في تغيير نوعية الجرائم العادية ، فقلت :

أولًا : تعالوا نفرق بين ممارسة الجنس اللامشروع ، وبين تلك الطقوس المرعبة لممارسته بكل هذا العنف ، « قهر الخطيب « فهم كانوا يختطفون البنت وخطيبها » وإيلام الضحية جسديًا ونفسيًا إلى أبشع حد » .

إن ما يخيفني حقًا في الصورة هو هذا العنف البشع .

في حالة الفيوم مثلًا ، طلبوا من الضحية ، بعد أن نالوا ما يبتغون ، أن تأتي في اليوم التالي من أجل المزيد ، لم يكن الدافع إذن تصريف حالة وقتية ، « المكبوت جنسيًا يصرف كبته محاذرًا أن تتعرف عليه الضحية ، لكننا في مثل هذه الحالة أمام أفراد قرروا إذلال من اغتصبوها وإذلال خطيبها أثناء الاغتصاب وبعده، إن هذا بوضوح شيئًا أكبر من الكبت الجنسي الذي كان قد استراح بعد ممارستهم الآثمة » .

ثانيًا : تعالوا نثبت أن هناك كبتًا أعم ما وراء حوادث الاغتصاب ، والخطف ،. لماذا ؟ حتى لا تنفصل تلك الجرائم عن صور العنف الأخرى ، العنف السياسي ، زيادة عدد الطعنات في الجرائم العادية ، سبعون طعنة !! (راجعوا صفحات

الحوادث) سرقة شقة بعد قتل خادم ضعيفة لا تستطيع المقاومة ولا تستطيع أن تدل على الفاعلين؛ لأنها لم تكن قد رأتهم من قبل ، قتل الأمهات بعدد كبير من الطعنات ، قتل عمة أو خالة ، وطفلتين كبيرتهما في الثالثة والصغرى رضيع ، انتشار أقراص الهلوسة إلى حد يدعو الباحثين إلى الهلوسة ، و.... » .

« لا رابط بين كل هذه الجرائم غير العنف ، عنف على الآخرين وعنف على النفس ، عدوانية ضد الآخرين وعدوانية ضد النفس » .

« هناك عنف ... عنف .... عنف ، والاغتصاب أحد صوره « وما لا ينشر أكثر مما ينشر بالطبع » .

ثالثًا : هل الفقر وحده وراء جرائم الاغتصاب العنيف وأشكال العنف الأخرى في الجرائم ؟ الفقر دافع خطير لا نستطيع تجاهله كما وضح جمال بخيت ولكن أليس في ممارسي الاغتصاب « حرفي » يكسب الكثير ، ولا يعرف كيف يحسن إنفاق الكثير الذي يكسبه ؟ أليس فيهم « ممارسي الاغتصاب » مثلما في الجرائم العنيفة واحد من أثرياء الطبقة الطفيلية ، أو أبنائها ؟ إن الأمر احتاج إلى « عربة » ونقود ، وغطاء بالنفوذ في إحدى الجرائم أو بعضها ، المشكلة أن فيهم من لديهم المال والامكانيات والنفوذ أيضًا ، إذن ليس الفقر وحده وراء هذه الجرائم العنيفة » .

« إن ما وراء هذه الجرائم هي الأزمة الاقتصادية ، تلك الأزمة التي تعبر عن نفسها ، بأن هناك « فقر بلا داع وغنى بلا أساس » .

المتعلمون أغلبهم فقراء وكانوا يحلمون بحياة أخرى يوفرها لهم علمهم . أي خيبة أمل ؟ وبعضهم خدم تكنوقراطي لأصحاب الثراء من أمثال « شيال الميناء »(١) أي

---

(١) شيال الميناء ، كان مليونيرًا ، بدأ شيالاً ، ثم وصل إلى الدرجة التي جعلت الرئيس السادات يقول له : «خل بالك من الإسكندرية» .

مهانة ؟!! والبعض صار مضطرًا للخدمة بعلمه في بلاد أخرى ، تمتص أعمارهم ، ليعودوا ويفاجؤوا بأن التجار والسماسرة وأصحاب العقارات « الناطحة للبشر » يمتصون بعد ما أضاعوا أعمارهم من أجله ، أي غيظ ! هؤلاء ألا تمكن فيهم بذرة عنف .

ثم « البلطجية » صاروا أغنياء ، قلب ميت ، وتجارة في الممنوع، وتحايل جريء على القانون أو بالقانون ، ثم ثروات مفاجئة يتم الإعلان عنها تليفزيونيًا!! ، إذا تكلم الناس فإنه الحقد ، وإذا تكلم المدعي الاشتراكي ، فنحن نخيف رؤوس الأموال ، وإذا تكلم المثقفون ، فهم يتاجرون بآلام الشعب الكادح!! ويشوهون الحقائق ويبلبلون ، ليعرقلوا مسيرة الإصلاح ، وإذا فاض الكيل ، فهي انتفاضة حرامية .

الذي باع نفسه بسهولة ، ليحصل على ثروة لا تستطيع شراء نفسه مرة أخرى ، ألا يجد لذة في تعذيب الآخرين ، من يستهن بنفسه يستهن بالغير ، وابنه ، ابنه الذي حصل على كل شيء ، بينما الجميع من حوله يتهامسون بحقارة أبيه ، ماذا يحوي داخله غير البذرة العنيفة ؟

والحرفيون « إنني لست ضد ثرائهم » هؤلاء بدلًا من أن نفيدهم بـ« التعاونيات». ونستفيد بهم نتركهم للمخدرات ، التي لا تكفي فيضاف إليها الخمر ، فلا يكفيان فيضاف إليهما « الماكس فورت » ، ونحتقرهم ونلعن ثراءهم ، كأن ذنبهم أن المتعلمين فقراء بعلمهم ، وأن هناك من المتعلمين من يعلمهم كيفية التهرب من الضرائب صباحًا ، ويرص لهم « الحمص الملهلب » ، في الليل طمعًا في « نَفَسْ » ينسيه همه ، ينسيه أنه يضطر للعمل في خدمة الجهل ، وكل ذلك ليحل المتعلم ، مشكلته . فرديًا، بعد أن نتفنا ريش الحل الجماعي ، وضحكنا إذا رأيناه عاريًا بيننا بلا ريش .

«ليس الفقر وحده متهمًا ، لكن الثراء بلا أساس متهم ، أي أن الاتهام يوجه

للخلل ، للاتوازن ، وفي الخلل تترعرع بذرة غضب يعبر عن نفسه بالعنف» .

هناك عنف ، عنف ... عنف» .

عنف رغم وضوحه ، نراه متخفيًا في صورة جرائم فردية .

و«قلت :

لا تعودوا إلى الكلام عن فئة ضالة ، وأفراد منحرفين .... و..و.. وتدفنوا الرؤوس في الرمال» .

«هل سيظل العنف معبرًا عن نفسه بالجرائم الفردية ؟! لا أظن..».

وقلت أيضًا :

لقد كتبت في هذه المجلة « صباح الخير » [1] بعد حادثة المنصة ما ألخصه في جمل قصيرة الآن .

قلت : « إن ضياع الجيل هو سبب العنف ، وليس العنف هو ضياع الجيل » .

وقلت : « إن علينا بالمبادرة بحل المشكلة الاقتصادية « فقر بلا داع وغنى بلا أساس » وحل مشكلة التعبير الديمقراطي التي تجنبنا اليأس الذي سيروعنا بالعنف بين الحين والحين » .

وقلت : « إن علينا ألا ننخدع بالقشور ، فلا فتنة طائفية هناك ، ولا تيارات خارجية تتحكم في شبابنا ، ولكنه الغضب الشريف » .

وأي جديد جد ؟

أقولها بصراحة والأرزاق على الله ــ يوجد من يحاولون دائمًا عرقلة مسيرة الإصلاح عندما حانت الفرصة لمشاركة الشباب في الإصلاح ، كان هناك البعض

(١) كنت أشير إلى مقالي في ١٠ ديسمبر ١٩٨١ ، والتي جاء ذكرها من قبل في هذه المقدمة .

الذين يحاولون إقناع البلد بقانون الانتخابات « الجديد » ، هذا القانون الذي جعل الشباب يحجم عن المشاركة متصورًا (بل مقتنعًا) أن لا فائدة ، ثم كانت هناك شبهة التزوير ، وكان هناك من يجعجعون بالجرعة الزائدة من الديمقراطية التي لن تحتملها معدة الشعب الطفل!! ، وكأن الديمقراطية ـ حقًا ـ من الممكن أن تسحب منا بسهولة ، وكان هناك من يتغاضون عن تعذيب المسجونين السياسيين الذي أثبته القضاء ، وكان هناك أيضًا ونحن نؤكد قدرتنا الذاتية وانتماءنا العربي ، وعدم انحيازنا من لا يتوانون يومًا عن تأكيد الحقيقة الوهمية ، بأن (٩٩٪) من أوراق اللعبة في يد أمريكا ، ومن أسموا محاولة الإصلاح الاقتصادي الأخيرة التي تتحسس خطاها بأنها عودة للانغلاق الأسود ، صائحين بأن القرش الأبيض لا يعمل في الانغلاق الأسود .

وقلت في نهاية المقال :

حكموا العقل ، وإلا سيبقى العنف عدوًا مختفيًا تحت الرماد ، أو عدوًا رغم وضوحه ، يتخفى في صورة جرائم فردية .

■ ■ ■

وبعد :

فلعل القارئ قد لاحظ « أو هو لابد فعل » أن المقالة الأخيرة ، قد حذرت ولم يكن على السطح وقتها إلا بوادر شاردة تومئ إلى أن العنف لن يبقى متخفيًا في صورة جرائم فردية « وهذا ما حدث » وحذرت من عنف سيصنعه الفقراء ولم تمض غير سنة بالضبط ـ من فبراير ١٩٨٥ إلى فبراير ١٩٨٦ ـ حتى اندلعت أحداث الأمن المركزي « وكانت احتجاجًا عنيفًا للرعاع ، إنني لا أقصد هنا بالطبع أن أهين جنود الأمن المركزي ، ولكنني أقصد إدانة الحريصين على انتقائهم ممن لا يعرفون

شيئًا على الإطلاق ، ليزيدوا من تجهيلهم بدعاية قادتهم المغرضة ، عامدين إلى إذلالهم لإطلاق الوحشية داخلهم ، ثم بعد ذلك يقودونهم في حملات بربرية لاقتحام بيوت الناس في الصعيد ، مشيرين عليهم، وسامحين لهم باعتبار ما يجدونه من ممتلكات الناس غنيمة يحل لهم أن يحصلوا عليها « ولو لم يكن كل ما أقوله صحيحًا ، لما عمدت الحكومة إلى إخفاء أوراق القضية واعتبارها نسيًا منسيًا ، وكأن شيئًا لم يحدث وكأن ممتلكات الشعب لم تهدد وتحرق ، وكأن فوضى لم تعم ، وترويعًا لم يحدث بنفس الطريقة التي تعدها الحكومة لخصومها ، لقد كفت الحكومة على الأمر « ماجورًا » ولم تنتبه ، إلى أن الفارين منهم ، فروا بأدوات وكيماويات الإحراق ، وأن هذه الكيماويات ظهرت بعد ذلك في أيدي أنصار العنف الديني في موجة حرق نوادي الفيديو . لقد اتحد الهاربون مع الهاربين من أعضاء الجماعات ، واختفوا جميعًا في المحاجر ، وعادوا لنا ليروعونا بمواد حارقة، تتعجب لماذا وضد من كانت تمتلكها الدولة ؟! » .

أيضًا ، القارئ لابد أنه لاحظ أن المقالة حذرت من تصاعد العنف اجتماعيًا وسط طوائف المتعلمين وشرائحهم الطبقية « وأننا شاهدنا بعدها ، المدرس ، والمحامي ، والطبيب ، والتاجر بين صفوف جماعات لم تكن تضم إلا الطلبة وصغار الحرفيين » .

ثالثًا : لابد وأن القارئ قد لاحظ تحذير المقالة من البلطجية المستشرية ، ولعله الآن يذكر أحداث جمهورية إمبابة الإسلامية التي قادها طبال ، صار بلطجيًا ، ثم داعية إسلاميًا يجهل كل شيء عن الإسلام ، ويعرف كل شيء عن العنف ، تلك الجمهورية التي قامت الحكومة بحملة عسكرية من قوات الأمن وقوات مقاومة الإرهاب للقضاء عليها ، وكان على الحملة أولًا أن تزيح أكوام القمامة لتصل إلى حكام جمهورية إمبابة « التي لا تشبه جمهورية زفتى إلا في المعنى المتداول للإسم » ولعل القارئ يذكر أيضًا احتياج الشعب والحكومة مؤخرًا إلى إصدار قانون ضد

البلطجة المستشرية من مجلس الشعب .

رابعًا : وأظن أن القارئ قد لاحظ ، إنه لم تمض سنوات حتى عرفنا أن من أبناء الطبقة الجديدة من يمولون العنف الديني « رغبة في التطهر بالدين ، ورغبة أشد في العنف » دون معرفة آبائهم ، ثم عرفنا أن آباءهم يمولون العنف الديني دون معرفة أبنائهم « ذلك أن العنف الديني السياسي ، يشل يد الحكومة ، ويشغل وزارة داخليتها ، وأن استشراءه خير وسيلة لقمع جميع المواطنين ، وتأجيل الكلام عن أي إصلاح ديمقراطي ، يفضح فسادهم ، واستغلالهم لنفوذ البعض ، ويكشف عملياتهم التي لا تمت إلى نزاهة رجال الأعمال بصلة ، وتهربهم الضريبي ، وعدوانهم الاستهلاكي الفج على فرص الاستثمار ، تاركين المغامرة ـ سواء تجارية أو صناعية ـ للأموال التي يقترضونها من البنوك ـ عارفين أن الهرب بعد تهريب الأموال ممكن ، غير عابئين بالضحية المستنزفة ، الدخل القومي المصري ، فضلًا عن أن الإرهاب يقوي شوكة الأمريكيين « لاحظ أن أمريكا بسبل غير مباشرة تدعمه ، وتدعم رموزه وتفسح لها مكانًا عندها سواء كانوا من مصر أو من الجزائر ولا تغرنك المحاكمات الصورية التي لا تبدأ إلا بعد عمليات إرهابية تمس اللحم والدم الأمريكي الغاليين » ومطالبتهم بمزيد من الخصخصة ، إذ أن الإدارة في مصر تثبت بفشلها الإداري في مكافحة الإرهاب ، إمكانية فشلها في إدارة ممتلكات عامة نيابة عن الشعب « وها نحن ذا قد وصلنا إلى الخصخصة ، بعد اكتمال المصمصة » .

والغريب أن بعض المثقفين ينادون الآن بضرورة تأجيل الإصلاح الديمقراطي ، بحجة أن المستفيد الوحيد من هذا الإصلاح هم الجماعات التي تستخدم الدين في ساحات العنف ، ذلك أن المثقفين يخافون على الحرية الموجودة التي ستقمعها هذه الجماعات .

أيضًا فإن الحكومة « مبسوطة » فقد وضعت الجميع في خندق ، وهي تلوح دائمًا بأنها لن تحمل أي « تجاوز » « الحكومة تسمي دائمًا المعارضة الجادة تجاوزًا » بينما هي تحارب الإرهاب ، والحكومة مبسوطة أيضًا لأن قانون الطوارئ الذي تزعم أنه لا يستخدم ضد أصحاب الآراء ، والذي استخدمته فعليًا ضد أصحاب الرأي حمدين صباحي ، وكمال خليل ، وعز الدين نجيب ، وكلهم معارضون لا يعرف أيهم استخدام السلاح ، الحكومة مبسوطة لأن قانون الطوارئ هذا يُمَدُّ العمل به أتوماتيكيًا ، بحجة طال انتظارنا عليها ، هي مقاومتها للإرهاب ، كل ذلك وهي تعرف أن الفساد الاستفزازي والفشل الإداري وازدياد إعداد الواقعين الرازحين تحت « بلدوزر » البطالة ، عوامل كبيرة ـ تعني فشلها ـ وتغذي مرجل الإرهاب ، بل وتعلم الحكومة أيضًا أن إرهاب « الداخلية » أكبر مفجر للإرهاب الأهلي .

ولعل القارئ قد لاحظ « وهو لابد فعل » أن ما حذرت منه المقالة ، هو ما نعانيه الآن وكأننا جميعًا نؤذن في مالطة !!

■ ■ ■

لكن ، الآن ... ومن حق القارئ الذي لاحظ كل ذلك ، أن يلاحظ ما فات على وقتها ، فمن حقه أن أعترف له ، بأنه لم يدر بخلدي أبدًا ، أن تسعى الحكومة وبتمويل أمريكي سعودي ، إلى تسفير أعضاء الجماعات الإسلامية العنيفة إلى أفغانستان ، بحجة مقاومة المد الشيوعي « المأزوم وقتها ، والمعرض للانهيار » ، ليتم تدريبهم على أعلى مستوى في معسكرات تشرف عليها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، وليتحول التيار الوطني لهذه الجماعات « حتى وإن كان يمارس عنفًا جموحًا تسريبيًا شديد البشاعة » إلى تيار أممي أعمى ، تتلاعب به جهات التمويل الخارجية المريبة « ومنها إسرائيل بطريق غير مباشرة » ، تحت شعار المساندة الأممية ،

ليعودوا فوق بئر تمويلي معطاء ، يروعوننا كما لم نروع من قبل ، ولنجد أنفسنا في مواجهة عمليات هي الفوضى وإسالة الدماء ، كل الدماء ، تؤدي بتقنيات جديدة ، « الغريب أيضًا أن الحكومة التي أرسلتهم في بعثة تعليمية تدريبية تمويلية ، لم تحتفظ بقوائم تضم أسماءهم ، إذ تركت أمر التنفيذ والقوائم سرًا لا يمتلكه إلا شيخهم عمر عبد الرحمن الذي لجأت إليه الداخلية ليعطيها مددًا من شبابنا تعطيه للمخابرات الأمريكية لمحاربة الشيوعية ، « مرة أخرى التي كانت في سبيلها إلى الانهيار » .

***

والآن ، من حق القارئ عليَّ أن يتساءل : ما كل هذه المقدمة الطويلة عن العنف ـ بكل صُوَرِه ـ لكتاب أكرسه عن حركة الطلبة ٦٨ ـ ١٩٧٧ ، ولماذا كل هذه الكتابة عن « السادات » في جزء أختص به مواجهة جيلنا لجمال عبد الناصر ٦٨ ـ ٧٠ ؟

الحقيقة أن الدهشة كانت دهشتي أنا قبل أن تكون دهشة القارئ بعد أن قطعت شوطًا في المقدمة ، وعدت لأراجع ما كتبت .

سألت نفسي نفس السؤالين ، لكنني سرعان ما وجدت إجابة جعلتني أستمر فيما بدأته .

الإجابة ، كانت : أننا خرجنا ضد جمال عبد الناصر في أمر واحد ، خرجنا ضده من أجل الديمقراطية ، وكان تخوفنا ، أن انتكاسة كانتكاسة ٦٧ ، من الممكن أن تحدث إذا ما ظلت الديمقراطية غائبة ، إذا ما احتمى بغيابها الانتهازيون ، الذين يصورون كل معارضة على أنها تآمر لقلب نظام الحكم ، وتآمر على جمال عبد الناصر شخصيًا ، وخلف الستار يفعلون ما يفعلون ، وما ندفع نحن ثمنه كلما صحونا على مصيبة من مصائبهم ، ولما لم يقبل عبد الناصر خروجنا عليه ، وضربنا ، وأرهبنا ، وشوهنا ،

وحاول احتواءنا ، ونجح في احتواء البعض ، ولم يحدث التغيير ، وسكتنا لأن قواتنا المسلحة كانت تقوم بالعبور بين ليلة وأخرى وتروع اليهود على الضفة الأخرى ، في حرب استنزاف مجيدة، الأمر الذي جعلنا نؤجل كل الأحلام ليتم الحلم الأجمل .

ولأن جمال عبد الناصر فعل هذا وسكتنا ، صحونا على مصيبة جديدة .

وكانت المصيبة تراجع السادات عن الخط الثوري الذي دبر له تدبيرًا محكمًا ، وصنع له من رجاله المستفيدين ، أبواقًا صحفية ، وأقلامًا مغرضة ، ورجالًا للأعمال لا يعرفون غير البلطجية والسرقة ، والعدوانية على قوت الشعب الضروري، وبلطجية تولوا مناصب الاتحاد الاشتراكي العربي .

لقد سلمنا جمال عبد الناصر لأنور السادات .

سلمنا له صيدًا سهلًا .

أما تنظيمات جمال عبد الناصر ، التي تصورنا إنها ستدافع عن الشعب ، فقد ظهرت مما فعله بها ، نمورًا من ورق ، أسدًا « مخابراتيًا » على ، وأمام السادات نعامة .

ولقد استخدم السادات كل كلمات ، جمال عبد الناصر ، ليمشي في عكس الاتجاه ، فالاشتراكية التي ليست ماركسية كافرة ملحدة ، استخدمها هو أيضًا لضرب الأنصار ، والتراجع عن الاشتراكية .

بل إن التسمية الخاطئة لصراعنا الأمني القومي مع إسرائيل والتي سماها جمال عبد الناصر « قضية فلسطين » ، لكي تحتمل التأجيل إلى وقت يختاره هو ، استخدمها السادات « قضية فلسطين » لكي يخلع يده منها ، تحت شعار « الفلسطينيون » يتكلمون عن أنفسهم ، وكان قوله حقًا أريد به باطل ، فالقضية ليست قضية الفلسطينيين ، القضية قضية الأمن القومي المهدد برغبات سيطرة الرأسمالية العالمية على مقدرات المنطقة ، والحلم الصهيوني الذي يخطط لابتلاع الأرض العربية كلها بعد أن يحقق

شعاره الذي لم يتنازل عنه « برغم السلام » وهو أن « أرض إسرائيل الكبرى من النيل للفرات » ، وأن الشرق أوسطية سوف تتولى بعد ذلك السيطرة على الإنسان العربي في كل مكان بعد السيطرة على العرب « المهرولين »، كل العرب .

والديمقراطية ، اضطر لها السادات ثم جعل لها أنيابًا .

و.... و ..... و .....

وكان أن ضرب السادات بنفس الطريقة التي مارسها عبد الناصر « ولكن لأسباب أخرى » كل معارضيه ، بداية من الضرب بعنف على يد كل حركة ، إلى الترويع ، إلى التشويه للمعارضين ، إلى محاولة الاحتواء ، بنفس التقنية الناصرية .

لو لم يفعل بنا جمال عبد الناصر ما فعله ، لما استطاع السادات أن يلهو بنا ، وأن يجعلنا أوراق كوتشينته التي يقامر بها لمصلحته الشخصية ، في مواقع ذيلية تابعة للأمريكان .

ولقد أخطأ جيلنا ، حين أصابه اليأس ، وجمدته اللامبالاة ، وشتت قواه بعثرته في بلاد النفط ، والتي رآها « شحططة إجبارية » بعد أن عمد السادات إلى إفقار الطبقة الوسطى في الأساس ، ليشغلها ولتستطيع طبقته أن تأكل الفقراء والطبقة الوسطى معًا .

أخطأنا ...

وأخطأ بعضنا حين تصور أن العنف الفوضوي هو بديل العمل الشعبي المنظم القادر على الضغط باستمرار لتحقيق أمانيه .

صدقًا وحقًا ، كان العنف هو البديل ، ولقد فرح الجيل بهذا العنف ـ بادئ الأمر ـ لكن سرعان ما تنبه وكان الفضل في تنبهه لتلك الجماعات التي خرجت من صلبه ـ غير المثقف ـ إذ رآها لا تستطيع أن تحدد أعداءها ، ولا تستطيع إلا أن تمارس العنف ضد الجميع ، حتى ضد البسطاء أنفسهم .

إن سلسلة الأخطاء الناصرية ، لا يمكن أن تلد إلا سلسلة من الأخطاء الساداتية والأخطاء الساداتية لا يمكن إلا أن تلد أخطاء الجيل .

لهذا كله كتبت عن السادات والعنف مقدمة كتاب عن مواجهة جيلنا لجمال عبد الناصر ؛ لأن مواجهتنا لجمال عبد الناصر ، لم تكن إلا لتجنب ما سردته المقدمة .

إن المقدمة هذه هي التي تعطي معنى واضحًا لتصاعد فصول الكتاب إلى « غلطة عمر جمال عبد الناصر » .

■ ■ ■

وبعد ....

هل كنت فيما سطرته في هذا الكتاب ، أكتب تاريخًا ، هل كنت أقرأ تاريخًا ، أم كنت أقرأ للتاريخ ؟

الحقيقة ليس الكتاب محاولة للتأريخ .

وليس قراءة في التاريخ .

ولا هو أيضًا ، قراءة للتاريخ .

ليس كتابة تاريخ ؛ لأنه ـ عوضًا عن أن كتابة التاريخ ليست من اهتماماتي ، فإنها أيضًا ـ قبل ذلك ـ ليست من استطاعاتي ، إن كتابة تاريخ فترة حافلة بالتفاصيل كتلك الفترة ، كان يستلزم أشياء كثيرة ـ لم تكن متاحة لي ـ أبسطها ، أن يقول أبطال تلك الحقبة آراءهم ويروون بأنفسهم ـ كلهم ـ ما حدث منهم ولهم ، وهذا ما لم يحدث إلى الآن ، وأيضًا أن تتاح وثائق الفترة ـ في بلد لا تعترف بإتاحة الوثائق ـ كلها ، للدارسين ، لكي يستطيعوا أن يكتبوا للتاريخ .

أما قراءة التاريخ ـ التي أنفيها هي الأخرى ـ عن مجهود الكتاب ـ فإنها فوق هذا

وذلك ، كانت تستلزم أن يكون هذا التاريخ مكتوبًا بواسطة متخصصين في الكتابة التاريخية حتى أستطيع أن أمارس قراءته ، والحقيقة أن هناك ما هو مكتوب لزملاء أعزاء ، رماح أسعد ، وأحمد عبد الله ، وائل عثمان ، أحمد بهاء الدين شعبان ، فضلًا عن كتابين عن الحركة الطلابية أصدرتها دار بن خلدون في لبنان ، لكن من قال أن هذه الكتب ، إذا ما أضيف إليها كتابي تكفي ، إن الحركة الطلابية لم تولد في فراغ ، ولم تنطلق دون أن يمهد لها آخرون ، ولم تستمر دون استمرار حركة المجتمع التي رأت في حركة الطلاب مترجمًا صادقًا عما يجيش في قلوب أصحاب المصلحة في التغيير ولكي تكتب الحركة ، كان لابد أن ترسم صورة ما حولها وملامح تفصيلية لأصحاب فضل علينا لا نستطيع نكرانه .

ثم إن هذا الكتاب ليس أيضًا قراءة في أحداث أتركها للتاريخ ، لأن الأمر كان يشترط رؤية بانورامية أوسع ، أفضنا من قبل في أنها لم تكن ولن تكون متاحة في القريب العاجل .

لكن وبرغم اللاءات الثلاثة تلك فإن هذا الكتاب حاول مخلصًا إنجاز ما أظنه لا يقل أهمية عن كل ما سبق ، بل وأقول ما هو أكثر أهمية من كل ما سبق ، أقول حاول ، وهو ما استطعته ، أما ما لا أستطيعه فهو إدراك الكمال .

إن رؤية هذا الكتاب الأهم ، كانت محاولة لإعادة تخليق للفترة ، التي جرى منها الزمان ، وفي محاولة إعادة التخليق هذه ، يمكن لغيري كما أمكن لي أن نرى فيها ما لم نره وقتها ، وأن نستشف ما كان غائبًا عن الأذهان .

إن الكتابة عند أرسطو ، وهذا حق ، وسيلة للمعرفة ، وليست وسيلة لنقل المعرفة فقط ، وأظن أن من حق القارئ عليَّ أن أعترف له أنني عرفت بالكتابة لما لم أكن أعرف وأنا أبدأها ، حين تخلقت الفترة أمام عيوني ، بدأت أرى في بانوراميتها

« التي حققتها على قدر جهدي » ما لم أكن قد رأيته من قبل ، بل ومكنتني من أن أخرج من الحدث الذي كنت جزءًا فيه ، ترسًا صغيرًا في آلته الكبيرة الضخمة ، لأعاين عن كثب بقية الأجزاء .

لقد اندهش بعض الأصدقاء عندما أحسوا بأن الكتابة قد غيرت الكثير من أفكاري المسبقة ، وللأصدقاء الأعزاء كنت أقول : لو تصورنا أن الحركة الطلابية كانت سيارة ، وكنا نحن بعض تروسها ، سنتأكد أن حركة السيارة محصلة لحركة تروسها جميعًا ، وهي تختلف في النهاية عن حركة بعض التروس في الاتجاه وأيضًا في القوة ، فالسيارة عندما تتجه إلى اليسار ، لا تعدم داخلها تروسًا تتجه حركتها إلى اليمين لتنقل الحركة في تروس أخرى تتجه إلى اليسار ، ولا تعدم أيضًا تروسًا تتحرك في وضع أفقي ، وفي أوضاع رأسية ، إنك لو سألت كل ترس لحظتها على حدة عن طبيعة حركته واتجاه هذه الحركة لحصلت على إجابات مختلفة ، لكن السيارة ـ حركة الطلبة ـ لا تعرف إلا إجابة واحدة ، إذا سئلت عن طبيعة الحركة وعن اتجاه السير .

بل أحب أن أفضفض للقارئ بأمر آخر شديد الأهمية ، وهو أنني حين بدأت كنت أحب البعض ، وأكره البعض الآخر ، وأؤيد ما جاء به البعض ، وأرفض رفضًا قاطعًا اتجاهات البعض ، « أو لنكن صرحاء أكثر » وتصرفات البعض ، لكنني بالكتابة تصالحت مع نفسي ، مع أخطائها ، ومع أخطاء الآخرين ، لقد كانت لنا أخطاء ، لكن الجميل أن لم تكن للأغلبية الساحقة منا خطايا ، والخطأ وارد لكن الخطيئة عار .

لقد خرجت من الكتابة بمشاعر جديدة دفعتني لاحتضان كل من رأيت من الزملاء في احتفال جيل السبعينيات الذي أقيم في فبراير ١٩٩٧ بحركتهم ،

وجعلتني أكثر شوقًا لاحتضان من لم أتقابل معهم بعد ، من ذا الذي لا يعشق صغارًا « بين السابعة عشرة ـ وبعضهم أقل ، وبين الخامسة والعشرين على الأكثر ، حاولوا حتى ولو شابت محاولتهم بعض الأخطاء ، وبعض التصرفات التي لم نرها لائقة في حينها .

لقد فعل الصغار عجبًا ، وها أنا أصارح القارئ بأنني أحب هؤلاء جميعًا ، ويشرفني بأنني كنت واحدًا منهم في يوم من الأيام ، وأنهم هم من أنالوني شرفًا كان أبعد من أنال بعضه ، كلهم وأنا مصمم على أن أقول كلهم .

■ ■ ■

شيء آخر ، هل هذا الكتاب ضد جمال عبد الناصر ، وأقول للقارئ صادقًا : إن مثلي ممن أحبوا جمال عبد الناصر أكثر من أنفسهم ، وأقل قليلًا من الوطن ، لا يمكن أن يكتب كتابًا ضد عبد الناصر ، بما كان يمثله من استمساك بثوابت الوطن في التحرر والعدل الاجتماعي ، والانتماء العربي الذي هو أملنا الأمني في عالم الوحش الأمريكي الأسطوري العولمي .

الحقيقة أن عبد الناصر عندي ثلاثة رجال :

رجل أحبه .

ورجل أقدره .

ورجل لا أطيقه .

الرجل الذي أحبه هو جمال عبد الناصر نظيف اليد ، الوطني الغيور ، منصف الفقراء والبسطاء في هذا الوطن .

صاحب الكرامة التي هي جزء من كرامة الأرض التي أنبتته ، الرجل الذي

حاول وأخطأ ، ولم تكن في محاولاته أي شبهة لمكسب شخصي ، بالعكس لقد دفع من شبابه ومن صحته ثمنًا لمكاسب أعطاها للبسطاء ، والذي أخطأ ــ دون تعمد ــ ولم يكتسب من وراء أخطاءه ـ كغيره ـ إلا حسرة عاناها ولم يتحملها قلبه في سنى عمره الأخيرة .

والرجل الذي أقدره ، هو عبد الناصر الفكر ، وقد كان حريًا بأن أقول : أنني أحب عبد الناصر رجل الفكر ، لولا غياب الديمقراطية في عصره واعتماده على أنه سوف يحقق ما يريده الناس ـ من فوق ـ دون أن يتكلم الناس عن حقوقهم .

أما الرجل الذي أكرهه في عبد الناصر ولا أطيقه ، فهو عبد الناصر السلطة ، لقد أضاعت سلطة جمال عبد الناصر رجلًا نحبه في جمال عبد الناصر ورجلًا نقدره .

لقد ضرب عبد الناصر أعداءه ، وأنصاره أيضًا الذين جرؤوا على المعارضة لصالح خطه الثوري ، وهكذا عندما ركب السادات الموجة ، استطاع أن يمشي على طريق عبد الناصر « بالأستيكة » ولم يجد من يقف في وجهه من ضحايا عبد الناصر ، أنصار نظامه .

لقد جاء السادات والمجتمع المدني موات .

جاء وغول الخوف بادٍ للعيال تسيل الدماء من زوايا فمه .

لولا غياب الديمقراطية ، لقلت : إن جمال عبد الناصر أحب خلق الله الذين عاصرتهم إلى قلبي « المعصور » .

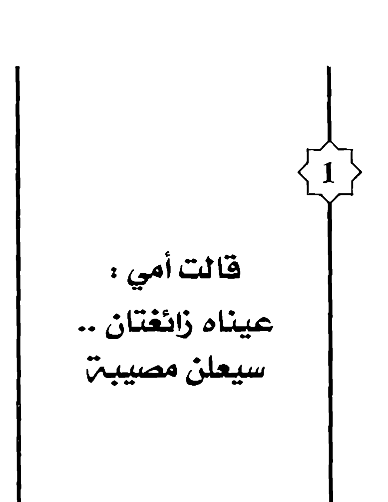
إن هذا الكتاب ليس أكثر من محاولة لإنصاف حركة طلابية واحدة في سلسلة من الحركات موزعة على قرن كامل ، لاقت من الضرب والترويع والتشويه ومحاولات الاحتواء ما لاقته غيرها .

هذا كتاب يحاول أن يوضح الغرابة في تصرفات سلطة ثورية ، مارست ضد حركة الطلاب نفس ما مارسته السلطة التراجعية في السبعينيات ، بل ومارست الاثنتان « الثورية والرجعية » نفس الأساليب التي مارستها السلطة القمعية قبل الثورة « النقراشي وصدقي » ، والثلاثة مارسوا ما مارسه الاحتلال بسلطته الغاشمة ضد حركة الطلبة عام ١٩٣٥ ، لا لشيء إلا لأن الحركة رفضت أن تحتوي ، الأمر الذي قبله مصطفى كامل لبعض الوقت ليفيق متأخرًا إلى أن حركته لم تخدم ـ أكثر ما خدمته ـ غير الخديوي عباس الثاني ، الذي سرعان ما عمد إلى تقليصها حين بدأت تخدم الشعب مع نمو قدرات محمد فريد .

إن هذا الكتاب محاولة لفهم شيء غامض هو اجتماع المحتلين ، والقمعيين والثوريين ، والتراجعيين على أمر واحد هو ضرب المبادرات الشعبية ، ولعلنا كنا وما زلنا نتوقع هذا الأمر من المتسلطين ، محتلين وقمعيين وتراجعيين ، لكن الدهشة تأتينا من موقف السلطة الثورية ، من خوف جمال عبد الناصر من الديمقراطية وهو الرجل الذي ملك أفئدة المصريين وليس لسانهم فقط .

لقد كنا نقول : إن عبد الناصر كان يريد أن يبني الاشتراكية بدون اشتراكيين وأصبحنا بهذا الكتاب أكثر اقتناعًا ، بأنه كان يريد أن يقود ثورة بدون ثوريين .

وتعالوا لنرى .



1

قالت أمي :
عيناه زائغتان ..
سيعلن مصيبة

أسرتي لم تكن تكره جمال عبد الناصر ، كانت تحبه ، وكانت معجبة بإنجازاته الحقيقية ، لكنها لم تكن متيمةً به .

ولا كانت تعشق ثورته عشقًا خالصًا .

أبي أ.د محمد محمود السلاموني « أستاذ اللغات الأوربية القديمة ، اللاتينية واليونانية السابق ، بجامعة القاهرة ، ومن قبلها بجامعتي عين شمس والإسكندرية » ، كان يرى أن الثورة أفسدت الجامعة ، فمن جانب ـ تدخلت الثورة في الجامعة سرًا وعلانية ، بذهب المعز وبسيفه أيضًا ، وبتنظيماتها المختلفة وآخرها « الطليعي » ، فأضاعت استقلالها كمؤسسة طالما حمت العلم ، وحمت المثقفين ، بل حمت حرية الفكر مساندةً كل ما هو عقلاني ، وعلماني ، وعلمي « ألسنا نعاني الآن في المجتمع من كل ما هو ليس عقلانيًا ؟ ألسنا نعاني من تسلط سلفي فاشي ؟ ألسنا نعاني من تراجع دور المثقفين ، بل ومن محاولات قتلهم ... وأين ؟ في مجتمع يحضه دينه على التعلم ، وعلى أن الناس أدرى بشؤون دنياهم ، ويؤكد بتعاليمه أن لا رهبانية، ولا سلطة لرجال الدين في الإسلام ، بل ألسنا نعاني الآني من رجعية الجامعة نفسها ومعاداتها للفكر بالتكفير ، بدلًا من معارضتها الفكر بالفكر [١] .

ومن جانب آخر كان أبي يرى أن الثورة أضاعت هيبة الدرجات العلمية ، إذ حرص الضباط الأحرار الذين لم يدخلوا الجامعة أصلًا في سنى دراستهم ، على أن يدخلوها ضباطًا أحرارًا ، وأن يحصلوا منها على درجات علمية عليا ، ربما لتحقيق حلم قديم لم يستطيعوا تحقيقه في الماضي ، وربما ـ أيضًا ـ لإقناع عبد الناصر بأنهم قد غضوا الطرف، نهائيًا عن العودة إلى القوات المسلحة ، أو التدخل في أمورها ، الأمر الذي لم يكن يسمح به جمال عبد الناصر ، وكان المشير « المؤتمن » عبد الحكيم عامر ،

(١) لعل القارئ يتذكر قضية نصر حامد أبو زيد وقضية الدكتور حسن حنفي .

يرى دونه خرط القتاد ، هؤلاء الحريصون على دخول الجامعة ، حصل أغلبهم في - رأي أبي - على دكتوراهات وهمية ، استغلوا نفوذهم وريق البعض السائب في الحصول عليها ، وأذكر لأبي معارك كبيرة ضد هذا الاتجاه ، وأقول الآن ليته انتصر فيها ، « ولكن من ذا الذي كان يقدر عليهم إذا حاول ، لقد حاول أبي ودفع ثمنًا غاليًا لمحاولاته ـ لكنه لم يستطع الانتصار » .

وكانت أمي ـ من المربيات الفاضلات ـ وخالاتي يعشقن محمد نجيب رمزًا للتخلص من كابوس قديم ، وربما لم يغفرن أبدًا لجمال عبد الناصر الذي كان عن حق هو الثورة ، ما فعله في رأيهن باللواء المعزول ، وأيضًا وهن المتدينات ، كان في قلوبهن شيء لما فعله بالإخوان المسلمين من تشريد ، وسجن ، وتعذيب ، وخراب بيوت ، ضم « العاطل والباطل » ـ في نظرهم ـ وسرى في العائلات حتى درجات القرابة البعيدة ، مثلما تسري النار في الهشيم .

لم يكن يعشق عبد الناصر في بيتنا عشقًا غير أخي الأكبر ـ العاطفي ـ ولقد حاول ونجح في أن يجعلني أعشقه مثله ، إذ ربط بين شخصه في ذهني وحدود الوطن ، بل وخريطة أحلامه أيضًا .

والحقيقة أنني أحببت جمال عبد الناصر منتصرًا في ٥٦ ، يفرض إرادته ـ إرادتنا ـ على الأعداء ، بعد أن أمم قناة السويس ، أحببته زعيمًا للقومية العربية يحمل لواء كرامة العرب في عالم الاستقطاب بين قوتين عظيمتين خرجتا منتصرتين في الحرب العالمية الثانية ، ثم احتكرتا الاحترام والسطوة ، أحببته مثالًا للعزة الوطنية ، اشتراكيًا ـ بطريقته ـ « فقد كنت غرًا أحس أن الاشتراكية هي العدل ، وأصبحت شابًا وأمست شيخًا أراها عين العدل » .

طفولة عاشقة :

نحن جيل دخلت إليه السياسة - إعلامًا صاخبًا - في البيوت ، ولم يسع إليها .

في المدرسة الابتدائية ، كنت أحب - كزملائي - أن أكتب موضوعات إنشاء طويلة للغاية عن بور سعيد وعن وقفة الشعب المصري العظيم فيها في مواجهة العدوان الغادر ، وانتصار إرادة الشعب على الثلاثة الاستعماريين ، وهي حقيقة لا ينكرها إلا المرجفون ، وأول كلمات ألفتها وكانت في نظر أهلي شعرًا ، كتبتها عن محاكم الغدر العراقي ١٩٥٨م ، كما أسماها إعلامنا وهي التي سحل وصلب فيها عبد الكريم قاسم - قائد الثورة العراقية - الوطنيين وغير الوطنيين العراقيين ، كتبتها ضد الشيوعية « إ كنت مقتنعًا وقتها بإدانة جمال عبد الناصر المستمرة للشيوعية وفضحه لـ« حقيقة الشيوعية »[1] ، بل كانت أحب اللحظات إلى نفسي ، لحظة أمسك ميكرفون الإذاعة - بالمدرسة الابتدائية - معقبًا على خطب جمال عبد الناصر ، مقتطفًا منها ما كنت أحب أن يعلو به صوتي من كلمات الزعيم ، فتعلو حولي آهات الإعجاب وفرقعات التصفيق !!

سطوح المدرسة الإعدادية وجمال عبد الناصر :

من سطوح مدرسة علي عبد اللطيف الإعدادية ، « أمام غرفة الرسم ، هوايتي في تلك الأيام » ، أطللت كثيرًا ، من السور جميل التكوين ، لأرى جمال عبد الناصر الذي جاء - مرارًا - ليشيع جنازات المهمين ، من مسجد عمر مكرم ، المواجه للمدرسة ، لا أنسى أبدًا جنازة أحمد لطفي السيد ، أستاذ الجيل ، وحزني الطفل على الرجل الذي لم يتم مائة سنة ، فقد مات قريبًا منها ، دون أن يحقق معجزة الوصول إليها !

---

(١) كتاب عبد الناصر الشهير .

أيضًا لا أنسى جنازة صلاح سالم ، التي أحسست فيها بعبد الناصر متأثرًا للغاية وسط الجنازة الفخمة ، لكن أكثر ما أذكره من الجنازات ، كان ولم يزل ملامح عبد الناصر الجميلة ، رأسه المائل إلى الأمام ، بزته الواسعة أبدًا التي يتلاعب الهواء « ببنطلونها » كما يتلاعب بالأشرعة في البحر ، وحضوره الصارخ .

ولقد حدث لي في المدرسة الإعدادية أشياء لا يمكن نسيانها أيضًا .

ذات يوم زار المدرسة مفتش ليرى مدى استيعاب التلاميذ للميثاق الوطني ، وعندما أراد أن يدخل فصل المتفوقين ـ وضع الناظر يده على قلبه ، فقد كان عالمًا بأن المتفوقين لا يعرفون شيئًا عن المقررات التي تدخل في مجموع نهاية العام ، لكنني أطلت رقبة الناظر في هذا اليوم ، رقبته التي دخل بها فصلنا وهي قد « السمسمة » ، هذا اليوم أعطاني وضعًا خاصًا في المدرسة ، إذ لم يعرف الناظر أبدًا ، إنني كنت أحب الميثاق للفصاحة وموسيقية تعبيراته .

يوم آخر لا أنساه ، يوم حصولي على المركز الأول في مسابقة عامة للمدرسة عن كتابة بحث عن معركة بور سعيد ، ففي هذا اليوم اضطر مدرس التاريخ أن يعترف أمام الناظر بأنه يظلمني في نمرة الشهر لأنني على حد تعبيره طويل اللسان لا أملُّ الاعتراض ، فاضطره الناظر إلى تصحيح شهادتي عن ثلاثة شهور ، هذا التصحيح الذي أعاد لي صورتي « المعجبانية » في مرآة أبي .

الإبراهيمية الثانوية وإصلاح الكون :

لا أدري لماذا اختارني حاتم قابيل « الآن أستاذ إدارة الأعمال بكلية التجارة جامعة المنصورة ، وهو شخصية فريدة ، ذات تجربة سياسية ، أجاد فيها أن يمسك بالعصا من طرفها القريب جدًا من الوسط ، وكان لم يزل أعقلنا في التعامل مع السلطة ، خصوصًا إذا كان غاضبًا من تصرفاتها » لا أعرف لماذا اختارني لدخول

منظمة الشباب الاشتراكي ، ولا كيف أقنعني بالانضمام إليها بعد أن كنت غاضبًا من إعلان لجنتها المركزية قبل تكوينها ، ومن تكوين لجنتها المركزية ـ أيضًا ـ بالاختيار وليس بالانتخاب ، وأذكر أن دخولي منظمة الشباب كان عاملًا فارقًا رسم خطوات حياتي منذ دخلتها حتى اليوم .

هل اختارني لأنه كان زميلي في المدرسة الإعدادية، ورأى فيَّ ما رآه الناظر ؟ « رأى فيَّ خبيرًا في الميثاق الوطني » .

هل اختارني لأنني كنت مثله ـ في ثانوي ـ صديقًا لمكتبة المدرسة الإبراهيمية « التي لم أر مكتبة أكثر منها ثراء حتى اليوم » ، أو لأنني أصدر مجلة حائط فيها اهتمام كبير بالسياسة القومية ، كنت سعيدًا بها لأنني أثبت فيها قدرتي على رسم جمال عبد الناصر ورسم الملك فيصل والملك حسين أيضًا ، عدوي عبد الناصر في ذلك الوقت ، أم لأنني كنت أفوز في مسابقات الشعر في المدرسة، وعلى مستوى الجمهورية بقصائد سياسية عن فلسطين ، وعن الاشتراكية العربية ، وضد الإخوان المسلمين [1] .

بعدما قبض جمال عبد الناصر على تنظيم سيد قطب وشهر به عام ١٩٦٥، لا أعرف ، لكنه اختارني وأقنعني ، وأوقعني في حيرة شديدة في البيت .

أبوك أم جمال عبد الناصر ؟!

عندما دخلت إلى أبي في مكتبه ، أطلب منه السماح بأن ألتحق بمعسكر المنظمة في حلوان ، تغيرت ملامحه وسألني :

(١ أذكر واقعة طريفة حدثت في تلك المسابقة الشعرية التي ألقيت فيها قصيدة تندد بالإخوان المسلمين « أعداء الله والدين » « هكذا كنا مقتنعين في تلك الأيام » ، في تلك المسابقة لم أفز بالمركز الأول « كعادتي في سني الثانوي » ، وفوجئت بناظر المدرسة الأستاذ الفاضل حسن السمرة ، يصعد إلى المنصة ، ويصمم على أن تعلن اللجنة فوزي بالمركز الأول ، وقد كان بعدها قال لي الأستاذ الفاضل : « حد ـ والنبي ـ يقول في مسابقة شعر لبتوع العربي والدين قصيدة ضد الإخوان المسلمين !! » .

لماذا تريد الالتحاق بالمنظمة ؟

لأنني أريد أن أكون ممن سيمسكون بدفة الأمور في هذا البلد ، مستمرين بها منتصرة .

بهذا أقنعني حاتم قابيل ، ولا أبالغ لو قلت : إنه أقنعني بما هو أكثر ، بأننا سنصلح الكون !!

وفاجأني أبي بسؤال :

لو أرادوا منك أن تبلغ المباحث عن أبيك ، هل تبلغ عنه ؟

لن يطلب مني أحد ذلك .

أجب عن سؤالي .

لا ، طبعًا .

ابتسم أبي متسائلًا :

هل تحب جمال عبد الناصر أكثر أم تحب أباك أكثر ؟!

قلت صادقًا :

أحب أبي أكثر .

قال أبي وهو يشيح بوجهه بعيدًا عني :

تذكر أنك قلت هذا ، واذهب إلى المنظمة كما تريد .

وأذكر الآن أنني لم أفهم مغزى حديث أبي ـ ذلك ـ إلا بعد شهور من التحاقي بالمنظمة .

كانوا يعلموننا كيف نحمي النظام !!

لم يؤثر في حياتي شيء أكثر من أبي وأمي ومنظمة الشباب ونكسة يونيو ١٩٦٧م ،

لقد كانت تجربتي في منظمة الشباب تجربة شديدة الثراء ، إن لم يكن بالفعل وحده ، فبرد الفعل ـ أيضًا .

دخلت المنظمة أصغر من أن أكون ناصريًا ، دخلتها معجبًا بجمال عبد الناصر ، أحبه لدرجة العشق ، وخرجت منها في نفس العام عام ١٩٦٧م مقدرًا لجمال عبد الناصر ، عارفًا بفضله ، لكنني كما دخلتها خرجت منها ، لم أكن ولم أصر ناصريًا .

والحقيقة ـ التي لا أماري فيها ـ أن المنظمة صنعت جيلنا ، وأن البعض من جيلنا لم يسمح لها بأن تحطمه! .

في المنظمة تعلمنا الكثير ، على أيدي مناضلين عظماء ، ومناضلين لم يكونوا كذلك ، تعلمنا على يد الدكتور محمود الخفيف ، والدكتور إبراهيم سعد الدين ، والدكتور لبيب شقير ، وتعلمنا ـ أيضًا ـ على أيدي د. رفعت المحجوب ، د. طعيمة الجرف « إذ كانت لهم أياد وقتها » .

في المرحلتين الأولى والثانية تعلمنا الاقتصاد كطلبة الجامعة المتخصصين وتفوقنا في الاقتصاد السياسي .

وفي المرحلتين الأولى والثالثة تعلمنا السياسة بسيطها ومعقدها .

وفي الثالثة أيضًا ، تعلمنا النظريات والأيديولوجيات الكبرى .

وفي الثالثة ـ فوق ذلك ـ « وبعضنا في قبرص » تعلمنا كيف نحمي النظام ، « فهل دار في خلد النظام الذي ربّانا لحمايته أننا سنريه النجوم بعد ذلك في عز الظهر ؟ » .

والشيء الطريف ـ ستأتي طرافته أو سخافته فيما بعد ـ أنني في المرحلة الثالثة حصلت على جائزة « عدد كبير من الكتب » لأنني نقضت (خلِ بالك من نقضت هذه)، ولم أكتفي بنقد نظرية كارل ماركس الفلسفية « ليست الاقتصادية بالطبع »

المعروفة بالمادية الجدلية .

المبعوث .... ضاع منه الكلام ونساه .

وفي المنظمة بين المرحلتين الثانية والثالثة ـ فيما أذكر ـ حضرنا ـ بعض أعضاء المنظمة ـ مؤتمر المبعوثين كمنظمين لإعاشتهم ، ورحلاتهم ، أثناء انعقاد المؤتمر ، وكمناقشين سياسيين مُدَربين نحاول إقناعهم بإنجازات النظام ، وبكذب هؤلاء الذين يتخرصون عليه .

كنا متحمسين للنظام ولم يكن عدد منهم متحمسًا له ، وفي هذا المؤتمر رأينا كيف أحرج غير المتحمسين للنظام دكتور لبيب شقير ، وكمال رفعت ، وعلي صبري ، ولم ننتبه ـ وقتها ـ لأن جمال عبد الناصر ، عندما جاء ليقابلهم قمعهم بالخوف .

رأينا منهم من فتح فمه فلم تخرج من فمه كلمات من فرط رعبه ، لم يخرج غير هواء جوفه « كان إذا لم تخني ذاكرتي رئيس وفد مبعوثي مصر إلى هولندا » ، وعندما أصر عبد الناصر وقد حاصره بعينيه القويتين على أن يتكلم المبعوث وبسرعة ، اختفت الكلمات كلها من عقل ولسان المبعوث الغارق في عرقه ، فقال :

سيادة السفير بيسلم على سعادتك « وكان يقصد سفير مصر في هولندا فيما أذكر » .

وضحك عبد الناصر ، مما زاد في ارتباك المبعوث ، ثم قال جمال عبد الناصر :

هل تحملت الدولة مصاريف سفرك وإقامتك ، لتقول لي هذا الكلام ؟!

وسمعنا إذ نودي على واحد من وفد المبعوثين إلى ألمانيا الغربية ، ولعلي لا أكون قد نسيت ، فإن ما أذكره أن من نودي عليه ذاك كان خبيرًا جيولوجيًا ، تلجأ إليه ألمانيا ــ وهو المصري ــ في مفاوضاتها التي تتعلق بهذه الأمور « الجيولوجية » في نطاق السوق الأوروبية المشتركة ، ولما وقف وكان قصيرًا مدكوكًا ، ذا صلعة تعد بأنها ستتكامل مع الأيام ، قال له جمال عبد الناصر :

أنت الرجل الثاني بعد سعيد رمضان .

وسعيد رمضان كان إخوانيًا « الإخوان وقتها في مصر كانوا في السجن » وكان قد غادر مصر في الخمسينيات وترأس التنظيم العالمي للإخوان الذي يحارب عبد الناصر ، وعندما ارتبكت القاعة واستشعرت خطرًا قادمًا لا محالة مال جمال عبد الناصر على « علي صبري » قائلًا وهو يبتسم ابتسامته الساحرة المخيفة المقتضبة، وبصوت من الممكن سماعه في القاعة :

برضه يسافر يا علي .

وكان يقصد أنه لن يعتقل .

لكن الحادث برغم العفو الثوري السامي ، تسبب في أن لسان المبعوثين هو الذي اعتقل داخل أفواههم من تلك اللحظة .

ثم تكلم عبد الناصر عن إنجازات الثورة ، التي يجحدها الغربيون ، وقام الجميع لتلتقط لكل وفد على حده ، صورة تذكارية مع الرئيس انتهى بعدها المؤتمر .

ثم فهمت مغزى تحذيرات أبي :

وفي المنظمة بعد المرحلة الثالثة كنت أجلس في فصلي ، وأعلنت معارضتي ورفضي لاستعمالنا قنابل الضغط في اليمن التي عمدنا إليها لتطهير كهوف الجبال من المناوئين ، تلك القنابل التي تفجر الدم من آذان وأفواه من تستعمل ضدهم (وتقتلهم بالقطع) .

بعدها بأيام طلبتني المباحث العامة بباب اللوق ، وأذكر أن أخذني إلى هناك أستاذ التاريخ في مدرستي « كنت أُجله حتى تلك اللحظة » وفي المباحث حذروني من التمادي بعد أن أخافوني بالطبع ، لكني في الحقيقة « التي لا تصدق » كنت خائفًا

من أبي ، غير عارف ماذا سأقول له بعد أن تأخرت عن العودة إلى البيت في ميعاد انتهاء المدرسة « القريبة من بيتنا في جاردن سيتي في ذلك الوقت » .

يومها عرفت أن زميلًا متفوقًا في فصلي ، « منظاوي » مثلي ، هو الذي أبلغ عني ، ولحظتها تذكرت وفهمت ما عناه أبي حين سألني :

لو أرادوا منك أن تبلغ عن أبيك ، هل تبلغ عنه ؟!

لقد فعلها صديقي ، وأبلغ عن صديقه الأثير .

وقالوا : أنت عضو في تنظيم ماركسي سري ؟

وفي المنظمة أيضًا أصبحت مسؤولًا عن التثقيف في مدرستنا ، وفي المكتب التنفيذي لقصر النيل ، وأصبحت عضوًا في لجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي عن المدرسة وكانت لجنة العشرين تجتمع بمكتب ناظر الإبراهيمية الأستاذ الجليل حسين السمرة ، وكان يقدم لها كل التسهيلات ، ورغم هذا هاجموه في المكتب التنفيذي لأنه رجعي ، مضاد للثورة ، يركب مرسيدس ، ودافعت عنه أنا وحاتم قابيل على ما أذكر ، وتساءلت عمن أبلغ عن الناظر ؟

ساعتها أيضًا تأكد فهمي لما عناه أبي بسؤاله .

وفي المنظمة أيضًا ، تعرفت في المرحلة الثالثة على إنسان جميل ، اسمه كاسمي « هشام » ، « للأسف نسيت بقية الاسم » ، كان يقابلني مرارًا ، وكان يكلمني كثيرًا في الفلسفة والاقتصاد والسياسة « كدأبنا جميعًا في ذلك الوقت » ، ثم فوجئت باستدعائي للمباحث العامة ـ للمرة الثانية ـ بعد ذلك ، وفي المباحث عرفت أنهم قبضوا على أعضاء بارزين في المنظمة « وأعضاء عاديين » بحجة أنهم شكلوا تنظيمًا ماركسيًا داخل المنظمة « أحد المقبوض عليهم كان عضوًا في اللجنة المركزية

للمنظمة » ، وكان هشام ـ صديقي ـ ضمن المقبوض عليهم ، وجاؤوا بي لأنني صديقه ، ولأنني اتهمت بأنني عضو في التنظيم الشيوعي المقبوض عليه ولم يشفع لي أنني حصلت على جائزة في المرحلة الثالثة لأنني نقضت الفلسفة والفكر « الماركسي » ، « هل يذكر القارئ أنني قلت قبل ذلك أن طرافة الأمر أو سخافته ستجيء بعد ذلك ، ها هي ذي قد جاءت ، واتهموا بالماركسية من أعطوه جائزة لأنه في نظرهم نقض الفكر الشيوعي الفلسفي » يومها أصابني خضة من المنظمة التي بدأت تأكل أبناءها الذين سيستمرون بمصر منتصرة .

ثم انتقمت في تقرير رأي عام !!

وفي المنظمة أيضًا جاءني لوم لأنني لا أكتب « تقرير رأي عام » وكانت هذه التقارير تتضمن رأي الناس ، الشائعات ، النكت ، وغير ذلك ، فكتبت تقريرًا قلت فيه - عنادًا : إن الناس يرون أن السيد علي صبري « وكان أمينًا عامًا للاتحاد الاشتراكي ورئيسًا للوزارة ـ وقتها » ، مسيطر على البلد ، أما الشائعة فكتبتها : « أن السيد علي صبري يضعف الجيش بتقوية الاتحاد الاشتراكي ، بغرض عزل عبد الحكيم عامر الذي ينتويه جمال عبد الناصر « لم يكن الأمر يخلو من حقيقة » ، أما النكتة فكتبتها أن السيد علي صبري اشترى المكاتب التنفيذية « التي تدير أمور الاتحاد الاشتراكي » لكي يذاكر عليها أبناؤه في البيت ، أما الأنكت فهو أن أحدًا بعد هذا التقرير لم يطلب مني كتابة تقرير رأي عام أبدًا! .

ليته فهم مغزى السؤال .

وفي المنظمة سألنا جمال عبد الناصر ، من الذي سيستمر بالثورة بعده ؟ فقال جمال عبد الناصر ردًا على تساؤلنا :

أنتم ، أنتم الذين ستستمرون بالثورة بعد جمال عبد الناصر .

إذ لم يكن جمال عبد الناصر وقتها يعلم ما يخبئه له ولنا أنور السادات ، أنور السادات الذي خبأه لنا جمال عبد الناصر !.

عند الامتحان ... انتكس الوطن .

كان العام الدراسي ٦٦ـ ١٩٦٧ ، يوشك على الانتهاء وكنا نستعد مرتعدين لامتحان الثانوية العامة « ذلك البعبع الشهير » ، والذي كان سيبدأ في ١٠ يونيو ١٩٦٧م ، القاهرة كانت صاخبة منذ ما يقرب من شهر طويل ، قبل ذلك الوقت ، والإذاعة والتليفزيون يصرخان ، والناس لا وقت لديهم لأي شيء غير الكلام عن معركة التحرير المقبلة ، كان مذاق حفل أم كلثوم يوم الخميس ١ يونيو ١٩٦٧م ما زال يسري كالعسل في حنايانا .

أغنيتها الجميلة التي ألفها لها صلاح جاهين « راجعين بقوة السلاح / راجعين نحرر الحمى .... راجعين كما رجع الصباح / من بعد ليلة مظلمة » ، أغنيتها تلك كانت لا تتوقف عن الرنين في آذاننا وفي القلوب ، جنبًا إلى جنب ـ أو في عناق ـ مع أحلى أداء قدمته أم كلثوم في عمرها المديد الثري لرائعة شوقي « سلوا قلبي » ، القصيدة التي انتزعت التصفيق أكثر من مرة ، والآهات عشرات المرات ، والصرخات المدوية النارية عندما وصلت « الست » إلى البيت الشهير في القصيدة :

وما نيل المطالب بالتمني   ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا

أيضًا كان الحديث الصحفي العالمي لجمال عبد الناصر ، في ٢٨ مايو ١٩٦٧ ، والذي أذاعه التليفزيون ، ما زال وقتها يملؤنا بالثقة ، ويرعش جوانحنا بفرحة تنتظر التحرير ، « أنا مش خرع زي مستر إيدن » ، « أين الكيمياء والفيزياء والرياضيات من كل هذا ؟ » .

كان خوفنا يدمدم في حنايانا من امتحان الثانوية العامة ، ونحن ننهي استعدادنا له ،

وسط صخب مصري وعالمي يقتحمان الحوائط ، ويستقران على مكاتبنا فيخفيان السطور ، وفجأة انقضت الطائرات الإسرائيلية في صباح اليوم الخامس من يونيو ١٩٦٧م .

لم تصب الطائرات الإسرائيلية طائراتنا الرابضة كبطات لا يعرفن أن صائدًا يستلل من مكمنه ـ فحسب ـ إليهم، أصابت الطائرات حلمنا ، أماننا ، مستقبلنا ، دنيانا ، وأماكن غائرة في نفوسنا ، وأدمت القلوب والعيون ، كانت نكسة ، « كما سماها محمد حسنين هيكل » .

من التنحي إلى السفارة الأمريكية :

أيام من النكسة لا ولن تمحى من ذاكرتي ومن ذاكرة الجيل ، الساعة الخامسة فجرًا يوم ٨ يونيو ١٩٦٧م ، تم استدعاؤنا ـ أعضاء منظمة الشباب وأعضاء الاتحاد الاشتراكي ، ذهبنا في غبشة الفجر إلى المدرسة الإبراهيمية ، في الاجتماع قال لنا المسؤولون عنا : إن قواتنا تراجعت تكتيكيًا إلى خط الدفاع الثاني عند الممرات وهي تستعد لانقضاضة كبرى ، استشعرنا الخطر الشديد ، كيف ؟ لم يكن ذلك كلام الإذاعة والتليفزيون والصحف ، وطلب المسؤولون منا لحظتها أن نعمد إلى إخفاء صوت المعركة في الشعب ، وأنه يتوجب علينا أن ننزع كل الملصقات التي تتكلم عن الحرب من الحوائط في شوارعنا وأن نعد الناس لمعركة طويلة ، وألا نسمح لأعداء الشعب بـ« الشوشرة » ، أذكر لحظتها أن صوت نحيب قد بدأ خافتًا راح يتعالى في كونشيرتو حزين بكريشنيدو متصاعد الصخب ، عجزت إرادتنا عن كبح نغماته العالية ، ثم بدأنا نهتاج ونتصايح في وجوههم ، وليس في قلوبنا إلا أن هؤلاء ومن هم فوقهم أضاعوا البلد ، كنا قد فهمنا الأمر « برغم هذا لم نصدقه إلا في اليوم التالي » ، ووسط صرخاتنا أعلنا حل منظمة الشباب ، وإننا لن نعود إليها أبدًا ، كنا قد دخلنا الاجتماع في غبشة الفجر ، ثم خرجنا والدموع في أعيننا وقد صار الفجر ظلامًا حالكًا .

يوم آخر لن ننساه ، يوم التنحي ، جلسنا كلنا في البيت أمام شاشة التليفزيون في الموعد ، وظهر لنا جمال عبد الناصر :

صاحت أمي :

فيه مصيبة سوداء ، أنا عمري ما شفت جمال عبد الناصر بالشكل ده .

أردنا أن نسكت أمي لنسمع ديباجة الرئيس قبل أن يدخل في المهم ، لكنها لم تسكت ، قالت وعيناها تؤكدان خيبة أمل عظيمة :

خدوده مدلدلة ، وعينيه زائغة ، ح يعلن مصيبة .

قامت أمي لتغادر الحجرة وهي تغمغم :

أنا مش ح أسمع الخطبة دي .

لكن أمي عادت بعد ثوان معدودة ، واستندت إلى باب الغرفة تسمع معنا تنحي جمال عبد الناصر عن المسؤولية لزكريا محيي الدين الذي يستطيع التفاهم مع الغرب .

وصحنا فاشتبكت صيحتنا مع المصريين كلهم :

هو خلاص .... خلاص .

مرت دقائق ورن جرس البيت ، انزعج الكل وكأنهم شعروا مثلي أن اليهود والأمريكان يدقون علينا الباب في تلك اللحظة .

وخرجت لأفتح ، لم أجد أمامي أحدًا ، لكن صوت أحمد عادل مصطفى « عضو المنظمة ، زميلي الذي أتمنى لو أعلم أين أراضيه الآن » جاءني من بسطة السلم التي تفصلني عنها اثنتا عشرة سلمة لأسفل :

فيه أوامر من المكتب التنفيذي بتفريق أي مظاهرات يقوم بها الناس .

صحت فيه غاضبًا « ليس منه بالطبع » :

أنا لا آخذ أوامر من المكتب التنفيذي .

قال أحمد عادل وهو يلتهم السلالم نازلًا :

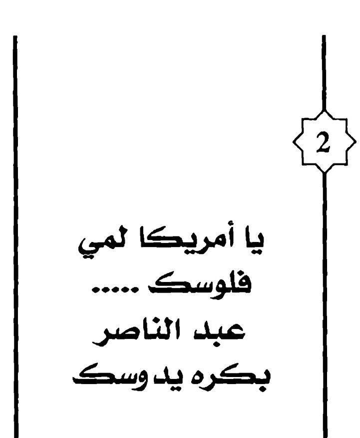
أنا معنديش وقت للمناقشة يا هشام ، لازم أبلغ الكل .

« قيل فيما بعد على لسان العباقرة : أن الاتحاد الاشتراكي هو الذي نظم المظاهرات ، وأقولها بصراحة: لو كان الاتحاد الاشتراكي يستطيع أن ينظم مظاهرات كهذه ـ لما حدثت النكسة من أصله ، لو كان الاتحاد الاشتراكي يستطيع أي شيء ، لما نفخ السادات في أعمدته ـ تلك النفخة التي أسماها ثورة التصحيح في مايو ١٩٧١ ـ فذراهم في الهواء ، دون أن يبكي عليهم أحد » .

أغلقت باب الشقة وأنا حائر ، وإذا بصوت هادر ، فائر ، عنيف يأتيني من الشباك المطل على شارع القصر العيني ، عدوت لأطل على الشارع ، لحظتها رأيت مصر في شارع القصر العيني ، نعم مصر ، وانفجرت دموعي ونزلت إلى مجلس الشعب ، أهتف مع الباقين ، بأننا لم ننته بعد ، أننا لن ننتهي أبدًا .

يوم ثالث لا أنساه ، عشرة يونيو ١٩٦٧م .

في هذا اليوم قررنا « مجموعة ـ لا يعرف الواحد منها معظم الآخرين ـ التقت في شارع القصر العيني ، أمام شارع مجلس الأمة ، أن نهاجم السفارة الأمريكية لنعلن للأمريكان أن يدهم الطولى لن تتحكم في مصر ، وأنهم لو حاولوا فسوف يدفعون الثمن غاليًا ، أغلى مما يتصورون ، كنا نريد أن نعلن للأمريكيين ، أننا لسنا خائفين منهم ، وأن عليهم هم أن يخافوا منا ، لكننا وبعد معدودات ، كنا نحن أسرى لخوف غريب مرير لم نعهده من قبل .


2
يا أمريكا لمي
فلوسك .....
عبد الناصر
بكره يدوسك

عندما علت الصيحة ، صيحتنا ، تطالب الحشود المتظاهرة ، في ١٠ يونيو ١٩٦٧ ، بالهجوم على السفارة الأمريكية ، كانت خطواتنا الشابة قد سبقتها وأدت إلى تجمعنا حول مبنى السفارة الأمريكية في جاردن سيتي « على بعد أمتار قليلة من مجلس الأمة ، الآن مجلس الشعب » .

لم يكن أحدنا يعرف اسم الآخر ، لكن كلًا منا كان يفهم قصد الآخر ونيته ، في إعطاء الأمريكيين درسًا بليغًا ، اتجهت أعيننا ضاربة في كل اتجاه ، مغروسة أيضًا في عقول من حولها ، في عقول بعضنا البعض ، وكانت كل الأعين تتساءل : ماذا نفعل بالسفارة ؟!.

وعلى غير اتفاق مالت الأعين إلى الأرض بحثًا عن الطوب ، بينما الحناجر تهتف بالويل للأمريكيين ، وفجأة صك صوت مدمدم آذاننا ، واختلطت الدمدمة بالصهيل المجروح ، وارتفعت أعيننا لنفاجأ بفرقة من الخيالة تهاجمنا ، بل تدهمنا دون أن تعطينا فرصة لاستيعاب الصورة ، والموقف ، كانوا قد أطلقوا علينا الخيول ، والقنابل المسيلة للدموع ، وكأن مآقينا كانت تنقصها الدموع في تلك الساعات ، وكأن أرواحنا وأجسادنا كان ينقصهما شيء غير النكسة ليدهمها ، بل ويهرسهما .

أذكر ـ الآن ـ أنني لم أخف في حياتي مثلما خفت في ذلك اليوم ، في تلك الساعة ، لقد ضُربنا بالرش والرصاص الحي ـ فيما بعد ـ ونحن نتظاهر ، لكن الأحصنة تخيف أكثر .

آه من الحصان.. آه .

الحصان وهو يهاجمك يكون رأسه في اتجاه بينما يندفع جسده في أي اتجاه آخر ، وعندما يشب أمامك على قائمتيه الخلفيتين ، لا تعرف بالضبط أين ستنزل رجلاه المثنيتان عند الركبة وتحت الركبة ، بحافريها اللذين ارتفعا إلى مستوى صدره العالي

بمسافة .

رحنا نعدو متخبطين في الجياد وفي أنفسنا ، نقف ونقوم لندفع فلا نرقد !! تنزل علينا رجل الحصان ، وكأنها ثقل « ونش » يسقط من عل « الآن أفهم الصورة التي رسمها شاعر العرب الكبير جدًا امرؤ القيس عن حصانه ، بعد أن رأيت حصان الحكومة ، أفهم الآن كيف يكون الحصان : مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معًا ، وأيضًا كيف يكون : كجلمود صخر حطه السيل من علٍ !! » .

عندما وصلنا إلى شارع قصر العيني مرة أخرى والأحصنة في أثرنا ، كان الشعب يهتف : « يا أمريكا لمي فلوسك .... عبد الناصر بكرة يدوسك » ، وكانت دموع الغضب تتساءل في أعيننا الصغيرة : هذا هو رأي الشعب فلماذا يحمون سفارة الأمريكان ؟ تصورنا وقتها أن الشعب كان في وادٍ وأن الحكومة كانت فوق الأحصنة .

أذكر أنني ألفت يومها ، وأنا ملقى على الأرض مستندًا بظهري إلى ضريح الشيخ ريحان قصيدة ضد عبد الناصر ولحنتها لحنًا بدائيًا ورحت أغنيها بنشيج باك ، موقعًا بدقات الأكف ، كانت بعض كلماتها تقول :

حكايتــــــــك غريبـــــــــة ... مصـــــــيبتك مصـــــــيبة
نهايتـــــــك رهيبـــــــة ... في يـــــــوم الحســــــاب
تضــــــــــــيع لي أرضي ... تبهـــــــدلي لي عـــــــرضي
وعقلـــــــك مـــــــفضي ... وشـــــــورتك هبـــــــاب

كنت أبكي من قهر شديد ، قهر الهزيمة ، وقهر الخوف الذي داهمني مع الأحصنة ، رنهر لأنهم منعونا من تدمير السفارة الأمريكية ، لتعرف أمريكا أن لا مكان لها في مصر ، « كنت مخطئًا في محاسبة عبد الناصر ، على القهر الأخير في شعري ،

ذلك أن السلطة ـ أي سلطة ثورية أو غير ثورية ـ كان لابد أن تحمي السفارات ، على أرضها » .

الآن أرى أن كان للتقهر سبب آخر . إنه الاضطراب الذي يواجهه الجنين فسيولوجيًا لحظة خروجه من الرحم « هو الآخر يبكي » ، لقد كنت ساعتها أخرج منفصلًا عن رحم جمال عبد الناصر ، الأب ، أقطع حبلي السري عن حبله ، عن أبوته ، عن سلطته ، عن إحساسي القديم بأننا مسؤوليته ، لقد أصبح الآن الوطن مسؤوليتنا جميعًا ، انقطع الحبل السري . وفُطمنا وتمردنا على السلطة الأبوية ، وانفصلنا عنها ، كل ذلك في لحظة واحدة .

وكان أنور السادات ممثلاً ـ جيدًا ـ كعادته :

والغريب أن ذلك كان يجري داخلنا بينما أنور السادات ، يرتج صوته متهدجًا وقد أرعشه نشيج البكاء ، يؤكد في الميكروفونات جميعًا التي علقت على مجلس الأمة ، والراديوهات التي ثبتت مفتوحة في كل مكان ، يؤكد لعبد الناصر : « أن الجماهير التي تفصلنا عنك إنما تقربنا منك » ، وكان وقتها يقصد أن عبد الناصر لن يستطيع أن يأتي إلى مجلس الأمة لأن ازدحام الجماهير في كل الطرقات ، يحول بين موكبه وبين الوصول إلى المجلس ، وكان أنور السادات يعلن في نفس الوقت وبنفس البكاء والتشنج ، موافقة الزعيم على العودة إلى السلطة نزولًا على إرادة الجماهير ، بعد أن تغاضى عن رغبته في التنحي .

هل نقول حقيقة ؟!

لعلنا نتوقف هنا قليلًا لنؤكد على حقيقة قد يقرها البعض ، وقد يتهرب منها آخرون وهي أن اضطرابًا شديدًا ، وتخبطًا ، كان قد اعترى تنظيمات جمال عبد الناصر كلها ، الاتحاد الاشتراكي ، التنظيم الطليعي « بصورته القديمة التي

بدأت ١٩٦٥ » ، ومنظمة الشباب الاشتراكي ، ففي أماكن « حسب التوزيع الجغرافي للمكاتب التنفيذية للاتحاد الاشتراكي والمنظمة » ، كان الكلام يدور حول الانتصار الوشيك ، الانتصار الذي لن يبقي إسرائيل ولن يذر ، وبقي هذا الكلام كلامهم حتى في الأيام الأولى من الحرب ، إلى أن فاجؤوا الشباب وأعضاء الاتحاد الاشتراكي ، بكلام مخالف ابتداء من ليلة ٨ يونيو ١٩٦٧ ، بدأ بالتراجع إلى الخط الثاني « خط المضايق » ، ثم تدرج إلى خسران جولة ، في صراع طويل ومرير ، وضرورة إعادة بناء القوات المسلحة لتدخل حربًا في خلال شهور ، ثم في خلال أعوام ، ثم في الوقت المناسب الذي سوف تحدده القيادة السياسية « جمال عبد الناصر » ، وفي أماكن أخرى حدث العكس تمامًا .

قال لي عاصم الفولي « مهندس صاحب شركة إنشاءات عقارية ناجحة الآن ، وكان وقتها في عام ١٩٦٧ الطالب في الأورمان الثانوية ، المسؤول عن شباب المنظمة فيها ، وعضو مكتب التثقيف في قسم الدقي » إن في مساء ٣ يونيو « قبل الحرب بثماني وأربعين ساعة » ، تم استدعاؤه في المكتب التنفيذي في الدقي ، وأعلنوهم أن مندوبًا من اللجنة المركزية للمنظمة سيجيء ، ليقول لهم كلامًا في غاية الأهمية ، ومرت ساعتان ، ثم وصل « يحيي حمزة أحمد حمزة » ، « فيما يذكر عاصم » ليقول للشباب : إن عليهم أن يبلغوا كل كوادر المنظمة قبل أن يطلع نهار ٤ يونيو ، أن مهمتهم هي إبلاغ الشعب ، بأننا لن نكون البادئين في الحرب ، وإن إسرائيل ستبدأ ، ستبدأ ، ولن يتأخر الأمر أكثر من ٤٨ ساعة على أي الأحوال ، وإننا سوف نفقد (١٠٪) من قواتنا في ضربة إسرائيل الأولى تلك ، وستكون الحرب طويلة ومريرة .

ساعتها تساءل عاصم ببراءة :

هل سيصدقنا الناس في هذا الكلام بعد أن ملأ الإعلام رؤوسهم منذ ما يقرب

من الشهر بكلام عكس هذا ؟!.

ورد عضو اللجنة المركزية :

ليس المطلوب أن يصدقكم الناس ، لكن الناس إذا ما قلتم لهم ذلك ، ووجدوه بعد أيام واقعًا، لن يصدموا .

لا أظن أن هذا الأمر تكرر في مواقع كثيرة .

والحقيقة أن هذا الكلام خطير للغاية فهو يعني أن عبد الناصر بعد اجتماعه بقادة القوات المسلحة يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ ، وبعد أن حذروه من خسائر تلقي الضربة الأولى ، وخصوصًا صدقي محمود قائد الطيران ، وبعد أن رد عليهم جمال عبد الناصر بأن من المستحيل أن نبدأ نحن الحرب لأنه لم يبق لدينا غير خيارين إما أن نبدأ ونحارب أمريكا ، أو تبدأ إسرائيل ونواجهها وحدها ، عبد الناصر بعد أن وضع العقدة في المنشار للقوات المسلحة ، كان قد أحس أنه دخل المصيدة ولن يخرج منها ، وهكذا أراد أن يسرِّب للناس ما يحبط آمالهم التي ارتآها لن تصْدُق ، وأراد في هذا الأمر أن يستغل المنظمة وأظن أنه تراجع ، وكان اضطراب المنظمة بداية نهايتها ، إذ سيكتب التاريخ أن منظمة الشباب أصيبت إصابة قاتلة مع مطاراتنا ، وشهدائنا ــ لحمنا ودمنا ـ الكثيرين ... الكثيرين ... على أرض سيناء .

نسوق هذا الكلام للعباقرة الذين تصوروا أن الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب كانوا وراء خروج مظاهرات ٩، ١٠ يونيو ، لنؤكد أن مظاهرات ٩، ١٠ يونيو كانت وراء خروج الشباب ـ الغاضب من يومها وحتى إشعار آخر ، بل ــ وأكثرهم ـ من تنظيمات جمال عبد الناصر كلها .

ضباط القوات المسلحة يصطادون الطلبة :

أيام أخرى لا أنساها من أيام النكسة : هي تلك الأيام التي تدربنا فيها تدريبًا

عسكريًا راقيًا .

كنا قد تركنا كتبنا ، ونسينا الثانوية العامة ، ورحنا إلى المكتب التنفيذي لقصر النيل « وهكذا فعل غيرنا في كل المكاتب التنفيذية » ، نلح على ضرورة تدريبنا عسكريًا .

لم تكن قد مرت أيام على النكسة فلم يجد طلبنا « في تلك اللحظة » أية عراقيل ، « كان الجيش المصري وقتها قد أصبح في خبر كان » ، وكانت الطرق من مدن القناة إلى القاهرة مفتوحة لا يقف فيها إلا قوات الحرس الجمهوري « في مواجهة محاولات غير مستبعدة لاحتلال القاهرة، من عدو أصابه انتصار سهل بالزهو ، وأصابه الزهو بالغرور ».

كانت القوات المسلحة في ذلك الوقت تعيد تكوين وحدات عسكرية جديدة من أفراد نجوا من جحيم سيناء ، والتقطتهم معسكرات الشاردين .

المهم ، أجيب طلبنا « الذي حورب كثيرًا جدًا فيما بعد » وأُخذنا متطوعين إلى مدرسة المشاة بالعباسية « الآن هي عمارات العبور الفارهة لضباط القوات المسلحة » ، لنتدرب « تدريبًا راقيًا » على استخدام السلاح « هكذا أسموه في هذه الفترة » .

منذ اللحظة الأولى التي وضعنا فيها أرجلنا في مدرسة المشاة صرنا صيدًا سهلًا متاحًا ومباحًا للضباط والجنود من أفراد القوات المسلحة الجريحة المكلومة ، أفرغ فينا الضباط والجنود غيظهم من النكات التي أمطرها الشعب المصري عليهم بمجرد أن قبل جمال عبد الناصر العودة إلى كرسي الرئاسة وبعضها أيضًا للتاريخ كان يمس جمال عبد الناصر شخصيًا وأقواها فيما أتذكر النكتة القائلة : عبد الناصر جه يغير التاريخ ، غير الجغرافيا .

كان الشعب « في محاولة لتعذيب الذات » قد ألغى رتب القوات المسلحة

« ملازم ثان ، ملازم أول .... » وحولها إلى « سريع أول ، سريع ثان ، .... » وكان يقصد بذلك أنهم جروا في سيناء من مواجهة العدو .

لم يكن الشعب على حق في نكاته « لكن يشفع للشعب أنه لم يكن قد عرف شيئًا من أسرار النكسة بعد، فلا الجنود ولا الضباط كانوا مسئولين عما حدث ، كانت المسؤولية مسؤولية نظام ترهل ، وقادة عسكريين مارسوا كل شيء في الدنيا إلا الأمور العسكرية فيما تلا كارثة الانفصال السوري عن الجمهورية العربية المتحدة « وحدة مصر وسوريا من ٥٨ـ ٦١» ، لكن الشعب أراد بنكاته أن يجعل للنكسة سببًا يمكن تجاوزه ، فجعل السبب هؤلاء الذين جروا ، والذين سيستبدلهم بمن لا يجرون ، وهذه أولى صفات جلد الذات ، فأنت لا تجلد ذاتك لفقدانك ما لا تستطيع تحقيقه ، بل لفقدانك ما كان مفترضًا أنه في يدك ، وحقيقة فإن النصر كان في يدنا ، وما زال ، كان الشعب ينفي داخله إحساسًا مؤرقًا ، وغير حقيقي ــ بالتفوق الإسرائيلي ، إحساس كان يجري ترويجه من تحت لتحت في هذه الآونة، بحسن نية وبسوء نية أيضًا وكانت السلطة تشارك في هذا الترويج .

ولقد اضطر جمال عبد الناصر في أول خطاب له بعد التنحي « في عيد الثورة ٢٣ يوليو ١٩٦٧م » ، أن يطلب من الشعب التوقف عن التنكيت على إخوتهم وأبنائهم من أفراد القوات المسلحة ، حفاظًا على الروح المعنوية وإرادة الانتصار .

في طوابير التدريب في مدرسة المشاة كان الضباط والجنود يتسمون لنا في سخرية واضحة صائحين :

أنتم بقى اللي ح تحرروا مصر ؟!!

كنا نقف لنتعلم الاشتباك بالأيدي وبالأسلحة البيضاء « السونكي » والخنجر فنفاجأ بأننا نضرب علقة ساخنة ، وأنهم يشيلوننا ويبهدلوننا بحق وحقيق .

ما تنشفوا ، آمال ح تحرروا مصر إزاي ؟!

وكنا في عز الصيف « يونيو » ، نُترَكُ في التدريب عطاشى بلا ماء ، وبعد أن أفهمونا أن الماء موجود فقط في جامع المدرسة البعيد عن مكان تدريبنا ، وبين الطابور والآخر كانوا يطلقوننا إلى الماء في الجامع على أن نعود راكضين بمجرد سماع صوت الصفارة ، ثم كانوا يطلقون صفاراتهم قبل أن نصل إلى الماء دومًا !!

وأشياء أخرى كثيرة فعلوها معنا ، كانت كلها لإهانتنا ، ردًا على إهانة الشعب لهم بالنكات الوفيرة « لقد كان أصحاب المصلحة الواحدة يضرب بعضهم بعضًا ، لأن سر النكسة الحقيقي كان لم يزل مخفيًا مجهولاً ، وربما مُتجاهلاً، فلم تكن السلطة وقتها قادرة على إظهاره » ، برغم هذا تعلم بعضنا كيف يستخدم البندقية الآلية (٦٢ , ٧×٣٩) وتعلم البعض الآخر كيف يستخدم الرشاش ، وتعلمنا كلنا استخدام القنابل اليدوية ، والاشتباك بالأيدي وبالسلاح الأبيض ، ذلك أن المدربين برغم كل آلامهم وغيظهم ، أخلصوا في تدربنا ، مستشعرين خطورة المرحلة مستهدفين خير الوطن ، ووجهه الجميل ، نحن أيضًا كنا مصممين على أن نتدرب مهما كانت العراقيل .

والحقيقة أنني « وخلي بالك جيدًا من هذا » قبل انتهاء تدريبي ، اضطررت إلى أن أغادر مدرسة المشاة وأعود إلى البيت ، إذ كانت قد بقيت أيام ثلاثة على الميعاد الجديد الذي حددوه لامتحان الثانوية العامة ، والذي عرفنا به في المعسكر متأخرين للغاية ، وعن طريق الصدفة البحتة (قبل الامتحان بيومين فقط، برغم أنهم في المعسكر كانوا يعلمون أن بيننا طلبة في الثانوية العامة) .

علي صبري ، هو علي صبري ، مهما حدث :

ويوم آخر لم أنسه من أيام النكسة .

في المكتب التنفيذي ، جمعوا الذين أتموا تدريبهم الراقي على السلاح واستدعوني معهم ، قلت في براءة :

أنا لم أتم تدريبي « ألم أقل لك خلي بالك من هذه » .

معلش ، خد .

أعطوني رشاشًا فاندهشت ، وقلت في براءة أيضًا :

لكني كنت أتدرب على الآلي (٦٢ , ٧×٣٩) .

معلش ، ياللا بينا .

أوقوفونا في جاردن سيتي ، أمام إحدى قصورها القريبة من الكوبري الصغير الذي يقود إلى كلية طب قصر العيني ، وقال لنا المندوب : إن مهمتك حماية ذلك الكوبري من أعمال التخريب التي يزمع العدو القيام بها لترويع الجبهة الداخلية ، و..... وصحنا وقد أصبحت دهشتنا أكبر من أن تتحمل :

لكننا نقف بعيدًا عن الكوبري ، نقف بعيدًا عن النيل ، نقف عبر الكورنيش على الرصيف المقابل لرصيف النيل .

معلش ، شدوا حيلكم .

مر وقت طويل ونحن وقوف ، كل منا يصرخ في داخله صوت يرج حناياه رجًا بالغضب ، « الأمر صوري ، الأمر لا جدية فيه » ، لكن أحدًا منا لم يهمس للآخر بالصرخات داخله ، وفجأة مرت بنا دراجة وصاح فينا راكبها :

السيد علي صبري ح يوصل بعد دقائق ، رتبوا أنفسكم .

لحظتها تركنا السلاح بعد أن سندناه على سور القصر الفاره ، وجلسنا على السور معتمدين أن نشوّه صورتنا ، التي سيراها السيد علي صبري ، لا أن نرتبها كما أمرونا ،

لقد عرفنا ما فيها ، الأمر تشديد خانة أمام علي صبري الذي يسد بدوره خانة أمام جمال عبد الناصر ، ها نحن ذا نقف بعيدًا عن النيل ، الذي سنحميه من المخربين ، لكي نكون في الناحية التي ستمر بها سيارة علي صبري « أي جرأة يمتلكها هؤلاء الناس » لقد أثبتت لنا جرأتهم في إيقافنا بعيدًا عن الهدف الذي نحميه ، أن علي صبري نفسه يعلم بصورية الأمر ، وأنه يسد خانة عند جمال عبد الناصر الذي لا يمكن أن يجهل صورية تلك الإجراءات .

وللحقيقة فقد كان السؤال يستفز ضيفنا ، ويحرق أعصابنا .

ألا يعلم جمال عبد الناصر بصورية الأمر ، أم هو يعلم وهو الآخر يسد خانة أمام الشعب ؟! الآن أعرف الإجابة ، وهي أن المكتب التنفيذي كان يسد خانة أمام علي صبري ، وعلي صبري كان يسد خانة أمام جمال عبد الناصر ، الذي كان يسد خانة بدوره أمامنا نحن الراغبين في الدفاع عن وطننا .

فجأة صحنا مقتنعين غاضبين :

هؤلاء الناس لن يتغيروا .

برتقالة د. مفيد شهاب :

على ذكر الواقعة الفائتة ، أذكر أن طارق النبراوي « من القيادات البارزة لحركة الطلاب ، المنتمين إلى التنظيم الطبيعي » ، قد حكى لي « وضمت الورقة التي أرسلتها المجموعة البارزة من نفس التنظيم إلى روز اليوسف ، تعقيبًا على المقالات التي نشرتها بالمجلة نفس الحكاية ، وهي الورقة التي آسف لأنني لم أستطع استعادتها من المجلة ، وكان قد أعدها طارق ، وأحمد الحمدي ، وبسام مخلوف وماهر مخلوف وآخرون » .

قال طارق : إن الدكتور مفيد شهاب (كان واحدًا من أمناء الشباب في المنظمة

وقتها» ، قد جمع عددًا كبيرًا من قيادات المنظمة بمنطقة شرق القاهرة ، وعلى ما أذكر في « نادي شل » بمصر الجديدة مع الخيوط البيضاء الأولى لفجر يوم تال مباشرة للهزيمة النكراء ، وقال لهم : إن مهمة كبيرة في انتظارهم ، وأطلق على المهمة اسم « البرتقالة » ، انتظر الشباب المهمة ، وطال الانتظار لأكثر من اثنتي عشرة ساعة ، عاد إليهم الدكتور بعدها ، ليعلمهم أن المهمة قد ألغيت .

هكذا دون أن يعرف أحد ما هي المهمة التي كانت على وشك أن تبدأ ، ولا لأي الأسباب ألغيت ، فيما بعد علموا أن المهمة كانت إعطاءهم سلاحًا ، ونقلهم إلى طريق القاهرة ـ السويس الصحراوي ، لتغطية النقص في القوات المسلحة الحامية للطريق في مواجهة أي محاولة قد يقدم عليها اليهود لاختراقه واحتلال القاهرة ، وقال طارق حين علمنا فيما بعد بطبيعة المهمة ، أصابتنا دهشة عارمة ، فلم يكن أي من المجموعة قد تلقى تدريبه على السلاح بعد .

ولعلي أتسائل الآن : أكان من الممكن أن يزجوا بشباب غير مدرب على استخدام السلاح في مهمة صعبة كهذه ؟ أم كانت تلك الواقعة ـ هي الأخرى ومثلها كثير ـ سد خانة أمام علي صبري ، الذي يسد خانة أمام جمال عبد الناصر ، الذي ـ بدوره ـ يسد خانة أمامنا نحن الشباب المطالب بالتدريب العسكري ، المصمم على الدفاع عن وطنه ؟

برغم كل شيء ، كنا نستثني جمال عبد الناصر :

هل كانت نكسة يونيو ١٩٦٧م ، هي التي ذهبت بي ، أنا القاهري الذي قضيت عمري كله في فصل المتفوقين ـ إلى كلية الطب بالمنصورة ؟! لِمَ لا ؟! لقد ذهب بي النكسة إلى أبعد من ذلك بكثير .

كان قد تكون داخلي « فرحت فيما بعد ، عندما عرفت أن داخلي يمور بما يمور به داخل الأغلبية الساحقة من جيلي » ، إحساس بضرورة أن نفعل شيئًا من أجل

البلد ، وضد النظام ، ألم تقل لنا الأحداث بعد النكسة ، إنهم لن يتغيروا .

كانت وجوه النظام ما زالت نفس الوجوه ، مع تغيير طفيف يثبت القاعدة ولا ينفيها ، وكانت تصرفاتهم هي نفسها التي قادتنا إلى النكسة ، دون أي تغيير .

وكنا نستثني جمال عبد الناصر ، لم نكن نربط بين عبد الناصر ونظامه .

صحيح أننا كنا قد قطعنا حبلنا السري معه ، انفصلنا ، وكنا نُحمِّل عبد الناصر المسؤولية عن تهرؤ نظامه، خصوصًا بعد أن بدأ يفتضح أمر المؤسسة العسكرية، والمخابرات الحربية التي تغلغل في أرجائها الفساد وتغلغلت في نسيج الوطن بفسادها ، بل وصحيح أيضًا أننا لم نكن مقتنعين مائة في المائة بقدرة عبد الناصر على إحداث التغيير المطلوب ، لكننا ظللنا متعشمين خيرًا فيه وفي أنفسنا ، وكانت هذه ازدواجية لم يستطع أغلبنا التخلص منها إلا بعد مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ .

وكانت أيضًا ـ هذه عين الازدواجية التي كنا نعاني منها .

كنا نريده أن يصبح كما نريده !!

لم نكن نستطيع أن ننسى أو نتناسى أن عبد الناصر كان ـ عن حق ـ رجلًا يمثل كل ما نحلم به ، حرية الوطن ، إنجازات عديدة لفقرائه ، انتماءً عربيًا هو الحلم في عالم الوحوش الكبيرة ، دائرةً واسعة من المقاتلين الشرسين ضد استعمار عالمي تقوده أمريكا التي توحشت بعد الحرب العالمية الثانية ، وأرادت أن تجني وحدها ثمار انتصار ، رأت أنها كانت السبب فيه ، وأن أحدًا من حلفائها لا يستأهل أن يجني شيئًا من ثمار ـ هذا الانتصار .

لم نكن نستطيع أن ننكر كل هذا وما هو أكثر منه .

لكن عبد الناصر كان بعيدًا ، كانت تفصله عنا مسافة كبيرة ، تمتلئ بالعتاة من

البيروقراطيين الذين يتخفون في مسوح الثوريين ، والذين يؤكدون دومًا أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان ، وكنا الذين يتخفون في مسوح الثوريين و نريد الأحسن ، وفي الأحسن كنا واثقين من الإمكان .

كنا قد رفضنا أن تكون المسؤولية مسئولية عبد الناصر ـ وحده ـ في التاسع والعاشر من يونيو ، وكان الوطن قد أصبح مسؤوليتنا من تاريخه ، وغدًا يراودنا حلم ـ والأيام تكر مبتعدة على نكسة يونيو ـ أن يصبح عبد الناصر ـ نفسه ـ مسؤوليتنا .

يا رجل ، قل كلام غير هذا !!

صديق شاعر في كلية طب المنصورة قال لي ضاحكًا :

عبد الناصر مسئوليتنا ؟

لم لا .

يا راجل !!

قلت لصديقي :

ليست هذه هي المرة الأولى ، التي يكون فيها عبد الناصر مسؤولية الشعب، لقد كانت الدنيا كلها ضد عبد الناصر ، بعد أن أمم القناة وطلع عبد الناصر باكيًا إلى منبر الأزهر ، فأنزله الشعب عملاقًا أسطوريًا ، ونفخ في روحه بعدها استطاع جمال عبد الناصر أن يواجه الدنيا التي تتحدى طموحاته ، لقد حقن الشعب في وريده ترياق الاستطاعة ، وبدد وحشته وسط أعضاء مجلس الثورة الذين طالبه بعضهم وبعض الباشوات القدامى أيضًا، بأن يسلم نفسه للسفارة الإنجليزية معلنًا توبته عن الحلم العربي الجميل ، سانده الشعب فاطمئن واستطاع ، أكثر من هذا عندما انكسر الجيش المصري بين فكي الرحى ، إسرائيل من الشرق ، وإنجلترا وفرنسا ـ

الإمبراطوريتين ـ خلف الجيش غربًا في بورسعيد ، تولى الشعب مسؤولية الوقوف للعدوان حتى انتصرت إرادته على إرادة العدوان ، وانتصر جمال عبد الناصر على رغبة الإمبراطوريات الكبرى في أن تعيد الأمور لما كانت عليه ، انتصر جمال عبد الناصر بالشعب ، برغم انكسار الجيش ، بل وبرغم اهتزاز النظام ومحاولة الأفاعي أن تعود لتطل برؤوسها الكريهة ، ولم يعد الأمر لما كان عليه ، وأصبحت القناة لنا وللأبد ، ثم ألم نكن نحن في مظاهرات ٩، ١٠ يونيو درع عبد الناصر الذي يحميه من الاستسلام حتى ولو لبس الاستسلام للغرب ثوب زكريا محيي الدين الذي أصبح مرشحه ليرأسنا كي يتفاهم معهم .

تساءل صديقي متحرجًا :

ألا ترى أنك تبالغ ؟

قلت ضاحكًا :

اسأل إسرائيل !!

إسرائيل .

قلت لصديقي : إن إسرائيل وعت الدرس ، ولهذا توقفت عند قناة السويس ، بينما الطريق مفتوحة لها إلى القاهرة ، توقفت حتى لا تواجه الشعب مرة أخرى ، بعد أن استطاعت أن تهزم الجيش .

قال صديقي متحيرًا :

الشعب ، لا الطلبة من سني ومن سنك !!

وقلت لصديقي :

لابد أن يبدأ أحد .

وزاغت عينا صديقي ، ولا بد أنه رأى في هذه اللحظة أن عيني زائغتان ، كنا نحتاج لأن نصدق أنفسنا « ولقد صدقناه فيما بعد » .

أما في وقتها فقد كان بداخلنا قناعة تؤرقنا ، وكان خوفنا بداخلنا أيضًا يتخذ صورة يأس الجميع الذي يعبر عن نفسه في جلد الذات ، كان بداخلنا خوف الجميع أيضًا ، خوفهم من أن الحجة جاهزة لضرب أي تحرك ، طبعًا لأن البلد في ظروف تاريخية صعبة « وآه من هاتين الكلمتين ، إن جيلنا الذي جاء بعد الجيل الذي جاء في موعده مع القدر ، كان على موعد مع الظروف التاريخية الصعبة ، لا أذكر أننا رأينا البلد أو سمعنا عنه إلا في ظروف تاريخية صعبة ، لم نتابع خطابًا رئاسيًا إلا وكان في نظر الإعلام تاريخيًا ، وكان لشرح المرحلة النضالية الصعبة!! » . لكننا وبرغم خوفنا لم نفقد التصميم ، وظل السؤال المؤرق داخلنا : كيف نفعل ما نريد ؟

المحللون يستكثرونها علينا !!

الحقيقة أن حركة الشباب (٦٨ ـ ١٩٧٧) ظُلمت ظلمًا بينًا على أيدي المحللين ، وأقصد ـ من المحللين ـ كل من نفترض فيهم حسن النية بالطبع .

قال المحللون : وكان كبير المنظرين فيهم الأستاذ محمد حسنين هيكل » : إن حركة فبراير ١٩٦٨ ، جاءت كرد فعل للأحكام الصادرة ضد قادة الطيران الذين يتحملون المسؤولية عن النكسة ـ كما أحب أن يصورهم النظام ـ والتي رآها العمال والطلبة ـ والشباب ـ أقل مما يجب .

وقالوا : إن حركة نوفمبر ١٩٦٨ جاءت كرد فعل لقرار وزير التعليم « د. حلمي مراد » في ذلك الوقت بتحديد عدد مرات للرسوب ، في محاولته لتصحيح أوضاع التعليم ، بعدها يحرم الطالب من مواصلة التعليم واستكمال ما بدأه .

وقالوا عن حركة يناير ١٩٧٢م : إنها جاءت رد فعل لخطاب السادات الذي

أعلن فيه أنه كاد يحارب في ديسمبر ١٩٧١م « عام الحسم الذي أعلنه بنفسه » ، لكن الضباب عاقه عن عبور القناة ، ولم يقولوا شيئًا عن حركة يناير ١٩٧٣ واعتبروها توابع لزلزال ١٩٧٢ ، وقالوا عن انتفاضة يناير ١٩٧٧ التي كان فيها دور كبير للطلاب : إنها كانت نتيجة ارتفاع أسعار كثيرة في وقت واحد ، وهكذا لم يكن الشباب إلا محتجين في أحسن الأحوال ، ومحتجين ـ فقط على أحداث صغيرة .

والحق أن المحللين ـ حسني النية ـ كانوا وما زالوا ، وربما لأسباب استقوها من تجارب سابقة ـ غير متصورين ـ أن يقوم الشباب بحركة شعبية متصلة ٦٨ ـ ١٩٧٧ ، لها أربع قمم ، قمتان استهدفتا المشاركة الإيجابية في فبراير ١٩٦٨ وفي يناير ٧٢ ـ إلى مارس ١٩٧٣م ، وقمتان غاضبتان في نوفمبر ١٩٦٨ وفي يناير ١٩٧٧ ، وأن الطلاب كانوا في التسع سنوات مصممين على أن يصلوا بحركتهم إلى كل مطالبهم ، تلك المطالب التي تحقق أحدها بصورة باهرة وتحقق الآخر بصورة باهتة ، أما الثالث الذي انتكس ، فكان فاتحة لانفجارات بركانية من العنف الجموح الذي ما زال يهددنا حتى إعلام آخر .

ولكن لماذا نستبق الأحداث ؟!!

في فبراير ١٩٦٨ ، كنت في طب المنصورة « كما قلت » :

وكنا في السنة الإعدادية ـ نتلقى محاضرة في الكيمياء الحرارية ، وكان أن دق باب المدرج في عنف شديد ، ولما فتح الأستاذ الدكتور الباب غاضبًا ، فوجئ بزميلنا أحمد صقر « رئيس اتحاد طلاب الكلية ، وعضو اتحاد الطلاب على مستوى الجمهورية وصديقي الجميل الذي يعد واحدًا من أقوى الرجال ، والرجال قليل » ، يكلمه فيما لم نسمعه نحن بدقة ، ثم فوجئنا نحن بالأستاذ الدكتور ، يدفع أحمد صقر خارج المدرج ، ويغلق الباب في عنف ، لنعود ونفاجأ ـ الأستاذ الدكتور وطلبته ـ

بأحمد صقر يقفز من النافذة داخلًا المدرج ، متجهًا إلى المنصة حيث يقف الأستاذ الدكتور الذاهل ، وبأنه يخطب فينا ـ في عصبية شديدة ـ طالبًا منا أن نخرج جميعًا وأن نلحق بطلاب الكلية في مبنى الجامعة الجديد « كانت الكلية موزعة في ثلاثة مبان في تلك الفترة ، وكان مبناها ـ الحالي ـ لم يزل تحت الإنشاء » مبررًا طلبه ، بأن الذين أضاعوا البلد ، يحاولون الآن أن يصوروا الأمر على أنه خطأ بسيطًا ، لأفراد قليلين يستحقون عنه عقوبات تافهة ، وأن عمال حلوان عندما رفضوا الأمر ، وخرجوا متظاهرين انهال عليهم رصاص الشرطة من كل صوب .

خرجنا وراء أحمد صقر إلى مبنى الكلية الجديد ، وهناك ، وقف بيننا زعيم كان رياضيًا ـ فقط حتى لحظة وقوفه بيننا ـ وكنا نسميه لهذا ـ وما زال اسمه « الكوتش » ـ كان الكوتش يصيح في الجموع :

لازم نعمل مظاهرة .

وخرجت المظاهرة من كلية طب المنصورة عكس الاتجاه « معنويًا ، وفعليًا كانت عكس الاتجاه » .

لقد كان اتجاه السلطة وقتها يعمد إلى تصوير النكسة ، وكأنها حادث عرضي تسبب فيه قادة الطيران الذين تركوا المطارات عارية من الحماية النشطة ، والطائرات كالبطات على الأرض ، فانقضت عليها إسرائيل بسلاحها الجوي المدعم بالطيارين من كل بلاد الغرب (١) ، وهكذا فقدت جيوشنا الحماية الجوية في سيناء ، وأصبحت لقمة سائغة ، لحدآت تنقض من الجو بمناقير من نابلم حارق ، وكأن حريق العطش

(١) لا يظن أحد أن موضوع استعانة إسرائيل بالطيارين من كل بلاد الغرب موضوع هين ، لقد قال لي اللواء طيار « جبر علي جبر ، وهو خبير عسكري . إن مفاجأة ٧٣ لم تسمح لإسرائيل بأن تستدعي طياري الغرب ولهذا انكشف مستوى طياريها في الأيام الأولى من حرب أكتوبر العظيمة .

لا يكفي قوات انفرط عقدها فراحت تتخبط في التيه .

كان النظام يعمد إلى تصوير الأمر وكأنه مجرد خطأ قادة الطيران ، وخطأ مخابرات عامة خرجت عن خطها المرسوم .

ولم يكن الأمر كذلك في رأينا ، لهذا خرجنا ضد الاتجاه السائد معنويًا .

كنا نريد أن نتجه إلى المحافظة ونرابط أمامها لنعلن رأينا ، وفوجئنا أننا نمضي أيضًا في عكس الاتجاه الذي يقودنا إلى المحافظة ، رحنا نشق المزارع إلى المعهد الزراعي « كلية الزراعة فيما بعد » ومنه إلى المعهد التجاري على نيل المنصورة الجميل « كلية التجارة فيما بعد » ، لنقابل المعاهد الدينية التي جاءتنا فعلًا وقولًا من الناحية الأخرى .

وأستطيع أن أؤكد الآن أن خوفنا كان وحشًا يصيب حلوقنا بالجفاف ، كانت شمس فبراير كابية ، ولم تكن السبب وراء جفاف حلوقنا ، كان السبب هو إبحارنا الغاضب في بحر لا نعرف إلى أين سيقودنا ، ولا متى ينفتح علينا ليبلغنا ، بحر المعارضة العلنية لنظام جمال عبد الناصر الذي لا يرحم المعارضين ، وكنا نعبر عن خوفنا برعاية زميلاتنا اللاتي نخشى أن يتبهدلن ، لقد أجلنا خوفنا وكأننا لا نخاف إلا عليهن ، وكانت زميلاتنا « وكم كن عظيمات زميلاتنا هؤلاء ، ما زلت أذكر منهم نجوى ضيف ، ومنى الرقيقة الحاملة ، وجين الشناوي ، وناهد صبحي وفاطمة أبو العنين ، وكلهن طبيبات ـ كبريات الآن ، يعلن أنهن لا يقبلن أن يتركننا وحدنا فيما نحن فيه ، وكأنهن لا يخفن إلا علينا « في ذلك الوقت لم تكن الحياة الاجتماعية في المنصورة تسمح لنا بأن نكلم زميلاتنا في الشارع ، وكنا إذا ما قابلناهن عرضًا سارعنا بالدخول إلى شارع جانبي ، وسارعن هن أيضًا بنفس الأمر ، لكن كان للمظاهرات منطق آخر » ، ولقد كانت مداراة الخوف الأصلي بخوف مصطنع عاملًا

عبقريًا في إعطاءنا الجرأة على الإبحار في بحر الظلمات بحثًا عن فجر وراءه .

لقد كنا نكسر جدار خوف ظل يزداد سمكًا منذ أحداث مارس ١٩٥٤ ، ولمدة أربعة عشر عامًا ، لقد ربانا أهلنا على أن من يعارض النظام فلابد أن يذهب به النظام إلى ما وراء الشمس ، حيث لا يراه أحد ولا يسمع به أحد ، ولا يجد إلا الضياع والخراب والتعذيب المهين ، وربما الموت بلا ثمن ، وكانوا يتصعبون ثم يكلمون وياليته يضيع وحده ، لا ، أقاربه من الدرجة الأولى والثانية والـ.... أما الصغار فسوف ينتهي أملهم في دخول كليات الشرطة والحربية ، والطيران والفنية العسكرية وفي الالتحاق بوظائف محترمة أو في الحصول على بعثات تؤهلهم لشهادات علمية مرموقة ، أما أقاربه من بعيد فلن يتبوأ أحد منهم منصبًا كبيرًا أبدًا .

لقد نقل الآباء خوفهم إلينا وأصبحنا نخاف ـ فوق خوفنا على أنفسنا ـ عليهم ، وأذكر أننا جعلنا موقع البنات في قلب المظاهرة ، وسرنا حولهن جميعًا ، وسرن داخلنا يشددن من عزيمتنا .

وراحت هتافاتنا تتعالى ، فكانت المفاجأة أن خوفنا راح يبهت وتتضاءل قامته التي كانت تسد طريقنا عندما خرجنا .

كنا نهتف ضد العسف والبطش اللذين واجهت بهما السلطة عمال حلوان الذين أرادوا أن يعلنوا رأيهم ، وكأننا ـ أو في الحقيقة ـ كنا نهتف ضد كل من سيمارس عسفًا ضدنا ، وقد خرجنا ـ كالعمال ـ نريد أن نعلن رأينا ، ولم تكن هتافاتنا ضد المتسببين في كارثة الطيران وحدهم ، لكن ـ أيضًا ـ ضد سلطة تريد أن تخفي مسؤولياتها عما حدث لنا ، وعما حدث للطيران ، وأن تلون مصير كل محاولة للاعتراض على أفعالها التي جلبت لنا النكسة بدهان من دماء العمال الشرفاء لقد كانت السلطة في تهربها من المسؤولية تحاول أن تعيدنا إلى تفكير بال ، أظهرت النكسة مدى ما فيه من عوار ،

وهو أنها فعلت ما يجب أن تفعله كله ولم يكن على حائطها غبار ، والمتسببون في النكسة ها هي ذي تحاسبهم ، أما التغيير إلى الأفضل فلا يجب أن يكون في بال أحد ، ستعود السلطة ـ فيما بعد ـ وتحدده وترسم ملامحه كلها ـ دون مساعدة من أحد ـ وسوف تمارسه بالنيابة عن الناس ، لتستمر « ديمقراطية الموافقة » تلك الديمقراطية التي نظر لها محمد حسنين هيكل في مرحلة الشرعية الثورية ، وهي تعني أن السلطة الثورية تعرف ما يحتاجه الشعب وتفعله، ولا دور للشعب إلا الموافقة ، وأن رأس العمال الطائر يجب أن يعلمنا مصير من تسول له نفسه بأن يفكر فيما هو أكثر من الموافقة .

هكذا أرادت السلطة أن تقنعنا أن الجناة قد عوقبوا وانتهى الأمر ، وكنا مصممين على أن أمرًا لم ينته ، بل أيضًا على أن أمرًا آخرًا أكبر لابد وأن يبدأ .

كانت هتافاتنا كلها تطالب بالتغيير ، بالديمقراطية ، بحقنا في المشاركة حتى لا نفاجأ في أية لحظة بهول جديد ، بمحاكمة كل المسؤولين عن النكسة ، لا قادة الطيران وحدهم ، أو قادة الطيران وقادة المخابرات العامة وحدهم .

سؤال مؤرق ، في وقت حرج :

وفي مظاهرات المنصورة ، ووسط الحماس الجارف سألت نفسي سؤالًا ولم أجد له إجابة كيف سيتصرف أهلي إذا ما قبض عليّ وأنا بعيد عنهم؟ هكذا في المنصورة ، وفجأة اقتحمت زميلة عزيزة مكان خطواتي القلقة في المظاهرة .

وجدتها أمامي تسير بظهرها ، وبين الهتاف والآخر تقول لي :

أنت لازم تنزل مصر حالًا دلوقت .

صحت ، وكأنني لم أكن أفكر في نفس الأمر منذ لحظة واحدة :

لا ، لن أترككم .

لن تترك من ؟

لن أترككم وحدكم .

لكنك لم تخرج من أجلنا ، لقد خرجنا جميعًا من أجل مصر .

كنت أحاول إقناع نفسي بالبقاء في المنصورة ، فقلت :

إذن سأبقى معكم جميعًا من أجل مصر .

وإذا قبضوا عليك معنا ؟

قلت ولكن بغير قوة ، كانت قد داست بكلماتها على كل أعصابي العارية :

اللي يحصل يحصل .

كنت شديد القلق على أهلي ، وكانت زميلتي العزيزة تعاني نفس القلق ، إنهم لن يعرفوا أين أنا ، ولن يمتنعوا عن « الشحططة » ورائي « كانت تطل من رأسي الظنون تلوموني وتشد أذني على رأي الراحل العظيم كامل الشناوي » وألف حكاية - سمعتها من قبل - عمن - « تشحطط » وراءهم أهلهم ترد على ذهني وتتضخم جانبي وداخلي .

وقلت لزميلتي العزيزة العظيمة « وهي أستاذ في كلية الطب الآن ، لا أعرف هل يرضيها أن أقول اسمها أم ستغضب » كاشفًا عن ضعف ينهشني من داخلي :

خلاص ... ح أنزل القاهرة .

وركبت القطار وركبني الهم لإحساسي بأنني تركت زملائي الذين أحببتهم دومًا ، وتركت زعماء المظاهرة ، أحمد صقر العظيم ، وسعد الشريف الفنان الجميل الذي أكرمني دائمًا برسومات لأشعاري ، والكوتش لمصير لا أدري أبعاده ، ولم يفارقني همي إلا مع زملائي في مظاهرات القاهرة ، التي كانت حواديتها أكثر من أن تروى ، فماذا لو أضفنا إليها حكايات الآخرين ؟

لكنني لابد وأن أقول هنا : إن حكاية في مظاهرات ١٩٦٨ ، حكاية لم تكن أولى الحكايات في مظاهرات القاهرة ، ولم تكن آخرها ، تطفو من الذاكرة ، تستفزني أن أبدأ بها فقد كانت ولا زالت شديدة الدلالة على ما رسم خطواتنا فيما بعد تلك الخطوات، التي انطلقت وقد أثقلها الخوف الموروث ، الخوف الذي كبل أية محاولة للمعارضة السياسية ، إذا ما صاحب هذه المحاولة صوت جهير يعلنها على الملأ .

حكاية شنطة هاني عنان :

في كلية الطب جامعة القاهرة ، كان هاني عنان « صاحب ومدير شركة كبرى لتجهيز المستشفيات الآن » ، شابًا ملفتًا للنظر بقامته الطويلة للغاية ، بردائه الباسكت بول الذي كثيرًا ما ظهر به في الكلية ، بابتسامة لا تفارق وجهه ، تجبرك على ألا تشيح بوجهك بعيدًا عنه ، بسكناه الدائمة في أرض الحلم حيث المرح والتجارب اللاسعة ، كالشطة السودانية ، حيث الفن ، وقصائد وكلمات نزار قباني ، والسينما ، والأغاني ، كان هاني مترددًا ، حائرًا ، لا يعرف كيف يصل إلى قرار بالمشاركة أو بعدم المشاركة .

وكانت لنا زميلة غاية في العقل والظرف اسمها منى كامل « طبيبة تعيش الآن مع زوجها الشهير جدًا ـ بين كل من زاروا ألمانيا ـ في ألمانيا » وقد لاحظت منى حيرة هاني التي كان يصبها كلها في مشكلة فرعية .

إذا خرجت في المظاهرة أين أترك الشنطة ؟

« لم تكن الشنطة تفارق هاني أبدًا فقد كانت تضم ملابسه الرياضية وفي بعض الأحيان كتبه!!» .

وصاحت منى :

الشنطة هي المشكلة ؟

رد هاني في حيرة بريئة ، أو براءة حائرة :

آه .

وقالت منى :

إذا كانت هي المشكلة هاتها وأنا ح أتصرف فيها .

وخرج هاني عنان في المظاهرة بعد أن حلت مشكلة الشنطة « العويصة » وأخذتنا المظاهرات ، أو كما يقولون مظاهرة تشيلنا ، ومظاهرة تحطنا ، حتى وصلت إحدى المظاهرات « فقد تفرعت المظاهرات إلى أماكن كثيرة » إلى خلف مستشفى الهلال الأحمر على ما أظن ، وأطلقت الشرطة بنادقها علينا ، ظننت أنهم يطلقون الرش « الخرطوش » ، لكني وجدت هاني وقد وقع بيننا ، « كان الوحيد الذي وقع » وقد اخترقت رصاصة حقيقية حوضه من ناحية ، وخرجت من الناحية الأخرى ، وحملناه إلى المستشفى في ذهول تام .

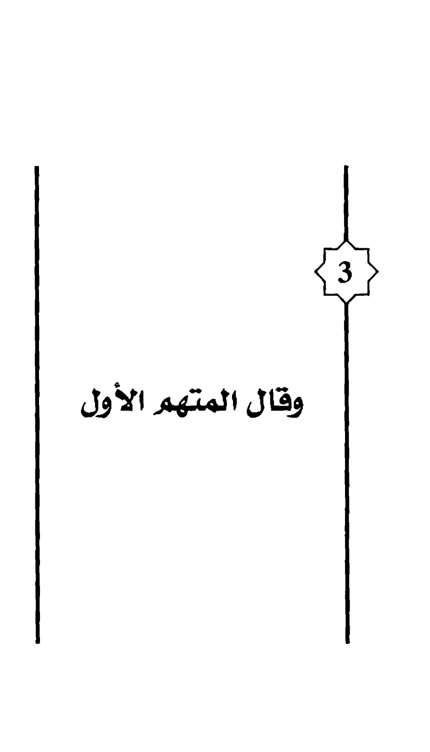
في المستشفى زارته منى وفاجأها هاني ضاحكًا بقوله :

إيه اللي خلاك تاخدي الشنطة يا منى .

والحقيقة أن منى لم تكن قد أخذت شنطة هاني عنان وحدها ، كانت قد أخذت حيرته ، وخوفنا جميعًا من الصدام ، أشياء أخرى .

وهنا نتوقف لنفسح المجال لصناع الأحداث في ١٩٦٨ ، فقلمي يريد أن يكتب بألسنتهم ، قلمي يريد أن يكون جسرًا لصوتهم الجميل ، أن يكون له هذا الشرف .

///



3

وقال المتهم الأول

ظلم المحللون السياسيون - حسنو النية - حركة الشباب المصري ٦٨ - ١٩٧٧م ، ظلمًا بينًا ، إذ جعلوا الحركة ، التي لم يروا إلا تنقلاتها من الهدوء الظاهري ، إلى الفعل المتظاهر ، مجرد رد فعل - في كل مرة - لأحداث أجادوا صياغتها ، ونوعًا من التمرد الصاخب على مواقف موقوتة ومحددة .

والواقع أن حركة الشباب كانت أكبر من ذلك بكثير ، وكانت أعمق مما صوروه بكثير أيضًا ، لكننا قلنا أننا لا نريد أن نسبق الحوادث، خصوصًا وأن الحوادث سوف تشير بنفسها إلى حقيقة الظلم - حسن النية - وقصور التصور ، وهو ما لا يغتفر .

وها نحن ذا نبدأ بأحداث فبراير ١٩٦٨م ، التي كانت الجولة الأولى .

قال المحللون - حسنو النية - أن الحركة جاءت كرد فعل لأحكام الطيران والتي رأى فيها الشباب - عن حق - أنها أقل مما كان يتوقع لأناس شيبوا الوطن قبل الأوان ، وحفروا في لمحة تجاعيد الهم التي راحت تجري خلالها الدموع ، ولا يتخثر فيها النزيف ، لقد كانت الأحكام واقعيًا شديدة الرحمة ، على من تسببوا - كما صور نظام جمال عبد الناصر للشعب - في إصابة الطيران المصري بالشلل التام ، في اللحظة الأولى من الحرب ، ومكنوا إسرائيل من تدمير الطائرات المصرية ، والمطارات أيضًا ، بإهمالهم الجسيم ، الأمر الذي ترك قواتنا المسلحة في سيناء عارية بلا غطاء يحميها من شراسة التدمير الجوي ونابالم إسرائيل المتحضرة ، الحارق فكانت الخسائر البشرية - دعك من العتاد والخسائر المادية - أكبر من أن يتحملها الوطن ولم تخلُ عائلة من ميتم لعزيز ، وميتم صاحب الصراخ في الوجدان ، وكان أن شَلَّ الطيران الإسرائيلي حركة قواتنا ومنعها من الالتحام الأرضي بمدرعات إسرائيل « واحة الديموقراطية في المنطقة » التي راحت تدوس على اللحم المصري وتهصره بجنازيرها المستوردة من بلاد تقدس الحرية الفردية ، وتباهى بأنها التي أعلنت حقوق الإنسان .

دعونا نستمع الآن إلى شهادة المتهم الأول في أحداث الشغب والتظاهرات « حسب توصيفات المباحث العامة في ذلك الوقت للأحداث وللمتهم » لنعرف .

كان المتهم الأول هو « أحمد شرف » أو « أحمد عبد الحميد شرف » ، « وكان عضوًا باللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكي ، وطالبًا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، وهو الآن باحث سياسي حر ، وله دراسات عديدة عميقة الفكر » .

وما أدراك ما منظمة الشباب :

والحقيقة أنني حين أذكر منظمة الشباب الاشتراكي فإن الكبار وحدهم هم الذين سيعرفون عما أتكلم ، لكن الجيل الذي استهدفه ـ جيل الصغار الآن ـ لابد سيتساءلون عما تكون هذه المنظمة .

ولهم أقول :

كانت مشكلة ثورة يوليو ١٩٥٢ « منذ تفجرت وحتى ١٩٧٤م حين قرر أنور السادات أن يوقف علاجها » مشكلتها التي لم تحل هي فشلها الدائم الدائب في إنشاء التنظيم « الحزب الواحد » الشعبي الذي يحمي الثورة ويدفع بها للأمام .

أقامت الثورة تنظيمات عديدة .

في مرحلة إخراج المستعمر ، أنشأت الثورة « هيئة التحرير » .

في مرحلة تجميع قوي الاقتصاد المصري، لإحداث طفرة اقتصادية يحتاجها الوطن أنشأت الثورة « الاتحاد القومي » .

في مرحلة التحول إلى الاشتراكية أقامت الثورة الاتحاد الاشتراكي العربي .

لكن الثورة ـ ممثلة في جمال عبد الناصر لأسباب تاريخية عديدة ـ أحست في كل مرة بقصور شديد في فعالية تنظيماتها ، الذي بدا وكأنه أمر حتمي ـ أو هو كان كذلك .

فعندما كان يحدث وتنشئ السلطة حزبًا كان يهرع إليه ـ أرادت أم لم ترد ـ الانتهازيون الذين يريدون أن ينضموا إلى الجانب الذي يمسك بمقاليد الأمور ، ويهرع إليه أيضًا ، المخلصون الذين يريدون أن يقوموا بواجبهم في تدعيم مسار يؤمنون بضرورة استمراره ، وضرورة تحسين أدائه أيضًا .

وكانت مشكلة تنظيمات الثورة في الانتهازيين ، فهم من ناحية أعلى صوتًا ، وهم أيضًا ـ مريحون للنظام ـ يبررون الأخطاء ويرفعون لواء « ليس في الإمكان أفضل مما كان » ، وهو أمر يسعد النظام في كل الأحيان ، وخصوصًا في أوقات الأزمات .

ولقد وقع النظام الثوري في ازدواجية غريبة في ذلك الوقت ، من ناحية كان لا يريد الانتهازيين ، ومن ناحية أخرى ، كان يرى أن أصواتهم تبدد حرجة في الأزمات ، تهاجم من ينتقدونه بدعوى أنهم من أعداء الثورة ، حتى إذا كان المهاجمون يريدون دفع الثورة وإنجازاتها إلى الأمام في أوقات يرى النظام فيها أنه غير مستعد لهذا الدفع أو أنه غير قادر عليه.

عندما أرادت الثورة أن تتخلص من هذه الازدواجية وأن تبني تنظيمًا يواجه ويعادل توحش المؤسسة العسكرية التي عمدت علنيًا ، ابتداء من ١٩٦٥ إلى « تلعيب » عضلاتها لجمال عبد الناصر ابتداء من اختفاء المشير عبد الحكيم عامر ، وتصويره لنفسه ، ليغيظ جمال عبد الناصر ، بأنه متيم بالديمقراطية ، مرورًا بأحداث ودعايات القبض على مؤامرة الإخوان المسلمين .

وانتهاء « برقبتي يا ريس »[1] التي جاءتنا بالهزيمة النكراء في ٦٧ ، رأت السلطة أن

(١) هي الكلمة الشهيرة التي رد بها عبد الحكيم عامر قبل النكسة ، عندما سأل عبد الناصر قادة الجيش هل يستطيعون مواجهة إسرائيل إذا جد الجد وبدأت هي بالضربة الأولى ، قالها « عامر » برغم أن القادة كانوا يرون أمرًا مغايرًا لما يراه ، وصدقها جمال عبد الناصر الذي كان لابد أن يعرف الحقيقة .

تلجأ وقتها إلى حل طويل الأجل ، أن تحل المشكلة بالشباب ، أرادت الثورة جادة ومخلصة ، أن تعد قاعدة من الشباب الثوري المثقف ، يكون فيما بعد الرافد الحقيقي الثوري لتنظيماتها « أقول أرادت جادة ومخلصة وأكررها » ، لهذا جاءت المنظمة وليدًا رائعًا ، وكان أن علّمت الشباب أن يناقش بحرية ، وثقفته في انفتاح فكري تحسد عليه أي سلطة ثورية ، مستهدفة في النهاية تشكيلًا هرميًا يبدأ بقاعدة عريضة للغاية ممن انضموا إلى المرحلة التثقيفية الأولى ، على أن يتم الانتقاء من بينهم لعناصر تتسم بالقدرة الأعلى على التحصيل لينضموا إلى المرحلة الثانية ، ويتلقوا تثقيفًا أكثر عمقًا ، بعدها تنتقي منهم من يتصفون بالقدرة على الحركة بين الجماهير ليتلقوا مرحلة ثالثة من التثقيف شديد العمق ، ومن الخبرات التي تمكنهم من الحركة وسط الجماهير ومن الحركة بالجماهير .

كانت المنظمة حلمًا جميلًا يستهدف وجه الوطن وخيره وتقدمه ، وكان لهذا الأمر أعداؤه من البيروقراطيين، الذين أرادوا الأمر سيطرة على الشباب ، ولم يريدوه للهدف الذي كان لم يريدوه سيطرة بشباب حر على مقاليد الأمور في بلد ثوري « أظن الآن أنني قد صورت لك ما يكفي من ألاعيب البيروقراطية والبقية ستأتي » .

ثم جاءت نكسة يونيو ١٩٦٧م ، لتجهض هذا وذاك ، لكنها لم تستطع أن تقضي على شباب تعلموا الكثير على يد أفضل الأساتذة المتاحين في ذلك الوقت ، وبمعاونة موجهين سياسيين « كانوا يسمون المسئولين عن إدارة الحوار مع الشباب ـ كل ليلة أثناء المراحل الثلاث ـ موجهين سياسيين ، وقد كانوا في الحقيقة شبابًا أكثر من ممتاز ، لابد أن نتكلم عنهم ـ في وقت ما ـ وعن الدور العظيم الذي لعبوه في حياة كل المنضمين إلى المنظمة » ، أيضًا لم تقدر النكسة على علاقة كانت قد تكونت بين هؤلاء الشباب وبين جمال عبد الناصر ، علاقة لا تشبه علاقة أي من الآخرين به ، لقد كانت علاقة شباب المنظمة بجمال عبد الناصر علاقة شديدة الخصوصية .

وإليكم مثالًا واضحًا :

تحكي هدى أحمد صلاح الدين « كانت عضو اللجنة المركزية لمنظمة الشباب الاشتراكي عن طلاب الثانوي ، وهي الآن مستشار وكبير مدربي التسويق بمعهد إعداد القادة للصناعة التابع لمجلس الوزراء » كيف التقى بهم جمال عبد الناصر في المعهد الاشتراكي بحلوان، وهي شهادة دالة على العلاقة الخاصة لشباب المنظمة بالزعيم .

تقول السيدة هدى :

« كانت أيام قد مرت علينا ونحن نقرأ ونتعلم نهارًا في معسكر الشباب بحلوان ، الذي أسموه معهد الدراسات الاشتراكية ، أثناء تدريبنا في المرحلة الأولى للمنظمة ، ونناقش ما قرأناه وما تعلمناه ليلًا في خيمة المناقشة مع موجهنا الأستاذ أحمد عبد الغفار المغازي « وكيل وزارة التخطيط الآن » والأستاذ صلاح الشرنوبي « أصبح ملحقنا الثقافي في سفارة موسكو بعدها » عندما أعلنونا أن شخصية كبيرة سوف تزورنا في المعسكر ، وسارت بيننا الشائعات تؤكد أن الزائر سيكون السيد علي صبري ، وفي الساعة الأخيرة وبعد أن رصونا في مدرج يشبه « المسرح اليوناني القديم » ، قالوا لنا : هناك احتمال أن يكون الزائر جمال عبد الناصر شخصيًا ، ولم نصدق أنفسنا حتى دخل علينا جمال عبد الناصر ، فَرُحنا نصفق في جنون عشر دقائق متواصلة ، وانبسطنا انبساطًا غير طبيعي ، كان معه فيما أذكر عبد الحكيم عامر ومحمد فائق وآخرون ، خطب فينا جمال عبد الناصر ، ونحن نحس أننا قد استحوذنا عليه وحدنا ، وأنه أصبح لنا ، أصبح ملكنا ، قال لنا جمال عبد الناصر : أنتم الشباب الذين نعدهم لتولي المسئولية في هذا البلد ، الشباب الذي لن يكون هناك حاجز بينه وبين الثورة ، وكان جمال عبد الناصر فيما قال صادقًا وصدقناه .

ثم قال جمال عبد الناصر :

اسألوا زي ما انتم عايزين .

بسرعة قام الموجهون من أماكنهم ، طلبوا منا أن نكتب أسئلتنا في أوراق نسلمها لهم ، على أن يقوموا هم بتوصيلها إلى جمال عبد الناصر ، وراحوا هم مثلنا يكتبون ، لكن جمال عبد الناصر فاجأنا وفاجأهم بقوله :

مش عايز ورق ، اللي عايز يسألني يقوم ويسألني بنفسه .

وتأكدنا ساعتها أن لا حواجز بيننا وبينه ، سألناه وظل يجيب عن أسئلتنا لأكثر من ثلاث ساعات ، لا أكتب إن جمال عبد الناصر لما قال لنا اسألوني مباشرة رحنا مصفقين له مدة طويلة جدًا ، وكنا فرحين لأننا ونحن نسأله كان يسأل كلًا منا :

إنت عندك كام سنة ؟!

انتهت الشهادة فلنتأملها .

عبد الناصر يزور الشباب الذي سيستمر بالثورة والذي يريد ألا يكون بينه وبينهم حواجز من أي نوع ، لكن الزيارة تقام بشكل سري فلا يعرف الشباب وموجهوهم أن الزائر جمال عبد الناصر إلا في الساعة الأخيرة ، وبشكل غير يقيني !!! « اللجنة المركزية تم انتقاء أغلب أعضائها من هذا الفوج » .

ثم هل لاحظتم الكلمة المعبرة ، أننا استحوذنا عليه وحدنا ، أصبح لنا ، أصبح ملكنا .

هل لاحظتم إصرار الموجهين على أن يكونوا حاجزًا ــ حسب الأوامر ــ بين الشباب وأسئلة تكتب على ورق وبين جمال عبد الناصر الذي لا يريد حواجز .

أخيرًا ، هل لاحظتم أن عبد الناصر عندما قال : « اللي يسألني يقوم ويسألني بنفسه » ، أن الشباب حريص على ألا يوجد حاجز بينه وبين الزعيم، صفقوا له مدة طويلة جدًا ، واهتموا لأن عبد الناصر راح يسأل كلًا على حدة : « عندك كام سنة ؟ » ،

وكأنه ينتظر أن يكبروا بفروغ صبر .

رجال الثورة الذين نزلوا من القطار في طنطا :

تعالوا بعد ذلك لتروا كيف رتبوا مقابلتنا بعبد الناصر في الفوج رقم (١٤) ممارسين عزلنا من جديد ..

أجلسونا في خيام المناقشة لكي تتفق ، كل خيمة مع موجهها ، على سؤال يلقيه واحد من المجموعة على جمال عبد الناصر « لا تنس أن جمال عبد الناصر كان قال منذ وقت طويل : كل واحد يسأل زي ما هو عايز » ، وقد اختارني الموجه لألقي سؤال خيمتنا ، ذلك السؤال الذي لم أعد أذكره الآن ، لكنني أضمرت في نفسي فكرة خبيثة .

ما أن أشار جمال عبد الناصر ناحيتنا ، ولم أكن متأكدًا أنه كان يقصدني من بين المتفق عليهم ، والذين كانوا يرفعون أيديهم ليسألوا مثلي ، حتى صحت مفاجئًا الجميع بسؤال لم نكن قد اتفقنا عليه ، صحت مغالبًا خوفي وكلماتي تنطلق سراعًا حتى لا يلحق بي أحد ويوقفها :

ليه يا ريس شلت عبد اللطيف البغدادي ، وحسن إبراهيم ، ويوسف صديق ، وخالد محيي الدين وكمال الدين حسين .... ؟

قال عبد الناصر ضاحكًا :

كفاية ، إنت كده شيلتني الدنيا كلها ، أنا قادر أشيل نفسي .

وبينما كان عبد الناصر يضحك ملتفتًا إلى علي صبري الذي كان يضرب كفًا بكف كان الجميع من حولي وأولهم الموجه يكادون يسقطون من خوف أصابهم بالإغماء ، بينما راح الموجه يقول لي :

إنت مش ديموقراطي ، مش ديموقراطي .

وقال جمال عبد الناصر وأنا أحاول أن أسمعه برغم صيحات المُوَجِّه المكتومة :

شوف يا سيدي ، إحنا زي ما تقول كده طالعين رحلة ، رايحين إسكندرية ، واحد جه في طنطا وقال كفاية على كده ، ونزل من القطار أبقى أنا شلته ؟!!.

الثورة مرت بمراحل ، لما كنا عايزين نطلع الإنجليز ، كلنا كنا في القطار ، طلعوا الإنجليز ناس قالت كفاية كده علينا ، ننزل المحطة دي ، نزلوا ، أممنا رأس المال الأجنبي ، ناس قالت : ننزل ، نزلوا ، اختطينا الخط الاشتراكي .

وفجأة ضحك جمال عبد الناصر وهو يقول :

كمال الدين حسين صمم ينزل .

وبعد الضحكات ، استطرد جمال عبد الناصر :

أنا ماباشلش حد كل واحد والتذكرة اللي قطعها معانا ، وهو حر عاوز يوصل لفين ، اللي باقين معايا ربنا يسهل ويكملوا لحد ما نوصل محطة إسكندرية الاشتراكية .

وضج الجميع بالضحكات ، واقتنعنا .

ووحدي لم أن ليلتها ، لم يرض الموجه ما فعلت ، أخذني إلى حجرته وأحسست به مضطربًا وهو يكرر على مسامعي :

إحنا اتفقنا بديمقراطية على سؤال ، إنت ما ضحكتش علينا ، إنت خنت إجماع زملائك .

عبد الناصر قال : اسألوا زي ما انتوا عايزين .

وإحنا كنا متفقين على اللي عايزينه كلنا .

وأنا سألت عن اللي أنا عايزه ، واللي كان عايز حاجة ثانية كان يسأل .

ولابد أن عبد الناصر لم يعترض على سؤال ، ولابد أن علي صبري لم يوجه نظر أحد إلى خطورة ما سألت عنه ، فقد مات موضوع « اللا ديمقراطي » هذا ولم يفتحه

معي أحد بعد تلك الليلة .

وأصبح يلقى كنادرة ، يضحك لها الجميع .

الآن أنا الذي أضحك ، إذ لم يبق في القطار الذاهب إلى محطة الاشتراكية غير حسين الشافعي ، ومن ؟ أنور السادات !!

على ذكر السادات ، نعود للمتهم الأول :

يقول أحمد شرف : « وأنا هنا أنقل عن مخطوطة لم تطبع بعد لكتابه الجميل الممتع « براءة سياسية » ، وأسمح لنفسي أن أحكي بأسلوبي بعض ما سأورده عنه محافظًا بالطبع على مضمون ما يحكيه ، وعلى براءته السياسية ، تلك البراءة التي طعنت عام ١٩٦٨م وإلى الأبد » .

كان موضوع اللجنة الوطنية ، للعمال والطلبة الذي قاد النضال المصري ١٩٤٦ ، الموضوع الرئيسي ، الذي وقفت عنده جلسات حواري الطويلة مع زكي مراد « محام كبير ومناضل سياسي ماركسي توفي إلى رحمة الله » ، والتي تحولت إلى محاضرات طويلة كان يلقيها علي ، وأذكر أنني بدأت أصطحب زملاء لي من الكلية « كلية الاقتصاد والعلوم السياسبة » ، ومن خارجها إلى هذه المحاضرات ، وأهل عام ١٩٦٨ وقد بدأت أفهم معنى « اليوم العالمي للطلاب » (٢١ فبراير من كل عام) ، وكيف أن الاحتفال به تقرر دوليًا لتخليد واستقاء العبرة من أحداث مصرية وهندية وقعت في هذا اليوم .

قلت في العدد الماضي : أن جيلنا كان يبحث عن إجابة لسؤال مؤرق ، لابد أن نفعل شيئًا ولكن كيف نفعله ، إذن لم يكن غريبًا أن يعود الجيل إلى نضال الطلبة والعمال عام ١٩٤٦ ، يستقي منه الخبرة العملية ، وأظن أن كلنا دون اتفاق فعلنا ما فعله أحمد شرف ، وأذكر أن كتاب الأستاذ شهدي عطية الشافعي « المناضل الماركسي الذي كان يؤيد ثورة ٢٣ يوليو بكل جوارحه ، وبالرغم من ذلك قتله رجال السلطة الثورية في أوردي أبو

زعبل بعد وقت طويل من اعتقاله، وبيانات تأييد طويلة أيضًا، وصادقة أرسلها هو لجمال عبد الناصر!!! »، الكتاب المسمى « تطور الحركة الوطنية المصرية (١٨٨٢ـ ١٩٥٦)، كان يتم تداوله بين الأصدقاء المهتمين بالسياسة، منذ يوليو (٦٧) وحتى فبراير ١٩٦٨، كما لم يتداول كتاب مثله، ومنه عرفنا ما عرفه أحمد شرف من المناضل الكبير المحجوب زكي مراد يرحمه الله عن حركة الطلبة والعمال ١٩٤٦.

عرفنا أن الحرب العالمية الثانية كانت قد انتهت، وذابت وعود إنجلترا المسماة « النظر في المسألة المصرية »، كما تذوب وعود المستعمر في كل زمان ومكان، ورأى الشعب أن السعديين والدستوريين وكانوا في الحكم يسعون إلى تحقيق خطة تبقى بمقتضاها معاهدة ١٩٣٦م، ويبقى التحالف بين إنجلترا ومصر « أي بين قوى قادر، وضعيف يستجدي، وهو شكل حقيقي من أشكال التبعية لا تستطيع تزييفه التسميات البراقة » على أن تبدأ مصر بطلب لتسويات معينة عندما تفرغ إنجلترا من مشاكلها، مشاكل الحرب وإعادة البناء.

ولقد كانت الجماهير تشكك في ذلك الوقت في نوايا الوفد الذي راح يشن حملة صحفية كبيرة مطالبة بالجلاء، إذ أن الجماهير لم تكن قد نسيت أن الوفد قد جاء إلى الحكم عام ١٩٤٢م، على دبابات الإنجليز وعلى ألسنة حرابهم أيضًا.

في تلك اللحظات « وهي تشبه إلى حد بعيد لحظاتنا بعد النكسة، حين كنا نعيش والوطن الجريح يعاني إظلامًا ماديًا ومعنويًا، وشبابيكنا المفتوحة على المدى، مدهونة بالأزرق الداكن تحجب عنا رؤيته، وكنا ـ كذلك أيضًا ـ نريد الكثير من سلطة لا ننسى أنها ترهلت، وتشرذمت ضد بعضها البعض، وتسببت فيما آل إليه حالنا، وفي هوانا على الأعداء »، في تلك اللحظات قرر الشعب أن يتحرك بنفسه.

***

العمال يبدؤونها والطلبة بعدهم :

بدأ العمال في التحرك .

جمعوا قروشًا قليلة استطاعوا بها أن يبعثوا بوفدين إلى الاتحاد العالمي لنقابات العمال في مؤتمره التأسيسي الأول ، وهناك لم يكتفوا بمناقشة الأجور والبطالة وساعات العمل ، بل جعلوا المؤتمر يناقش وضعية القوات الأجنبية في وادي النيل وأثر الاستعمار البريطاني في تأخر الصناعة المصرية ، ومحاربة الوجود البريطاني للحركة النقابية في مصر ، ومنها حركة العمال ، وأثر الاستعمار البريطاني على الزراعة في مصر ، وسعيه الدائم لكبت الحريات .

وبدأ الطلبة بعدهم في التحرك :

حين علم الطلاب بما فعله العمال ، أضربت كلية اللغة العربية عن الطعام ، وبات طلبتها في الفصول « اعتصموا » ، وفي كل الكليات عقد الطلبة المؤتمرات ، خرجوا بالمظاهرات فكانت مذبحة كوبري عباس ، ثم توالت المظاهرات الشعبية محتجة في الإسكندرية والزقازيق ، والمنصورة ، والسنبلاوين ، أستشهد ثلاثة في الإسكندرية وثلاثة في الزقازيق ، وواحد في المنصورة ، واختلطت المظاهرات الوطنية بجنازات الشهداء الوطنيين التي تحولت إلى مظاهرات عارمة في ربوع البلاد ، واضطرت وزارة النقراشي الفاتح الكبير لكوبري عباس ، على الطلاب ، والذي قتله الإخوان المسلمون فيما بعد تحقيقًا للقول : « من قتل يقتل ولو بعد حين » إلى الاستقالة في ١٥ فبراير ١٩٤٦ ولم يهدأ الطلاب والعمال .

السلطة هي السلطة في أي وقت :

تحدت السراي الحركة الشعبية « هكذا تفعل كل سلطة في البداية ، تحاول أن تظهر بمظهر القوي الذي لا يبالي ، ثم تربكها بعد ذلك استمرارية حركة الجماهير ،

فتقع السلطة في أخطاء في المواجهات ، تدفع ثمنها غاليًا بعدها » ، وجاءت بمن ألغى دستور ٢٣ « إسماعيل صدقي » ، لكن استمرت المظاهرات رغم أنف صدقي والسراي ، واتصل الطلبة بالعمال ، وفي مدرج كلية الطب ـ جامعة القاهرة ، تكونت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة ، وقررت اللجنة أن يكون يوم الخميس ٢١ فبراير ١٩٤٦ يومًا للجلاء وإضرابًا عامًا .

وهكذا عرفنا من خبرة من سبقونا ، أن الأمور تبدأ بمؤتمر ، إذ لم يحقق هدفه ، يتحول إلى مظاهرة أو اعتصام، تتلوه مظاهرة أو مظاهرات .

والآن وبعد هذه المعرفة الغالية :

هكذا عرفنا ، فلنعد إلى المتهم الأول أحمد عبد الحميد شرف ، ولاعترافاته البريئة سياسيًا .

يقول أحمد شرف : «لذلك فكرت أن تكون مناسبة ٢١ فبراير القادمة (يوم الطالب العالمي الذي يحيي كل عام في أنحاء العالم ذكرى انتفاضة الطلاب في فبراير ١٩٤٦م في مصر) ، توقيتًا مناسبًا لما كنت أنتويه» ، (فلقد اعتدنا في تلك السنوات أن يجد الواحد منا ما كان ينتويه نية عامة لكثيرين غيره هي القاسم المشترك الذي يجعلنا نتكلم كجيل وهذا هو فضل منظمة الشباب علينا أيضًا) .

فماذا كان ينتوي الجيل ؟!

كان ينتوي ألا يسكت وأن تبقى المبادرة في يد جماهير ٩، ١٠ يونيو، هؤلاء الذين سندوا قلب عبد الناصر ، وثبتوا أقدامه ، وصلبوا ظهره، وأبقوه في مكانه من أجل التغيير، وفي نفس الوقت إلى ما يحقق أهدافهم ، لقد رفض هذا الجيل أن يفوض أحدًا ، حتى لو كان هذا الأحد في مكان ومكانة جمال عبد الناصر .

لكن الجامعة لم تكن تيارًا متجانسًا ، وفي رأي أحمد شرف أخذ الفوز في الجامعة

يحدد تيارين للتغيير ، تيارًا يمثل الأغلبية ويدعو إلى التغيير الثوري ، وفي نفس الوقت إلى ضرورة استمرار الثورة، وتوجيه الضربات للقيادات البيروقراطية « انتهازي « ليس في الإمكان أبدع مما كان » ، و« لنهدأ ونترك الأمر للقيادة الثورية وسيادة الرئيس ونفوضه في إخراجنا من الأزمة » ، لكتبة التقارير إياها ، وممارسي السياسة على النهج الأمني أي بطريقة المباحث العامة ، أو تيارًا « هو التيار الثاني » يمثل الأقلية ويدعو إلى التغيير في اتجاه تصفية الثورة ، وضرب المسيرة نحو الاشتراكية ، وكانت قوى هذا التيار غير واضحة بعد ، ولكن أهم ما أذكره أني بدأت أستشعر المسوح الديني يطل من حواراتها .

وبدأت الاتجاهات الدينية في الظهور:

يقول أحمد شرف : « ظهر أسامة غيث ، وهاني خلاف « الأول نائب رئيس تحرير الأهرام الآن ، والثاني سفير لمصر » وقد أخذ هذان الزميلان نهجًا مضادًا للاشتراكية ، والثورة « لا أظن أنه نهجهما الآن فالناس تتغير » على أساس ديني ، بل أخذا يبديان تعاطفًا مع اتجاه الإخوان المسلمين « وهو اتجاه ما زال يحارب إلى الآن معركة انتقامية قديمة مع الثورة وجمال عبد الناصر » .

ويقول أحمد شرف : « في يوم الثلاثاء ٢٠/ ٢/ ١٩٦٨م انعقد لقاء موسع لمجموعة الطلاب من جامعتي القاهرة وعين شمس وكان اللقاء بدعوة مني » « عقد اللقاء أو المؤتمر الموسع بالمدينة الجامعية لطلاب جامعة القاهرة » .

مرة أخرى لا يقلقنكم قوله : « بدعوة مني » ، وإن كنت أرى أنها الحقيقة ، فسوف نورد شهادات آخرين في النقاط الخلافية وسوف نوزد جزءًا خاصًا بعين شمس في أحداث فبراير ١٩٦٨م هذه [١]

(١) راجع هذا الجزء في ملاحق الكتاب في شهادة معتز الحفناوي .

وفي مؤتمر الجامعتين عين شمس والقاهرة، يقول أحمد شرف :

عرضت على الجميع أن نجعل من ذكرى الاحتفال بيوم الطالب العالمي صباح الغد (٢١/ ٢/ ١٩٦٨م)، مناسبة لكي يتحرك الطلاب وتتحرك الجامعة لتقول كلمتها في القضايا الخاصة بالسلطة والثورة والدولة .

والآن هل نتوقف لنستظهر الحقيقة :

كل ما أريد أن تلاحظوه الآن أن أحكام الطيران لم تكن قد أعلنت بعد، فالمحللون - حسنوا النية - تصوروا أن الطلاب لم يتحركوا إلا ردًا عليها، ها نحن ذا بدأنا نمسك الخيط من أوله، لنرد على المحللين حسني النية، والشيء الآخر الذي أريد أن تلاحظوه أن الأغلبية الساحقة من الطلاب لم يكونوا بعد مضادين لجمال عبد الناصر، ولا أقول لثورته، فلم يحدث أن كانت الأغلبية - في أي وقت من الأوقات - مضادة للثورة، لقد كانوا أبناءها، وكانوا يريدون دفعها إلى الأمام بجمال عبد الناصر .

يقول أحمد شرف : « في هذا المؤتمر، فكرة التظاهر كانت غير مقبولة ؛ لأن التوقع السائد كان يقول بعدم استجابة أغلبية الطلاب لذلك »، « تذكروا هذا الأمر عندما سيفاجئهم الطلاب بغير ذلك فيما بعد، أن معجزة حركة الطلاب لم تكن أبدًا في قياداتها بل كانت دومًا فيمن أطلق عليهم السادات فيما بعد لفظة « الطالب العادي » .

إن للمجتمع علينا حقًا :

لكن علينا أن نتوقف لبرهة الآن عن متابعة مؤتمر جامعتي القاهرة وعين شمس (٢٠/ ٢/ ٦٨)، لنؤكد حقيقة يجب ألا تغيب، صحيح أن رغبة التحرك الإيجابي كانت موجودة لدى الطلاب، ذلك أنهم لا يملكون مواقع في العملية الإنتاجية في المجتمع يخافون عليها، وليسوا أرباب أسر تجعلهم يترددون في الحركة، ثم إنهم أعداد كبيرة في أماكن محدودة يسهل التحامهم وتحركهم، لكن الصحيح أيضًا أن فكرة التغيير الثوري،

ودفع الثورة للأمام كانت فكرة المجتمع كله، وقد انصبت في أبنائه من الطلاب، بل إنني للحقيقة وللتاريخ أحدد أن فكرة التغيير بدفع الثورة وحركة المد الوطني للأمام، وبإصلاح الداخل ديمقراطيًا، والتي كانت طموحات الشباب الثائر، فكانت أفكارًا يطرحها الماركسيون في المجتمع، من أعضاء التنظيمات التي حلت نفسها، إلى أعضاء الجمعيات الفنية والأدبية وجمعيات المجتمع المدني التي كانت تعاني ـ وما زالت ـ صعوبات جمة في المجتمع المصري، لقد التقط الطلاب وقياداتهم هذه الأفكار، ولم تكن قيادات الحركة في أغلبها ماركسية، التقطوه لأن الطرح كان طرحًا لبرنامج وطني مرحلي يمكن الائتلاف حوله، هذه حقيقة يجب ألا تغيب عن أذهاننا، خصوصًا وأن مفاجأة جديدة ـ هي بعد قليل ـ في الطريق إلينا، نعم مفاجأة، وكان يجب ألا تكون كذلك، ذلك أن الطليعة « مجلة اليسار المصري التي أنشأها جمال عبد الناصر، وأغلقها فيما بعد السادات » كانت قد نشرت شهادات واسعة للعمال وحركتهم النقابية انصبت كلها في الدعوة إلى عملية التغيير الثوري، وفي المطالبة باستمرار الثورة عن طريق تجديدها برغم هذا كانت المفاجأة مفاجأة !!

يقول أحمد عبد الحميد شرف :

« ونحن منهمكون في هذا الأمر تنامت إلى أسماعنا نشرة أخبار الخامسة بعد الظهر « أي وهم في مؤتمر الجامعتين في ٢٠/ ٢/ ١٩٦٨م، يتدارسون فكرة أن يبدأ طلبة الجامعات الدعوة إلى التغيير في المجتمع دعمًا للثورة، ودفعًا لها وحماية لأهدافها أيضًا من المتسلطين البيروقراطيين الفاسدين، الذين تظنهم الثورة أنصارًا!!.. أو هي تحب ـ لأنهم يدافعون عنها في كل الأمور ـ أن تتصورهم كذلك »، من إذاعة البرنامج العام « كانت إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة في ذلك الوقت، برغم مرور سبع سنوات على الانفصال فقد كان هناك إصرار على الوحدة العربية » تعلن ـ يقصد نشرة أخبار الخامسة في الإذاعة، الأحكام في قضية قادة الطيران،

وأصابتنا هذه الأحكام بصدمة حقيقية ، فلا يمكن أن يكون ثمن التقصير الذي سبب الهزيمة العسكرية بصورتها الحادة تلك عشر أو خمس عشرة من السنوات سجنًا لقادة القوات الجوية تتدرج من الأعلى إلى الأقل رتبة .

مرة أخرى نتوقف ، لكي نرتبها للمحللين ـ حسني النية ـ نرتبها ترتيبها الواقعي .

مجتمع يمر برغبة في التغيير الثوري أيقظتها النكسة ، مفكروه ـ بالطبع اليساريون ـ وعماله من الشرائح الدنيا والمتوسطة ، أصحاب المصلحة في التغيير الاشتراكي يدعون إلى هذا التغيير ، شعب عرف قدرته على الحركة في التغيير إلى الأفضل في ٩، ١٠ يونيو ، عندما فرض إرادته على أعداء الوطن ، أبناؤه من الطلاب يريدون أن يتحركوا بأنفسهم، رافضين فكرة التفويض التي أدت إلى التقويض ، ثم تجيء أحكام الطيران الهزيلة فيظهر للجميع أن السلطة التي نفخت تريد أن تخفي ذقنها بتلك الأحكام ، وأن هذا معناه أنها لن تبدأ بتغيير نفسها ، قبل أن تغير المجتمع ، لهذا كله يتفجر الغضب ، لهذا كله وليس رد فعل ـ كما وصف المحللون حسنو النية ـ كان تحرك الطلبة وكانت دوافعه .

وتتصارع أجنحة منظمة الشباب الاشتراكي :

لنعد إلى ما يقوله أحمد شرف ، فقد ذهب ليعلم منظمة الشباب باتفاقه مع زملاءه من الجامعتين « أن تعلن الجامعة رأيها بمناسبة يوم الطالب العالمي في مؤتمر احتفال كبير ، وأن تعيد المبادرة لجماهير ٩، ١٠ يونيو » .

في المنظمة قابل (أحمد شرف) د. عادل عبد الفتاح « أمين شباب المنظمة في ذلك الوقت ، وجراح القلب بأمريكا الآن » الذي حاول أن يثنيه عن هذه الحماقة !!

ممكن تبلغ الأستاذ أحمد كامل ، ونتشاور في الموضوع « أحمد كامل كان مسؤولًا عن المنظمة بعد د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم الأسبق ، بعدها أصبح (أحمد كامل)مسؤولًا عن المخابرات » .

ورد عادل عبد الفتاح :

الأستاذ أحمد كامل غير موجود .

قال أحمد في ثقة :

بلغ السيد علي صبري ضروري لأننا موش ح نتراجع .

وأحس د. عادل عبد الفتاح إصرار أحمد شرف فقال :

طيب اقعد ، ح نكلم السيد علي صبري ونقوله الموضوع، وهو يدينا القرار الصحيح « هذه صورة من الانتكاسة البيروقراطية لمنظمة الشباب التي سبقت ـ بل كانت كانتكاسات تنظيمات الثورة كلها سببًا في ـ انتكاسة الوطن » ، ولم يتم الاتصال حتى الثانية عشرة مساء فقرر أحمد شرف أن يذهب لينام في بيته على أن ينتظر تعليمات المنظمة الساعة التاسعة صباحًا ، عند قاعدة النصب التذكاري أمام الجامعة « كما اتفق مع د. عادل عبد الفتاح » .

وقبل التاسعة صباحًا كنت أقف بجوار النصب التذكاري ، طالت وقفتي حتى العاشرة (احترف هؤلاء الناس ضرب المبادرات الشبابية بتجاهلها التسويف بضرورة، وانتظار التعليمات ، لهذا بالطبع لم يذهبوا إلى أحمد شرف بأية تعليمات في محاولة واضحة لإجهاض الأمور) ، وأنا مستغرق في محاولة استنطاق الوجوه (وجوه الطلاب الداخلين إلى الجامعة بعد أن سمعوا أحكام الطيران) ، وقياس درجة حرارة الغضب ، غير أن جهاز الرادار البشري لم يسجل أية اهتزازات إيجابية فدخلت الجامعة وقد ارتسم الهم على وجهي .

الآن ، هل يعيد السادة المحللون ـ حسنوا النية ـ تفكيرهم في الأمر ، قبل أن يعيدوا قولهم أن أحكام الطيران كانت سبب خروج الطلبة في ٦٨؟

ويقول أحمد شرف : إنه عندما دخل الجامعة وقد اكتسى وجهه بالهم ، قرر أن

يذهب إلى كل الاحتفالات بيوم الطالب العالمي ، في كل الكليات في محاولة لقياس رأي الأغلبية ، وإمكانية التحرك .

كان احتفال كلية الطب في قصر العيني سيعقد في الواحدة ظهرًا ، سارعت للحاق به ، وطالبت عبد الحميد حسن « رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة في ذلك الوقت ، ثم الوزير الشاب فيما بعد ، ثم محافظ الجيزة الذي انتهت مدة خدمته عند المدعي الاشتراكي متهمًا بما اتهمه به المدعي » ، أن يحصل على تصريح من الأمن بفتح مدرج العميد بدر ، بكلية الحقوق لنقيم احتفالًا رئيسيًا للجماعة .

د. محمود الشريف يتنبأ بالأحداث القادمة :

ويقول أحمد شرف : أنه قابل بعدها محمود شريف (كان قد تخرج من كلية الطب وفي سبيله لأن يتبوأ وضعه كأستاذ بالكلية ، وكان عضوًا في اللجنة المركزية ، لمنظمة الشباب الاشتراكي في ذلك الوقت ، وأصبح وزيرًا ـ أسبق ـ للحكم المحلي) فلما عرف أن أحمد شرف طلب ما طلبه من عبد الحميد حسن تساءل قلقًا :

لماذا طلبت ذلك من عبد الحميد حسن ؟

بصفته رئيسًا لاتحاد طلاب الجامعة .

هل أخبرته بنيتك من وراء الاحتفال ؟

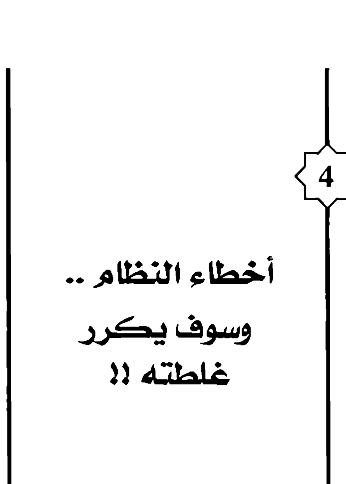
قلت له الحقيقة كلها .

وبان القلق على وجه محمود شريف أكثر من ذي قبل وقال :

لا تأمن جانب عبد الحميد حسن ، اذهب من فورك ورتب أمورك بعيدًا عنه .

وكان الدكتور محمود شريف كأنما يقرأ في كتاب الساعات المقبلة .

بل كان كمن يتشوف الشهور القادمة ، بل السنوات القادمة أيضًا .


4
أخطاء النظام ..
وسوف يكرر
غلطته !!

الذين ما كانوا ليتصوروا أن بلادهم من الممكن أن تتعرض لنكسة تشبه ما حدث في يونيو ١٩٦٧م ، ما عادوا ليصدقوا بعد حدوثها ـ أبدًا أيضًا ـ أن تلك النكسة لا يمكن أن تتكرر .

لقد صحا الشباب على كارثة مروعة ، من هولها لم يعد يملك يقينًا في أن تلك الكارثة بعيدة عن الحدوث من جديد .

لهذا رفض الجيل من لحظتها ـ واستمر رافضًا ـ مبدأ التفويض .

أراد هذا الجيل منذ اللحظة الأولى أن يشارك في اكتشاف الخطأ ، وفي تصحيحه ، وفي رسم صورة تغيير لا بديل له ، وفي تنفيذ هذا التغيير ، ودك دعائمه غائرة في الأرض المصرية ، ليقود أمته إلى الأفضل ، والآمن المستمر .

لقد اكتسب جيلنا ثقة كبيرة في نفسه ، عندما استطاع أن يفرض ـ وسط غيره من الأجيال ـ إرادته في ٩، ١٠ يونيو ، وأن يثبت أقدام وقلب جمال عبد الناصر ، ويقبض بيد لا تلين على إنجازات ثورته ومفاهيم نظرتها المستقبلية من تاريخ نضال الشعب المصري كله في العصر الحديث ، الذي بدأ قبل الحملة الفرنسية بمائة سنة على الأقل « ولو كره العباقرة » .

هذه الثقة الكبيرة جعلت رابع المستحيلات أن يستسلم هذا الجيل إلى نعاس « تفويضي » جديد يحرسه الزعيم الساهر عليه .

بدأ يفكر ، بدأ يتعلم ، بدأ يتحرك ، بدأ يمارس من الفعل أهدأه وأصخبه ، وفي الحالتين كان صوته عاليًا.

ولم تحتمل السلطة .

ضربت السلطة ـ كما سنرى ـ دون رحمة مشاركة الجيل الحقيقية في صنع غد لا يملكه غيره !! لم يرضها إلا أن يشارك الجيل مشاركة صورية ، ولم يرض الجيل بأن

تكون مشاركته صورية وتعددت المواجهات .

واجه الجيل عناد عبد الناصر ، وواجه تراجع السادات .

وعندما فشلت المواجهة في تحقيق حقه في المشاركة الحقيقية اختفى بعضه ـ وكان بعض المختفين صناعة سلطوية على يد وعين أنور السادات ، روعوا الوطن بالعنف .

جاء العنف يأسًا من المشاركة .

جاء العنف مشاركة ولكن في الطريق الخطأ !! ودفع السادات الثمن من دمه فوق المنصة ، على أيدي من صنعهم ـ وعلى يد من اختفوا في وسط هؤلاء الذين صنعهم ـ لإبادة معارضيه .

وما زال العنف يروعنا متخذًا صورًا عديدة منها ما هو عنف على الذات ، وما هو عنف على الآخرين ، عنف سياسي « عرف باسم الإرهاب والتصق بالجماعات الإسلامية » ، يحطم فرصة الحوار ، صراعات دينية « فتنة طائفية » ، تحطم فرصة المواطنة الحقيقية وعنف على الوطن (بالانتماء الفكري لثقافات مهما ومض بريقها ، فهي الأقل إذا ما قيست بعمق ثقافة المصريين ، بعرق الحضارة النابض فيهم من آلاف السنين) ، يحطم قدرتنا على المراجعة ، عنف يتخفى في صورة شديدة الشراسة في الجرائم الفردية العادية ، يحطم فرصة التماسك ، عنف على الجسد والعقل بالإدمان يحطم فرصة الحل ، وعنف على الذات ، على الكينونة ، على إنسانية الإنسان ، أدى إلى عبادة الشيطان ، مهددًا فرصة المستقبل .

إنني ضد العنف ، وفي نفس الآن ـ وبنفس الحدة ـ ضد أسبابه ، ولأنني أرى أن أهم أسبابه ، يأس الجيل من المشاركة الإيجابية ، في صناعة الغد « تحول إلى لا مبالاة بها ـ واللامبالاة أعلى درجات اليأس » ، لأنني أرى هذا ، أقص عليكم القصة منذ البداية وأطلب من الجميع استكمالها .

إن هذه الدائرة لابد أن تقطع ، ولكي تقطع علينا أن نعرف كيف بدأت ، وإلى أين تسير بنا ؟ وإلى أين نسير بها ؟

والبداية كانت في كيفية مواجهة السلطة لحركة ٦٨ في فبراير ، الحركة التي بدأها العمال ، واستمر بها الطلبة معهم .

هاني عنان يستثني جمال عبد الناصر !!

الطلاب كانوا يهاجمون النظام ويستثنون جمال عبد الناصر كقيادة ثورية ، كانوا يستثنونه حتى تلك اللحظة .

ولعلنا نتوقف هنا عند حادثة طريفة تظهر معاداة الطلاب للنظام، واستثناءهم جمال عبد الناصر ، قبل أن نتعرف على مطالب الطلبة التي كانوا ينوون إعلانها قبل أن يفاجئهم العمال المفاجأة الأولى ويسبقوهم إلى العمل الصاخب ، « هل كانت مبادرة العمال مفاجأة حقًا ؟ » .

عندما رقد هاني عنان « د. هاني عنان الآن ، صاحب ومدير توكيل كبير لتجهيز المستشفيات ، وطالب الطب ، وعضو منظمة الشباب وقتها » بمستشفى الهلال الأحمر مصابًا برصاصة اخترقت حوضه من الناحيتين ، واستقرت تحت الجلد في الناحية الأخرى ، بعد أن واجه البوليس مظاهرات الطلاب بالرصاص ، وجاءه المحققون ليعرفوا ملابسات إصابته سأله المحقق :

هل تعرف من الذي أطلق عليك النار ؟

قال هاني عنان « ١٨ سنة وقتها » :

أعرفه جيدًا .

من هو ؟!

شعراوي جمعة .

من ؟!!

شعراوي جمعة .

تقصد أن السيد شعراوي جمعة هو الذي أصدر الأمر بإطلاق النار على المتظاهرين ؟

لا أقصد أنه هو من أصابني بيده إصابة مباشرة .

هل رأيته ؟ هل رأيته بنفسه يطلق الرصاص عليك ؟

رأيته يرفع المسدس ويصوبه نحوي ويطلق الرصاصة ، ورأيتني أقع مصابًا برصاصته التي أطلقها من مسدسه عليَّ بنفسه .

لا أعلم كيف فكر المحقق وقتها في هاني عنان ؟ لكنني أظن ـ وبعض الظن إثم ـ أنه لم يفهم ما عناه هذا الشاب الصغير ـ وقتها ـ باتهامه الصريح هذا ، وبرغم اقتناعي شخصيًا الآن ـ بأن شعراوي جمعة هو مطلق الرصاص في كل مكان في نفس الوقت وبنفسه ، إلا أن هاني عنان الذي كان يستثني نفسيًا أن يكون جمال عبد الناصر هو من أطلق الرصاص على الشباب ، أراد شعراوي جمعة متهمًا ، لماذا ؟ لكي يستبعد داخله أن يكون جمال عبد الناصر هو المتهم ، ولكي يعبر عما كان يجيش في نفوس الشباب وقتها من أن عبد الناصر ثوري ، لكن من حوله يُفقدون الثورة ثوريتها ، ويجعلونها في مواجهة ساخنة دموية مع مؤديها ، وهذا هو الاتهام الذي عبر عنه هاني عندما أصر على أن الجاني هو شعراوي جمعة ، أليس هذا التعبير دقيقًا عن أن الشباب وقتها كان يستثني جمال عبد الناصر من اتهاماته ، متمنيًا فيما دون الوعي « اللاوعي » أن يكون جمال عبد الناصر كما يريدونه ، وأن يستمر بالثورة ، بواسطة أصحاب المصلحة الحقيقية في استمرارها ، وهم الشباب مالكو المستقبل ، « الذين لم يمتلكوه أبدًا فيما بعد الآن !! » .

لا وألف لا للتفويض :

كنا نقول أن الشباب ـ طلبة وعمالًا بحثوا عن الخبرة في انتفاضة ١٩٤٦م، وكنا نقص

قصة المتهم الأول في ـ أحداث فبراير ـ من الطلبة ، الذي رغب في أن يقيم اتصالًا مباشرًا بين جمال عبد الناصر وجماهيره دون عوائق من المستفيدين وأصحاب مقولة : « ليس في الإمكان أفضل مما كان ، ودعوا الزعيم يخرجكم من الأزمة » ، وراح في براءة سياسية « عنوان مذكراته التي أنقل عنها والتي ما زالت مخطوطة تحت الطبع » .

يستغني منظمة الشباب ـ وكان عضوًا في لجنتها المركزية ـ عما يجب عمله ففوجئ بأن المسئول عن المنظمة ـ السيد أحمد كامل ـ غير موجود ، وأن الاتصال بالسيد على صبري الأمين العام للاتحاد الاشتراكي غير ممكن ، وظل في انتظار التعليمات أمام النصب التذكاري المواجه للجامعة « لم يعرف وقتها أن المنظمة تشبه النصب التذكاري أمامه » ، فلما طال انتظاره دخل الجامعة وقد ركبه الهم .

والآن ، نستكمل القصة يقول المتهم الأول أحمد عبد الحميد شرف :

عندما عدت إلى الجامعة « من كلية الطب وكان قد قابل عبد الحميد حسن رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة في ذلك الوقت وطلب منه أن يحصل على تصريح من الأمن بفتح مدرج « العميد بدر »، بكلية الحقوق، ليقيموا احتفالًا رئيسيًا للجامعة بدلًا من أن يكون يوم الطالب العالمي مجزأ على احتفالات الكليات كل على حده » علمت بأخبار مظاهرة عمالية قامت في حلوان ، لدى سماعي بهذا النبأ ، انفرجت أساريري ، ورحت أؤكد أننا قاب قوسين أو أدنى مما نريد تحقيقه .

وبضحكة عالية قلت لأسامة الغزالي « د. أسامة الغزالي حرب ، رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية فيما بعد ، ورئيس حزب معارضة الآن ، وكان طالبًا بكلية الاقتصاد وقتها » .

سوف تشهد اليوم مظاهرة جامعية .

لو تحقق ما تقول سأقدم لك اعتذارًا على الفور .

عودة قصيرة إلى الوراء :

نضيف هنا للسادة المحللين حسني النية هذه المقولة ـ الأقدم عمر ـ الأحمد شرف المتهم الأول في أحداث يحللونها لعلهم ينتفعون بها .

في نهاية ديسمبر ١٩٦٧م كنت قد توصلت بيني وبين نفسي إلى أن منظمة الشباب الاشتراكي قد تحولت إلى إطار بيروقراطي ، غير قادر على إنجاز أو السماح بإتمام أية حركة تدخل في معمعان قضية السلطة ، ودور المشاركة الشعبية فيها ، ومن أكثر ما لفت نظري في تلك الفترة تحول المنظمة إلى جهاز يرفع تقريرًا يوميًا عن اتجاهات الرأي العام ، حتى أن عادل عبد الفتاح إزاء إلحاحي على قضايا التغيير ، أخذ يدعوني إلى كتابة تقارير رأي عام تعكس دعوتي ، « ومع كل ذلك اتجه إلى المنظمة يطلب رأيها ويحيطها علمًا بما انتواه في الجامعة » .

لذلك دعوت في أحد أيام شهر يناير ١٩٦٨ مجموعة من أصدقائي إلى التحرك من خلال الجامعة باعتبار أن التجمع الطلابي ، يمكن أن يشكل كيانًا جماهيريًا مؤثرًا (..)، وكم شدد علي النكير صديقي أسامة الغزالي حرب ، وأشبعني تهكمًا ، وأخذ يقول لي : ألا تعلم أن مصر لم تشهد مظاهرة سياسية منذ عام ١٩٥٤ ؟ كيف تتحرك الجامعة والشباب في حالة كبيرة من السلبية واللامبالاة ، إن ٩ ، ١٠ يونيو حدث تلقائي انبعث في جو صدمة مروعة ، ولن تتكرر بسهولة .

لقد كان الطالب أسامة الغزالي حرب « في ذلك الوقت المبكر من حياته » يعبر عن رأي المثقفين الذين استكانوا سنوات طويلة ـ وحتى الآن ـ إلى أطروحاتهم عن سلبية الشعب ، وصبره على المظالم ، هؤلاء المثقفون الذين لم يتعلموا للأسف شيئًا من درس تكرر كثيرًا في حياتهم ، درس يؤكد أن الجماهير الشعبية كانت تسبقهم في كل مرة ، والذين لم يحاولوا أبدًا معرفة العوامل التي تحكم تحرك الناس ، ولعلهم لم

يحاولوا عن عمد ، ذلك أن كثيرًا من المثقفين لا يعرفون كيف يكلمون الناس .

وكثير من هذا الكثير احترفوا دومًا تثوير السلطة لا تثوير الجماهير ، إذ يوجهون خطابهم دائمًا إلى أعلى ، وهم بهذا يخلصون ضمائرهم ، بينما الوطن يجأر في طلب الخلاص ، أرى أنهم اعتادوا أن يفعلوا هذا لأنني فيما أظن - وليس كل الظن إثمًا - أن تثوير السلطة وتنويرها أكثر أمنًا من تنوير الجماهير ، وبالطبع من تثويرها .

لقد كان الطالب أسامة الغزالي يستبعد فكرة أن تخرج الجامعة في مظاهرات احتجاجًا على أحكام الطيران الهزيلة وما تعنيه من محاولة إخفاء السلطة رأس نعامة الشعب في الرمال ، وكأن المسؤولية محصورة فيمن عوقبوا ، وليست مسؤولية نظام ترهل وتسيبت مفاصله إلى الحد الذي يحتاج إلى تغيير كيفي .

والآن فلندقق ونحن نحقق من مطالب الطلاب :

ونعود إلى كلام أحمد شرف الذي توجه بعدها لهندسة القاهرة ليقنع محمد فريد حسنين (كان عضوًا بمنظمة الشباب ، ورجل أعمال فيما بعد ، يملك ويدير مصنعًا لطلمبات المياه، ثم عضوًا مستقيلاً من مجلس الشعب) ، ورشيق رفعت « عضو اللجنة المركزية لمنظمة الشباب وقتها ، ومهندس بكندا الآن » بأن يخرجوا بمن سيحضر الاحتفال « احتفال هندسة القاهرة بيوم الطالب العالمي عام ١٩٦٨م » ، ونطوف بالجامعة في مظاهرة صامتة بعدها نتوجه لقاعة الاحتفالات الكبرى ، أو لمدرج العميد بدر بكلية الحقوق لتنظيم مهرجان احتفالي كبير باليوم العالمي للطلاب ، نعلن فيه مطالبنا ، ونضيف عليها ثلاث نقاط أخرى :

١- استنكار أحكام الطيران والمطالبة بإعادة المحاكمة .

٢- استنكار التصدي لمظاهرات العمال في حلوان اليوم ، في دولة تنادي بالاشتراكية ، وتبرز الطبقة العاملة فيها باعتبارها نواة التحالف الطبقي « ولعلنا نختلف معه على أن

التحالف كان في عهد عبد الناصر طبقيًا » المسمى تحالف قوى الشعب العامل .

٣- المطالبة بالتغيير الثوري وإعادة الالتحام بين القيادة الثورية والقاعدة الثورية .

ومرة أخرى نتوقف لحظة لنقول للسادة المحللين حسني النية ، الذين يصرون على أن حركة الطلبة وحركة الشباب المصري ٦٨ ـ ١٩٧٧م ، كانت مجرد هبات صاخبة ، وكل هبة منها رد فعل لحادثة معينة ، نقول لهم : ها هو ذا المتهم الأول « ولا يهمنا الترتيب ، فالترتيب قامت به المباحث العامة في ذلك الوقت » يؤكد أنه كانت للطلبة مطالب يريدون إعلانها في الاحتفال العام للجامعة بيوم الطالب العالمي ١٩٦٨م ، خاصة بالتغيير الثوري وإعادة التحام القيادة الثورية بجماهير الثورة أصحاب المصلحة ، وإسقاط حائط الانتهازيين والبيروقراطيين الذي يشوه هذا الالتحام ، بل يمنعه منعًا ، وأنهم أضافوا إليها ـ إلى مطالبهم ـ النقاط الثلاث التي تتضمن اعتراضهم ، على أحكام الطيران ورد فعل الحكومة لمظاهرات العمال .

ولنعد مرة أخرى إلى أحمد شرف ـ ولكن في روايته لأحداث التظاهر الطلابي في فبراير ١٩٦٨ ـ يقول : كان الإعداد لهذه الفكرة « فكرة التحرك الجماهيري لإبقاء المبادرة في يد جماهير ٩، ١٠ يونيو » ، يتطلب تنشيط الصلات مع الاتحادات الطلابية ، وقد كان خطي « تعبير تنظيمي ينتمي إلى منظمة الشباب ويقصد به إذا قيل مختصرًا هكذا : خط اتصال أو قناة تواصل » ، مع جامعة عين شمس في أحسن حالاته ، فمن بين أصدقائي الشخصيين ، الصديق معتز الحفناوي [١] رئيس اتحاد جامعة عين شمس ، ومجموعة من أنشط الطلاب يسيطرون على اتحاد الهندسة والتجارة بالذات ، غير أن صلاتي لم تكن قوية مع اتحادات الطلاب في جامعة القاهرة ، ففي هذه الفترة كان رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة عبد الحميد حسن ،

(١) انظر رأي معتز الحفناوي في ملاحق الكتاب .

الطالب بطب قصر العيني ، شابًا فقير الحال في مبناه ومعناه « لا أظن أن هذا كان رأي المدعي الاشتراكي فيما تلي ذلك من سنوات » وكان قد حضر دورة أخيرة في منظمة الشباب « المرحلة الأولى من ثلاث » وأصبح عضوًا جديدًا بها وكان منظره المتواضع ومفاهيمه المتواضعة دافعًا لأن أخطو نحوه وأتعرف به غير أنه كان شخصًا متحفظًا فلم تنم علاقتنا ولكن ظلت المعرفة علاقة عادية .

ثم يتكلم أحمد شرف عن جماعة الفكر الاشتراكي في اقتصاد وعلوم سياسية ، وكيف مدت نشاطها إلى الهندسة ، وكلية الطب البيطري ، وعن توظيف علاقته بشباب المنظمة من الطلاب ، محددًا أن الشباب ، وبالذات الثوري، لابد أن يدخل غمار معركة السلطة المثارة ، وأن يحدد موقعه في تيار استمرار الثورة بالتغيير الفوري الثوري ، وأن يمارس ذلك عن طريق حركته المستقلة ، التي تعيد تأسيس منظمة الشباب الاشتراكي ، بالمبادرة السياسية للشباب على أساس ديموقراطي « يقصد بالانتخاب الذي كان مطلب شباب المنظمة في إعادة هيكلتها ، تلك الهيكلة التي تمت بالاختيار ، وفي غياب الشباب ، في بدء نشاطات ، حين إعلانها المنظمة عندما كان عدد الشباب فيها محدودًا ، وتم الانتقاء من العدد المحدود » ، يدفع بالفاعلين النشطاء إلى مواقع السلطة فيها « يقصد في المنظمة طبعًا » ، « هل بعد ذلك ـ أيضًا ـ ما زال السادة المحللون « حسنو النية » عند رأيهم في أن حركة الشباب ـ عمالًا وطلابًا ـ حركة لم تكن إلا رد فعل لأحكام الطيران ، ها هو واحد من الشباب يظهر ـ أيضًا ـ أن الطلاب كانوا يموجون برغبة في التغيير باحثين عن وسيلة للضغط بالجماهير لتحقيق هذه الرغبة ويُظهر أيضًا أن التغيير اتخذ في أذهانهم طريقًا ديموقراطيًا على حسب ، ما سمح لهم سنهم ، والثقافة السائدة في المجتمع بأن يفهموا معناها ونظمها وآلياتها ، وللحق والتاريخ كان فهمهم للديمقراطية ــ مثل كثيرين من الكبار ـ فهمًا سطحيًا » ، يدفع بأحسن العناصر إلى مواقع السلطة ويزيح الانتهازيين

والبيروقراطيين الذين لا مكان لهم في حركة تغيير ثوري ، بعدها جاءت أحكام الطيران ، وتصرف السلطة المتسم بالغدر والخداع الشديدين في مواجهة العمال ، حيث طلبوا من العمال أن يبقوا مظاهرتهم في حدود منطقة حلوان ويعلنوا ما يشاءون من مطالب ثم فتحوا عليهم النار عند قسم الشرطة ، « ادعى شعراوي جمعة فيما بعد أن فتح النار خطأ شخصي من مأمور القسم الذي تصور أن العمال سيهاجمون القسم ، فأي خطأ شخصي كان وراء فتح النيران على الطلاب عند مبنى جريدة الأهرام وفي شارع رمسيس ووراء مستشفى الهلال الأحمر ، وفي العباسية؟! ، هل في كل مرة تم فيها فتح النار كان الخطأ شخصيًا ؟!! » . وأين كان سيادته والأخطاء الشخصية تتوالى بعد أيام من الخطأ الأول ؟!!) لقد كان الخطأ خطأ النظام ، (الذي عودنا في كل مرة على أن يبحث عن كبش فداء لأخطائه ، وأن يبرر التحركات التي تنطلق ضده بنظرية المؤامرة ، والعمالة لجهات أجنبية ، كأن من يمارس حقه في المعارضة ، ومن يطلب أن يشارك في صنع القرار السياسي ما هو إلا متآمر وكأن لا أحد يهتم بمستقبل هذا البلد إلا الجهات الأجنبية ذات الغرض وعملاؤها في الداخل) ، لقد أضاف الطلاب بعد أحكام الطيران وبعد تصرف السلطة بوحشية لإجهاض التحرك الشعبي - في مواجهتهم مظاهرات العمال بالرصاص الحي - فوق مطالبهم مطالب تنتمي لهذين الموقفين .

ظلم المحللون - حسنو النية - حركة الشباب ، وهذا واضح الآن ، حين صوروها رد فعل ، واختاروا في ٦٨ أن تكون رد فعل لأحكام الطيران في فبراير ، بينما كانت الحركة في الواقع ردًا فعليًا « وليس رد فعل » على ترهل نظام سياسي ، أدى إلى نكسة بشعة خرجوا في أول الأمر ليغيروه بتطهيره من البيروقراطيين والانتهازيين الذين لا يجيدون إلا تبرير أعمال النظام وأخطائه أيضًا ، ولا يبدؤون كلماتهم إلا بهذا القول الذي سئمناه : « انبثاقًا من قول السيد الرئيس كذا وكيت أرى - مثلما يرى سيادة

الرئيس - كيت وكذا » .

خرج الشباب لجمال عبد الناصر في فبراير فلما ضربهم نظام عبد الناصر ولم يتغير إلا تغييرًا صوريًا - خرجوا في نوفمبر ضد عبد الناصر ، وبعدها خرجوا ضد أنور السادات ، ولم يكن الخطأ خطأ الشباب بالطبع .

ولنعد إلى الأحداث مرة أخرى « بعدها نعود إلى المحللين حسني النية مرة ، وربما مرات » .

يقول أحمد شرف في مذكراته : أن محمد فريد حسنين ورشيق رفعت اقتنعا بضرورة خروج الجميع من احتفال كلية الهندسة في مظاهرة صامتة تطوف بالجامعة ليعقدوا بعدها مؤتمرًا يعلن الطلاب فيه مطالبهم ، ويحاولون إيصالها للمسئولين ، وبالفعل دعا فريد حسنين الجميع للخروج في المسيرة التي طوفت بالجامعة ، وكانت في كل لحظة تتمدد وتكبر بعدد طلابي من كليات الحرم الجامعي ، ثم توجهت المسيرة إلى قاعة الاحتفالات بالجامعة فوجد أفرادها القاعة مغلقة « ذلك أن كان قد وصل للنظام أو على أقل تقدير للحرس الجامعي ، خبر يؤكد ما اعتزمه الطلبة لابد نقله عبد الحميد حسن - الزعيم الطلابي - بعد أن طلب منه أحمد شرف فتح القاعة ، وأعلمه بالغرض من الفتح - تعلمنا أن نفتحها عنوة فيما بعد » .

وقف محمد فريد حسنين على سلم القاعة يخطب في زملائه :

كفانا صمتًا ، كفانا كبتًا دام خمسة عشر عامًا « الصحيح أربعة عشر عامًا بعد أحداث مارس ١٩٥٤ » لابد أن نخرج ما في قلوبنا .

ثم دعا الجميع للذهاب إلى مدرج العميد بدر بكلية الحقوق وهناك رأى الجميع أولى مفاجآت عبد الحميد حسن ، التي يصفها أحمد شرف بقوله :

« بجوار المدرج لمحت عبد الحميد حسن ، وعلى باب المدرج رأيت قوات حرس

الجامعة وقد اصطفت لحراسته ، عندها أدركت صحة تحذير د. محمود شريف « هل تذكرون التحذير في الفصل الماضي » ، جريت إلى عبد الحميد حسن صارخًا :

لماذا لم تقدم طلبًا رسميًا بعقد المؤتمر ؟

طلبت لكن حرس الجامعة رفض .

هنا طلب قادة المسيرة من الطلاب أن يهرولوا إلى مدرج ٧٨ في كلية الآداب ، وهرول الحرس الجامعي وراءهم لكن الطلاب سبقوا الحرس وسيطروا على المكان وعقدوا مؤتمرهم .

ولقد حاول أحمد شرف أن يجعل نبرة المؤتمر هادئة ، وأن يبذل جهده كله في أن يخرج المؤتمر بمطالب تهدف إلى وصل السلطة الثورية « جمال عبد الناصر » بالقاعدة الثورية (جماهير ٩، ١٠ يونيو ١٩٦٧) مثلما كانت قناعاته وتوجهه ، لكن أحمد شرف لم يكن يعلم أن سهام صبري في الطريق إليه .

وسهام صبري هي أسطورة الحركة الطلابية ، فتاة قوية البدن ، قوية الجنان ، «كانت طالبة بكلية الهندسة جامعة القاهرة ، ولها دور كبير للغاية ومؤثر للغاية أيضًا في الحركة ، سنتابعه حين نصل إلى أحداث ١٩٧٢م ، وأحداث ٧٣م أيضًا » .

دخلت سهام صبري إلى القاعة « مدرج ٧٨ بكلية الآداب » تصرخ « أحمد شرف لا يعرف أن كلمات سهام صبري صراخ ، وصرخاتها كلام شديد المعقولية ، والحزم ، والقوة أيضًا » ، قالت سهام : إنها جاءت للتو من حلوان ، وأنها شهدت المذبحة الخائنة التي أعدتها الشرطة للعمال ، ورأت دم العمال يسيل ، بعد أن فتحت الشرطة النار على الآمنين الذين استجابوا لدعوة الشرطة والنظام بأن تكون المظاهرة سلمية ، وفي حدود حلوان الضاحية!، وحدها لا يتجاوزونها .

على إثر كلمات سهام الصارخة ، ارتفعت وسط الطلاب الهتافات المعادية للنظام ،

وانطلقت مظاهرة صاخبة من المدرج ، انضم إليها الطلاب الذين لم يحضروا المؤتمر ، واتجهت المظاهرة إلى أبواب الجامعة ، فوجدوا أن الحرس الجامعي قد أحكم إغلاقها ، فتعالت الهتافات المنددة بالديكتاتورية العسكرية وبحكم الفرد المطلق .

راحت المظاهرة تعلن الاحتجاج على ضرب العمال بوحشية ، وفي الحقيقة على ضرب كل من يريد أن يشارك السلطة ولو بالرأي .

كانت المظاهرة تغلي وتهدر بالغضب ، وفي سرعة تجمع أعضاء منظمة الشباب ، أحمد يوسف « الآن أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ومدير معهد الدراسات العربية» ، وأسامة الغزالي حرب ، وعبد القادر شهيب «نائب رئيس تحرير المصور الآن » ، وعثمان محمد عثمان « أستاذ ومستشار التخطيط بالمعهد القومي للتخطيط سابقًا » ، وأمل الشاذلي « رئيس قسم العلاقات الخارجية بجريدة العالم اليوم الآن » ، وصالح سمرة «مهندس وعضو التجمع في دكرنس الآن » ، وعثمان عزام « مهندس ورجل أعمال الآن» وسيد عمر سرحان « مهندس الآن » ، وعلاء حمروش « توفي وفقدناه بعد أن صار أستاذًا للفلسفة بكلية آداب بنها جامعة الزقازيق ، ورئيسًا للمركز القومي لثقافة الطفل » ، ولم يحضر الاجتماع محمد فريد حسنين ، عضو المنظمة ، الذي خرج عن الخط وراح يندد بالديكتاتورية العسكرية ، وحكم الفرد المطلق وسياسة تكميم الأفواه في المظاهرة التي كان يتنامى عددها خارج المدرج ، قرر المجتمعون ضرورة تكوين وفد يقابل مدير الجامعة « الوظيفة الآن رئيس الجامعة » وتم اختيار علاء حمروش قائدًا للوفد .

وهنا نتوقف لنرى العجب ، منظمة الشباب التي ذهب إليها أحمد شرف بالأمس ، فلم يستطيعوا العثور على أحمد كامل مسؤولها ، « حسب زعم د. عادل عبد الفتاح أمين الشباب » ، ولم يستطيعوا الاتصال بعلي صبري « حسب زعم نفس الزاعم » ، وتركه « أحمد شرف » ملطوعًا أمام النصب التذكاري في مواجهة بوابة الجامعة أكثر

من ساعة في انتظار التعليمات كما مر بنا ، أفاقت « خوفًا من المسئولية بالطبع » واستطاعت أن تفعل الصعب ، أن تستدعي أحمد شرف من الجامعة الصاخبة مقفولة الأبواب بالحرس الجامعي .

في المنظمة وجد أحمد شرف د. عادل عبد الفتاح وسط مجموعة من سكرتارية المهام .

يقول أحمد شرف : بادرني عادل عبد الفتاح قائلًا :

عملتها وانسرقت منك يا فالح ؟ شايف طلعت غشيم إزاي ؟

« لا أريد أن أعقب واحكموا أنتم بأنفسكم على هذه الكلمات » .

قال أحمد شرف :

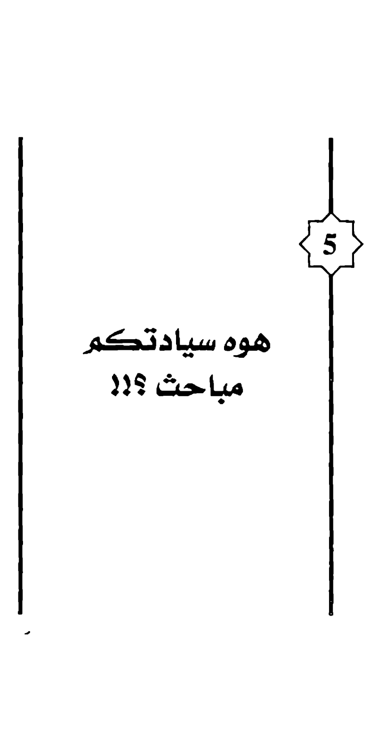
لأنكم تركتموني وحدي بجهدي الفردي ، وجهد مجموعة من الزملاء ، فلم نستطع أن نصل إلى ما نرجوه ، العيب في تخاذلكم وليس في غشمي أو غشمنا .

بالطبع استطاعت المنظمة وقتها العثور على الأستاذ أحمد كامل ، الذي بادر واجتمع بأحمد شرف أو لنكن أكثر تواضعًا ونقول التقى به .

يقول أحمد شرف :

طلب مني « أحمد كامل » أن أضع تصورًا للأحداث في الأيام المقبلة ، حدثته عن فكرة جدار الصمت المنهار « يعني أن الشعب لم يعد يطيق السكوت ، والاستبعاد التفويضي » صدق على ما أقول ، تحمس لما أطلب ، عندئذٍ طلبت منه أن يمهلني إلى الغد حتى أقدم له تصورًا أعم عن الأحداث ، وكيفية شق مجرى السيل المصاحب لها « يقصد السيل المعادي للنظام وهتافاته الهادرة » وافق على ذلك واتفقنا على اللقاء في الثانية عشرة من ظهر الخميس ٢٢ فبراير ١٩٦٨م .

لكن مفاجأة غريبة ـ أخرى ـ كانت في انتظار أحمد شرف .



5

هوه سيادتكم مباحث ؟!!

متى تتحرك الجماهير حركة صاخبة عنيفة ؟!

سؤال حير المثقفين ، وحير المحللين ، وحير السلطة أيضًا !

المثقفون أراحوا أنفسهم وضمائرهم وعقولهم أيضًا ، وانهال علينا من لدنهم سيل من الأقوال في جلساتهم الخاصة ، وقطرات قليلة من الكتابات ، راح السيل بقطراته المكتوبة المعلنة ـ يؤكد أننا ـ الشعب المصري ـ شعب خنوع ، وأن صبرنا حير الصابرين ، وهو قادر على أن يصيب النبي أيوب ﷺ نفسه بالدهشة ، وبعضهم تبنى مقولة زرعتها الحملة الفرنسية « فيما زرعته من تنوير للغافلين » ، وتشير إلى أن مصر ذات مصدر وحيد للمياه « النيل » ، وأنها واد محصور بين صحراوات ، جعل شعبها محصورًا أسيرًا في مواجهة الظالمين من حكامه ، أما توزيع المياه فاقتضى وجود سلطة مركزية شديدة البطش ، ارتضى الناس بطشها لتنظم لهم أمور حياتهم ، الأمر الذي جعل الفرعون إلهًا يعبد ، فما بالك بالطاعة !!

أما المحللون فقد أراحوا أنفسهم وضمائرهم ، وعقولهم أيضًا ، وخرجوا علينا بنظرية رد الفعل الوقتي ، وقالوا : إن الزراعة قد جعلت الشعب في مصر شديد المحافظة « وهو لفظ رقيق يصف الجمود والرجعية والتمسك بالسائد والقديم » ، وبنوا على ذلك ـ في نظرية رد الفعل ـ أن شعبنا لا يعرف إلا الغضب الوقتي والانفعال الموقوت « نسبة إلى القنبلة الزمنية » اللذين يتفجران بين الحين والحين في درب استسلامه الطويل جدًا ، وعلى محطات شديدة التباعد .

وكان للسلطة رأي ثالث : إذ تبنت دومًا نظرية المؤامرة الخارجية والعناصر المندسة والأفكار المستوردة ، وكلها أشباح تسارع السلطة باتهامها بالتغرير بالشعب المسالم الصبور .

إذا قلت للمثقفين : أن شعبنا عرف التمرد والفعل الصاخب والثورات ، قالوا :

معلهش ، أنه الاستثناء الذي يؤكد خضوعه وتأليهه وسلبيته في مواجهة السلطة ، ولا ينفي القاعدة .

إذا قلت للمحللين : إن شعبنا أثبت في لحظات كثيرة أنه مع الجديد والتطور والتحديث ، قالوا : « معلهش » انظر ، إلى أدوات الزراعة ، إن فلاح اليوم ما زال يتعامل مع أرضه مثلما كان جده الأعلى يتعامل معها ، والنيل ـ بعده ـ وليدًا لم يفطم بعد في حجر مصر .

وإذا قلت للسلطة : هل من المعقول ألا يدعو إلى التغيير في مصر إلى الديموقراطية ، والعدالة الاجتماعية ، إلا العملاء والمندسون ، وأصحاب الأفكار المستوردة « نحن نؤمن جدًا باستيراد نتائج فكر المجتمعات الغربية ، من أدوات وماكينات تسلية ، ولا نؤمن باستيراد الفكر الذي صنع هذه الأدوات والماكينات والتسلية !! » ، إذا قلت ذلك ، قالت السلطة : « معلهش » ، القاعدة العريضة سليمة ، تحاول إثارتها فئة ضالة « مضللة في أحسن الأحوال » ، متاجرة بآلام الكادحين ، وبمشاكل يرثها كل عهد من العهد الذي يسبقه .

هكذا ارتاح المثقفون ، والمحللون ، وحاولت السلطة أن تستريح ، وأدت « راحة » الثلاثة إلى أن نامت الحقيقة في الأدراج ، أدراج العباقرة وأدراج المباحث العامة .

هل نوقظ الحقيقة ؟!

فلنوقظها .

ليست الحقيقة هي ما قاله المثقفون .

ليست الحقيقة هي ما قاله المحللون .

وليست الحقيقة هي ما تردده السلطة .

الحقيقة لا تأتي إلا في ركاب العلم ، وتأتي كلا ، يرفض أن تلتقط منه ــ حسب

النوايا ـ البعض وتتناسى البعض ، العلم لا يقبل الانتقاء ، فليست هناك ظاهرة لا ترتبط بغيرها من الظواهر ، تؤثر وتتأثر ، لكنها في النهاية تحل من الداخل مهما كانت قوة العناصر الخارجية المؤثرة .

الإنسان يستغل طاقة عدوانه في التنافس ، والتفوق ، وتحقيق الذات ، إنها طاقة خلاقة ، أما إذا اختنقت هذه الطاقة الخلاقة ، صارت خناقة ، وعبرت عن نفسها بالعنف الجموح ، العنف الذي يتفجر بسبب واضح ، لكنه يتفجر ـ أيضًا ـ بلا هدف واضح .

وشعبنا عرف العنف الخلاق ، عرفه في ثورته على المماليك ، التي أدت إلى «الماجنا كارتا المصرية » ١٧٩٥م ، تلك الوثيقة التي حددت العلاقة بين السلطة وبين الشعب « بمفاهيم عصرها » ، قبل وصول الحملة الفرنسية « التنويرية!!! » . وعرفه ـ العنف الخلاق ـ في ثورة القاهرة الأولى والثانية ضد فظائع الاحتلال الفرنسي « التنويري » ، وعرفه وهو يخرج فلول المرتزقة الذين جاءوا مع العثمانيين وأرادوا مصر المحررة نهيبة عثمانية من جديد ، وعرفه مع عرابي العظيم ، وعبد الله نديم المثقف الكامل ، ومع ثورة ١٩١٩م ، التي استمرت سنوات خمس « هل تتصورون» وعرفه في انتفاضتي١٩٣٥ ، ١٩٤٦م « حركة العمال والطلبة » ، وعرفه في مقاومة بلوكات النظام لجيوش الاحتلال البريطاني في الإسماعيلية ١٩٥٢ ، وفي مقاومة العدوان الثلاثي البغيض ١٩٥٦م ، وفي بناء السد العالي « عنف خلاق للإرادة المصرية في مواجهة إرادة الخنق الاستعمارية : قلنا ح نبني وآدي احنا بنينا السد العالي » ، وعرفه في عبور قناة السويس وحرب أكتوبر الخالدة ، وفي حركة الطلبة ٦٨ ـ ١٩٧٧ قبلها التي كانت أول جسر ـ حركة الطلبة ـ لهذا العبور العظيم .

وشعبنا عرف العنف الجموح في حريق القاهرة ١٩٥٢ ، وفي غضبة يناير ١٩٧٧ ، وقبلها في اقتحامه بيوت المماليك ونهبها ، وقتلهم وتشريدهم في فترات كثيرة، وفي

بعض الاغتيالات السياسية .

شعبنا ـ إذن ـ عرف العنف ، خلاقة وجامحة .

ولكننا لم نرد على السؤال الأول : متى تتحرك الجماهير حركة صاخبة عنيفة ؟!

من الضروري أن نحاول الإجابة .

يستلزم الأمر أمورًا ثلاثة : وعي كامل ، والوعي الكامل في لحظة تاريخية محددة ، هو غضب يمتلك الوسيلة « وخل بالكم من حكاية الوسيلة هذه » ، الناس تعرف آلامها ، لكنك لو كلمتها ، فاجأتك بسؤال : « وماذا نفعل ؟! » ، إن سؤالهم هذا بحث عن الوسيلة ، فمعرفة الآلام والآمال هي الوعي المنقوص ، أما اكتمال الوعي فيأتي حين يرتبط الوعي المنقوص بالوسيلة فيكتمل (والوسيلة وظيفة المثقفين ، بمعنى أن المثقفين هم المنوطون في كل المجتمعات بأن يعلموا الناس الوسائل التي تمكنهم من تحقيق آمالهم ، بالضغط على السلطة طبعًا ـ أيًا كان المدى الذي يصل إليه الضغط ـ وهذا يستلزم أن يكون المثقفون أولًا ملتحمين بالناس ، يتعلمون منهم ، ثم يبلورون ما حصلوا عليه ، ويكتشفون الوسائل الممكنة ، والتي من الممكن أن تصبح أدوات وآليات للضغط المستمر الفعال... وفي هذا السياق يحقق المثقفون الثوريون ـ بالمعنى اليساري ـ نجاحات صغيرة بالجماهير ، للحصول على بعض الحقوق الضائعة ، فالنجاحات الصغيرة تجعل الجماهير تثق في النجاح الأكبر وراء نفس المثقفين ، لكن المثقفين أراحوا أنفسهم وضمائرهم وعقولهم أيضًا بل وأيديهم التي فضوها من الأمر ، مكتفين بمهاجمة الشعب السلبي في قعداتهم الخاصة!! وهم لا يعلمون أنهم بهذا لا يعارضون الظلم ، بل يعرضون جهلهم بتاريخ الشعوب. فالشعب الفرنسي والشعب الإنجليزي عانيا إذلالاً لم يرَ بعضه الشعب المصري في تاريخه حتى الآن .. ثم جاءت الثورتان الإنجليزية البرلمانية والفرنسية بقيادة

المثقفين الذي يعرفون الوسيلة) ، أما البعض منهم في الاتجاهات السلفية ، ومن باب الراحة أيضًا ، فقد قدموا الوسيلة الخطأ ، وهي العنف الجموح غير الخلاق ، متصورين أن الفوضى ستقودهم إلى كراسي الحكم أنهم يغضون الطرف عما حدث في السودان ، وفي أفغانستان ، والذي يؤكد أن الفوضى لا تقود إلا إلى فوضى أشد ، بعد أن تُسقط فوضاهم الحكم القائم ويتولون هم أمور الدول » .

الأمر الثاني بعد الوعي الكامل « الغضب + الوسيلة » هو لحظة التفجر ، وهي لحظات تفوق احتمال من تصوروا من قبل أنهم سينجحون ، أي أنها لحظة ـ دائمًا ـ ما تكون مسبوقة ، بعمل شعبي عام وحركة ثقافية نابضة بالعنفوان تؤدي إلى التفات عام ، يكاد يؤتي ثماره ، ولا تحدث في غيبة من الأحداث الكبرى ، حريق القاهرة جاء بعد انتفاضة شعبية عظيمة ظن الناس أنها بضغطها المتواصل من ٤٦ إلى ١٩٥٢ سوف تحقق ما يصبون إليه ، وحركة الطلبة ١٩٦٨ ، جاءت بعد حلم عظيم تصور الناس أنه سيتحقق ثم فوجئوا بأنه قد ضاع من أيديهم ، حلم ثورة ٢٣ يوليو وحركة الطلبة ٧٢-١٩٧٣ جاءت بعد ضياع أمل عام الحسم) ، وغضبة ١٩٧٧م جاءت بعد حركة الطلبة والثقب الديموقراطي الذي أحدثته في جدار النزعة التفويضية ، ذلك الثقب الذي أشعر الناس بأن السلطة قد تم إضعاف تشددها في مواجهتهم فلما استأسدت ، وتحدت الشعب كله ، خرجوا ضدها ، وكل حركات العنف الخلاق جاءت بعد نجاحات سابقة سرق بعدها الأمل أو حاول المتسلطون سرقته .

الأمر الثالث : هو إدارة التفجر فلا يكفي التفجر « وإلا كان العنف جموحًا » ، المهم أن يدار هذا التفجر وإداراته تعود إلى التحقق بالوسيلة « اكتمال الوعي » ، بالإضافة إلى برنامج للتغيير ينبع من الجماهير ، وتصبح مستعدة للدفاع عنه ، ولا تمهد حركتها إلا بتحقيقه « أو على الأقل بتحقيق أغلبه » .

أمور ثلاثة :

وكانت الأمور الثلاثة مكتملة في حركة الجيل الذي واجه عبد الناصر والسادات ولهذا نجح .

كان لديه وعي بالغضب وبالوسيلة الصحيحة ، فكان وعيه كاملًا .

وكانت لديه لحظات تفجر ، وهي محاولات السلطة لأن يعود الأمر كما كان ، ورفضها للمشاركة غير الصورية ، وإصرارها على « التفويض » ، وأنها التي ستحدد مسار التغيير وستنفذه أيضًا ، وأنها صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في القضية الوطنية ، وفي أمور الحرب أو التراجع عنها « على شكل تأجيل مستمر ومبادرات زائفة لا ينفد لها معين ، وتسويف واضح للعيان » .

واستطاع الجيل إدارة لحظات التفجر باعتصاماته التي تتفاوض باسمه ، وبلجانه الطلابية العليا التي تمثله ، وبلجوئه إلى حضن الجماهير في التحرير ١٩٧٢ ، وكل الأحياء في ١٩٧٣ ، ثم بتوسيع دائرة المعارضة عالية الصوت بضم الشخصيات العامة إلى الإيمان ببرنامجه ، وإقناع النقابات بتبني أهدافه المستقاة من طموحات الشعب .

والآن نستكمل الخيط « آملين أن يتضح لنا ما فصلناه في أمور التحرك الجماهيري وضوحًا تطبيقيًا » .

قلنا : إن مفاجأة غريبة كانت في انتظار أحمد شرف المتهم الأول في أحداث ١٩٦٨م ، فبعد أن أقنع أحمد كامل بضرورة ربط الجماهير بالسلطة الثورية ، لإحداث التغيير المطلوب أحاله السيد أحمد كامل إلى مجموعة سمن سكرتارية اللجنة المركزية « مسئولة عن النشاطات النوعية » كانت مكونة - فيما يذكر أحمد شرف - من عادل عبد الفتاح وعزت عبد النبي « لا أعرف أين أراضيه الآن » ، وهاشم العشيري « يقال أنه أصبح من مريدي رسول الله ﷺ في المدينة المنورة الآن » ،

وكمال قشيش « أمين عام أمانة الحكم المحلي ، بوزارة الحكم المحلي الآن » ، وعباس الدنـدراوي « تـوفي إلى رحمـة الله » وقـد حاولـت المجموعـة المـذكورة بكـل طاقاتهـا وعنادهـا أن تجر أحمـد شرف إلى الـوراء ، إلى الاستكانة التفويضـية « تمكـين القيـادة السياسية من الفعل السياسي الثوري في جو من الاستقرار بما يعني « بلا جماهير بـلا وجع دماغ » ، « مال الناس وهذا الأمر الذي يخصهم » ، وفي سبيل تحقيق الاستكانة التفويضية تلك ، راحـت اللجنة تـدرس كيـف تمنع خـروج مظـاهرات الطلبـة مـن الجامعة إلى الشارع بعد غد (السبت ٢٤ فبراير ١٩٦٨م) .

الحقيقة التي لم يذكرها أحمد شرف والتي تحل التناقض ، بين توجهات أحمد كامل ولجنته الخاصة المنبثقة من اللجنة المركزية للمنظمة « التي هو أمينهـا » ، هـي أن كـان هنـاك صراع خفـي بـين السيد عـلي صـبري ورجالـه في المنظمـة ، « وكـان د. عـادل عبـد الفتـاح مـن رجالـه » ، وبـين الأمـين العـام للمنظمـة الشـبابية أحمـد كامـل « ألم تلاحظوا أن عادل عبد الفتاح قال لأحمد شرف قبل احتفالات يوم الطالب العالمي ، أن أحمد كامل غير موجود وأنه سيتصل بالسيد علي صبري في منزله » .

لقد كان علي صبري صاحب الاتجاه التفويضي « بلا جماهير بلا بتاع » ، بعـدها في ١٥ مـايو ١٩٧١ تعجـب عـلي صـبري كيـف لم تخـرج الجماهـير مـن أجـل إعادتـه ؟! وكيف تنفست الصعداء عندما أزاحه السادات ومجموعته عن السلطة ، بـالرغم مـن أنه كان يدافع عن الديموقراطية « كما قال » .

ولنترك منـذ الآن وإلى غير عـودة منظمـة الشـباب ، فهـي بصراعهـا الـداخلي قـد ارتضت مكانًـا خلـف النـاس ، حاولـت منه أن تجرهـم إلى الخلـف ، أن تجرهـم مـن الرغبـة في المشـاركة في اتخـاذ القـرار إلى أرض الضـياع التفـويضي التـي لا تعـرف إلا الانحناءات القاتلة ، إلى هاوية سحيقة لا يخفف منها أن سماها هيكل ـ ربـما حتـى لا يفت في عضد الآمال الثورية ـ نكسات ومنها نكسة ١٩٦٧م .

الآن يتكلم محمد فريد حسنين :

لنترك المنظمة وقد انفلت منها الأمر ، وانفلت من مخططها الشارع ، وانفلتت هي من يد التاريخ ، لقد أصبحت خارج التاريخ ، ذلك أنها اضطربت وهي تختار بين التفويض والسيطرة والبيروقراطية « علي صبري » وبين إرادة الجماهير وحقها في المشاركة « الشباب ، هي التي كانت منظمة الشباب » .

وأيضًا لنترك المتهم الأول إلى المتهم الثاني « محمد فريد حسنين » .

لقد عاد محمد فريد حسنين من النمسا التي ذهب إليها عام ١٩٥٧م ، ليدرس الهندسة ، عاد وقد جعلته الغربة أكثر انتماءً لبلده ولجمال عبد الناصر ، عاد مشبعًا بمقالات محمد حسنين هيكل في الأهرام .

يقول : « كنا طالعين من ٥٦ ، وكنا نحلم بعبد الناصر مرتين في الأسبوع على الأقل ، بيكلمنا بنكلمه » ، ولقد كان هناك من يحاربون جمال عبد الناصر من الخارج « الإخوان المسلمون » بقيادة سعيد رمضان ، حزب التحرير الإسلامي والبعثيون ، ونشطنا في اتحاد الطلبة العرب لمقاومة هذه الاتجاهات وخصوصًا أن الشعب النمساوي كان معجبًا بجمال عبد الناصر ، وكلما تكلمنا عنه قالوا : أنت مصري ؟! ناصر ... ناصر .

وعاد محمد فريد حسنين إلى مصر في عام ١٩٦٥ ، ولم يكن قد أكمل تعليمه في كلية الهندسة ، ليلتحق بكلية الهندسة جامعة القاهرة وليصدم صدمته الأولى ، بأن الناس في مصر كانت تشكو من مشاكل التطبيق الاشتراكي ، لكن منظمة الشباب حلت لنا الإشكال ، قالت : إن فيه تناقض رئيسي بيننا وبين الاستعمار التقليدي والجديد ، وتناقضات ثانوية بيننا وبين بعض « يقصد الطبقات في مصر » ، وأن علينا أن نهتم بالتناقض الرئيسي أكثر ، ومع هذا قبضت السلطة ـ بعدها بقليل ـ على من يهتمون بالتناقض الرئيسي ، مجموعة أسموهم القوميين العرب ، وأسموهم

الماركسيين ، وقبضوا عليهم داخل منظمة الشباب ، هل تذكر الفصل الأول ؟!

كانت ـ تلك ـ هي الصدمة الأولى ، فقد كان شاهدًا على وطنية وثقافة من قبضوا عليهم بحجة أنهم معادون للنظام .

يقول محمد فريد خميس : قبضوا عليهم برغم أنهم حلوا أنفسهم ـ القوميون العرب ـ وانضموا للتنظيم الطليعي ، وكان مسؤولًا عنهم سامي شرف ، كانوا ـ هؤلاء القوميون ـ زملاءه في هندسة ـ سمير حمزة ، بهاء عبد الفتاح ، عثمان عزام ، ويقول محمد فريد حسنين : إن سامي شرف « وكانت هذه المجموعة من رجاله إذ كان يستفيد من علاقاتها في منطقة الشام في أمور يتم تنفيذها لعبد الناصر بطريقة مخابراتية ، قد لا يعلم عنها كل الرجال كل شيء » ، ذهب إليهم في السجن وضربهم عريانين بالكرباج بنفسه ، إزاي يبقوا رجالته ويعارضوا النظام « حتى من داخله » ، ولما كل الناس خرجوا من السجن صمم سامي شرف على أن رجالته يفضلوا محبوسين ، فرجالته إذا عملوا كده لا يمكن العفو عنهم .

وجاءت النكسة .

ويقول محمد فريد حسنين : كان عندنا سكشنين ورش « أنقل هنا عن تسجيل صوتي لمحمد فريد حسنين » نعمل شوية حاجات ونقعد نعيط على اللي حصل للبلد ، وكان من ضمن اللي بيعيطوا محمود كمال ، خاله يبقى زكريا محيي الدين ، وإبراهيم أحمد مكاوي .

ويقول : استقلت من المنظمة مثل كثير من الشباب ومثل هؤلاء الذين أعلنوا من جانبهم حل المنظمة الشبابية ، هل يذكر القارئ ما جاء في الفصل الثاني ؟

وبرغم ذلك كنت أحضر اجتماعات وحدة كلية الهندسة ، إلى أن جمدوها ، قالوا : ما دام كل ما بتجتمعوا بتعملوا دوشة إحنا ح نجمدكم .

ويذكر محمد فريد حسنين اليوم الذي زارهم فيه د. حسين كامل بهاء الدين ـ أمين المنظمة حتى ٦٨ ـ ووزير التعليم الأسبق ، فيقول : قالوا : الدكتور حسين كامل ح يجتمع بيكم ، قلت : موش عايز أروح ، أنا ما بعرفش أسكت ، لكنهم ضغطوا عليا رحت ، كل ما أتكلم عن النكسة ، وضرورة مشاركة الناس في إحداث التغيير المطلوب هذا الكلام قبل مظاهرات الطلبة في فبراير ١٩٦٨ ، التي لا ينفك المحللون يؤكدون أنها كانت قد خرجت كرد فعل لأحكام الطيران ، يبتسم الدكتور حسين ويقول : فريد متأثر بحكاية صحابه في كلية الهندسة « يقصد أفراد التنظيم الذي قبض عليه بحجة معاداته للنظام » ، فوتها مرتين ، وبعدين ما قدرتش أسكت ، قلت له : حضرتك ليه بتشوه مقاصدي ؟ ليه ، ما بتردش على اللي با أقوله ، بعدها جه تليفون من مكتب جمال عبد الناصر ، والظاهر إنه قال لهم : عاملوا شباب هندسة بمنتهى اللطف ، فالدكتور حسين كامل بقى كويس معانا .

هل تذكرون أننا قلنا : أن الشباب كان يهاجم نظام عبد الناصر ويستثني الزعيم شخصيًا ؟!

رُكَب شعراوي جمعة تخبط في بعضها :

يقول محمد فريد حسنين : كانوا « يقصد المسئولين » بيستغربوا إزاي إحنا نتقد جمال عبد الناصر ، شعراوي جمعة (كان وزير داخلية جمال عبد الناصر، وأمين الاتحاد الاشتراكي العربي ، وأمين التنظيم الطليعي) مرة قال لي : أنت بتتكلم عن جمال عبد الناصر ، كده إزاي ؟! ده إحنا لحد دلوقت لما بيكلمني الريس في التليفون ركبي بتخبط في بعضها ، وكنا بنقول لهم زي ما بنسقف له ، ننتقده ونشخط فيه كمان « هل يذكر القارئ أننا قلنا أن العلاقة بين جيلنا وبين جيل عبد الناصر كانت شديدة الخصوصية » .

ثم ندخل في الأهم :

عندما جاءت مظاهرات ١٩٦٨م « كان الشباب قبلها يتكلم عن التغيير علنًا ناقلًا همسات البيوت وصراخ قلبه إلى المسئولين ، وكان الشباب قد عرف من حركة ١٩٤٦م ، حركة العمال والطلبة « عن طريق القراءة ومن بعض الشعبيين المطاردين وبينهم قيادات للحركة العمالية » ، كيف تكون الوسيلة : مؤتمرات ، إذا لم تصل إلى هدفها تحولت إلى مظاهرة ، أو تحولت إلى اعتصام ، فإذا لم ينجح الاعتصام في تحقيق الهدف ، خرجت المظاهرات ، أي أنه حسب تحليلنا كان الشباب يملك وعيًا ، الغضب والوسيلة ، ولما جاءت تصرفات السلطة مع العمال الذين خرجوا ينددون بأن أحكام الطيران الهزيلة تعني أن السلطة تسد خانة ، وأنها لا تعمد إلى تغيير حقيقي ، جاءت لحظة التفجر « حسب تحليلنا أيضًا » .

يقول محمد فريد حسنين مكملًا ما بدأه أحمد شرف : في اجتماع كلية الآداب « مدرج ٧٨ بكلية الآداب » دخلت شمال في النظام ، في أفعاله التي أدت إلى النكسة ، وفي ترائهم أيضًا ، اتكلمت عن الفيلات اللي ورا الميري لاند ، " فيلا علي صبري وفيلتي ابنتي جمال عبد الناصر الدكتورة هدى والسيدة منى » ساعتها كان كل الشهداء اللي ماتوا في ٥٦ وفي ١٩٦٧م ، أمام عينيا ، واللي موتتهم الثورة كمان في السجون والمعتقلات برضه كانوا قدام عيني ، قلت : ضيعتوا البلد ، وموتوا الناس ، ولسه قاعدين ، وقرر المؤتمر أن يكوّن لجنة من اثني عشر طالبًا ، من كل كلية اثنان يروحوا يقابلوا جمال عبد الناصر ، ويقولوا له مطالب الجامعة ، وكونا اللجنة أذكر منها رشيق رفعت و د. سمير غطاس « طبيب أسنان يعمل في منظمة التحرير الفلسطينية الآن » ، وعلاء حمروش ، وفاكر أنه ما كانش فيها بنات ، وجات سهام صبري وتسببت في خروج مظاهرة « راجع الفصل الفائت » ، بقت تلف جوه الجامعة وتندد بالنظام .

بعد الاجتماع قالوا لنا أن وكيل الجماعة عايز يقابلنا ، دخلنا له « اللجنة المنتخبة » كان معاه د. طعيمة الجرف « أستاذ القانون في حقوق القاهرة ، وعضو التنظيم الطليعي ، تذكروه جيدًا فسوف يأتي ذكره مرة أخرى بعد مظاهرات ١٩٧٣م » ، وقال لنا « وكيل الجامعة » : إنتو قلتوا ، وقلتوا ، قلنا له : إحنا ح نقابل جمال عبد الناصر ، وح نقول له كل اللي قلناه ، إحنا كنا عارفين إن ما فيش في إيده حاجة « يقصد وكيل الجامعة » ، وطلبنا منه ورق وأقلام عشان نصيغ مطالبنا اللي ح نعرضها على الرئيس ، وفجأة صاح د. طعيمة الجرف :

بصفتكم إيه ؟!

بصفتنا جماهير الطلبة ، وممثليهم المنتخبين .

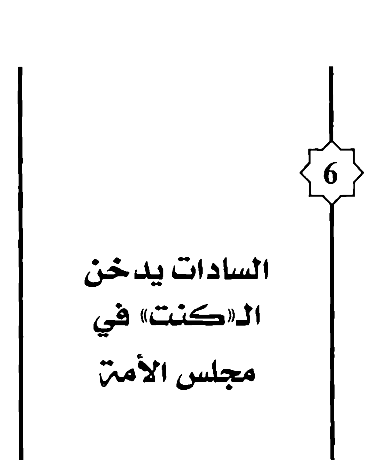
إنتوا ما تزيدوش عن ٣٠٠ وأنا مصوركم .

ساعتها سألها واحد من المجموعة :

هل سيادتك مباحث ؟!

أسكتنا وكيل الجامعة ، وأدانا ورق وأقلام ، وأدانا أودة « كانت مقر اجتماع اللجنة الطلابية العليا فيما بعد في اعتصام عام ١٩٧٢ » ، دخلنا الأودة وقعدنا نكتب ، جاء عبد الحميد حسن « أنتم تعرفونه » ، قام الولاد عايزين يضربوه ، أنا حُشت ، وسابنا عبد الحميد وخرج .

« بعدها اختاره جمال عبد الناصر ممثلًا للطلاب ، ثم للشباب كله ، لكن الطلاب كانوا يعدون لجمال عبد الناصر ردًا عمليًا على هذا الأمر كان لابد وأن يذهله لقد أذهل ردهم سامي شرف وأوقعه في حيص بيص فلم يعرف ما الذي يقوله لجمال عبد الناصر ثم علم جمال عبد الناصر بما دبره الطلاب فقرر أن يعاندهم لكن وقت الكلام لم يحن بعد » .



السادات يدخن ال«كنت» في مجلس الأمة

لمصر أربعة ثوابت .

وعندما نقول أن الثوابت لمصر ، فإننا نعني أنها لشعبها ، شعبها كله ، باختلاف طبقاته وعقائده « لا يشذ عن هذه القاعدة إلا أصحاب المصالح الوقتية الزائفة والمؤثمة ـ وهم يشكلون طبقة وأنصارها من المستغلين في كل وقت، والمرتبطة مصالحهم بالرأسمالية العالمية، بالطبع وهو شذوذ يؤكد القاعدة ولا ينفيها » .

هذه الثوابت الأربعة تولدت في كفاح طويل مرير ، تلا تخبطًا أطول وأمر ، إن ثلاثمائة سنة ، قد مرت منذ بداية القرن الثامن عشر ، ومصر ـ شعبها ـ تكتشف ثوابتها وتكتشف سبيلها للتمسك بهذه الثوابت وتحقيقها « قبل وصول الحملة الفرنسية بمائة سنة على الأقل » ، وثوابت مصر الأربعة كانت وما زالت هي الديموقراطية ، التحرر الوطني ، العدالة الاجتماعية ، الانتماء العربي .

هذه الثوابت يتفق عليها الجميع ، وإن اختلفت تصورات الجميع عنها ـ أيضًا ـ اختلافًا كيفيًا « كيفية تحقيقها ، والكيفية التي تكون عليها لحظة التحقق ، ومن هي القوى صاحبة المصلحة التي تريد وتستطيع تحقيقها ، ولمن الفائدة من وراء التحقق في المقام الأول ؟ وليس اختلافًا في الرغبة فيها والسعي من أجلها ، أو حتى تمنيها ، وهذا أضعف الإيمان » .

وهذه الثوابت ـ أيضًا ـ وبحكم التطور ، اختلفت تصوراتها لدى الجميع من عصر إلى عصر ، « واختلفت مسمياتها بالطبع » ، فالتحرر الوطني مثلًا ، اتخذ عدة صور متعاقبة ، تحرر داخل الخلافة الإسلامية ، تحرر يعترض على الخلافة الإسلامية « التي شاهدوا أفاعيل استغلالها » ، ويتمسك بالجامعة الإسلامية « الروابط التي تجمع كل الدول الإسلامية » ثم تحرر مصري يعمق مقولة مصر للمصريين ، ثم تحرر وطني داخل انتماء عربي اللغة ، إسلامي الثقافة « تتأثر ثقافته بثقافة الآخر

وأيضًا بثقافة الأقليات ، التي يتضمنها نسيجه ، مثلما كان حال الثقافة الإسلامية منذ عرفها التاريخ ، إلى أن عرفت التاريخ ، إلى أن عرفناها هي التاريخ ، إلى أن عرفناها في ذمة التاريخ ، تاريخنا المشترك في منطقة متصلة جغرافيًا مهيأة للوحدة .

ومثل التحرر الوطني اتخذت بقية الثوابت صورًا ارتقائية ، ومسميات متوالية ، بحسب الثقافات السائدة في كل عصر من تلك العصور .

قلنا : إن هذه ثوابت الشعب ، ولأنها شعبية ذات جذور غائرة في وجدان المصريين الجمعي ، وفي نفوسهم ، فإن هذا الشعب لم يعشق إلا من تمسكوا بها وحاولوا تحقيقها ، ولم يعط ولاءه إلا لمن أخلصوا لها ، ولا دموعه في الجنازات المهولة الهائلة أيضًا إلا لهم .

هكذا ، وبها أحب الشعب شيخ العرب همام وتغنى بسيرته .

وأحب عمر مكرم وسار وراءه .

وأحب أحمد عرابي « وكيل الأمة » وثار به .

وأحب سعد زغلول وسابقه ثائرًا .

وأحب جمال عبد الناصر ثائرًا بالنيابة عنه .

ثم أحب ألا ينوب عنه أحد ولا يفوض أحدًا في أمور ثوابته ، حتى جمال عبد الناصر بجلال قدره ، أحب أن ينوب عن نفسه، ولا يفوض من يحبهم ، أحب الديموقراطية ، أكثر من أحبائه ، هكذا علمه الأحباء بتجاوزاتهم، بل بسقطاتهم ، وآه من طعنة الحبيب .

وفي عجالة « بينما الأمر يحتاج إلى تفصيل ومناقشة ومراجعة للذات القومية وثوابتها التاريخية » ، نقول : كانت مصر قبل القرن الثامن عشر مدينتين كبيرتين

« القاهرة ودمياط » ، وأراضي زراعية كبيرة خاضعة لنظام الالتزام ولأن التجارة كانت مزدهرة قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح ، وتحول طريق التجارة إلى طريقه ، مبتعدة عن الفشل الإداري والأمني في نهاية عصر المماليك في مصر وأيضًا كانت قد ازدهرت بعض الصناعات ، لم تشعر المدينتان بآلام الفلاحين تحت كرابيج الالتزام ، ذلك أن المتعلمين « المثقفين » منذ بدء التاريخ في مصر ، كانوا ينفصلون عن قراهم ليعيشوا حول القصر « قصر أي حاكم » يصنعون حياتهم المعزولة ، وقد انحصرت مهمتهم في خدمة تطلعاتهم الوظيفية وفي الحفاظ عليها وفي الخدمة العامة ضيقة الأفق عندما يلجأ إليهم الأهل طلبًا للعون في حل مشاكلهم « مشاكل الأهل » الإدارية الوقتية مع السلطات حلولًا سلمية ولولبية أيضًا ، بعدها ، مثلما قبلها ، يبقى الأهل معزولين عن أبنائهم المتعلمين ويبقى المتعلمون معزولين عن أهلهم «وهو أمر ـ على مَرّ العصور ـ ظل يضعف المتعلمين والأهل ، إذ أبقى المتعلمين بلا ظهر حقيقي من الناس ، وأبقى الناس بلا طليعة ، تستطيع أن تحول الوعي الغاضب من الاستغلال إلى وعي كامل يمتلك الوسيلة التي تحارب هذا الاستغلال « هل تذكر الوعي والوسيلة ، من الفصل الفائت ؟ » .

وقد دخل القرن الثامن عشر والتأثر التدريجي السلبي لاكتشاف رأس الرجاء الصالح وتحول الطريق التجاري العالمي بعيدًا عن مصر ، قد وصل إلى مداه فقل الدخل العام ، وتقلص الاهتمام بالزراعة ومشروعات الري إلى حد لا يمكن قبوله .

شيء واحد لم يتقلص ، هو اهتمام خليفة المسلمين « العثماني » بخراج مصر ، ضاربًا عرض الحائط بالوسيلة التي يجمع بها الخراج من المسلمين ، « ومن المضحكات المبكيات « وكم ذا بمصر » ، أننا ظللنا ندفع هذا الخراج ـ الجزية !! للحكم التركي ـ تحت زعامة أتاتورك ومن جاءوا بعده ، هذا الحكم الذي لم يرث

الخلافة ، حتى سنوات من حكم جمال عبد الناصر ، بينما كانت الخلافة قبلها ـ بأكثر من ثلاثين سنة ـ قد انهارت وشبعت موتًا » .

ولأن الخليفة لم يكن يهتم إلا بخراج مصر ، رأى شيخ البلد « كبير المماليك المقيمين في مصر - الخادمين السلطة العثمانية - المسماة جورًا بالخلافة الإسلامية » ، أنه أهم من الوالي الذي يعينه السلطان من لدنه ، والذي يأتي ويروح قبل أن تسمح له سنوات الإقامة بأن تحلوا مصر في عينيه ، وهكذا بدأ صراع شيخ البلد والوالي ، وبدأ صراع بين المماليك المقيمين أنفسهم على وظيفة شيخ البلد ، وكان الصراعان على السلطة ، ومن أجلها اشتدت الصراعات ، بينما اقتصاديات مصر تنهار تجاريًا وصناعيًا وزراعيًا ، والتواجد التجاري الأجنبي يزداد مستخدمًا مسيحي الشرق التابعين لكنائس غربية « الشوام » ، ويهود الشرق التابعين لأي استغلال أيًا كان منبعه، والذين حلا لهم عبر التاريخ أن يكونوا أدوات ظلم للأغيار من غير اليهود ، دعائم له متخذًا من القاهرة ، والإسكندرية « التي بدأت تأخذ وضعها » ، مستقرًا له وللوثبة الأجنبية المزمعة ، التي راحت تمهد لها الإرساليات التبشيرية ،المتناثرة في عموم القطر ـ كاثوليك ثم بروتستانت ـ وبخاصة في صعيد مصر .

واستخدم المماليك في صراعهم على وظيفة « شيخ البلد » ، وفي تأكيد سلطاتهم في مواجهة الوالي العثماني ، عرب مصر « البدو » المقاتلين ، وجعلوا الصعيد ملجأ لهم، ومكمنًا للانقضاض من جديد، حيث توجد القبائل التي لم تعرف كبدو الشمال الشرقي ، خير الزراعة العميم في الوجه البحري .

ولأن الخليفة لم يكن يهتم إلا بخراج مصر ، بدأ معدل تغير الملتزمين الزراعيين يتزايد ، فالذي كان يعد بزيادة في خراج منطقة ، كانوا يعزلون غيره ويولونه ويلتزمها ، ويزداد ظلمًا وجورًا .

هكـذا توحـدت آلام المـدن وآلام القـرى، حـين اشـتد العسـف عـلى التجـار والمتعلمين « وأغلبهم من الأزهريين » ، مثلما كان التعسف زائـدًا عـلى الفلاحـين في كل القرى المصرية .

وهكذا أيضًا قويت شوكة عرب مصر « بدوها » ، وبعضـهم كـالهوارة أبقـى عـلى صلاته البدوية ، وحصل على الالتزام الزراعي ـ أي أنهـم تملكـوا الحسنيين ، القـوة المسلحة والسيطرة على خير الـوادي الخصيب ، ومـن هـؤلاء الأخـيرين ظهـر شـيخ العرب همام .

تدخل شيخ العرب همام وهو من الهوارة ـ برجاله المقـاتلين الأشـاوس في صراع السلطة في القاهرة ، واستقبل الباكوات لائذين به ، يستعينون بقوته ـ وبقواته ـ على الغرماء وانكشف المستور فسقطت الهالـة المقدسـة للخلافـة وبـان الأمـر أمـر خـراج وحسـب ، ففكـر الشـيخ همـام بـأن يمـد حـدود التزامـه ثـم انتهـى بـه التفكـير إلى الاستقلال بالصعيد ، على أن يدفع خراجـه ، « وكـان الصـعيد وقتهـا متقـدمًا تجاريًـا وصناعيًا وله علاقات مثمرة ماديًا مع أفريقيا » .

هكذا بدأت فكرة الاستقلال ، أو التحرر داخـل المنظومـة الخلافيـة ، أو منظومـة الخلافة ، والحق أن شيخ العرب همـام أظهـر براعـة شـديدة في إدارة أمـور الصـعيد ، مظهـرًا جنينًـا للديموقراطيـة وجنينًـا للعـدل الاجتماعـي ، جعـلاه أسـطورة ومـوالًا شعبيًا يتغنى به الصعايدة حتى اليوم .

بعدها ، قلد علي بك الكبير الشيخ همام ، « وخل بالك من قلد هذه » ، وأعلن وهـو « شـيخ البلـد » اسـتقلاله بـمصر ، واسـتخدم السـلطان العثماني « خليفـة المسـلمين » ، الخائن محمد بك أبي الدهب لضرب الاثنين : علي بك الكبـير وشـيخ العـرب همـام ، « ضرب النزعـة الاسـتقلالية » ، واسـتخدم كبـار قـواد جنـده العثمانيـين ، لضرب

المماليك في رحلات متتابعة ، ليثبت في كل مرة شيخًا للبلد في مواجهة بقية المماليك الطامعين المتصارعين على المشيخة « الأمر الذي استمر إلى التسعينيات من القرن الثامن عشر ، قبل مجيء الحملة الفرنسية بسنوات قليلة ، وكان من الممكن أن يستمر لولا أن جاءت الحملة » .

هذا الاضطراب الشديد أدى لظهور قوة « مشايخ الأزهر » مثقفي العصر وتدخلهم في الحياة السياسية كزعامات للناس الذين لم يعودوا يطيقون صبرًا على الظلم الجائر والفشل الإداري المتفشي ، هذا التدخل الذي انتهى إلى وثيقة بين الحكام والمحكومين عام ١٧٩٥م « الماجنا كارتا المصرية » ، كان المشايخ فيها مسئولين عن الديموقراطية « بمواصفات عصرهم » ، عن العدل الاجتماعي بلغة عصرهم ، بينما اختلط لديهم ، وهم المشايخ ـ الاستقلال والخضوع للسلطة الدينية الأعلى « الخلافة » .

وفي تلك الفترة انقضت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م بصدمتها الكبرى حضارة مظهرية وبربرية كامنة ، فبدأ عمر مكرم ـ الشيخ ـ الذي فر إلى الشام يدير مع العثمانيين « الذين استعانوا بالإنجليز » ، عملية تحرير مصر ، وانكشف له المستور ـ وهو الشيخ ـ من أمور الخلافة الإسلامية .

لذلك ، عندما تحررت مصر من الفرنسيين أراد عمر مكرم أن يستكمل تحريرها ، وكان وقتها يحارب ثلاث دول عظمى ، أرادت أن ترث الفرنسيين في مصر ، وأخطأ عمر مكرم عندما كون لمصر جيشًا من المرتزقة « لم يكن لمصر جيش منذ انتهاء عصر الفراعين إلا من المرتزقة » ، وهكذا يأتي خطأ الشيخ متسقًا مع ثقافة وقته ، وهكذا لمع نجم محمد علي ، الذي انقض أولًا على عمر مكرم ثم على المماليك ، ومع محمد علي بدأت المأساة « التي يتكلم عنها المرتدون ثقافيًا على أنها تكوين وبناء مصر الحديثة » .

أراد محمد علي استكمال مسيرة الاستقلال ، بتكوين إمبراطوريته التركية الخاصة ،

عمد إلى تطوير الزراعة المصرية « ليتوافر لمشاريعه الخاصة الكبرى - في الحصول على عرش الخلافة هناك في اسطمبول - دخل كبير يحققها » ، وتطوير الصناعة العسكرية « لتحقيق مشروعه بالقوة العسكرية » ، واختط في تطوير مصر نموذجًا شبيهًا بالنموذج الغربي « فرنسي في الأغلب » ، بينما كانت اليابان تصنع نموذجها القومي الخاص « هل حقق النموذج الياباني كل هذا التقدم لأنه خاص وليس صورة من النموذج الغربي ؟!! أظن ذلك ، فإن أي محاولة للتقدم لا تتسق وثقافات الأرض الناشئة عليها محكوم عليها أن تبقى دائمًا بلا جذور ، أو أن تبقى مثلما يقول المثل العامي : « زي القرع يمد لبره » ، وهكذا يتمكن من هم « بره » من السيطرة عليها وأهم ما يريدونه من سيطرة هو التحجيم » .

وعندما قامت الدولة العظمى قومة رجل واحد على محمد علي ؟ وأجبرته على التقوقع داخل مصر حسب معاهدتي ٤٠-١٨٤١م ، نسي خططه في تطوير مصر ، وأغلق المصانع ، وطارد العائدين من البعثات ، ومنهم أو على رأسهم رفاعة الطهطاوي العظيم ، لكن محمد علي كان قد أخطأ خطأ عمر مكرم « وكأنما الأمر انتقام القدر » ، فإذا كان عمر مكرم قد كون لمصر جيشًا من المرتزقة أودى باستقلالها ، فقد كون محمد علي جيشًا من المصريين ، أودى بأحلامه في أسرته ، فمن هذا الجيش جاء أحمد عرابي ، ليقبض مرة أخرى على الثوابت المصرية ، وكيلًا للأمة يعاونه مثقف الأمة الأعظم عبد الله نديم ، صائحين : « مصر للمصريين » ، وليست لأسرة محمد علي وعملائها من الشركس والأتراك ، وليست أيضًا للباب العالي الذي لا يعرف بحقوق المصريين ، ولا يهتم إلا بناتج عرقهم من خراج الأرض .

ولأن عرابي تمسك بالثوابت المصرية كلها ، ولم يفلت شيئًا منها ، لم تمهله الدول العظمى وسارعت بالتدخل والاحتلال ، قبل أن يولد الجنين ، وقاومها الجنين

مقاومة هي الأروع ، وانهزم هزيمة العظماء ، إلى حين ، وكما انهزم أصبحت الأسرة العلوية « أسرة محمد علي » « شخشيخة » في يد الإنجليز ، حتى آخر مندوبيها في مصر ، فاروق الأول ملك مصر وابنه الرضيع الذي عينته الثورة وليًا للعهد ، وعينت عليه مجلس وصاية ، ثم خلعته.

لكننا قلنا : أن الثورة العرابية انهزمت هزيمة العظماء إلى حين ، ذلك أنه من مدرسة الأفغاني التي جاء منها عرابي ونديم ، جاء سعد زغلول قابضًا على الثوابت المصرية ، « متخذًا من العدل الاجتماعي » جاء بتوكيل من الأمة ، « جمع الشعب له الإمضاءات وكيلًا عنه في بحث مسألة الاستقلال مثلما جمع عبد الله النديم إمضاءات المصريين من كل حدب وصوب لأحمد عرابي ، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا : أن الثورة العرابية التي انهزمت ١٨٨٢ ، قد قامت مرة أخرى في عام ١٩١٩ » ، وسانده الشعب بثورة هي الأعظم ، فلما نجح نجاحًا مذهلًا في المجلس النيابي ، صمم على تهدئة الشعب ليتحول من وكيل الثائرين إلى المفوض عن الأمة الهادئة!! ، فانتهز الإنجليز الفرصة وانقضوا على ثورة ١٩١٩ العظيمة ، وعلى المجلس النيابي « في حادثة السردار » ، وعلى دستور ١٩٢٣م المستحدث ، حلم الأمة المصرية بعدها بسنوات ، بعد أن ألغى العمل به واستبدله « صدقي » بدستور ١٩٣٠ ، الذي أضعف دور الأمة ، وغالى في دور الملك وبطانته من الوزراء » .

عاد الوفد - بعد وفاة سعد زغلول - وفاة من لم يع الدرس جيدًا - مرة أخرى بقيادة مصطفى النحاس يبحث عما كان في يده أو ما كان بعضه في يديه - الديموقراطية والاستقلال - محققًا أسس العدل الاجتماعي « التعليم مثلا » مؤجلًا كثيرًا منها إلى أن سبقت الحركة الشعبية خطاه في انتفاضة ١٩٤٦م « هل تذكر ما كتبناه عنها ؟ » ، ليعاود الوفد محاولة اللحاق بالحركة الشعبية في إلغاء معاهدة ١٩٣٦ التي وقعها الوفد نفسه

مع الإنجليز، وإعلان الكفاح المسلح أو مساعدته، ويزداد تجبر الإنجليز « فعلتهم المشينة ضد ضباط وجنود الشرطة في الإسماعيلية، التي تشبه فعلتهم المشينة في دنشواي وأفعالهم الشنعاء أثناء قمعهم ثورة ١٩، وانتفاضة ١٩٣٥، فتحترق القاهرة (يناير ١٩٥٢)، ويحترق معها الوفد « خضع الوفد للملك وأعلن الأحكام العرفية لتقييد حركة الجماهير، صادمًا الجماهير » ليجدها الملك فرصته في عزل الوفد، دون أن يجد الوفد من يبكيه وقتها، هناك من يبكونه الآن ».

ثم يجيء جمال عبد الناصر وتقبض ثورته على الثوابت المصرية « متخففة هذه المرة من الديموقراطية » وتحقق الثورة إنجازات كبيرة وعظيمة وتحقق كسلطة مآسي فظيعة ورهيبة، فيسهل الانقضاض عليها عام ١٩٧٤م « ليست حقيقيًا أنه قد تم الانقضاض على الثورة في ١٥ مايو ١٩٧١، فالذي تم وقتها انقضاض على رجال عبد الناصر الذين رآهم الشعب في ذلك الوقت أسوأ من أنور السادات شخصيًا، وقد كانوا أسوأ منه في سنوات حكمه الأولى بالفعل »، دون أن توجد قوة شعبية كافية تقف من أجلها فقد كانت الثورة قد عودت الشعب على أنها تضرب أعداءها، وتضرب أصحاب المصلحة أيضًا إذا أرادوا المشاركة في حماية مصالحهم، أضف إلى ذلك أن التفويض الذي عودوا عليه الشعب يسمح لمن يمسك بمقاليد الأمور بأن يركب أي موجة، وقد لعب السادات على الناس لعبة الديمقراطية - بنصيحة من محمد حسنين هيكل - فلم يعرفوا أنها لعبة وشربوها، ذلك أن السادات وقتها رفع شعار الديموقراطية « الناقص » مرحليًا كما أشار عليه محمد حسنين هيكل، ثم أظهر أنيابها فيما بعد بما أشار عليه المنتفعون الجدد.

هذه العجلة « وإن بدت مطولة » ربما تكون قد أظهرت لنا رحلة الشعب مع ثوابته الأربعة ومع من أحبهم ممن أخلصوا لكل أو لأغلب هذه الثوابت المصرية تلك

الثوابت التي تأكد لنا أنها يجب أن تؤخذ ككل ، وأن التضحية بواحد منها يهزم الكل ، مهما حسنت النوايا ، ومهما بدت لنا ـ وهي حقيقة ـ عظمة القادة المستمسكين بها .

ربما بهذا الوعي « الوعي بضرورة اكتمال الثوابت المصرية حتى لا تنهزم من جديد واجه الجيل جمال عبد الناصر ، وواجه السادات ، مصممًا على الاستقلال « التحرر » والديمقراطية « حرية الرأي ، والمشاركة ، ورفض التفويض » ، والعدل الاجتماعي « الاشتراكية » ، والانتماء العربي (القومية العربية) تحقيقًا للأمن القومي المصري « خلي بالك من كلمة المصري هذه » وتحقيقًا للحلم العربي التطوري والتنافسي في عالم لا يعترف بغير الكائنات الكبرى ، كل هؤلاء معًا ، فهم معًا مصر الحديثة القوية المتناغمة مع عصرها ، والتي لا يمكن هزيمتها ولو أراد الظالمون .

لكن حركة ٦٨ انطلقت من مواقع مختلفة فكريًا ، من مواقع ترى ضرورة تطوير النظام ، ومواقع فكرية أخرى ترى أن لابد وأن يتغير النظام « بالضغط الشعبي » لتحقيق الديمقراطية رافعة الشعار الجميل : « لا شرعية بدون ديمقراطية » ، لهذا كانت شعارات ١٩٦٨ خليطًا من الثوابت المصرية الأربعة كلها .

والآن لنترك هذه الثوابت قليلًا فسوف نعود إليها سريعًا ، ولنتذكر أننا ما زلنا مع محمد فريد حسنين ، الذي وعدوه أن تقابل اللجنة المكونة من اثني عشر طالبًا من مختلف الكليات جمال عبد الناصر .

يقول محمد فريد حسنين :

كانت إجازة عيد الوحدة « كانت مصر ما زالت تحتفل بعيد الوحدة رغم الانفصال » ، قابلنا الدكتور مرسي مدير الجامعة ، وكان رجلًا محترمًا ووقورًا وعظيمًا قال لنا : عربيات الرياسة ح تيجي تاخدكم ، لكن فجأة جه دكتور لبيب شقير « وزير التعليم وقتها » ، علاء حمروش رحمه الله بدأ الكلام معه ، وشرح

مطالب الطلبة ، ولما قلت : أنا فريد حسنين قال لي بلهجة خاصة : أهلًا يا سي فريد أنا عايز أسمعك « من سمات ذلك العصر أن المسؤولين فيه كانوا يشعرونك بأنهم يعلمون عنك كل شيء ، طبعًا بغرض إرهبك ، لقد كان المسؤولون يخافون ــ هم أنفسهم سطوة المخابرات القاهرة ، وكانوا لهذا يتمثلون قاهرهم عند التعامل مع غيرهم ، وهذه أهم خصائص الديكتاتورية حتى وإن كانت ثورية » ، وقلت : أنا باعتبر اللي حصل ده حاجة إيجابية والشباب عايز يشارك « خلي بالك من الكلام لكي نقلل رجوعنا إلى المحللين حسني النية » ، وباقترح أن حد بيجي من النظام يوم السبت يقول للناس إحنا متفهمين مشاعركم ، وقلوبنا معكم ، وسيتم التغيير الذي تريدون « مرة أخرى خل بالك من الكلام ، المشاركة والتغيير » .

ومرة أخرى فاجأهم د. لبيب شقير .

أنتم لا تعبرون عن الجامعة ، أنتم لستم اتحادات طلبة ، لن يتم مؤتمر يوم السبت « هكذا ، بالأمر » انتوا تروحوا وده أحسن ، ومش وقت اللي انتوا بتعملوه ده « دائمًا الوقت لا يكون وقت تدخل من الجماهير ، فأوقات الثورة كلها كما قلنا ــ وحتى الآن ــ أوقات عصيبة وأعداؤها دائمًا متربصون ، ومنعطفاتها تاريخية » ، وبعد أربع ساعات مناقشة ، صمم فيها على رأيه ، قام يمشي ، اعترضت طريقه :

أنت رايح فين ؟ وإيه التعالي ده كله ؟ إنت وزير نكسة !

« كان يقصد أنه كان عضوًا في وزارة النكسة » .

موشي ديان مش ح يقدر يكفرنا ببلدنا والظاهر إن انتم ح تقدروا .

(الحكومات الديكتاتورية تظن أن كفر المواطنين ببلادهم ، يريح دماغهم ، ويطلق يدها ، ولا تعرف ، أو هي تعرف ، أنه المفجر للعنف ، والعامل الأكبر في استشرائه ، وربما ــ أيضًا ــ تتصور ــ هذه الحكومات أن العنف أرحم من المشاركة ، فالعنف

فرصتها في إسكات كل الأصوات من حولها ، لأنها تقاوم العنف ، إنه بيت حجا الشمولي ، لكن الحكومات الديكتاتورية لابد تدفع الثمن في النهاية ، نهايتها بالطبع) .

لو كانت السفرة في بيوتكم نقصت رغيف كنتوا تغيرتم ، إنت عارف إيه اللي ح يحصل يوم السبت ؟! ، لو كنت عارف ما كنتش تتصرف كده .

وبالطبع لم يرسل النظام أحدًا يوم السبت وخرجت المظاهرات العارمة مظاهرات ٦٨ ، أخرجها من صمم وزراء النظام ، وأنصاره في التنظيم الطليعي على أنهم لا يمثلون القاعدة الطلابية!! ، فالمتسلطون الاستبداديون لا يحملون احترامًا للشعب ، ولا تقديرًا لإمكانياته ، ولا تصديقًا لقدراته ، إلى أن يفاجئهم الشعب ، فشل النظام في احتواء الموقف ، لماذا ؟ لأنه أصر على التفويض « إحنا ح نعمل اللي انتوا عايزينه وبلاش تتدخلوا لحسن أعداء الثورة تستغل الموقف » ، ولأن الشباب أصر على المشاركة ، التي يعبر عنها محمد فريد حسنين بقوله : « لما كنا بنقول عايزين ديمقراطية حقيقية ، كنا بنقول بكده كل حاجة » ، « خل بالك أن الشباب كان يعرف بأن جمال عبد الناصر متمسك بثوابت مصر كلها ما عدا الديمقراطية ، وهذا يشرح كلمة محمد فريد حسنين » .

وهكذا لم يرض النظام بالتفاهم ، دافنًا رأسه في الرمال ، وكانت الرمال هي زعمه بأن قادة الطلبة الذين أفرزتهم الأحداث والمؤتمرات لا يمثلون الطلاب ، مراهنًا رهانًا خاسرًا بأن شيئًا لن يحدث وأنه ـ بذلك ـ يكون قد تخلص من الأزمة كلها .

هكذا دخل النظام في الأزمة كلها .

السر الرهيب عند الدكتور أسامة :

قصة أخرى طريفة يقصها محمد فريد حسنين ، وفي طرافتها دلالتها ، يقول :

خرجنا من اجتماعاتنا مع د. لبيب شقير ، ركبت عربيتي ، وبينما كنت أمر أمام مقر

لجنة الاتحاد الاشتراكي بمحافظة الجيزة ، وجدت عربة د. أسامة الخولي راكنة أمامها ، طلبت من الفراش أن يبلغه بأنني أحتاج إليه « كان د . أسامة الخولي وكيلًا لكلية الهندسة ، وعضوًا بالاتحاد الاشتراكي ، وبعدها صار مستشارنا الثقافي في موسكو » .

خرج لي الدكتور أسامة ، بدأت أشرح له ما حدث ، فقال :

روّح دلوقت وتعال لي البيت « صباح يوم ٢٣ فبراير ١٩٦٨م » .

رحت له الصبح ، قال لي : هناك اتجاهان داخل النظام ، اتجاه يؤكد ضرورة الضرب بيد من حديد ونار على أيدي من يريدون المشاركة بالرأي في صناعة مستقبل بلدهم ، وتصحيح أخطاء النظام ، بحجة أنه « مفيش وقت للكلام ده » « كلمتهم الخالدة » ، واتجاه آخر يرى أن الطلبة معذورون ، وأن السلطة يجب أن تعاملهم بـ« الراحة » وتسمع اللي عايزين يقولوه ، لكن الخوف إن المظاهرات تجعل أصحاب الرأي المتشدد ، أعلى صوتًا من غيرهم وتعطيهم فرصة لرفض التغيير ، الذي يسعى إليه المستنيرون في النظام ، ويكادون يصلون فيه إلى نتائج في صالح البلد ، وهكذا ستعطلون بحركتكم الطلابية عملًا يتم لمصلحة مصر الآن ، الموضوع مش لعب عيال ، ده مصير أمة .

طرافة هذه القصة تكمن في مداراة مسألة التفويض ، إذا سكتم سيتم عمل كبير لمصر ، وإذا تكلمتم سيعاند النظام وسيسمع رأي أصحاب الموقف المتشدد داخله ، أما الرغبة في المشاركة « وكانت بعد سليمة » فهي « لعب عيال » أما دلالة القصة فترينا أن الحزب الشعبي « الاتحاد الاشتراكي العربي » كان يدعم الفكر العسكري في إدارة شئون الأمة ، « قائد الوحدة العسكرية مسؤول عن توفير احتياجاتك المعيشية وعن قيادتك لكن أن تطلب شيئًا بنفسك فهذا يعرضك للعقاب ، بل لمحكمة عسكرية » .

هكذا يدير العسكريون الأمور ، في السلطة وفي التنظيم الشعبي أيضًا .

والأكثر طرافة ، أن محمد فريد حسنين ، اهتز داخله ، وكان اهتزازه دليل براءة سياسية ، يقول ــ بشجاعة الصدق : رحت يوم السبت الكلية ، وفي ذهني أن لا شأن لي بأي شيء ، حاول الطلبة معي أن نكمل ما بدأناه ، قلت : ماليش دعوة ، قالوا لي : انت وانت ، وفجأة لقيت الولاد من كلية العلوم كسروا باب الكلية ، وخرجوا بمظاهرة ، كان يقودهم طالب للأسف لا أذكر اسمه « إخوته لديهم محل فول في الحسين » حسيت ساعتها أن المجموع رأيهم أصح ، وأفضل من رأي الفرد ، قلت للدكتور أسامة الخولي والدكتور محمود شريف وكانا يقفان في حوش الهندسة :

أنا من دلوقت ح أتصرف من دماغي .

(كان يقصد ضد الأوامر التنظيمية للاتحاد الاشتراكي ، والتي جاء الدكتور محمود الشريف « طبيب ومدير معهد السرطان ، ووزير الحكم المحلي السابق) إلى حوش كلية الهندسة غالبًا للإشراف على تنفيذها .

ويستطرد محمد فريد حسنين : وجريت وراء المظاهرات .

هكذا حسمها الطالب العادي وسبق قيادته ، بينما السلطة تراهن على أن القيادات لا تمثل جموع الطلاب ، وأن المعارضين عدد محدود ، لقد صحت السلطة من غفوتها فإذا المعارضين يملؤون الشوارع صخبًا ، وشعارات تهتف بسقوطها ، وغضبًا تفجرت منه الصدور .

كتب رماح أسعد في كتابه « سطور من يوميات الحركة الطلابية المصرية ١٩٧٨ ـ ١٩٧٣ » (ص٣٣) وما بعدها » .

كالسيل تتدفق الجموع الساخطة « من جامعة عين شمس » ، والسخط جاء من أن السلطة لا تريد أن تتفاهم مما يشي برغبتها في إبقاء الأمور على ما هي عليه « دون

تغيير » إلى ميدان العباسية ، فشارع رمسيس ، فمنطقة وسط البلد .

ومن جامعة القاهرة تنطلق المسيرة في اتجاه كوبري الجامعة ومنه إلى شارع قصر العيني ليتجمع الطلاب في حلقة بلا نهاية أمام مقر مجلس الأمة .

ويقول محمد فريد حسنين : وصلنا مجلس الأمة ، نظرت حولي وجدت أعدادًا كبيرة « يقصد أعدادًا كبيرة من المتظاهرين » بدأت أترعب وركبي تتخبط في بعض ، لقد خرج العفريت ، فكيف سنتصرف فيه ؟

دخلت مجلس الأمة بمعاونة ضابط صحت فيه : لازم أقابل حدّ كبير ، أكبر رأس ، بعد دخولي وجدت أنور السادات ومعاه نوال عامر ، قلت له : أنا عايزك تجيبلي ميكروفون ألم الناس دي كلها حول ورقة يوم الأربع « مطالب الطلاب ، هل تذكرها ؟ » جابولي ميكروفون بعد ما عرفوا إني من كلية الهندسة ، وظهر السادات إلى جانبي في الشباك، وكان يدخن سجائر « فقد كان محتفظًا بالبايب لحد ما يبقى رئيس » ، ولسه باتكلم ، واحد قال : « أنت واقف جنبه ليه ؟ » ، وتصايح الطلاب في غضب ، وفجأة قال طالب لأنور السادات :

إنت بتشرب كنت، والناس مش لاقية تأكل .

أنور أسرع بإطفاء السيجارة فصاح فيه الطالب في غضب :

وبتطفيها من نصها كمان ؟!!

قفز محمد فريد حسنين من الشباك بينما السادات يطلب من الطلاب تكوين وفد منهم يمثل الكليات المختلفة لعرض مطالبهم أمام مجلس الأمة « كان السادات رئيس مجلس الأمة وقتها ، والذي غير اسمه فيما بعد إلى مجلس الشعب » ، مقسمًا بشرفه أن من سيدخلون إليه لن يصيبهم أي سوء « بالطبع قبض على أعضاء الوفد المنتخب عند فجر اليوم التالي ، وكان السدات إذا ما أقسم بشرفه بعد ذلك وقد غدا

رئيسًا للجمهورية يتساءل الطلاب : أي شرف ؟ شرف ٦٨ ؟ » .

يقول « رماح أسعد » : وتشعب الحوار « داخل المجلس بين أعضائه ووفد الطلاب المنتخب » من أحكام الطيران إلى الهزيمة إلى الديموقراطية « خل بالك من الترتيب الذي وضع به « رماح » كلماته ، أحكام الطيران ، الهزيمة ، الديمقراطية « فأحكام الطيران كانت لحظة التفجر ، لكن لحظة التفجر هذه كان قد سبقها ـ كما وضحنا ـ غضب عرف الوسيلة ، فأصبح وعيًا متكاملًا ، والغضب هذا ، هو الذي يحرك الجماهير ، وإن احتاج تحركهم إلى شعلة للتفجر » ، بعد التفجر ، يعبر الغضب عن نفسه بالهزيمة ، وبالمطالبة بالديمقراطية ، هل غدت الأمور واضحة » ، وانتهى الحوار بقيام رئيس المجلس بجمع أسماء وبيانات الطلاب ، « تمهيدًا للقبض عليهم تبعًا لشرف ٦٨ » .

ولم يكن حظ طلاب عين شمس أفضل من طلاب جامعة القاهرة ، الذين قابلوا السادات ـ يقول معتز حفناوي في شهادته (١) : أن طلبة عين شمس كونوا وفدًا ، ذهب إلى بيت الرئيس جمال عبد الناصر « قابل الوفد السيد محمد أحمد سكرتير عبد الناصر ، وسلمه مطالب الطلاب ، فاستأذن السيد محمد أحمد خارجًا ، ليعود بعد عشر دقائق ، ويخبر الطلاب بأن عبد الناصر سيرد على هذه المطالب في خطبة جماهيرية عامة ، وأنه ـ الرئيس ـ يعرف أن وطنية الطلاب هي التي دفعتهم إلى تقديم هذه المطالب له ، وهو بدوره يطلب منكم أن تعودوا إلى الجامعة وتخبروا الطلاب برأيه ، وتفضوا الاعتصام ، واستجاب الطلبة لمطلب الرئيس « كانوا يصدقونه » ، وعادوا لمنازلهم ليقبض عليهم في الفجر ، بعد أقل من ١٢ ساعة من انتهاء لقائهم بسكرتير الرئيس جمال عبد الناصر .

(١) راجع شهادة معتز الحفناوي في الملاحق .

وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي يثق فيها الطلاب بالسلطة « أليس لديهم حق ؟ » .

وكانت النتيجة أن اشتدت المظاهرات :

في اليوم التالي كانت المظاهرات أعنف .

يقول رماح أسعد : في مظاهرات عين شمس يسقط أول شهيد للحركة « مضروبًا بالرصاص ، ولم يكن طالبًا » ، فيحمله المتظاهرون مضرجًا بدمائه إلى بيت عبد الناصر ، رافعين شعارات الديموقراطية ، وإقالة شعراوي جمعة وزير الداخلية « أعلن وزير الداخلية في ٢٧/ ٢/ ٦٨ ، عن عدم سقوط قتلى في الأحداث الطلابية « منتهى الصدق » ، بينما أثبت التحقيق الذي أجراه فريد الديب وكيل نيابة شرق القاهرة وقتئذٍ أن الشهيد قُتل نتيجة إصابته بمقذوف ناري من عيار (٣٠٣) لي أمنيلد ، وأن المقذوف استخرج من رقبته ، أي أن الطلقات لم تكن موجهة إلى الأقدام ، كما أثبتت التحقيقات أن قوات الأمن أطلقت النار في المليان وأحدثت العديد من الإصابات بمجموع المتظاهرين » .

لكنه برغم استئساد السلطة هذا ، اضطر جمال عبد الناصر إلى التراجع لأول مرة منذ انتخابه رئيسًا للجمهورية في عام ١٩٥٤ ، وخضع لمطلب الجماهير ، وقرر إعادة محاكمة ضباط الطيران ، في محاولة لإثبات أن اعتراض الطلاب منصب فقط على موضوع الطيران ، وأن الديمقراطية - التي لا يقلبها - لم تكن الدافع وراء حركتهم ، لكن الأمر لم يكن أمر محاكمة ضباط الطيران ، كان أكبر من هذا « هل تتذكرون ردنا على المحللين حسني النية » ، فلم يؤد رضوخ جمال عبد الناصر إلى توقف الحركة « لو كان الأمر أمر طيران « وخلاص » لتوقفت المظاهرات بعد أن وصلت إلى غرضها وتحقق لها ما تريده » .

ولأن الأمر لم يكن أمر أحكام طيران « وبس » ، استمر اعتصام الطلاب المحاصرين

داخل هندسة القاهرة برغم تراجع عبد الناصر وما أدراك ما تراجع عبد الناصر ، معلنين أن اعتصامهم لن ينتهي حتى تحقيق مطالب الطلاب ، وكانت المطالب :

١- الإفراج الفوري عن الطلاب المعتقلين .

٢- حرية الرأي والصحافة .

٣- مجلس حر يمارس حياة نيابية سليمة « المقصود مجلس أمة حر » .

٤- إبعاد المخابرات والمباحث عن الطلاب في الجامعة .

٥- إلغاء القوانين المقيدة للحريات ووقف العمل بها .

٦- التحقيق الجدي في حادث العمال في حلوان .

٧- توضيح حقيقة المسألة في قضية الطيران .

٨- التحقيق في انتهاك حرمة الجامعات واعتداء الشرطة على الطلبة .

والآن ملاحظة في غاية الذكاء :

ويلاحظ د. أحمد عبد الله « أحمد عبد الله رزة كما كان ينطق السادات اسمه كاملًا ، وكان قائد اعتصام جامعة القاهرة المنتخب عام ١٩٧٢م » ، إنه يتضح من المطالب أن ثلاثة منها تدور حول المسألة الديمقراطية ، بينما تشير ثلاثة أخرى منها إلى غياب الديموقراطية في الجامعة بوجه خاص ، ويركز مطلبان فقط على قضية الطيران والأحداث التي أدت « قضية الطيران » إليها « الطلبة والسياسة في مصر د. أحمد عبد الله ، دار سينا للنشر (ص١٨٦) » .

برغم هذا أخذ المحللون حسنو النية المطلب السابع ، وجعلوا الحركة كلها رد فعل له ، مجرد رد فعل .

ولنعد إلى الاعتصام في كلية الهندسة ، فقد استمر ، وتبادل فيه الطلبة وقوات

الأمن الحوار تارة وإلقاء الطوب والقنابل المسيلة للدموع مرات ، وزار المسؤولون الاعتصام لإقناع الطلبة بفضه ، لكن الحوارات انتهت بالفشل فلم تكن لدى المسؤولين حجج قوية تبرر ما يحدث ، ولم تكن لديهم نية في إذعان أكبر وقبول كل مطالب الطلاب التي تدور حول تعميق الديمقراطية ، ورفض استفراد جمال عبد الناصر بالسلطة « وسعي الطلبة الجاد إلى المشاركة التي يجب أن تتاح لكل مصري يريد أن يخدم بلاده برأيه وبفعله الذي يحول الرأي إلى حقيقة ، على أن يكون الشعب صاحب المصلحة في التغيير - قادرًا بمؤسساته ومنظمات المجتمع المدني على أن يضغط مستمرًا « سلميًا » حتى تتحقق هذه المطالب » .

إن الجمعيات النوعية الضاغطة ، واحدة من دعائم الديمقراطية، كما عرفها العالم ، وليت جمال عبد الناصر ، الذي كان يحبه الشعب ، فعلها ، وأعطى الشعب الذي يحبه حقهم في إنشاء تنظيماتهم وجمعياتهم وفعالياتهم الضاغطة . لو كان فعلها لما استطاع أنور السادات - الذي كان يحبه الفاسدون - أن يفعل بمصر ، ومستقبل أبنائها ، ما فعل !!!

7

غلطة عُمر
جمال عبد الناصر

الديموقراطية ، هل هي ـ بالنسبة لنا ـ بيضة الديك ؟!

فيما يبدو ـ وحتى إشعار آخر ـ هي كذلك !!

هل صارت المستحيلات ـ في زماننا ـ هي الغول والعنقاء والخل الوفي والديموقراطية ؟!

فيما يبدو ـ وحتى إشعار آخر ـ صارت المستحيلات كذلك !!

لقد غدت الديموقراطية « ليمونة المحاياة ، التي فيها الدواء والنجاة ، والتي هي أيضًا ـ بعيدة المنال ، بيننا وبينها دروب ـ وضروب ـ من التيه والانتظار والأهوال » ، بيضة الديك ورابعة المستحيلات ، غدت كذلك ، ليس لأن السلطة الحاكمة لا تقبلها ـ كاملة ـ « عيب في حقها » ، ولكن « وهذا ما يؤسف له ، وما لا يمكن تبريره » ، لأن المثقفين أيضًا ـ كالسلطة ـ لا يقبلونها لنا « وهذا هو السر في أن أحدًا لا يدافع عنها الدفاع المرجو ولا أحد يضغط من أجلها الضغط المطلوب » .

قد يصدمكم هذا الرأي ، لكنه للأسف ، ليس بعيدًا عن الحقيقة !!

مثقفوا اليسار « بكافة اتجاهاتهم ودرجات ألوانهم » يرى أغلبهم « وليس كل من يرى يعلن ما يراه » إن ظروفًا ما لم تنضج ، وعلاقات ما لم تفرض نفسها ـ بعد ـ على الواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي ، لذا فنحن غير مؤهلين لممارسة ديموقراطية سليمة « كاملة » في مصر « الأمر الذي يجعلنا نصيح صيحة قيصر في المسرحية الشكسبيرية الشهيرة ، وهو يتلقى طعنات رجاله وأصدقائه ومحبيه : « حتى أنت يا هيكل ، حتى أنت يا أحمد بهاء الدين يرحمك الله » .

مثقفوا اليمين « إذا كانوا غير متطرفين دينيًا ، غير سلفيين اتجاهًا » ، يرون أنهم يجب أن يمارسوا الديموقراطية بالنيابة عنا ، فهم العارفون ، ونحن الشعب الجاهل سياسيًا ، الأمي في نسبة محيرة من أبنائه أصحاب المصلحة .

مثقفـوا اليمـين « إذا كـانوا متطـرفين دينيًـا غـير سـلفيين اتجاهًـا » يـرون أن الديموقراطية لا تشبه الشورى القرآنية شبهًا يطابق الأصل ، كما يرون أن الشـورى الإسلامية نفسها غير ملزمة للحاكم ، ولكنها قضية « ائتناس » برأي العـارفين ، وهم بهذا ـ أيضًا ـ في أفضل أحوالهم يريدون أن يمارسوها بالنيابة عنا « متلاقين مع غيرهم من اليمينيين » بزعم أنهم أهل الحل والعقد .

مثقفـوا اليمـين « إذا كـانوا متطـرفين دينيًـا ، سـلفيين اتجاهًـا » فـإنهم يقـررون في عجالـة مذهلـة في حسـمها ، ألا ديموقراطيـة في الإسـلام ، فهـي بدعـة، وكـل بدعـة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

مثقفوا الوسط « وهي تسمية خاصة في مصر وحدها ، فليس في العالم من يمكـن أن يتصف بهذه الصفة إلا هؤلاء الذين لا يملكون فكرًا محددًا ، أو من كانوا من أصـحاب نظرية التجربة والخطأ علنا وزيفًا والباحثين عن مصلحتهم وحدها سرًا ، وهـم مثقفـوا الحزب الوطني الديموقراطي ، اعتادوا واعتدنا منهم « منذ كانوا مثقفـي حـزب مصر ، ومن قبله الاتحاد الاشـتراكي العـربي وتنظيمه الطليعـي ، ومـن قـبلهما الاتحـاد القـومي وقبلهم هيئة التحرير » ، أن يتكلموا في كل عصر عن تلك الإنفراجة الديموقراطية التي لم تحدث من قبل ، والتي لا ينكرها إلا حاقد ، والتي تضطرنا ـ إذا ما كنا منصفين ـ إلى تقبيل أيدينا وجهًا وظهرًا ، فليس في الديموقراطية أفضل مما كان ، ويكون ، وسيكون ، عندما يرى سيادة الرئيس أن الوقت مناسب لها .

أما السلطة ـ بجلال قدرها ـ فتكتفي بأن تقول : « عندنا ديموقراطية » .

يا عيني على الديموقراطية :

هكذا أصبحت الديموقراطية « الحقة ، غير الصورية » ، الحسـناء التـي لا يطلـب يدها أحد ، وأين ؟! في مصر !! مصر صاحبة أول برلمان في الشرق كلـه (١٨٦٦م) .

وأول تجربة حزبية « تعددية » في الشرق الأوسط عام (١٩٠٧م) ، وأول دستور عربي (١٩٢٣) ، وأول محليات ديموقراطية أيضًا ، وأول جمعيات أهلية وفئوية ، ومهنية ، وأول حركة نقابية ، وأول انتباهة إلى حقوق الإنسان في المنطقة ، وكل ما سبق « وما سبقت إليه مصر الجميع » ، هو دعامة حياة ديموقراطية حقة « إذا أردنا » لكن المشكلة أن أحدًا لا يريد .

مأساة جيلنا ... الفاجعة !!

وهكذا ـ أيضًا ـ خرج جيلنا إلى الوجود في ظل قانون الطوارئ الذي سنَّه الوفد بعد حريق القاهرة ، وحبا ، وعاش طفولته واستقبل الصبا والشباب في ظل قانون الطوارئ الثوري ، وعاش شبابه وتسللت إليه الكهولة في ظل قانون الطواري الديموقراطي « في عصري الرئيس السادات ، والرئيس مبارك » فهل سيموت جيلنا في ظله أيضًا؟!! (لعل هذه هي قضية الجيل التي كانت ، وهي بعد قضيته المُلحَّة) .

في مصر (وكم ذا بمصر...) بعد أن أكد عرابي « وكيل الأمة الذي كان يستفيها في كل أمورها ، وخل بالك من هذه الجملة » ، أن الأمة مصدر السلطات كلها ، وأكد عبد الله نديم ، وليس كما يظن الكثيرون ، أن المصريين جميعًا متساوون أمام السلطان ، وأن الدين لله والوطن للجميع ، « قولة عبد الله نديم وليست استحداثًا لثورة ١٩١٩ » ، في مصر هذه حارب مصطفى كامل « الديموقراطي » العرابيين لأنهم ضد الباب العالي « الخلافة » والباب الواطئ « الخديوية » ، وحارب وفد سعد زغلول الحركة العالمية المستقلة « غير الوفدية » الوليدة ، ومؤسساتها الجنينية إذ كان يقودها البلاشفة « الماركسيون » ، حاربهم حربًا غير ديموقراطية ، فاستطاع الإنجليز والسراي أن يحاربوا وفد سعد زغلول ومصطفى النحاس حربًا هي الأخرى غير ديموقراطية « انظروا كم من السنين استطاع أن يحكم فيها الوفد ـ

ست سنوات من ٣٠ سنة!!! ، وتعجبوا » .

وفي مصر أيضًا ظل جمال عبد الناصر يخشى أن تتسلل الثورة المضادة والرجعية المتنمرة ـ إليه ـ من ثقب س الديموقراطية « وهو الذي حرم قواهم (أقصد الرجعية) من العمل السياسي ، وطاردهم » ، وخشي السادات « الديموقراطي » ، أن يتسلل أصحاب الأفكار المستوردة بعيونهم إلى جيوب أسرته الانفتاحية والانفتاحيين الأسرة ، فيخيفون رؤوس الأموال المصرية والأجنبية ، « كان السادات يخشى الأفكار المستوردة ، في عهد كان الاستيراد فيه على ودنه » ، وأن يتسلل من يلبسون قميص عبد الناصر من نفس الثقب ، والآن في عهد الرئيس مبارك يخشى الجميع « فيما يبدو » من تسرب الإسلام السياسي من الثقب عينه (هذه هي الحجج المعلنة طبعًا والحجة غير المعلنة هي أن غياب الديمقراطية يحرض على الفساد ، والفاسدون لا يخافون شيئًا ، قدر ما يخافون الديمقراطية الفضاحة) .

فهل الحقيقة أن الديموقراطية هي الباب الذي تأتينا منه الريح والذي يجب أن نسده ونستريح ؟!

هل حقيقة أن الشعب الأمي في أغلبه لا يستطيع أن يمارس الديموقراطية ؟! وهل حقيقة سيأتينا الإسلام السياسي المتطرف من ثقب الديموقراطية ؟!

أم أن الحقيقة هي أن على المثقفين « أصحاب المصلحة » وعلى الحزب الحاكم أيضًا أن يراجعوا أنفسهم في هذا الصدد ، ذلك أن الخطر يتهدد الجميع ، الجميع بلا استثناء .

إن الريح ستأتي من سد الثقب وليس من خلاله .

أقول : راجعوا أنفسكم قبل أن تأتينا الريح .

محاولة متواضعة لمراجعة النفس :

منذ تعقد الوضع ، بالنمو الهائل للإسلام السياسي السلفي المتطرف ، زاد خوف

جميع الاتجاهات الفكرية «بما فيهم التيار الإسلامي السلفي المتطرف من الديموقراطية»، أصبح الجميع واثقين « عدا التيار الإسلامي السلفي المتطرف » ، من أن الديموقراطية ستأتي بأصحاب هذا الاتجاه إلى رأس السلطة ، ظانين - وبعض الظن إثم - أن حجب الديموقراطية سوف يحجب هنا الاتجاه ، الذي إذا ما تملك لن يبقى ولن يذر « وهذه حقيقة » ، ولم يخطر في بال أحد « إلا القلة القليلة » ، أن الواقع يؤكد أن حجب الديموقراطية ، يؤجج سطوة السلفيين ، فمن ناحية يوجد لهم من الغاضبين من الاستبداد « في شباب لم يتفتح بعد على أمور الحياة وأصول الثقافة الحقيقية » ، جنودًا ، يلقون بها في فوهة العنف مشتعلة الأتون ، ويجعل لهم من الناس ، الذين يعانون اليأس من تغير الأحوال إلى الأحسن في ظل احتكار شرس ، مددًا يفرح بما يفعلونه ، ويؤيده سرًا ، على أساس مقولة شمشون الجبار : « عليَّ وعلى أعدائي » ، وهو من ناحية ثانية ، يعطيهم - السلفيين والمتطرفين - ما يبرر لجوءهم إلى العنف ، في ظل سلطات لا تسمح لأي أحد بحرية التعبير ، مستعدة دومًا لمصادرة الرأي « المغلول » إذا اقترب من المنطقة الخطرة التي يستطيع فيها أن يفضح حقيقة الفساد وتشابكاته التي تطول أفرادها ، لاجئة في كل الأوقات إلى قانون طوارئ استمرأ اعتقال المعارضين إذا ما وجدت لمعارضتهم تأثيرًا ، سلطة لا تقبل في التفاهم إلا الخضوع ، ولا تتورع « داخليتها » ، عن ممارسة القتل ، فإن لم يكن فالتعذيب المهين المدمر « لهذا يحاولون السلفيون المتطرفون ألا يقعوا في أيديها ، ولو أدى الأمر إلى قتل محاولي اعتقالهم إذا ما حاولوا ، أو قتل أنفسهم إذا لم يستطيعوا قتل الذين سيعتقلونهم » .

سلطة تصنع معهم ثأرًا لا يخمد أواره بإهانة الأهل « وخاصة النساء منهم » ، وتعذيبهم ، سلطة تتورط — أبدًا — في دائرة العنف والعنف المضل المغلقة ، ومن ناحية ثالثة ، فإن حجب الديموقراطية يعطي مرتعًا خصبًا ، بل شديد الخصوبة

للفساد ، فلا يجد المتضررون ، المتضورون ملجأ في مواجهته غير العنف ، مستندين على الله أعدل الحاكمين .

الحقيقة أن معارضي فتح باب الديموقراطية على مصراعيه ، لم يفهموا درس الجزائر ولم يعوا درس الأردن ، ولم يستوعبوا درس إيران ، ولم يقرأوا تاريخ الديموقراطية البرجوازية في المملكة المتحدة ، وفي فرنسا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية .

إن تراجع السلطة العسكرية عن الديموقراطية في الجزائر « والسلطة العسكرية في أي مكان تفعلها دائمًا » أعفى السلفيين من خطورة الفرصة المتاحة لاختلافهم مع الناس ومع مصالحهم ، بل مع أخص أمور حياتهم ، ومقدرات مستقبلهم ، وأظهرهم بمظهر الموتورين المظلومين ، وأظن ـ وليس كل الظن إثمًا ـ أن السلطة العسكرية مدت في أعمار الاتجاه ، حينما حجبت فرصة أن يرفضهم الناس ـ بعد حين ـ الذين لم يقبلوا بتصوراتهم الغائمة إلا هروبًا من فساد السلطة العسكرية ، وإفسادها ، وشراستها ، وتكسبها على حساب الجماهير المطحونة ، إن ما فعلته السلطة العسكرية خلط أوراق الحرب ، فأصبح الكل يحاربون الكل ، واستشرت القبلية « العسكرية » الدموية ، وقد كان الوقت كفيلًا بأن يجعل الحرب تأخذ منحاها الصحيح ضد كل أعداء السواد الأعظم من الشعب .

ألم يحدث ذلك في إيران ، إن الناس في إيران يراجعون أنفسهم علنًا وفي غضب ، في مواجهة سلطة لم تحقق وعودها « الربانية » ، والسلطة ـ هناك ـ اضطرت إلى أن تتراجع نحو الديموقراطية « وكان من الممكن أن تتراجع قبل ذلك ، لكن الخطر الخارجي ، الذي قدمه لها صدام حسين على طبق من فضة ، أطال عمر ثيوقراطيتها » .

إن الشعوب كحكامها تخطئ ، لكن أخطاء الشعوب « عكس أخطاء الحكام » يمكن تداركها .

وهناك تجربة أخرى في الاتجاه المخالف تمت في الأردن، لقد أعطى الملك «الداهية»، فرصة ضئيلة للغاية للاتجاهات السلفية لكي تعبر عن نفسها، وحين عبرت عن نفسها، اكتشف المخدعون «ضحالة» ما تملكه. وها هو ذا نورها يخبو بالتدريج، حتى لم يعد نورًا، (الاتجاه السلفي لا يملك فكرًا، إن السلفية هي اللافكر المعتمد على نجاحات عنيفة سابقة، مشكوك في بعضها، وعندما تحتك بالواقع ـ وتخرج من كهف التحريض ـ تصبح قليلة الحيلة، مثيرة للرثاء: ويصبح غضبها لله ـ الغني عن غضبها ـ شيئًا آخر غير قادة الشعوب في صالح السواد الأعظم، فلم يحدث أن قدمت هذه الاتجاهات ـ غير شعاراتها البراقة ـ حلولًا علمية لمشاكل أوطانها، بل للأمور التي يحرضون الناس ضدها!!!، ولا أظنهم يستطيعون إلا إذا تخلصوا من أساس وجودهم، من السلفية نفسها، وأيقنوا أن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان تعني التجديد الذي لا يخالف الإسلام الصحيح، ليس في القرآن والسنة إلا توجيهات وخطوط عريضة تستلزم دومًا أن نطابقها نحن على متطلبات كل عصر)[1].

ثم هناك درس الديمقراطيات البرجوازية، ومن يقرأ تاريخها يعلم أن الديموقراطية ما آن تبدأ، حتى تبدأ ـ أيضًا ـ في إصلاح عيوبها بشرط أن يتم تدعيم المؤسسات التي لا يقوم على غير أساسها للديمقراطية قائمة، وبشرط التراضي حول قوانين تدفع الديموقراطية دفعًا إلى الأمام مصلحةً عيوبها، مكملة ما فيها من نقص.

أيضًا فإن تجربة الديمقراطيات البرجوازية «التي تتضمن العيب المرتضي في أن تكون الديموقراطية برجوازية أي لصالح البرجوازية، وضد أقلية ـ دومًا ـ هي الأيرلندية في إنجلترا والسود في أمريكا مثلا»، لم تشترط أبدًا أفرادًا شديدي الثقافة

(١) للقارئ أن يراجع تجربة الترابي التي قضت على الاقتصاد السوداني وجغرافية السودان الشقيق التوءم، ثم اعترافه المتأخر ـ بعد أن نحر الآلاف ـ بأن إدارة الحكم أمر لا يوجد في الإسلام (راجع برنامج بلا حدود معه على الجزيرة الفضائية).

لممارستها ، فليس المطلوب من الناس في ظل الديموقراطية أن يفهموا في الاقتصاد مثلما يفهم العلماء ، لكن المطلوب « وهو لابد متحقق » أن يكون الناس عارفين لمصلحتهم، وأن يُترك للعارفين فرصة إبداء آرائهم لإعلام الناس بالكيفية المثلى لتحقق مصالحهم ، ثم يترك بعد ذلك الخيار للناس ، فإن اختاروا خطأ ، لابد سيتراجعون عن اختياراتهم التي لم تحقق المصلحة المنشودة .

دعوا الشعوب تخطئ وتتعلم من أخطائها ، إن خطأ الشعوب ظاهر ، أما أخطاء الديكتاتورية ، فهي خفية وإن ظهرت يتم تبريرها ، بل إن الديكتاتورية تعتبر نفسها في خصومة - لا تسامح فيها - مع من يظهر أخطاءها ، فليست الديكتاتورية على استعداد لأن يقتص أحد من احتكارها للنظرة الصادقة ، فهو أساس احتكارها للسلطة .

المطلوب في بلادنا ألا نخاف من فتح باب الديموقراطية على مصراعيه .

الآن وليس غدًا !!

مطلوب أن نفتح الفرصة أمام مجتمعات ومنظمات المجتمع المدني ، النقابات ، الروابط ، الجمعيات ، والمنظمات غير الحكومية ، أن نكف يد الوزراء والمباحث عنها لتستطيع أن تقوم بدورها في إعلام أصحاب المصلحة بما يحقق مصالحهم ، دون التفاف سلطوي مباحثي مخابراتي ، تحبه الديكتاتوريات ظاهرًا - لتدعيم سلطاتها - في الأغلب الأعم .

مطلوب إرساء دعائم « العلمانية » في المجتمع « مع اعتبار أن العلمانية لا تتعارض مع الإسلام ، فأمور الناس دنيوية ، وأصحاب التفسيرات الخاصة للإسلام ، في ظل العلمانية الديموقراطية ، يصبحون أصحاب رأي وأصحاب فتاوى ، تدخل جميعًا ضمن السياق الديموقراطي ومن خلال آلياته ، فالرأي الخاص رؤية بشرية وليس حكم الله أو حاكميته « التي لها أصول يهودية وليست إسلامية » ، فأمر الله لا يستطيع أحد أن يزعم امتلاكه « إلا في الأصول وحدها »

حاكمية الله لا يستطيع أحد إسلاميًا أن يزعم أنه يمثلها ، أما بالنسبة للأصول فكل المجتمعات تتراضى أشياء ، حين تتراضى الديمقراطية ولا أظن أن تراضي الأصول الإسلامية الحقة « وهي قليلة وعامة ، ولمصلحة الناس بها لا شك فيه بما فيهم الأقلية غير المسلمة والتي لا يجب أن تلوّح في وجهها بتطبيق قانون الأحوال الشخصية الإسلامي عليهم » ، سوف يشكل أي عبء على الديمقراطية .

أيضًا مطلوب عزل السلطة التنفيذية عن إدارة الانتخابات ، واعتبار التزوير جريمة مغلظة العقوبة حتى مستوى وزير الداخلية .

مطلوب السماح للأحزاب بالعمل الجماهيري « خارج مقارها » وعدم اعتبار العمل الحزبي تآمرًا وتجاوزًا ، أن العمل الحزبي في أخص خصائصه مؤامرة مقبولة ضد السلطة المطلقة .

مطلوب تحرير الصحافة من البيروقراطية « سطوة الصحفيين الموظفين » ومن الملكية الغامضة « التي يمثلها مجلس الشورى » ، تلك الملكية التي تقف حجر عثرة بتسلطها كواجهة للسلطة ، في تعيين رؤساء التحرير وفي رفتهم ، وفي التقييد على الصحافة المملوكة للأفراد ، الأمر الذي جعل رؤساء التحرير رقباء أشد صعوبة من الرقباء في العصر الناصري ، إن دولة تخصخص حتى قوت الشعب الضروري ، ومستقبل صناعته الثقيلة ، ولابد وأنها تحيرك أولاً، تحيرك حتى لا تريد خصخصة الصحافة وقنوات التلفزيون والإذاعة .

مطلوب إلغاء القوانين التي تمنع مساءلة المسئولين في الدستور ، فنحن منذ دستور ١٩٥٦ المؤقت نعطي كل السلطة لرئيس الجمهورية ، لا توجد هيئة رقابية قضائية تستطيع محاسبته ، وحتى محاسبة الوزراء .

مطلوب الفصل بين السلطات ، فصلًا واضحًا .

ومطلوب ـ أيضًا ـ أشياء أخرى يعرفها آخرون ولا أعرفها أنا .

مطلوب كل ذلك وأكثر لنسد بالديمقراطية الباب الذي تأتينا منه رياح الغضب والعنف والضياع واللامبالاة .

مطلوب كل ذلك وأكثر حتى لا يطل علينا القرن القادم ليرانا ويدنا على ثقب الديمقراطية نسده ولا نستريح .

لقد كانت الديمقراطية هي قضيتنا مع جمال عبد الناصر ، الذي كنا نحبه ، « وهي بعد قضيتنا » ، إذ لم يكن من الممكن ألا يحب عبد الناصر جزء غائر فينا ، إنه نفس الجزء الذي يحب فينا مصطفى النحاس وسعد زغلول وأحمد عرابي نديمنا وعمر مكرم والشيخ همام ، الجزء فينا الذي يحب من يستمسكون بالثوابت المصرية ، ولقد استمسك جمال عبد الناصر بيد قوية على الثوابت المصرية ، استمسك بحرية الوطن كأبدع ما يكون إذ ما استثنينا الفترة من ١٢ مايو ـ ٥ يونيو ١٩٦٧ ، التي أخطأ فيها أخطاء قاتلة متوالية هددت حرية الوطن ، إلى أن ضاعت حرية جزء عزيز كبير منه ، ثم كلفت الوطن ، وأحلام البسطاء غاليًا ، إذ اضطر الوطن إلى إعادة بناء قواته المسلحة من الصفر مرة ثالثة على حساب التنمية ، واستمسك جمال عبد الناصر ـ في ظنه ـ بأعلى درجات العدل الاجتماعي ، الاشتراكية « كما تصورها » ، واستمسك بانتمائنا العربي ، ثم أخطأ لأنه لا يعرف أن الديموقراطية ، حتى وإن جاءت متأخرة ، كانت هي عمره « عمره المادي وليس المجازي ـ فقط ـ الذي يعني الخلود ، فلولا غياب الديمقراطية ، ما كان السادات ليأتي وما كان إذا ما أتى يستطيع أن يمشي على طريق عبد الناصر عكس الاتجاه ماحيًا مكاسب أصحاب المصلحة التي نالوها ولم تُترك لهم الفرصة ليدافعوا عنها ديمقراطيًا » .

ونعود إلى المظاهرات التي انفلتت :

قلنا في الفصول السابقة : أن المظاهرات انفلتت بعد أن صممت السلطة على ألا

تتفاهم مع الشباب بحجة أن الآلاف الذين رأتهم السلطة يتظاهرون ويتصايحون ويعتصمون لا يمثلون الشباب..!!، وهكذا خرج الألوف في الشوارع منددين بالديكتاتورية والحكم العسكري « عايزين حكومة حرة، العيشة بقت مرة»، و.... لا شرعية بدون ديمقراطية »، وقلنا: إن عبد الناصر اضطر للتراجع أمام المتظاهرين، وأعلن مستسلمًا، إعادة محاكمة قادة الطيران، مصورًا ـ مثله مثل المحللين حسني النية « هل تذكرون كلامنا عنهم ؟ » أن القضية لا تعدو كونها غضبة ضد الأحكام الهزيلة، لكن برغم تصويره ذلك، استمر الاعتصام في كلية الهندسة « الكلية المحسودة على دورها العظيم في تاريخ الحركات الطلابية ابتداء من ١٩٦٨م ».

وهنا نترك المهندس وائل عثمان « طالب بكلية الهندسة جامعة القاهرة ـ وقتها ـ وأحد زعماء التيار الديني فيما بعد عام ١٩٦٨م » يتكلم « اسرار الحركة الطلابية ٦٨ ـ ١٩٧٥، ص٢٦ ـ وما بعدها » .

استعانت قوات الأمن بسيارات المطافئ لتفريق المظاهرات، التي كانت تنطلق من الجامعة بين الحين والحين، وكانت إحدى السيارات تقف أمام باب الكلية « الهندسة » الجانبي، موجهة خراطيمها نحو فناء الكلية، ولاحت لنا فكرة سرعان ما خططنا لها وقمنا بتنفيذها، بدأنا بتجميع كمية وفيرة من الأحجار، وأخذنا نلقي بها بكثافة صوب رجال الإطفاء، وكنا نتألم إذا ما أصاب أحدهم « يقصد أصيب أحدهم » لكن ما باليد حيلة، وفتحنا باب الكلية، واتجهنا بقوة صوب السيارة فما كان من رجالها إلا أن فروا وتركوها غنيمة لنا، امتطت مجموعة من الطلبة جوانب السيارة، وساروا بها داخل الكلية مهللين هاتفين وشعرنا بلذة الانتصار .

«حاول عميد الكلية ـ وكان إداريًا ممتازًا ـ لكنه يفتقد حب الطلبة له ـ أن يهدئ من ثورة الطلبة وانفعالاتهم وأذكر أنه في إحدى حلقات المناقشة صاح في الطلبة

بتعالٍ وعنجهية مؤكدًا حقه في السيطرة السياسية « على الكلية !! » كحقه في إدارة الكلية « يسيطر سياسيًا ـ بلا ديمقراطية ـ ما دام يحسن الإدارة ، أليس ذلك العميد عبد الناصر آخر على قده ؟!! » ، واستنكر الحاضرون منه ذلك ، ورفضوا حديثه وتركوه وحده .

استقر الرأي ـ وبموافقة اتحاد الطلبة على الاعتصام داخل الكلية ، كان عددنا يزيد على خمسمائة طالب ، واجهنا حربًا نفسية عنيفة من قبل أجهزة الدولة والأهالي « يقصد بعض أهالي الطلبة ، فلم يكن حاجز الخوف قد كسر بعد ، وأقول بعضهم لأنه كتب في صفحة تالية عن إصرار الأهالي على دخول الكلية بسيارتهم حاملين معهم ما نحتاجه من الطعام » ، ونشطت حركة سريعة لتنظيم الاعتصام ، وتم شراء كمية من القماش كتبنا عليها الشعارات التي تعبر عن مطالبنا وملأنا بها سور الكلية ، « أذكر الآن وبعد مرور ثلاثين عامًا ، منظر سور كلية الهندسة ، لم يكن بعضنا من طلابها وكنا نمر عليه راكبين الأتوبيسات يدب الخوف بداخلنا ، مما نحن مقدمون عليه ، فيختلط خوفنا ببهجة عارمة لما نسمعه من كلمات الركاب المتعاطفة مع شعارات الحركة ، كان ذلك يحدث قبل أن نغادر الأتوبيسات لنتسلل إلى الاعتصام المحاصر من قوات الأمن بالقفز على أحد أسوار حديقة الحيوان الداخلية ، إذ كنا نبقي في الاعتصام حتى الليل ثم نغادره حتى لا يقبض علينا داخل الكلية ليلًا ولسنا طلبة بها » ، كانت تتحدث عن الحرية المسلوبة وضرورة الإفراج عن المعتقلين ، كما تضمنت الهجوم على الديكتاتور وصاحبه هيكل ، وفي الساعة الثانية ظهرًا تم طبع بيان هندسة القاهرة ، وقمنا بتوزيعه على المارة في الشوارع ، وكانت وسائل المواصلات تقف أمام باب الكلية ليقرأ ركابها اللافتات ، وكنا نسرع بإعطائهم نسخًا من البيان إلى أن تنبهت السلطات ، فصدرت الأوامر بتغيير خط سير

المواصلات بعيدًا عن شارع الجامعة .

وقد تضمن البيان : « أننا جميعًا نقدر أهمية المطالب الحقة التي نطالب بها ، وثقة منا في أنفسنا وفي قدرتنا على التغيير فإننا نهيب بكم جميعا أن تتبينوا ما تريدونه بالضبط « منتهى الديمقراطية » ، ويجب أن يعلم كل حر فيكم أن الحرية تؤخذ ولا تعطى وأنها تغتصب ولا تمنح ، ولقد وجدنا ووجدتم معنا وخصوصًا بعد ما حدث اليوم بأن السبيل الوحيد إلى أن يسمع الشعب صوتنا ، حتى يستطيع كل منا أن يأمن على نفسه في بيته - في ظل دولة المخابرات هذه ، ويجبر السلطة الحاكمة على احترام الحريات واحترامكم أنتم بالذات بصفتكم قمة الطبقة الواعية في هذا البلد » ، إن طريقنا الوحيد في تحقيق أهدافنا هو المقاومة السلبية في صورة اعتصام كامل قد يدوم مدة من الوقت ، « ثم كتبت مطالب الجامعة الثمانية التي ذكرناها في الفصل الماضي » .

والحقيقة أن دورًا عظيمًا للأساتذة قد نشأ ولا يمكن إغفاله ، وكان على رأسهم الدكتور إبراهيم جعفر - أكرمه الله - أستاذ مادة الخرسانة بقسم مدني بكلية الهندسة ، وتطوع بإمدادنا بكل ما يلزمنا ، غير مبال بما قد يصيبه من غضب وانتقام السلطة .

« إن دور هذا الرجل لا يمكن تسجيله إلا بحروف من نور ليس في ١٩٦٨ وحدها ، ولكن في ١٩٧٢ ، ١٩٧٣ أيضًا ، وسوف نذكر للرجل فضله في حينه ، ونحن نتمنى أن نكون قادرين على ذلك » ، لقد اقترح الرجل العظيم صباح الأربعاء ٢٨/ ٢/ ١٩٦٨م على الطلبة اقتراحًا بإنهاء الاعتصام بأسلوب يضمن به الطلاب قوة دفع ضاغطة تحقق أهدافهم في الأيام التالية ، ولم يكن أمامنا من سبيل غير الموافقة على اقتراحه بالانتقال إلى مجلس الأمة لمناقشة ممثلي الشعب .

الطلاب يواجهون السادات في عصر عبد الناصر :

احتدت المواجهة بيننا وبين رئيس المجلس « أنور السادات » ومن حوله مجموعة من

وزراء، سموا فيما بعد « بمراكز القوى » وقد انهال علينا المصورون يلتقطون لنا الصور وكنا نعتقد أنها للصحافة ، إلا أنها في الواقع التقطت بهدف تقديمها للمباحث ، وقدمت لنا المشروبات والسجائر الأمريكية ، « من يومها » وتحدث الرئيس « رئيس المجلس أنور السادات » والوزراء عن الحرية التي يعيشها الشعب ، وعن المكاسب التي حققتها « الثورة » وقدموا لنا دروسًا في تاريخ مصر ما قبل ١٩٥٢ ، وكيف أنقذتنا الثورة من ديكتاتورية تعدد الأحزاب « تصوروا » ، وأسهبوا في شرح الاشتراكية .

وختم الرئيس حديثه قائلًا : « هذا البيان مرفوض شكلًا وموضوعًا » .

وكان ردنا أن ما سمعناه لا يعدو أن يكون سوى « كلام فارغ » .

ولم يجبن المتحدثين باسمنا عن تفنيد كلامهم الوزراء وأنور السادات والرد عليهم بكبرياء وعزة .

ولا أذكر أن مجموعة من الوزراء قد استهزئ بها مثلما حدث في تلك الجلسة ، وكان أن برز لنا أحد الأعضاء ، لا شك أنه من مجموعة الراقصين « يقصد وائل عثمان بالراقصين هؤلاء الذين رقصوا على أعضاء مجلس الشعب عندما أعلن عن تراجع جمال عبد الناصر عن تنحيه يوم ١٠ يونيو ١٩٦٧ ، رقصوا فرحًا بينما النكسة تمسك بخناق الوطن » ، تحدث عن الحاكم وتمادى في مديحه وكان هذا العضو هو ضياء الدين داود الذي عين فيما بعد عضوًا في اللجنة التنفيذية العليا » .

وقبل انصرافنا التف حولنا لفيف من أعضاء المجلس مرحبين مهنئين وكنت ألحظ الأسى في عيونهم ، وكأنهم يقولون لنا : « أنتم على حق ونأسف لأننا لا نملك لكم شيئًا » ، لا يملكون شيئًا للمعارضين وهم أعضاء مجلس الأمة !!

هكذا انتهت حركة فبراير ٦٨ الصاخبة ، لكن أثرها لم ينته كما تمنت السلطة ، لقد أحدثت شرخًا في جدار الخوف ، وشرخًا أكبر في شرعية النظام ، وكان على النظام

ن يعالج المشرخين . لكن عبد الناصر قرر أن يضيع الفرصة وألا يعالج أيًا من المشرخين وهذا خطأ عبد الناصر الفادح الذي كلفه عمره القادم » .

حكاية ضياء الدين داود :

ولعله من المفيد هنا أن نركز على قصة صعود ضياء الدين داود التي كانت مظاهرات ١٩٦٨ أول خيطها الممتد ، ولعله من المفيد أيضًا أن نترك لشعراوي جمعة نفسه الفرصة لكي يحكيها لنا .

قال شعراوي جمعة أثناء مرافعته في محاكمة قضية ١٥ مايو « رجال عبد الناصر والسادات ، كمال خالد المحامي ، الطبعة الثانية ، دار الاعتصام ١٩٨٦ ص١٤٠ » : بالنسبة لضياء الدين داود فكان أول مرة فيها لفت الرئيس جمال عبد الناصر إليه في إحدى اجتماعات مجلس الأمة خلال مظاهرات= فبراير ١٩٦٨ وكان مؤيدًا للحكومة ضد هذه المظاهرات ، وكان شجاعًا وجريئًا ، وكان الرئيس يستمع إلى هذه الجلسة في الخط المباشر بين المجلس ومكتب الرئيس « خل بالك من الخط المباشر بين مكتب الرئيس جمال عبد الناصر وقاعة الجلسات بمجلس الأمة » ، والرئيس قدره منذ هذه اللحظة واختير وزيرًا للشئون الاجتماعية .

أما ما قاله ضياء الدين داود بالضبط في مجلس الشعب (الهجرة إلى العنف ، التطرف الديني من هزيمة يوليو إلى اغتيال أكتوبر ، عادل حمودة ، دار سيناء للنشر ص ١١٥) : « إن الطلبة يحتاجون فعلًا إلى وعي سياسي حقيقي ، إذا كانوا يطالبون بالحرية فإنني أقول لهم : إن وجودهم في الجامعة هو مظهر من مظاهر الحرية ، وإذا كانوا ينادون بالديمقراطية فأي ديمقراطية يطلبون وقد رأيتهم يناقشون آبائهم ومديري الجامعات ووزير الداخلية ووزير التعليم العالي ، أليست هذه هي الديمقراطية ، لقد كنا طلبة قبل الثورة وفُتح علينا كوبري عباس فهل هذه الديمقراطية التي يريدونها » ، وكان أن قدم للطلاب درسًا محترمًا في أهمية تفويض السلطة الثورية لتسيير المجتمع .

كان ، وكأن الثورة لم تقم :

لكننا قبل أن نتابع معًا كيفية معالجة سلطة عبد الناصر لآثار الحركة ، لابد أن نتوقف قليلًا عند الكيفية التي عولجت بها آثار حركة ١٩٤٦م « حركة العمال والطلبة أيضًا » ، في ظل الاحتلال ووجود الملكية في مصر لم ؟ سنرى فيما بعد .

بعد أن فتح النقراشي كبري عباس ليوقف زحف المظاهرات الطلابية ولو بإلقاء الطلاب في الماء طعامًا للسمك ، لم تتوقف المظاهرات ، فكان أن جاءت السراي بالرجل القوي إسماعيل صدقي « رئيس اتحاد الصناعات وقتها وعضو مجلس إدارة شركة القناة وصاحب الدور المنشق على الوفد وعلى دستور ١٩٢٣م والرجل الذي جاء بدستور ١٩٣١ ، عندما جاء به الملك فؤاد رئيسًا للوزراء ، بعد تهديدات الاحتلال بضرب العاصمة إذا استمر الوفد في الحكم، هذا الدستور (١٩٣١)، الذي قامت في مواجهته انتفاضة ١٩٣٥ ، وإن كانت قد قامت في عهد وزارة نسيم باشا ، إلا أن الهتافات كانت تسب صدقي و« هور ابن التور » وهو السيد صموئيل هو وزير خارجية بريطانيا الذي رفض عودة دستور ١٩٢٣ كما رفض بقاء دستور ١٩٣١ أيضًا بحجة أن الشعب لا يريده ، وهكذا قضي على الدستورين معًا فكان أن تصدى الشعب لمؤامرته بانتفاضة ١٩٣٥ الشهيرة التي دفعت بريطانيا ثمنها في معاهدة ١٩٣٦م ، ولقد اعتبر الشعب في عام ١٩٤٦ أن السراي تتحداه بمجيء صدقي ، فكان أن اشتعلت المقاومة وتعاظمت المظاهرات ، ونما دور لجنة الطلبة والعمال الذي يقود حركة الجماهير الغاضبة ليس في القاهرة وحدها ولكن في أقاليم مصر .

خرج صدقي وقتها على الشعب ببيان قال فيه « واصفًا المظاهرات » : « إن المظاهرات السلمية التي قامت صباح اليوم ، قد تحولت بفعل الأيدي التي لم تعد خافية ، واندست عناصر من الدهماء في صفوف الطلبة الأبرياء ، كل هذا حولها إلى

مظاهرات ظهر عليها طابع الشر ، إن المظاهرات السلمية البريئة كان عمادها عنصر الطلبة والمتعلمين » .

هذا ما قاله صدقي « عدو الشعب » عن مظاهرات الطلبة والعمال في ١٩٤٦م فماذا قال جمال عبد الناصر « حبيب الشعب » عام ١٩٦٨م عن مظاهرات شبيهة ، قال جمال عبد الناصر في خطابه التاريخي في حلوان :

« احنا نعرف حتى في الماضي يمكن العمال ضللوا بواسطة الرجعية ، والطلبة أيضًا ضللوا بواسطة الرجعية ، أنا باقول: إن العملية بدأت عملية تلقائية هنا في حلوان ، وبدأت عملية تلقائية في الجامعة ، لكن بعد كده العملية مأصبحتش عملية تلقائية ، أنا برضه با أقول لإخواننا الطلبة في الجامعة : قبل ما تنقاد وراء أي شعار شوف مين اللي بيردد هذا الشعار ، ما كل واحد ليه أوضاع طبقية ، طبعًا فيه ناس اتاخدت أملاكهم ، وفيه ناس اتاخدت أراضيهم ، وفيه ناس اتأممت مصانعهم ، ودول أولادهم موجودين في أوساطنا ، ثم قال : « الرجعية اتحركت إزاي ؟! حاولوا استغلال مظاهرات الطلبة ورفعوا شعارات » .

الآن ألا ترون مطابقة غريبة في ما قاله عدو الشعب صدقي وحبيب الشعب جمال عبد الناصر ؟!!

لقد ارتضى عبد الناصر وقتها أن يقف من المظاهرات موقفًا سلطويًا لا يرى للجماهير « غير المغرضة » حقًا في انتقاده ، وفي فرض ما يريدون ، « رفض أن يكون معهم إلا بالكلام والخطب ، وليس بالفعل » ، وكانت هذه غلطة عمره .

ولقد قادت سلطة جمال عبد الناصر حملتها في مواجهة المظاهرات التلقائية الوطنية ، في الحقيقة ، في أربع محاور غير ثورية :

أولها : رفض التفاهم : بحجة أن من يواجهون عبد الناصر في الجامعة لا يمثلون

الطلاب ، ولقد عزف جمال عبد الناصر هذه المعزوفة بنفسه في نفس الخطاب (٣ مارس ١٩٦٨) ، حين أوضح أن العناصر التي أخرجت الحركة إلى الشارع كانت فحسب ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ شخص ، وليس كل الـ ١٤٠ ـ ١٥٠ ألف طالب في جامعات البلد ، ولقد رأينا أيضًا في استعراضنا كيف لعب المسئولون في النظام وأنصاره « لبيب شقير ـ د. طعيمة الجرف » ، على نفس الوتر : « إنتم لا تمثلون الطلاب » .

ثانيًا : الترويع : رأينا كيف بادرت الحكومة الناصرية بإلقاء القبض المسبق على من اعتبرتهم من المحرضين ، حدث هذا في حلوان مع العمال فخرجت المظاهرات ، وحدث هذا مع الطلاب الذين اتجهوا بمطالبهم إلى مجلس الأمة وإلى بيت عبد الناصر شخصيًا ، وكانت النتيجة أيضًا أن خرجت المظاهرات ، واشتعلت ، « ويدخل في باب الترويع إعلان عزم وزارة الداخلية على تكوين الأمن المركزي الذي سوف يستطيع مواجهة المظاهرات بعد أن فشلت بلوكات الأمن في هذا الأمر ، وأن الأمن المركزي سيكون أكثر تدريبًا ، وأقوى تسليحًا ، وأكثر فاعلية كانت تلك البداية الفعلية للأمن المركزي ، الذي يختار عناصر من المجندين ، لا ثقافة لديهم ، ليحموا النظام ممن يريدون أن يشاركوه الحكم» .

ثالثها : التشويه : لم تدع السلطة الناصرية بمسئوليتها وبعبد الناصر نفسه وبكتابها في الصحافة فرصة إلا وعمدت فيها إلى تشويه الحركة ، مثلًا حاولوا تشويهها بأنها حركة رد فعل لأحكام الطيران وليست حركة مطالبة بالديموقراطية والتغيير، وقد أشارت الأهرام في تحقيق لها حول مظاهرات القاهرة إلى مظاهرة وقعت أمام مبنى الجريدة ، وإلى أن أربعة من الطلبة « تصوروا أربعة » دخلوا المبنى وعبروا عن مطالب المتظاهرين كالتالي :

إن شباب الجامعات يسجلون اعتراضهم على الأحكام الصادرة في قضية

الطيران وهم إذ يجددون العهد والبيعة للمناضل جمال عبد الناصر ليتوجهوا له باسم الشعب الجامعي أن ينظر في هذه الأحكام تلبية لرغبة الجماهير الشعبية ، وكتب هيكل الذي كان وما يزال يغضب عندما يهاجمه الطلبة أو من كانوا طلبة ، مقالا مطولا تحت عنوان : « وخل بالك من العنوان » : « عن الأحكام والمظاهرات ، وإعادة المحاكمة » ، (متى في أول مارس) ، لأن عبد الناصر سيخطب يوم ٣ مارس وسيردد نفس النغمة « وكان هيكل يزعل عندما نهاجمه » ، وفي ٣ مارس قال جمال عبد الناصر : إن الطلبة كانوا يريدون منه أن يعدم قادة الطيران ، وكأن الحركة لم تخرج إلا من أجل الدم .

ومن يعد إلى صحف تلك الفترة ومجلاتها ، سيجد خطة كاملة للتشويه تبدأ من أن عناصر رجعية وأعداء ثورة اندسوا في المظاهرات وحركوها.. إلى كون الحركة إساءة إلى النضال القومي في وقت تتعرض فيه الأمة العربية لمؤامرة واسعة النطاق من قوى الاستعمار وإسرائيل ، إلى أن سلامة الجبهة الداخلية أمر حيوي لحماية الجبهة العسكرية ، ومن واجب كل فرد في هذه الأمة الضرب على أيدي العناصر المغرضة .

« هكذا قال السيد شعراوي جمعة الذي عينه جمال عبد الناصر أمينًا للتنظيم الشعبي ووزيرًا للداخلية في نفس الآن ، ثم بعد هذا أتحفنا بمذكراته الثورية للغاية » إلى أن قوة الإنتاج وتدفقها هي الدعامة التي تعتمد عليها الجبهة الداخلية والقوات المسلحة ، وبالتالي أي تعطيل للإنتاج لا يفيد ولا شك أن تعطل الدراسة هو تعطيل للإنتاج ، إلى قول هيكل : « مشاركة الشباب في عملية التفاعل الديموقراطي ، ليست مجرد أمر مرغوب فيه ولكنها مطلب ضروري ولسبب شرعي أساسي هو أنهم أصحاب الغد الذي نحاول أن نبنيه ولا تملك أي سلطة أن تعترض هذا الحق أو تعطله » ، « لحد كده ، حلو قوي ، ولكن وآه من لكن هذه » والمظاهرات قد

تعطي انطباعًا خاطئًا عن سلامة الجبهة الداخلية ولابد أن ندرك أن سلامة الجبهة الداخلية باطنًا وظاهرًا هي الأرض الوحيدة للصمود « ألم أقل وآه من لكن هذه » إلى قول جمال عبد الناصر أننا طالبنا بإلغاء نسبة العمال والفلاحين ، لأن طالبًا ربما قالها وكان يقصد الإيقاع بيننا وبين العمال والفلاحين .

رابعًا : الاحتواء : إما احتواء الحركة ، وكان عبد الناصر مهيئًا نفسيًا وتاريخيًا لهذا الاحتواء ، نفسيًا : إذ كان خلاف الثورة وشباب الثورة « على حد تعبيره » هو النهاية التراجيدية للبطل الأسطوري جمال عبد الناصر ، وتاريخيًا : لأن عبد الناصر كان قابضًا على الثوابت المصرية ، كما أوضحنا من قبل ، وإن رفض أن يقبض بيده الثورية على الديموقراطية ، أحد الثوابت التي خرجنا من أجلها ، ولقد اتخذ احتواء الحركة أشكالًا منها : اتخاذ النظام شعارات الحركة « التي تناسوها وهم يهاجمونها ، ولم يركزوا إلا على المطلب السابع كما أوضحنا من قبل » ، شعارات له شخصيًا في بيان ٣٠ مارس الشهير ، الشعب يريد التغيير وأنا معه ، تكوين لجان المواطنين من أجل المعركة ، إعادة انتخاب الاتحاد الاشتراكي من القاعدة إلى القمة ، إدخال عدد من الطلاب عير المناوئين جدًا إلى المؤتمر القومي العام ، تجنيد الطلاب في التنظيم الطليعي بعد أن وجه عبد الناصر ضربته لمنظمة الشباب التي اعتبرها مسؤولة عما حدث ، وهكذا فقد الشباب تنظيمه المستقل « لم يعرف عبد الناصر أنه كان يضرب ميتًا ، وأن الضرب في منظمة ميتة حرام ، ولم يعرف أيضًا أن الشباب شباب المنظمة لم يعد في حاجة إلى أطره التنظيمية ؛ لأنه كان قد تجاوزها فعليًا » ، تصعيد عبد الحميد حسن تصعيدًا مريبًا فلم يكن أحد معجبًا به إلا جمال عبد الناصر .

« يقول حلمي نهنوش ممثل جامعة عين شمس في اجتماع الجامعات بعبد الناصر ، في مقابلة شخصية مع د. أحمد عبد الله مؤلف كتاب « الطلبة والسياسة في مصر » :

إن عبد الحميد هو الوحيد الذي استطاع انوصول إلى قلب عبد النـاصر ، وحـدث بينهما تفاهم مشترك » ، ويقول وائل عثمان : بينما كانت الجماهير الطلابية كلها تسطر صفحة مشرقة في تاريخ مصر ، والحركة بمختلف اتجاهات من شاركوا فيها ، تعزف سيمفونية البطولة والشرف ، كان موقف رئيس اتحاد الجامعة « يقصد عبد الحميد حسن » نشازًا ، يعزف بمفرده مقطوعة النفاق الأكبر ، « أسرار الحركة الطلابية ، وائل عثمان ص٣٥ » ، ويقول مصدر صحفي كبير رفض أن أذكر اسمه أن كانت لسامي شرف طريقته في تجنيد الناس للنظام وهي السعي إلى تغيير واقعهم الاقتصادي . بما لا يجعلهم قادرين على الاستغناء عن تعاملهم مع النظام فيما بعد ذلك .

والحقيقة أن خطة نظام جمال عبد الناصر هذه لم تفلح ، ذلك أن الشباب الذي خرج له « وكان يستثنيه في فبراير ١٩٦٨ من الاتهامات » خرج عليه ولم يستثنه في نوفمبر ١٩٦٨ .

وهكذا أخطأ عبد الناصر خطأ عمره ، فقد كان الشباب المصري ، شباب الثورة هم عمر جمال عبد الناصر ، عمره الذي كان سيضاف إلى سنوات حياته حين يحاول الموت إيقافها ، كان الشباب سيكونون امتداده الطبيعي ، لكنه سعى إلى ضربهم ، فضُرب فيما بعد معهم ، إن السادات « غاوي الدراما » الذي أكد للطلاب قوله : « أنتم شجعتم بالمظاهرات عناصر كانت قد انتهت ، كانت دخلت الشقوق ، النهارده الضهر عربية كانت بتلف المدارس في مصر الجديدة علشان يضربوا « يدعون للإضراب » واتمسكت العربية واللي فيها أولاد الإقطاعيين بتوع زمان » ، السادات « غاوي الدراما » هذا استخدم الدراما التي لم يعترض عليها جمال عبد الناصر في حينه في ضرب الشباب ، وفي ضرب عبد الناصر « الله يرحمه » شخصيًا بعد ذلك .

ألم نقل أن جمال عبد الناصر أخطأ في ١٩٦٨ خطأ عمره ؟!! .



8

عندما بكى جمال عبد الناصر!

تزامن التلاشي التدريجي لمظاهرات فبراير ١٩٦٨ من الشارع المصري ، مع نمو حيرة شديدة ـ أخطبوطية الأذرع ـ داخلنا !

كانت الحيرة ـ داخلنا ـ تكبر بنفس القدر الذي تتضاءل به المظاهرات ، وعندما وصلت المظاهرات إلى نقطة الصفر ـ وصلت حيرتنا ـ أو أحسسنا بها تصل ـ إلى ما لا نهاية .

كانت حيرتنا تعبر عن نفسها بسؤالين .

ماذا الآن ؟ وماذا بعد ؟!

كانت الأغلبية منا يراهنون على أن عبد الناصر هو بطل التغيير القادم والضروري ، الآن وبعد المظاهرات وما حدث فيها ولها لابد أحَسّوا بأنهم لا يمكن أن يكونوا ــ وأن يكون عبد الناصر ـ مثلنا كانوا ـ وكان ـ قبل بداية المظاهرات .

لقد تعامل عبد الناصر معنا ـ وأغلبنا خرج له ولم يخرج عليه ـ بقسوة شديدة .

صحيح أنها كانت قسوة محسوبة ، لكنها وهي محسوبة كانت شديدة وصارمة ، ومحيرة !!

لقد حسب جمال عبد الناصر قسوته في مواجهتنا بميزان شديد الحساسية ، وإذا كان « هيكل » قد كتب أن عبد الناصر ، اهتز لمظاهرات الطلبة كما لم يهتز لشيء من قبل ، وأنه بكى ، لأن الثورة بدت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وقد اختلفت مع شبابها ، اختلفت مع مستقبلها ، إذ كان هيكل قد كتب ذلك فإن معناه : أن عبد الناصر انفعل نفسيًا بلا حدود ، وانفعل سلطويًا بعدها بحسابات شديدة التعقيد .

انفعال ، وليس تفاعلاً ديمقراطيًا :

وانفعال عبد الناصر نفسيًا بلا حدود ، وتفاعله السلطوي « أفضل من الانفعال » ،

بحسابات شديدة التعقيد ظل هو الأسلوب الذي لم يعرف عبد الناصر غيره طيلة حياته وهو أسلوب رافض تمامًا للديمقراطية، وما كان رفضه لها إلا لطبيعته العسكرية التي لم تتبدل، فإذا كان قد استبدل ملابسه العسكرية بملابس مدنية، في أعقاب مؤتمر باندويج الشهير عام ١٩٥٥، وذلك بعد أن أبدى نهرو ـ الزعيم الفكري في حركة الحياد الإيجابي ـ لعبد الناصر تخوفه من الروح العسكرية في إدارة الأوطان. وقال لجمال عبد الناصر: إن غاندي صام حتى الموت، ليؤكد للهنود أن الموت أفضل من وصول العسكريين إلى كراسي الحكم في الهند، وقد كان نتيجة ما استمع إليه أن غيّر عبد الناصر نبرته «بذلته» العسكرية.

ولم يعد لارتدائها أبدًا فيما بعد، لكنه عجز عن تغيير روحه، فالعسكريون ـ ولعل عبد الناصر أفضلهم على الإطلاق «إذا ما غضضنا الطرف عن سوار الذهبي العظيم في السودان» ـ إذا ما غيروا ملابسهم يفشلون في تغيير جلودهم «الكاكي» روحهم «الكاكي»، «وجلودهم وأرواحهم لا تقبل من الآخرين إلا الولاء الشخصي، والطاعة العمياء»، وهم حين يتجملون بالديمقراطية فإنهم يكذبون، أو على الأقل يقولون كلامًا من وراء قلوبهم، ولعل لرفضهم للديمقراطية «الحقيقية» سببًا لا يمكن إغفاله، فالعسكريون المخلصون رأوا حجم الإنجاز الهائل والسريع الذي توفره الروح العسكرية بالأوامر الفوقية التي لا راد لها، وهم ـ المخلصون منهم ـ عندما يرون عيوب الروح العسكرية، في تسيير المجتمعات، يحاولون دائمًا أن ينسبوا تلك العيوب لأمور أخرى غير السبب الحقيقي، «عبد الناصر كان ينسب كل عيوب نظامه لنشاطات الثورة المضادة، والرجعية المكلومة المتنمرة المتآمرة»، أما أسوأ العسكريين، فكراهيتهم للديمقراطية تبقى أسيرة ذلك المجال الضيق في نفوسهم الأضيق في آفاق تفكيرهم الذي لم يعتدها ولم يحفل بها في

يوم من الأيام ، ولم يحترمها على الإطلاق !!

حديث صحفي يفضح ديمقراطية جمال عبد الناصر :

ولعله من المثير للانتباه ، ذلك الحديث الصحفي الذي أدلى به جمال عبد الناصر في مقابلة مع رئيس تحرير جريدة هندية « خل بالك من هندية هذه » ، في مارس ١٩٥٧ ، وقد قال فيه : « كان يفترض وجود نظام ديمقراطي في مصر في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٣ و١٩٥٢ ، « خل بالك من التواريخ ومغزاها » ولكن ما الذي قدمته هذه الديمقراطية لشعبنا ؟ كان ملاك الأراضي والباشوات يحكمون شعبنا ، لقد استخدموا هذا النمط الديمقراطي كأداة سهلة لتحقيق مصالح نظامهم الإقطاعي ، لقد رأيت الإقطاعيين يجمعون الفلاحين ويسوقونهم إلى غرف الاقتراع ، حيث كان الفلاحون يدلون بأصواتهم طبقًا لتعليمات سادتهم ، أنني أبغي تحرير الفلاحين والعمال سواء من الناحية الاجتماعية أو من الناحية الاقتصادية ، بحيث يمتلكون القدرة على أن يقولوا : « نعم » و« لا » ، دون أن يؤثر ذلك على سبل رزقهم وقوتهم اليومي .

وهذا من وجهة نظري هو أساس الحرية والديموقراطية (ص٣٧ ، ٣٨ من « الديمقراطية في الشرق الأوسط ، تحرير د. أحمد عبد الله ــ مركز الجيل ١٩٩٥ القاهرة) ، كان عبد الناصر قد أدلى بحديثه هذا بعد أن ضرب طبقة ملاك الأراضي اقتصاديًا بقانون الإصلاح الزراعي ، وسياسيًا بحرمان أعضائها من العمل السياسي ، بحجة يخشى استغلالهم للديمقراطية . ولقد جاء الميثاق الوطني ١٩٦٢ ليؤكد ما قاله عبد الناصر للصحافة الهندية ١٩٥٧ ، فرفع شعار إن حرية رغيف الخبز هي الضمان الأكيد لحرية تذكرة الانتخاب ، وعاش عبد الناصر ومات ولم يثبت أن أحدًا في عصره استطاع أن يقول : « لا » و « نعم » دون أن يخشى على رزقه ،

إن حديث جمال عبد الناصر « هذا » إن لم يعكس كفره بالديمقراطية ، فإنه على الأقل يعكس كراهيته لها إلى حد التأجيل المستمر .

لقطة لابد من التمعن فيها :

في مذكراته (٢٣ يوليو وعبد الناصر ، شهادتي ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٠) ، يرسم لنا الأستاذ عصام حسونة « كان وزيرًا للعدل عام ١٩٦٨ » . ملامح لقطة في غاية الأهمية ، وكانت اللقطة في اجتماع مجلس الوزراء جلسة ٢٥/ ٢/ ١٩٦٨ ، وهي الجلسة التالية مباشرة للمظاهرات .

يقول الأستاذ عصام حسونة (ص١٨٢ وما بعدها) :

انعقد مجلس الوزراء يوم الأحد الموافق ٢٥/ ٢/ ١٩٦٨ ، وهو موعد الانعقاد الأسبوعي ، برئاسة جمال عبد الناصر « لعلك تذكر أن عبد الناصر جمع بعد النكسة بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة » ، وكان جدول أعماله - المعلن من قبل - هو مناقشة تقرير لجنة الخطة عن المواصلات ، بيد أن الأحداث الجديدة في الأحكام الصادرة ضد الفريق صدقي محمود ، بعض قادة الطيران ، وما أعقب ذلك من تفجر الطلبة في القاهرة ، كان هو الموضوع الرئيسي الذي شغل المجلس .

في أول الجلسة دعا الرئيس وزير الحربية إلى الكلام .

الفريق فوزي : ثبت الإهمال ضد قادة الطيران ، حكم المحكمة سليم ، وأبعد عقدة الذنب عن سلاح الطيران ، وقع الحكم طيب في القوات المسلحة ، ولهذا صدقت على الحكم .

الرئيس : نأخذ رأي المجلس .

د. لبيب شقير « وكان وزير التعليم العالي كما تعلم » : لقد تحركت مظاهرات الطلبة عقب صدور الحكم ، الذين حركوها عناصر يمينية رجعية « أعداء الثورة

يعني » ، تتبعنا زعماءهم وجدناهم من الجمعية الشرعية ومن الإخوان المسلمين « يا عيني عليهم ، ألبسهم الجريمة بمنتهى البساطة!! » ، (هل كان هذا كلام وزير أم كلام مخبر في المباحث؟!). موقف الشرطة موقف سليم « الضرب بالرصاص في المليان » ، رأيي إعادة محاكمة صدقي محمود أمام محكمة ثورة أو محكمة شعبية « المحكمة العسكرية لا تكفي » لأن العقوبة الصادرة ضده لا تكفي .

د. النبوي المهندس « وكان وزير الصحة » : يجب تعليق صدقي محمود وزملائه على المشنقة في ميدان عام ، الطلبة المصابون في المظاهرات أعربوا لي عن ولائهم للرئيس وقد حملوني رسالة ، إنهم يقبلون يد الرئيس ، وقد زرتهم في المستشفى مع الأخ سامي شرف .

ويقول السيد عصام حسونة : إنه تكلم في الجلسة « وأنا ألخص هنا من كلامه » ، عن استحالة الاعتراض على الحكم « قانونيًا » واستحالة إعادة المحاكمة ، ثم قال : على أية حال أنني أرى أن يركز المجلس مناقشته على مظاهرات الطلبة التي أعقبت صدور حكم الطيران ، وأن نستخرج منها كساسة ، لا كسلطة أمن « خل بالك من هذه » الدلالات السياسية الصحيحة ، وإنه طلب أن يوضح شعراوي جمعة حوافزها واتجاهاتها ومؤشراتها « وكان يقصد المظاهرات » ، وأن يلقي السيد الأمين العام للاتحاد الاشتراكي. (وهو شعراوي جمعة برضه) كل الأضواء الممكنة على هذه المظاهرات ، وقال : « إن هذه أول مظاهرات يمكن أن تسمى انتفاضة سواء من حيث النوع أو الأهداف أو الشعارات وقد أورد من تقرير النيابة العامة عن هذه المظاهرات هتافات ترددت في المظاهرات كانت كالتالي : « تسقط دولة المخابرات «أي علاقة لذلك بالطيران وقضيته » تسقط دولة العسكريين « هل هناك علاقة ؟ » ، تسقط صحافة هيكل الكاذبة ، « هل هناك علاقة ؟ » ، لا حياة مع الإرهاب

«السلطوي » ، ولا علم بدون حرية ، يا جمال الشعب هوه هوه « أظنها كنت آهوه » اضرب الخونة بقوة « ألم نقل أن كان الجيل لم يتخلص من استثنائه جمال عبد الناصر من فساد وتجبر ، وإرهاب حاشيته حتى تلك اللحظة » ، يا سادات يا سادات ، فين قانون الحريات « لقد بعد الشأو ولم نر علاقة للشعارات بأحكام الطيران » ، يا شعراوي يا جنان راحو فين عمال حلوان .

تحليل لتقرير النيابة العامة :

وقاتل السيد عصام حسونة : « اسمحوا لي أن ألخص أمامكم أهم ما جاء به تقرير النيابة العامة » :

أولًا : إن المظاهرات بدأت في حلوان تحت إشراف الاتحاد الاشتراكي « تذكر الآن ما جاء في مذكرات أحمد شرف عما حدث له مع منظمة الشباب ، فسوف تجد تطابقًا مذهلًا يغيظ » ، فالذي يؤخذ من مجموع أقوال عبد اللطيف مليجي بلطية « زعيم عمالي وعضو بارز في الاتحاد الاشتراكي العربي » وآخرين من مسئولي الاتحاد الاشتراكي : « بأنه عقب اجتماع السيد عبد اللطيف بلطية مع السيد عبد المجيد فريد « كان أمين العاصمة في الاتحاد الاشتراكي ، وفي نفس الوقت مدير أحد مكاتب جمال عبد الناصر للمعلومات في رئاسة الجمهورية » [illegible] بمناسبة ما كان قد وصل العلم به من [illegible] الأحكام الصادرة في قضايا الطيران [illegible] حضة التفجر [illegible] قيادات الاتحاد الاشتراكي « الكلام لبلطية » بالحضور إلى مقر مكتب التنفيذي في الصباح لمنع خروج المظاهرة « قال بعقلية العباقرة المعارضين لكل ما جاء به جمال عبد الناصر ، وما فعله إن الاتحاد الاشتراكي هو الذي أخرج كل المظاهرات في عصره » ، أو مواجهة التعبير الجماهيري بأسلوب سياسي ديمقراطي « إذا كنت مندهشًا من

الكلمة انتظر إلى آن نقرأ الباب المعنون « تنظيم عبد الناصر الطليعي » ، أو تنظيم حركة الجماهير « حسب أقوال السيد محمد وهدان » ولكن رجال الاتحاد الاشتراكي فشلوا في السيطرة على المتظاهرين « كانت دومًا مهامهم مستحيلة ، تتلخص في أن يكونوا مع الجماهير وضدهم في نفس الآن لم نرهم إلا يفشلون » ، وتصدى رجال الشرطة لهم وأطلقوا النار عليهم فأصيب ٩ من أعيرة نارية ، من بينهم أربعة كانوا مارين بالصدفة « راجع دفاع محمد حسنين هيكل عن جمال عبد الناصر في الباب قبل الأخير ، والذي قال فيه : إنه لم يكن هناك إطلاق رصاص على الإطلاق!! » .

ويقول عصام حسونه ـ أيضًا ـ من تقرير النيابة العامة :

ثانيًا : إن المظاهرات ما لبثت أن انتشرت في دائرة عدد من أقسام القاهرة والجيزة والإسكندرية ، وفي كلية الهندسة بجامعة القاهرة بالذات « **ألم نقل أن كان للهندسة موقف تحسد عليه ، ويحسد عليه أبناؤها** » .

ثالثًا : إن الشرطة قد أطلقت الأعيرة النارية على بعض المظاهرات وقد سقط اثنان من القتلى « مرة أخرى راجع دفاع الأستاذ هيكل » ، كما أصيب ـ من غير الأعيرة النارية ـ من رجال الشرطة ٢٢ ضابطًا ، ٦٥ شرطيًا ، ٤٠٠ من الطلبة والأهالي ، كما حدثت تلفيات في سيارات الشرطة وغيرها من الممتلكات الحكومية والأهلية .

رابعًا : « وهذه نهديها للسادة المحللين حسني النية وسيئيها ، قبل أن نوجه لهم الضربة القاضية » ، إن هتافات المتظاهرين وطلباتهم قد تجاوزت حدود قضية الطيران ، وتناولت النظام ذاته « وأورد مطالب الطلاب التي ذكرناها من قبل » .

ويشهد شاهد من أهلها :

وقال السيد عصام حسونة في اجتماع الوزراء المذكور : « **لقد انقضت على هزيمة** يونيو ثمانية أشهر ، فهل ينبغي أن نعاود مناقشاتنا ـ كمجلس وزراء ـ في أسباب

الهزيمة والتزامات النظام في تصحيح ما حدث ؟ « الدعوة الشعبية العارمة بضرورة التغيير » ، أن نتحدث مرة أخرى عن أسلوب الحكم « هذا هو الأساس » عن نظام الحكم « وهذا هو مربط الفرس » .

لقد قلنا من قبل : إن نظامنا اشتراكي « ناصري » ديمقراطي ، يقوم على سيادة الشعب ، وقيادة جماعية منتخبة ، وسيادة القانون ، وقلنا : إن الانحرافات التي شابته عندما ناقشنا أسباب النكسة ، هي انعدام القيادة الجماعية ، الافتئات على سيادة القانون ، الهوة الشديدة بين الشعار والسلوك ، ضعف النقاء في بعض القادة .

إن الشعب بعد ثمانية أشهر من الهزيمة ، لا يزال يطرح هذه الأسئلة ، هذه المرة بصوت أعلى لابد من تغيير جذري .

شيء واحد يشغل جمال عبد الناصر :

بعد هذه الشهادة المطولة من وزير العدل « الأستاذ عصام حسونة » « والتي اختصرتها » لم يشغل جمال عبد الناصر إلا شيء واحد :

الرئيس : نعود إلى قضية الطيران ـ لقد اطلعت على أقوال الشهود ، الغريب أن قائد القوات الجوية الجديد مدكور أبو العز شهد لصالحه « للتاريخ يُحسب هذا الموقف الرجولي للرجل الشريف مدكور أبو العز ، فقد ترك القوات المسلحة والطيران قبل النكسة لخلافات حادة عميقة مع صدقي محمود ، وها هو ذا يشهد لصالحه ، ولصالح الحقيقة عندما جاءته الفرصة للانتقام ، إن في مصر رجالاً » .

الفريق فوزي : يبدو لي الحكم كان سيئ الوقع على القوات المسلحة « لم يكن ذلك كلامه في أول الجلسة ، كان العكس تمامًا » إنني أرى تحرير الحكم وإلغاءه وإعادة المحاكمة .

الآن وقد كان وصف الأستاذ عصام حسونة لجلسة مجلس الوزراء التاريخية تلك ،

برئاسة جمال عبد الناصر ـ أن ينتهي « فلم تبق إلا قنبلة واحدة ، لابد ستنفجر في قناعات المحللين حسني النية وسيئيها » ، يستطيع القارئ بنفسه أن يحكم على وزير التعليم العالي ، د. لبيب شقير « هنا وأيضًا في استئذانه المكشوف على الطلبة ، عندما قابل لجنتهم المكونة من اثنى عشر طالبًا والتي وعدوها بمقابلة جمال عبد الناصر » ، ويستطيع أن يحكم على الفريق « أول » محمد فوزي ، ووزير الصحة د. النبوي المهندس ، ويستطيع إذا عاد للأصل الذي اختصرته أن يحكم على وزير الداخلية شعراوي جمعة (وهو في نفس الوقت أمين الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي) ، ووزير الثقافة ثروت عكاشة ، وعلى مجلس الوزراء بالكامل .

لكن شيئًا وحيدًا أريد أن أشارك القارئ حكمه عليه ، هو إصرار جمال عبد الناصر على أن الأمر لم يبتعد عن كونه اعتراضًا عماليًا طلابيًا شعبيًا على أحكام قضية الطيران ، حتى بعد أن تلا أمامه وزير العدل المطالب الطلابية كاملة « هذا الإصرار أصبح إصرار الأستاذ هيكل أيضًا وحتى إعلام آخر » ، لقد كان إصرار جمال عبد الناصر هذا دليلًا إن لم يكن على عدم قبوله مبدأ « التغيير » ، فهو دليل أكيد على أنه لا يقبل أن تكون دعوى التغيير مبادرة جماهيرية « تعود عبد الناصر على أن تكون المبادرة دائمًا في يده حتى وهو يعمل لمصلحة الجماهير ، ولم يقبل أبدًا أن تحثه الجماهير على تحقيق مصالحها » ، وأقول « دليل أكيد » لأن بيان « ٣٠ مارس » الذي حللناه في فصل لاحق ، هو إثباتي لهذا الدليل الأكيد ، لكن جمال عبد الناصر ـ الذي لم يتغير ـ لم يكن يعرف بأن قنبلة شديدة الانفجار في طريقها إليه في تلك الساعة التي أراد ألا ينشغل فيها عن اتخاذ قرار بإعادة محاكمة قادة الطيران « وهو ما حدث بالفعل » ، ظانًا أن هذا التراجع سيجعل اعتراض الطلاب على نظام حكمه ، كأن لم يكن .

ضربة قاضية لآراء السادة المحللين حسني النية ، وسيئيها :

يقول الأستاذ عصام حسونة ، إنه خلال إصرار عبد الناصر على حصر الكلام في

موضوع إعادة المحاكمة اقترب السيد عبد المجيد فريد سكرتير عام مجلس الوزراء وقدم له المنشور الصادر من طلبة كلية هندسة القاهرة والمتضمن لطلباتهم « وثيقة طلاب الجامعات فبراير ١٩٦٨ » ، وقد كان خالد عبد الناصر ابن الرئيس موجودًا بينهم في الوقت الذي كتبوا فيه هذه المطالب.

قرأ الرئيس الوثيقة ثم قال :

الرئيس : يبدو أن حكم صدقي محمود ليس له أولوية لدى الطلبة « خل بالك من معنى كل كلمة » إنهم يطلبون حل الاتحاد الاشتراكي ، وإطلاق الحريات ، وإعادة تحقيق المسؤولية عن النكسة ، أظن هذا يكفينا الليلة .

ويقرر الأستاذ عصام حسونة أن « نهض الرئيس مبتئسًا بعد أن فض الاجتماع » .

أليست هذه بحق ضربة قاضية لآراء السادة المحللين حسني النية وسيئيها ، ها هو ذا جمال عبد الناصر بنفسه في جلسة مجلس الوزراء وما زالت بعد المظاهرات صاخبة في الشارع المصري ، بأن الأمر لم يكن مجرد اعتراض على أحكام الطيران بل إن الأمر كان ما هو أكبر ، دعوة للتغيير ، وللديمقراطية ، وضمانًا لا يتكرر كابوس النكسة .

ولنعد لما كنا فيه :

عاند عبد الناصر وأصر على رفض التفاهم مع القضية الشبابية ، إلا بأسلوب قائد الوحدة العسكرية « مصر » الذي يحب جنوده « شعبها » ، ولا يحب اعتراضهم على تصرفاته « أي لا يحب الديمقراطية » ، في الوقت الذي انهمرت دموعه فيه لأن عفريت اختلاف ثورته مع مستقبلها « الشباب » خرج من القمقم ولن يعود إليه إلا بتنازلات لابد رأى جمال عبد الناصر أن من الصعوبة ، بل من الاستحالة ، أن يقدم عليها ، حتى وإن كانت لمصلحة ثورته العظيمة!!! « الجاحدون وحدهم ينكرون هذا الأمر » ولمصلحة الشعب الذي أحبه كثيرًا وبذل عمره واستشهد من أجله

« أيضًا الجاحدون وحدهم على الجانب الآخر ينكرون هذه الحقيقة » .

أراد جمال عبد الناصر أن يروعنا إلى حد يخيف آبائنا ، ولا يسوغ لهم أو يحركهم ـ معنا ـ للثورة ضده ، فاتخذ ونظامه سمت الحكماء ، الذين يستطيعون ممارسة عنف أشد ضدنا ، لكنهم برغم هذا لا يفعلون ، ذلك أنهم يواجهون فلذات أكباد « راحوا أو جاءوا شوية عيال » ، تم التغرير بهم .

ولقد كان آباؤنا وقتها مستعدين لفهم رسالة عبد الناصر ، ذلك أنهم اعتادوا أن يروا من جمال عبد الناصر قبل النكسة منتهى الشراسة في مواجهة معارضيه من الشيوعيين والإخوان وعملاء الرجعية المصرية والعربية « اعتاد عبد الناصر ألا يخرج معارضيه من دائرة التوصيفات الثلاث هذه » .

كان آباؤنا يعلمون أننا لا نندرج تحت واحدة من هذه التوصيفات ، لكنهم ـ آباءنا ـ كانوا يعرفون النكتة التي سرت في عصر عبد الناصر سريان النار في الهشيم « ومن الضحك ماله مرارة البكاء » ، تلك النكتة التي تحكي عن أن قرادتيًا كان يلاعب قرده في مقهى ، وفجأة هاجمت المباحث العامة المقهى للقبض على الشيوعيين « قيلت النكتة أيضًا في الإخوان المسلمين » ، وما أن دخل رجال المباحث المقهى ، حتى سارع القرد بالاختباء ، وبعد أن قبضت المباحث العامة على من جاءت من أجلهم اتجه القرداتي إلى قرده متسائلًا : طب المباحث عايزين الشيوعيين ، إنت بسلامتك استخبيت ليه ؟

فرد القرد مرتعدًا :

- يا عم حد ضامن ، حلني على ما أقدر أثبت إني قرد !! والحقيقة أن آبائنا اضطربوا ، واضطربنا نحن باضطرابهم ، كانوا موافقين على ما نقوله ، وكانوا خائفين علينا ، وخائفين من أن يعلنوا أنهم كانوا يرون ضرورة أن يحدث تغيير في

ممارسات السلطة وفي إدارة البلاد « الأمر الذي طالبنا به في مظاهراتنا » .

لكنهم كانوا أيضًا غير متأكدين من أن ـ في تلك الأيام ـ الوقت المناسب لهذا التغيير ، وغير متأكدين كدلك من أن الوقت غير مناسب . فلو لم يحدث تغيير ، فأي مصير ينتظر البلد ؟ « إن من بدأ المأساة ، لا يستطيع إنهاءها إلا في قصائد نزار القباني العاطفية » .

الألوان الطبيعية تشاركنا الهم ، والتساؤل :

ولقد غدت القاهرة ـ التي كانت مظلمة في الليالي بفعل تقييد الإضاءة في زمن الحرب ـ وقد انسحبت منها المظاهرات ، مظلمة أيضًا في النهارات « بشكل واقعي لا مجاز فيه » ، لها رائحة الشياطة ، وأسفلت شوارعها الذي كنا نراه رماديًا داكنًا ، ها نحن في تلك الأيام نراه شديد السواد منصهرًا تلتصق فيه خطواتنا ، ويعطلنا ، ويجبهنا بلون الخطوات ، أما الأسوار حول مبانيها فقد صارت أعلى .

ماذا الآن ؟ وماذا بعد ؟!!

ما الذي استطعنا تحقيقه ؟!

وماذا يجب أن نفعل بعد ذلك وقد خرج جمال عبد الناصر من حساباتنا ؟

كنا نرى القاهرة والأشياء والمستقبل « ونشمهم أيضًا » بعيون الحيرة .

وكنا قد أصبحنا مطاردين بخوفنا من الغد ، وبخوف آباءنا علينا وترقبهم الحَذِر لما ستأتي به الأيام القادمة .

أبي يحل الإشكال :

أذكر أنني كنت أقضي وقتي كله ـ في تلك الأيام ـ خارج البيت ، فقد كنت أخشى من مواجهة أبي ، لكنني فوجئت بأبي « أبي الذي كنت وأنا في المظاهرات أهتف بسقوط جمال عبد الناصر غير هايب من سطوته « أقصد سطوة جمال

عبد الناصر » ومن الاعتقال ، ومن مصيبة سوداء لم أكن أعرف حدودها قد تكون في طريقها إليَّ . أخفي وجهي في المظاهرة - حين أصبح في مرمى بصره « أبي » إذا ما حدث وأطل من شرفه مكتبه في شقتنا على المظاهرات في شارع القصر العيني ، خوفًا من أن يراني » . فوجئت بأبي يتعمد الكلام معي عن المظاهرات ، وكأن آخرين يقومون بها - واصفًا إياها بأنها مظاهرات عظيمة ، وأنها لابد أن تستمر لكي تثمر نتائج جيدة .

في المرة الأولى التي قال فيها أبي هذا الكلام ، كدت أقوم وأحتضنه ، لكني وقتها خفت أن يكون احتضاني له بمثابة اعتراف صريح مني بأنني أشارك في المظاهرات ، لقد فهمت لحظتها أن أبي يعرف أنني أشارك ويوافق ، لكنه لا يريد أن يعلن أنه يعرف أو أنه يوافق ، فهمت أن أبي يريد أن يترك القرار لي ، مع أن النتائج سوف نتحملها نحن الاثنين .

لم أقم لأحتضنه وقد خلصني من ازدواجية كانت تؤرقني بالإضافة إلى حيرتنا الكبيرة ، يومها صممت على أن أنفذ مشيئة أبي ، وأن أتكلم أنا الآخر وكأن الآخرين يقومون بها ، وهكذا غدونا نتفاهم ونتناقش بحيادية مصطنعة أجدنا حبك خيوطها الأمر الذي لم يمارسه - أبي الحازم القاطع معي - قبلها ولا بعدها أبدًا » .

وأذكر - كذلك - أن أبي قال بينما كنت أحمل القهوة إليه في مكتبه صباح يوم جمعة تالٍ للمظاهرات ، وكان ساعتها يقرأ مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل ، عن الأحكام والمظاهرات وإعادة المحاكمة (١/ ٣/ ١٩٦٨) .

الطلبة موش لازم يخافوا من الكلام ده « كان يقصد التهديدات الخفية التي امتلأت بها مقالة الأستاذ هيكل الذي صور نفسه - بعدها وبرغمها وكأنه كان مدافعًا عنا.. وكان هذا الأمر يحلو له كثيرًا ، وكان يعاني الأستاد من عقدة ذنب

دفينة » الطلبة موش لازم تخاف وإلا زمايلهم المقبوض عليهم ممكن يضيعوا .. والولاد لو ضاعت الجامعة ح يركبها الخوف تاني ، ومش ح تقدر تعمل حاجة .

ساعتها رددت براءة :

حاضر يا بابا .

وضحك أبي ، لكنه سرعان ما عاد إلى تجهمه وقال :

إيه حاضر دي ؟! أنت إيه علاقتك بالمظاهرات دي ؟

أصابني ارتباك شديد ، لقد خرجت على اتفاقنا الضمني !!

قصد فعلًا ، مش لازم يخافوا .

وقال أبي في حزم حنون ؟

خلي رأيك ده لبعدين ، لما تقرأ المقالة الأول .

كان أبي يقرأ الجرنال أولنا ، ثم بعد ذلك نتخاطفه نحن ، يومها خطفت الجرنال ورحت ألتهم المقالة ، وفهمت ـ برغم محاولات الأستاذ هيكل لإيصالنا إلى عكس هذا الفهم ـ أن تركيز هيكل على أن صورة الجبهة الداخلية يجب ألا تهتز في مواجهة عدو صار قريبًا منا على الشاطئ الشرقي لقناة السويس « والذي كان يطالبنا من أجلها بالهدوء » ، يجب ألا تخيفنا من التحرك لإنقاذ زملائنا ، تحركًا صخبًا إذا لزم الأمر وإلا لن يجرؤ آخرون على الاعتراض ، بعد ذلك أبدًا .

وأذكر أيضًا العيد . كان العيد الكبير « عيد الأضحى المبارك » على الأبواب وقتها ، وكانت أيام الأعياد في ذلك الوقت عندي هي أجمل أيام السنة بالفعل « تلك التي لم يعد لها طعم الآن » ، كنا ، أولاد الخالات والأخوال ، نذهب جميعًا لنقيم في البيت الكبير ، بيت جدي . بالحلمية الجديدة ، نقضي الوقت في ضحك ولعب

وصخب جميل باختلاف أعمارنا « كان الاختلاف يمتد لأكثر من عشرين سنة بين الأصغر والأكبر في الأعمار » ، وهناك تذبح أضحيات العائلة جميعًا ، ويفعل كل منا ما يريده ، ويفعل الكبار أيضًا لكل منا ما يريده ، كانت أيام حرية وسعادة ، لكنني ـ وكنت أصغر واحد في جيل الأقارب هذا ـ فوجئت بأن الجميع في بيت جدي ، قد بيتوا النية على أن يتخذوا العيد في هذه السنة فرصة لكي يعيدوا فيها عقلي إلى رأسي ، كنت قد ذهبت بإحساس غائر بالذنب ، زملائي في السجن ، فهل يحق لي أن أفرح وسط أقاربي ؟ ولما هجم الأقارب عليَّ « تحت قيادة أمي ـ حبيبتي ـ التي آثرت أن تبدو صامتة ما دام الجميع يتكلمون بلسانها » ، ليبينوا لي خطورة ما ارتكبته من جرم في حق نفسي ومستقبلي والعائلة التي سيذهب أفرادها وراء الشمس ، إذا ما أصررت على مشاركة الأولاد المنفلتين في الجامعة فيما يفعلونه ، عندما هجم عليَّ أقاربي ـ أحبائي ـ بهذه الكلمات « العاقلة » فوجئت بنفسي منفعلًا لأول مرة في مواجهة من هم أكبر مني سنًا هؤلاء الذين أحم لأصغرهم ، وأقلهم شأنًا حبًا ، وجمائل تطوق عنقي ، وتمنعني عن الانفعال ضدهم.

زملائي أحسن الناس ، وأشرف الناس ، والبلد بلدنا ، ليست بلد جمال عبد الناصر ، ولن يفعل بها وفيها ما يشاء .

كانت الدموع تخنقني ، ووجدتني أجري ناحية الباب ، منفلتًا إلى الشارع ، متخلصًا من إحساسي بالذنب ، « ها أنا ذا يا أصدقائي المتعقلين ـ مثلكم ـ لن أستمتع بالعيد الكبير » .

وقفت في الشارع ، كدت أصيح وإحساس الندم على ما بدر مني في مواجهة كبار يحبونني ويخافون عليَّ ، يحاول إفساد فرحتي ، فرحتي المجنونة بأنني لن أفرح في العيد وزملائي ـ الذين لا أعرف أكثرهم معرفة مباشرة ـ في السجن .

كدت أصيح في الشارع :

غضب أقاربي مقدور عليه ، سأسترضيهم فيما بعد لكنني يا زملائي الأعزاء ، لا أقبل أن أفرح وأنتم سجناء .

فجأة ، وجدت من يربت على كتفي.. كان ـ الذي ربت عليَّ بحنان ـ زوج ابنة خالتي وكان عقيدًا في القوات المسلحة « مدفعية » ، كان جميل الصورة ، وجميل المخبر أيضًا « العقيد عادل حافظ عبد المجيد » ، ارتبكت في مواجهة وجهه الملائكي ، شدني من يدي في حنان وفتح باب سيارته ، وقال : اركب .

ركبت قال لي : أنه منع الجميع من أن يخرجوا ورائي بعد أن وعدهم بأنه سيعود بي إلى البيت الكبير ، وفاجأني قائلًا وهو يدير موتور السيارة :

إنت عايز تروح مش كده ؟

أيوه .

لازم تروح ، إنت مش لازم تقعد وزمايلك في السجن ، ما تقلقش من ناحية العيلة أنا ح تصرف .

كان يقرأ ما في قلبي في مهارة اكتسبها قلبه الكبير من ممارسات كثيرة قاسية ، قال :

اللي انتوا عملتوه صح ، الفساد أكبر مما تتصوروا ، الفساد هو اللي هزمنا مش إسرائيل ، الجهل مش جيش الدفاع الإسرائيلي ، البلد لازم تتغير ، علشان نقدر ننتصر .

امتلأت عيني لحظتها بصورة عادل ـ زوج ابنة خالتي ـ عائدًا من الحرب ، ممزق الملابس ، ممزق الجسد والروح ، تلك الصورة التي لم يتحملها حموه « زوج خالتي » فغادر بيت ابنته لا يرى ما أمامه لتصدمه عربة تحت منزل الابنة ، ويقضي شهورًا تحت العلاج ، وتذكرت صوته ـ أيضًا ـ يقول لي وقتها :

- كنا قد أفلتنا بالفرقة الرابعة « أقوى فرق الجيش المصري آنذاك » وتمركزنا عند

قناة السويس في انتظار ـ وصول الإسرائيليين الذين اخترقوا قواتنا في كل مكان في سيناء ، وأرغموا جنودنا على الانسحاب بين قواتهم وتحت نيران طائراتهم ونبالهم ، كنا نستطيع في الفرقة الرابعة أن نفعل شيئًا إذا ما وصلوا إلينا ونحن متمركزين في وضع ممتاز ، لكن شمس بدران أصدر لنا أوامره بأن نتجه إلى العريش ، أن نعود إليها ، كان يقول أي كلام ، بل كان يقول كلامًا بعيدًا عن أي تعقل ، بعيدًا عن العلوم العسكرية وفن القتال ، وتحركنا بعد أن فشل قادتنا في إقناعه بالعدول عن فكرته ، فصمموا على تنفيذ أوامره عملًا بمبدأ الطاعة ، لنقع في مصيدة إسرائيلية ، تمكنت من تدميرنا بالنابلم ، بينما كنا نتحرك عرايا من أي غطاء جوي ، بل من أي غطاء أرضي أيضًا من الأجناب ومن خلفنا ، وفقدنا قوتنا الضاربة التي كانت تستطيع أن تمنعهم من السيطرة السهلة على شاطئ قناة السويس الشرقي على الأقل .

كانت دموعي في عيني وأنا أتذكر وكانت دموعه في عينيه الملائكيتين فهل كان هو الآخر كان يتذكر ؟!

أوصلني عادل إلى بيتنا في جاردن سيتي .

في البيت لم يسألني أبي لماذا عدت ؟ (وكان أبي المشغول دائمًا بعمله كأستاذ جامعي، وبحوثه ، وبحوث لمجمع اللغة العربية كمستشار للتاريخ القديم، بالإضافة إلى كتاباته ، التي كان شديد التدقيق فيها ، فلم يكمل معظمها ، لأنه لم يعمل بتخدير هيجل حين قال : هذا الكتاب ، لو أردت أن يخرج كما أبتغيه لما خرج أبدًا ، كان أبي المشغول دائمًا لا يقضي معنا أيام الأعياد ، وكذلك لم يكن يقضيها معنا رجال العائلة المسئولون ، فكما نتمتع بالحرية كلها ، تحت سقوط دفاعات الحالات المستمرة) لماذا تركت بيت العائلة الكبير ؟ ولم يشاركني في الاستماع إلى خطبة جمال عبد الناصر في حلوان (١/ ١/ ١٩٦٨م) سمعها كل منا على حده ، تلك الخطبة التي

أنهاها جمال عبد الناصر بقوله عن زملائنا المقبوض عليهم « ما معناه » : أنه برغم كل شيء فسوف يعيدون « يقضون العيد » وسط أهاليهم .

فرحت بالطبع للإفراج عن زملائنا ، لكن حيرتي لم تهدأ ، لقد تزايدت فقد نزع عبد الناصر الفتيل الذي كان من الممكن يعيدنا إلى الحركة الصاخبة ، وهو المطالبة بالإفراج عن زملائنا المعتقلين ، واتخذ في نفس الوقت صورة الأب الذي يعفو عن أبناء تطاولوا عليه ، فهل كان هذا هو ما سعيناه من أجله؟! ، أو هل يمكن أن يصبح ذلك نهاية ما خرجنا في متاهات الخوف والضياع لكي نحققه ؟!!

والذي لن يفهم حيرتنا في هذا الوقت ، لم يفهم لماذا خرجت مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨م « التي ظلمت كثيرًا حتى داخل الحركة الطلابية نفسها » ، بهذه القسوة وبهذا العنف في الإسكندرية ولن يفهم أيضًا لماذا لم يكن لها نفس الصدى العنيف في القاهرة .

لقد خرجنا في فبراير نطالب بالتغيير وحدث تغيير بالفعل في قوتنا ، وليس قوى السلطة ، انكسرت حلقة الصمت الخانقة ، وانكسر جدار خوفنا ، وإن بقي جدار خوف المجتمع ، وزدنا ثقة في وعينا وفي الوسائل بين أيدينا لمواجهة السلطة ، وتلقى الحكم العسكري من العمال ومنا الطلبة هزيمة علنية حين أعاد محاكمة قادة الطيران ، وشكل عبد الناصر وزارة مدنية « هي الأولى في تاريخ ثورته » من أساتذة الجامعات ، أيضًا ، قطعت اليد الطولى للمباحث العامة ، التي كانت تتصرف من قبل وكأنها المتحكمة في رقاب خلق الله « أو لنكن أكثر صراحة ولنقل أنها كانت المتحكمة في رقاب العباد » إذ أنه بعد المظاهرات وما جاء فيها على لسان الغاضبين من هتافات تندد بنظام فاسد وحريات مفتقدة ، وما جاء في بيانات الطلاب أيضًا عن دولة المباحث ، بدأ التحقيق في قضايا التعذيب ، ذلك التحقيق الذي أسقط هيبتها وسحب منها « شيكًا » قدم لها من قبل على بياض ، ثم كان أن تشكلت لجنة من مجلس الأمة لدراسة قانون

الحريات العامة ، ولم يمض طويل وقت « شهر على نهاية المظاهرات » حتى أصبحت شعاراتنا هي شعارات المرحلة في بيان ٣٠ مارس ، وعلى مستوى العمل الطلابي داخل الجامعة أصبح الحرس الجامعي مقيدًا لا يتدخل في النشاط السياسي ، ولا يراقب مجلات الحائط «التي أصبحت الصحافة الحرة الوحيدة في مصر وقتها ، حسب تعبير وائل عثمان ـ الدقيق للغاية ـ في كتابه أسرار الحركة الطلابية » .

أكثر من هذا صدرت لائحة جديدة لاتحاد الطلاب بالجامعة نزعت عنه وصاية أعضاء هيئة التدريس الذين عمدوا في كل الأوقات ، إلى إخماد حماس الشباب ، فإخماد الحماس كان ، ولم يزل ـ هو الأمن المطلوب ، الذي يكافأ عليه عضو هيئة التدريس « إذا مارسه بذكاء » ، أما المكافأة فكانت تتدرج من المزايا العينية الصغيرة ، والتسهيلات الاقتصادية ، والأمان الشخصي والتمتع بالسيادة « السادية » على الزملاء ، صاعدة ــ المكافأة ــ إلى كرسي الوزارة ، وميراث الوزارة من المكاسب التي يتلقاها الوزراء وتصبح من حقهم وأسرهم بعد ذلك وهم وزراء سابقون ، تلك المكاسب التي يعرفها الوزراء ويجهلها الشعب ، وصدرت صحيفة مركزية للطلاب يعبرون فيها عن آرائهم السياسية في حرية ، لم تكن الصحافة المفروضة علينا تتمتع بها « أقصد بالطبع الصحافة القومية المملوكة للنظام فعليًا ، وللشعب بالاسم ، بل زورًا وبهتانًا » .

حدث تغيير « طالت إجراءاته ، واستمرت ، ولم ينته إلى نتائج كبيرة » ، ولكن وسط هذا التغيير تنامت محاولات الاحتواء « أصبح للحركة قيادات متصلون مباشرة بشعراوي جمعة وزير الداخلية ، وأمين التنظيم الشعبي في نفس الآن ، وآخرون من القيادات الطلابية يسيطر عليهم سامي شرف ، سكرتير الرئيس ، والشخصية الكبرى في التنظيم الطليعي ، وكانت هذه القيادات الطلابية « في نظر النظام وحده فلم نكن نرى في معظمهم أية مزية أو أية صفة تؤهلانهم للقيادة إلا

قدرة البعض منهم على خداع بعض الطلاب بعض الوقت » ، تسعى ، أرادت أو لم ترد ـ إلى تهدئة غضبة الطلاب ، وإشاعة وعود وتصورات تفوق كثيرًا حجم ما أنجز ، أو ما يمكن إنجازه في نظر الطلاب بواسطة سلطة لم تتغير التغير المطلوب ، « أو هي تمارس التغيير بأسلوبها هي ، أسلوب التأجيل المستمر بدعوى أن الفترة التاريخية دقيقة ولا تسمح » ، وفي نفس الوقت الذي سعت فيه السلطات للاحتواء « احتواء الحركة عن طريق السيطرة على بعض قيادتها بكل ما تملك من قوة وتهديد، ومن مكر ومن ذهب المعز أيضًا الذي صار بزات وقمصان وربطات عنق فخمة لدى البعض وسجائر أمريكية في جيوب البزات الفخمة!! (ومنهم من كانوا يستعطونها من الآخرين قبلاً!) .

وسط محاولات الاحتواء هذه تسربت في الصحافة ، وعلى لسان المسئولين نغمة لم تكن صريحة ، ولكنها كانت محسوسة ، تؤكد أن ما فات « مرة وعدت » ، وأن الويل والثبور وعظائم الأمور سوف ينتظرون من يحاول أن يعيد الكرة ، وحدث تضخيم أيضًا للشعار : « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » ، بينما الجيش المصري « الذي ظلمته حرب ١٩٦٧م ، أو ظلمته قيادتها » يبدأ في تنفيذ معارك المدفعية ، التي كانت بداية مباشرة لحرب الاستنزاف العظيمة مرة أخرى رحم الله شهدائنا وبينهم عادل حافظ عبد المجيد زوج ابنة خالتي وكان وكانت في شرف الشباب ، وبقيت لا تتزوج بعده) .

التغيير على طريقة السلطة ومحاولات الاحتواء والتهديدات الخفية « وتفتق ذهن السيد شعراوي جمعة بموافقة ورعاية جمال عبد الناصر عن تكوين « الأمن المركزي » المدرب تدريبًا جيدًا على مواجهة الطلاب بدلًا من بلوكات الأمن التي لم تفلح في مواجهتهم والتي زاد النشر عنها لإرهاب الطلاب بالأداة الجديدة التي أعدها وزير

الداخلية وأمين التنظيم السياسي العلني والسري!! » ، لكن أهم المؤثرات قاطبة كانت بداية حرب الاستنزاف.. وما كنا ننتظره من ورائها، كل ذلك أربكنا ، هل نكتفي بهذا القدر من التغيير حتى لا نشوش على المعركة ؟ أم نستمر حتى نحصل على كل ما نريده ، ولنعترف الآن ، لنعترف بأننا وقتها ما كنا لنستطيع أن نتخذ قرارًا ، ولعلي الآن أذكر تلك المقابلة التي كادت أن تضيع مستقبلي .

مقابلة مع رجل يستحق كل تقدير :

الأسماء تفر من ذاكرتي ، لكن ما أذكره جيدًا أن حدث وجاءني زميل أعتز به « ممن كانوا رفاق منظمة الشباب في المدرسة الإبراهيمية الثانوية وهو الآن الدكتور عبد الحميد الجزار الطبيب النابه في أمريكا والذي تستعين به دولة الكويت على فترات » كنا ـ قبلها ـ قد أصبحنا ـ هو وأنا ـ طلبة في كلية الطب جامعة القاهرة « حولت من طب المنصورة إلى طب القصر العيني من بداية العام الدراسي ٦٨ - ٦٩ » ، ليخبرني أن أحد أعضاء هيئة التدريس يريد أن يقابلني في كافيتريا « هيئة التدريس » في الكلية ، كان الموعد غريبًا ، ولما رأى زميلي وصديقي الحيرة في وجهي ، قال في طيبة معهودة فيه ، وفي لهجة أشعرتني أنه مضطر لسبب ما لإخباري بالموعد :

ضروري تروح يا هشام في الميعاد .

وذهبت .

وجدت عضو هيئة التدريس « أظنه كان مدرسًا في ذلك الوقت » في انتظاري ، وبادرني بإصراره على أن أطلب شيئًا طلبت « كابتشينو » وجلست متوجسًا في انتظار الكابتشينو « كنت أريده أن يأتي ليبدأ الرجل في الكلام المهم الذي استدعاني من أجله » ، جاء الكابتشينو ، ثم بدأ الدكتور ـ أستاذي ـ حديثه بالديباجة المعهودة « كنا قد تعودنا عليها في منظمة الشباب » قال : أن شبابًا مثلي « في ظنه » هم شباب الثورة ،

وشباب جمال عبد الناصر ، وأن الثورة تمر بانعطافة تاريخية « كل انعطافات الثورة كانت تاريخية » وأن على شباب عبد الناصر أن يبادروا بالوقوف وراء عبد الناصر .

قطعت استرساله سائلًا في سذاجة مصطنعة :

ضد من ؟!

ضد أعداء الثورة .

من هم أعداء الثورة ؟!

معروفون .

قلت محاولًا بشدة أن أخفي ضيقي الشديد متكلمًا في « حيادية » تغيظ .

أنا لا أعرفهم .

أحسست بالضيق يتسلل إلى وجه عضو هيئة التدريس الذي لا أذكر اسمه .

قلت لكي أنهي المحاورة والمداورة :

حضرتك تقصد معارضي جمال عبد الناصر ؟

الحقيقة كان الرجل شديد الذكاء فبادرني بحدة حاول أن يخفيها :

لا ... أقصد أعداء جمال عبد الناصر .

وتنهد في ضيق ليسترسل :

أقصد الرجعيين ، وأعداء جمال عبد الناصر في النظام نفسه (هي بعينها نغمة منظمة الشباب التي لم يعد لها وجود فعلي).

والمطلوب ؟

أن نقف مع جمال عبد الناصر .

أين ؟

في التنظيم الطليعي .

ولماذا لا يقف جمال عبد الناصر معنا ؟

مع من ؟

مع أعداء الرجعية ، وأعداء أعداء جمال عبد الناصر في النظام .

هل تشك في أن جمال عبد الناصر وتنظيمه الطليعي ضد هؤلاء ؟

الحكاية ليست أشك أو لا أشك ، ولنكن صرحاء ، عبد الناصر لا يحتاج إلى تنظيم سري ليقف ضد أعداء ثورته من الرجعيين ، وبعض البيروقراطيين والانتهازيين في نظامه ، عبد الناصر يحتاج إلى أن يدعو علنيًا لمحاربة أعداء ثورته بنوعيها ، وساعتها ستكون الأغلبية الساحقة من أصحاب المصلحة في ثورته ، من الشعب المصري معه ضدهم ، مشكلة الشعب الآن أنه متأكد من أن عبد الناصر سُلْطة ، تخفي أخطاءها ، لقد تعبنا من حكاية تنقية الثورة هذه من أعدائنا ، وتعبنا لأننا في كل مرة كنا فيها نأخذها جدًا ، نفاجأ بأننا نحن (المخلصون للثورة المعادين لأعدائها) هؤلاء الأعداء الذين لا يتحملنا عبد الناصر « السلطة »؛ لأننا نفضح تكوينات إن لم يكن جمال عبد الناصر يؤيد أقوالها فهو يرتاح لها لأنها تدافع عنه عمال على بطال، في الظاهر وتمارس فسدها في السر ، محتمية برضاء النظام عنها ، أن الانتهازيين - يا سيدي - الذين يقولون كلامًا يريحه ليفعلوا أفعالًا تريحهم ، وهم دائمًا الذين ينجحون في ضربنا .. وتنهدت قائلاً : بصراحة لن أنضم إلى تنظيم لا يحتاج إلى أن يكون سريًا ، إن سرية هذا التنظيم هي ما تريبني [1] ، كنا في منظمة الشباب علنيًا نستطيع أن نحقق ما يريده جمال عبد الناصر الآن ، ومُنعنا وضُربنا

(١) ستقرأ تحليلًا لتنظيم عبد الناصر الطليعي والديمقراطية التي لم يكن يعرف غيرها جمال عبد الناصر ، وهي لا تشبه الديمقراطية إلا في الاسم ، في باب « تنظيم عبد الناصر الطليعي » .

لأن عبد الناصر لم يأخذ صفنا ، ترك الآخرين يفصلون بينه وبيننا ، لأنهم في ظنه عناصر مأمونة ، يحافظون على الثورة (حفاظًا على الفساد ومكاسبهم من وراءه) ، وبهذا مكنهم من تصفيتنا أكثر من مرة ، ولا أظن إلا أن الآخرين هؤلاء هم نجوم التنظيم السري الآن .

لقد حدث تغيير شامل .

لا أظن ، نفس الوجوه موجودة بقوة .. وأستطيع أن أعدد لك أسماء، وإذا ما كانوا هم الذين سيحددون من هم أعداء عبد الناصر وثورته ، فأنا أضمن لك من الآن أنني عدو جمال عبد الناصر وثورته ، أضمن لك ، بل وأتجاسر وأحذرك ـ وأنا أستشعر إخلاصك ـ من أن المخلصين سيكونون بقدرة قادر هم أعداء الثورة لأنهم أعداء الانتهازيين الذين يرتاح جمال عبد الناصر لكلامهم المعلن وهو ستار الدخان الذي يمارسون من ورائه كل الفظاعات ، إن الرئيس ثقة في أنه يستطيع أن يصحح كل الأخطاء ، وكل الانحرافات في الوقت المناسب ـ يعادي من يعاديهم « أقصد يعادي من يعادي الانتهازيين » .

لا تقل هذا الكلام .

لكنني أقوله ، وأقول بشكل أوضح ، لأن هؤلاء هم رجاله ورجال ثورته ، أنا ضد عبد الناصر وضد ثورته .

سكت الرجل وبعد لحظة فوجئت به يقول لي في حنان آخاذ .

ورددت في انفعال ورثته من أبي :

اعتبر إن احنا ما تكلمناش مع بعض .

أذكر الآن لهذا الرجل الشريف ، الذي أجهدت ذهني لأذكر اسمه ، إنه حماني من

نتيجة انفلاتي العصبي ، وقول ما لا يقال .

كان رجلًا ...

بهذا الانفلات العصبي إذا كنت قد أحسنت تصويره ، خرجت حركة نوفمبر ١٩٦٨م ، غاضبة حتى درجة الانفلات ، عنيفة حتى درجة الغليان ، وضد جمال عبد الناصر (نعم في نوفمبر كنا جميعًا ضد جمال عبد الناصر).

ولعلنا نتوقف مدققين في أمرين أراهما قادرين على أن يشرحا لماذا كان الغضب ؟ ولماذا كان الانفلات الجامح في مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ ، وذلك قبل أن نعاين حركة الطلاب في نوفمبر ١٩٦٨ ، بعد حركتهم في فبراير من نفس العام.

أول الأمر : هو بيان ٣٠ مارس (نفسه) .

وثاني الأمرين : هو تنظيم جمال عبد الناصر الطليعي .

9

بيان تأجيل الأحلام الجماهيرية إلى أجل غير مسمى

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر بيان (٣٠ مارس) [1] ليمتص غضب الطلاب، وغضب الحركة الشعبية بفصائلها المختلفة، بزعم أنه سوف ينفذ طلباتهم، ولكي يتخذ الأمر فرصة، بعد أن هزت المظاهرات شرعيته، وشرعية نظامه، لتدعيم شرعيته وشرعية نظامه باستفتاء عام طالب به في نهاية البيان، وتم تنفيذه بالفعل « وجاء بنتائج مبهرة » .

ضم البيان كلامًا جميلًا، وسُمًا زعافًا .

الكلام الجميل أراح النفوس لوقت قصير، لكن السم الزعاف عندما سرى في أوصال « الموافقين » بعد ذلك، أحال راحتهم غضبًا وهدأتهم انفلاتًا .

لقد وصف جمال عبد الناصر بيانه « في بيانه » بأنه « برنامج للتغيير يستجيب للآمال العريضة التي حركت جماهير شعبنا إلى وقفتها الخالدة يومي ٩، ١٠ يونيو » ، وقال : « إن التغيير المطلوب لابد وأن يكون تغييرًا في الظروف وفي المناخ، يجب أن يكون فكرًا أوضح وتخطيطًا أدق » .

كلام جميل، فأين السم الناقع فيه ؟

كان السم هو تجاهل عبد الناصر لمظاهرات فبراير « التي جاء البرنامج ردًا عليها، لتهدئتها » ، وحديثه عن وقفة الجماهير الخالدة في ٩، ١٠ يونيو، ولقد كان عبد الناصر يعرف أن الوقفة الخالدة في ٩، ١٠ يونيو « وكان هيكل صائغ البيان أيضًا يعلم » ، لم تكن دعوة للتغيير، بل كانت دعوة للاستمرار، الاستمرار في طريق الثورة لتفويت الفرصة على الاستعمار العالمي وطليعته في المنطقة « إسرائيل » ، في مصر أن يجنوا ثمار انتصارهم العسكري المدوي على نظام عبد الناصر، عبد الناصر كان يفهم « وهيكل أيضًا » أن وقفة الشعب لم تكن من أجل عبد الناصر شخصيًا،

---

(١) نص البيان في ملاحق الكتاب .

ولكن كانت من أجل ثورة نادت بآمال الشعب المصري ، وحققت بعض الآمال ، كانا يفهمان ذلك بدليل أن البيان نفسه وصف الوقفة الخالدة في ٩، ١٠ يونيو « وهي حقيقة خالدة » بأنها أظهرت تصميمًا « يرفض الهزيمة ويثق في النصر » ؛ ولم يكن هذا الوصف تواضعًا من جمال عبد الناصر ، الذي نادت المظاهرات في ٩، ١٠ يونيو بعودته وبقائه ، فالحقيقة أن المظاهرات نادت بعودته رفضًا للهزيمة ، ورفضًا لأن يحقق الأمريكيون رغباتهم ضد أماني هذا الشعب « ناهيك عن أن حجم المأساة التي قادتنا للهزيمة المرة لم يكن قد اتضح بعد » .

والحقيقة أن رجال عبد الناصر « فهموا مغزى الوقفة أو لم يفهموه » ، كانوا يصورون الأمر دائمًا على أن ما حدث في ٩، ١٠ يونيو كان تمسكًا بعبد الناصر « شخصيًا » وتفويضًا له بأن يفعل كما يشاء ، ولم يكن الأمر كذلك أبدًا ، بدليل أن صيحات الجماهير والمثقفين من أجل التغيير ، بدأت مباشرة بعد أن حقق الشعب رغبته في الاستمرار ، وكانت صيحات التغيير هذه رفضًا للتفويض ، وقبولًا لعبد الناصر ، ليس كما كان ، ولكن قبولًا لعبد الناصر « بشروطهم » .

إذن لماذا اختار جمال عبد الناصر تلك الوقفة الخالدة « التي كان يفهم مغزاها جيدًا ، وكان يفهم مغزاها هيكل أيضًا » ، ليكون بيان ٣٠ مارس استجابة لها ؟!

هذا هو السم الزعاف بعينه .

إنهما « عبد الناصر ، وصائغ أفكاره وناصحه محمد حسنين هيكل » أرادا بهذا الاختيار أن يقولا للناس شيئين :

أولهما : أن المقبول هو التفويض الكامل!! ، أما « الاعتراض والمطالبة » فهما غير مقبولين على الإطلاق « العسكريون يتعاملون مع مطالب الناس ، على أنها « لوي ذراع » غير مقبول ، وبالتالي يرون الديمقراطية هي الأخرى لي ذراع ، ويرونها لهذا

مرفوضة» ، لقد أحب البيان أن يقول للناس « دسا للسم الزعاف » ٩، ١٠ يونيو مقبولة ، أما التظاهر والضغط على الحاكم فمرفوض ولن يأتي بأية نتائج » .

ثانيهما : تصوير أن مطالب الناس ، هي ما كان يريد أن يحققه جمال عبد الناصر وما سوف يحققه فلماذا التظاهر و« شغل العيال » ، بدون « شغل العيال » هذا ، كان جمال عبد الناصر سيحقق لكم ما تريدون ، فناموا واستريحوا ـ بعد تفويضه الكامل ـ وانتظروا .

لقد كان كل ما يريده جمال عبد الناصر هو أن ينتظر الناس ، وأن ينتظروا هادئين « سواء استطاع عبد الناصر تنفيذ ما يريدونه ، أو خذلته الظروف التاريخية الصعبة والمنعطفات الحرجة و.... و... سلسلة اخجج الجاهزة ، وبعضها كان حقيقيًا فلم يستطع أن ينفذ شيئًا ، إلا ما تقبله دماغه » .

لهذا حرص البيان على أن يقول : « وإني لأرجو أن يكون اتفاقنا كاملًا « خل بالك من كاملًا هذه » على أنه ليس هناك الآن ، ولا ينبغي أن يكون « خل بالك من لا ينبغي هذه » ، صوت أعلى من صوت المعركة ولا نداء أقدس من ندائها » .

كان المعنى المراد من هذه الكلمات : «انتظروا.. انتظروا.. لا تطالبوا بالتغيير ؛ لأن وراءنا معركة» . بل كان معناه أن من يطالب بالتغيير خائن لأنه يعطل المعركة ؛ ولأنه صوته يعلو على صوت صوتها ؟!!

لقد كنا نطالب ـ والحركة الشعبية الأم ـ بالتغيير ، لبناء دولة عصرية قادرة على الانتصار في كل معاركها ، سواء معاركها العسكرية ، أو معركتها الكبرى في التنمية لصالح الشعب وقدراته الفعالة ، وضد مخططات الرأسمالية العالمية، وكنا نرى أن دولتنا بدون التغيير المطلوب ، بل التغيير الذي كان قضية حياة أو موت ، لن تقوم لها قائمة « القائمة التي نريدها ، وليست القائمة التي يجيد العسكريون توصيلنا إليها

بأخطائهم الفادحة » .

كنا نريد ذلك ، وجاء بيان ٣٠ مارس ليقول لنا : انتظروا ، سوف يحقق جمال عبد الناصر لكم ما تريدون عندما يستطيع ، نفس اللعبة التي مارسها معنا السادات فيما بعد ، لكنه كان يقصد « انتظروا حتى النهاية » ، نهاية أحلامنا بالطبع في التحرر الوطني الذي هو العزة القومية التي ترفض التبعية ، نهاية حلمنا في العدل الاجتماعي ، وفي الديمقراطية الحقيقية « التي هي بالطبع شيء آخر غير ديمقراطية « ابقى هبهب في الجرايد » على رأي بيرم التونسي رحمه الله » ، وفي تكوين كيان عربي موحد يستطيع الوقوف في وجه التكتلات الكبرى في عالمنا ، وهذه هي خطورة اللعبة ، فنتائج الانتظار والتفويض تعتمد على شخص الحاكم ومراميه الخفية ، لهذا كنا نرفضها مع عبد الناصر الذي نثق في وطنيته ونزاهته ، وكان أولى بنا أن نرفضها مع غيره ممن لا نثق فيهم ، فما الذي يضمن لنا ، لقد خذل عبد الناصر الوطني الشريف آمالنا وجاءنا بالنكسة ، وخذل السادات ومدرسته ، آمالنا وجاءنا بالنكسة الكبرى .

ما دام الأمر كذلك ، فلماذا التأخير ؟

ولكي يبرر جمال عبد الناصر أن بيان ٣٠ مارس « للأسباب التي وضحتها » كان استجابة لوقفة الشعب في ٩ ، ١٠ يونيو « ولم يكن استجابة لأي شيء آخر » ، كان عليه أن يبرر البيان عشرة شهور كاملة بعد الوقفة الخالدة ولم يكن الأمر ليستعصي عليه، ولا على هيكل أيضًا « المشكلة أن الأمر لا يستعصي على العسكريين أبدًا ، ولا على ناصحيهم ، ولا على المطبلين لهم وهم غير الناصحين بالفعل » .

برر عبد الناصر تأجيل البيان « كما أحب أن يظهر لنا الأمر » بأن كان عليه أن ينجز إنجازات تاريخية قبله ، حتى نستطيع أن نتطلع إلى المستقبل « بالبيان » :

أولها : إعادة بناء القوات المسلحة .

ثانيها : تحقيق الصمود الاقتصادي .

ثالثها : تصفية مراكز القوى « بالطبع كان قد أزاح بعضها ، ليستشري فينا البعض الآخر » .

رابعها : فضح انحرافات وأخطاء المرحلة السابقة عن طريق المحاكمات العلنية « هكذا قال في بيانه » .

خامسًا : القيام بجهد سياسي على جبهات عربية وجبهات دولية .

كانت النقاط الخمس هذه هي تبرير جمال عبد الناصر لتأخر البيان بعد وقفة تسعة وعشرة يونيو ، (تسْعة وعشرة شهور)، كانت التبرير الذي أجهد عبد الناصر نفسه ، ليقوله حتى لا يعترف بأن المظاهرات استطاعت أن تلوي ذراعه .

ولكن عبد الناصر ، كان يعلم أننا كنا نطالب بالديمقراطية ، « التي كان فهمنا لها قاصرًا ، ليس بسبب أعمارنا الصغيرة وحدها ، ولكن أيضًا بسبب التجهيل المستمر بماهيتها ، لقد كنا نفهمها فقط على أنها حرية الرأي والفكر وحرية الإعلان عنهما « وهما يشملان حرية الصحافة » ، ووصول ممثلين حقيقيين لنا ولآمالنا إلى مجلس الأمة ، وحرية العمل الثقافي ، هذا كل ما كنا نفهمه عن الديمقراطية ، كان فهمنا قاصرًا ، يتجاهل أو يجهل أسس الديمقراطية الراسخة في المجتمعات ، لهذا كنا نطالب الحكم بالديمقراطية ، ولا نطالب بترسيخ أسسها في مجتمعنا ، وكان يعلم أيضًا أننا لن نسكت حتى تتحقق « ولو على أساس فهمنا القاصر » لهذا قرر جمال عبد الناصر أن يتكلم عن الديمقراطية التي نريدها ، ولكن بالشكل الذي يريده هو .

نعم للديمقراطية المؤجلة :

قال البيان : « إن المسئولية التاريخية « كل مسئوليات الثورة تاريخية » للأيام العصيبة « وكل أيامها عصيبة » ، والمجيدة « وكل أيامها مجيدة ، حتى تلك الأيام

التي تلت نكسة يونيو ١٩٦٧ » ، التي نعيش فيها ، ونعيش لها ، تطرح علينا برنامج عمل له جانبان :

الجانب الأول : حشد كل قوانا العسكرية والاقتصادية والفكرية ، على خطوطنا مع العدو لتحرير الأرض وتحقيق النصر .

الجانب الثاني : تعبئة كل جماهيرنا من أجل واجبات التحرير ، والنصر ومن أجل آمال ما بعد النصر ، « خل بالك من أن تحقيق « الآمال » بعد النصر ، إنها إشارة واضحة لفلسفة انتظروا » .

هذا هو البرنامج ، وهذان هما جانباه ، فأين الديمقراطية ؟

قال البيان : « إنه من الضروري والحيوي حشد كل القوى الشعبية وبوسيلة الديمقراطية ، وعلى أساسها ، وراء أهداف نضالنا القريبة والبعيدة » .

الديمقراطية التي أرادها جمال عبد الناصر إذن كانت وسيلة حشد ولم تكن وسيلة تصحيح مسار « يريدها حشدًا وراء مساره هو » .

وقال البيان : « إن صيغة الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب أكثر الصيغ ملائمة لحشد القوى الشعبية بوسيلة الديمقراطية ، بعد تجديد الاتحاد الاشتراكي بالانتخاب بدلًا من التعيين .

أي أن الأمر سيبقى على ما كان عليه ، الديمقراطية وسيلة حشد ، والاتحاد الاشتراكي وسيلة الحشد .

هكذا ابتلع البيان الديمقراطية التي تكلم عنها ـ البيان ـ كثيرًا جدًا .

وبالطبع كان لابد وأن يجيء الدور على بقية مطالب الطلبة « مطالب الحركة الشعبية الأم ، التي أعلنها الطلاب إعلانًا صاخبًا مدويًا » .

تصورات جمال عبد الناصر ، لا مطالبنا :

قال البيان : « لكي يكون هناك ضوء كاف على طريقنا فإنني أريد من الآن أن أضع أمامكم تصوري تصوره وليست تصوراتنا التي عبرت عنها مطالبنا لبعض المهام الرئيسية في المرحلة القادمة من نضالنا » .

إنها ليست مطالب الشعب ، إنها تصورات الرئيس جمال عبد الناصر .

« حتى لا يعترف بأن من الممكن الضغط عليه » أما تصوراته فهي :

١ـ تأكيد وتثبيت دور قوى الشعب العاملة وتحالفها وقيادتها في تحقيق سيطرتها بالديمقراطية « إياها » على العمل الوطني في كافة مجالاته .

٢- تدعيم عملية بناء الدولة الحديثة في مصر « التي تقوم على الديمقراطية « إياها » وعلى العلم والتكنولوجيا » .

٣- إعطاء التنمية الشاملة دفعة أكبر في الصناعة والزراعة ، مع الضغط على أهمية إدارة المشروعات إدارة اقتصادية وعلية .

٤- العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية والاهتمام بالشباب إتاحة الفرصة أمامه للتجربة .

٥- إطلاق القوى الخلاقة للحركة النقابية .

٦- تعميق التلاحم بين جماهير الشعب والقوات المسلحة .

٧- توجيه جهد مركز نحو عمليات البحث عن البترول لما أكدته الشواهد العملية من احتمالات بترولية واسعة في مصر .

٨- توفير الحافز الفردي تكريمًا لقيمة العمل .

٩- وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

١٠ – ضمان حماية الثورة في ظل سيادة القانون .

ولابد الآن أن أقول للقارئ : إن التصورات (١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) ، (٨) ، (٩) كانت بعض مطالبنا .

أما التصورات (٦) ، (١٠) فقد كانت بعض مطالب عبد الناصر .

يبقى التصور رقم (٧) وهو الخاص بالبترول ، فهل وضع هنا « حلاوة » لمن سينتظر هادئًا فتنفرج الأمور من حوله ، ويطلع لها حل من تحت الأرض .

ولعل القارئ قد لاحظ مثلما لاحظنا أن التصور رقم (٤) يضم عنصرين ، وكان الأولى « والأمر الذي لم يكن ليفوت فصاحة الأستاذ هيكل » ، أن يصبح تصوران هما العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية ، والاهتمام بالشباب ، فهل لنا أن نتساءل لماذا دمجا في تصور واحد ؟

هل كان المقصود أن الاهتمام بالشباب لن يكون إلا إذا تمسكوا بالقيم الخلقية ولم يتظاهروا ضد جمال عبد الناصر ؟ ، هل كان تهديدًا للشباب إذا ظلوا على حالهم ، بأنه سيتهمهم بالشيوعية ، التي لا تدعم - في نظر عبد الناصر - القيم الروحية والخلقية (راجع كتابه الأضحوكة عن «حقيقة الشيوعية») .

المستعجل ينتظر الدستور الدائم :

كانت هذه بعض مطالبنا كما قلنا ، فأين بقية المطالب ؟

الإجابة تأتينا من البيان ، بقية المطالب مؤجلة « انتظروا » حتى يتم إعداد دستور دائم بدلًا من الدستور المؤقت الصادر في ١٩٦٤ ، وكانت أهم هذه المطالب المؤجلة « وخل بالك كويس » :

* أن تتوفر كل الضمانات للحرية الشخصية والأمن بالنسبة لجميع المواطنين وفي

كل الظروف « مؤجلة ومشروطة بأن ينهي هو «عبد الناصر» دولة المباحث والمخابرات ، فهل كان سينهيها؟!! » .

* أن تتوفر كل الضمانات لحرية التفكير والتعبير والنشر والرأي والبحث العلمي والصحافة « لاحظ تأخر الصحافة إلى آخر الصف ، ولاحظ أن كل الضمانات بما فيها ضمان حرية الصحافة مؤجل وسوف يحدد هو مغزاه ومعناه وطبيعته وحدوده » .

* أن ينص الدستور على تحديد واضح لمؤسسات الدولة واختصاصاتها بما في ذلك رئيس الدولة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية « الفصل بين السلطات أولى مبادئ الديمقراطية .... مؤجلة » .

* أن ينص في الدستور على حصانة القضاء وأن يكفل حق التقاضي ولا ينص في أي إجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء ، ذلك أن القضاء هو الميزان الذي يحقق العدل ويعطي لكل ذي حق حقه ، ويرد أي اعتداء على الحقوق أو الحريات « مؤجلة » .

* أن ينص الدستور على حد زمني معين لتولي الوظائف السياسية والتنفيذية الكبرى ؛ وذلك ضماناً للتجديد وللتجدد باستمرار « طبعًا مؤجلة ونُص » .

كل هذا من مطالبنا غدا مؤجلًا إلى حين إعلان الدستور الدائم « دساتير الثورة كانت كلها مؤقتة » ، وغدا الدستور الدائم نفسه مؤجلًا فيما بعد » .

بمرور الوقت رأت الحركة الشعبية أن القليل الذي نص عليه بيان ٣٠ مارس كان كلامًا جميلًا « لكنه وضع على الرف » ، وبدؤوا يشعرون فيه بآثار السم الزعاف ، سم الديكتاتورية التي ترى الخضوع لمطالب الشعب ضعفًا ، والتي حين تضعف ، تناور وتسوِّف وتؤجل ، وتفتح علينا أبواق دعايتها التي تصم آذاننا ليلًا ونهارًا بأن ليس في الإمكان أحسن مما كان ، فانتظرو' هادئين .

بمرور الوقت أيضًا رأت الحركة الشعبية ، أن الدستور الدائم « الذي يضم بقية أمانيها في تلك الفترة » سيبقى مؤجلًا إلى أجل لن يحين ، فهو فيما يبدو كان يمتلك صوتًا أعلى من صوت المعركة .

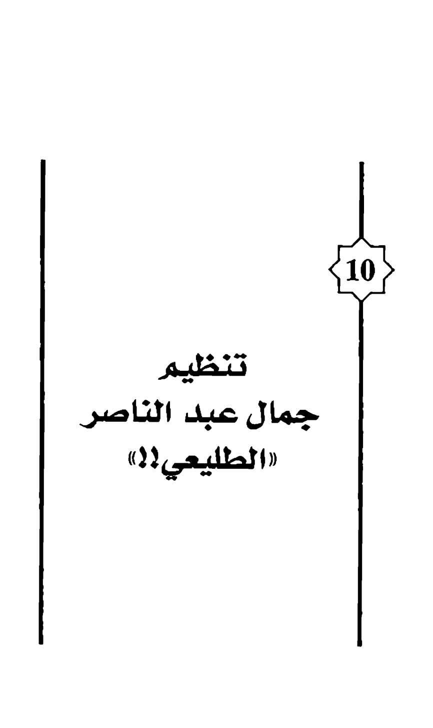
أكثر من ذلك ارتدت السلطة الناصرية قفازًا من قطيفة ناعمة ، وراحت تكيل الضربات الموجعة ، والمرعبة للمعارضين بحجة أن المعارضين بمعارضتهم العلنية يفسحون المجال للثورة المضادة وأعداء الثورة من الرجعيين لضرب الثورة وإنجازاتها الشعبية .

كان الواضح « للأسباب السابقة » أن سلطة جمال عبد الناصر ، كانت قد قررت ألا تستسلم للضغط الشعبي « لوي الذراع » وأنها ستظل سائرة فيما هي فيه والذي جلب علينا نكسة لا تحتمل ولكن تحت شعارات جديدة ، براقة كسابقاتها .

لقد بدأ البيان بسحب المبادرة من الجماهير .

وانتهى بتأجيل الأحلام إلى أجل غير مسمى .

إلى أجل لن يتحقق .



10

تنظيم
جمال عبد الناصر
«الطليعي!!»

التنظيم الطليعي كما عرف الناس اسمه. أو تنظيم « طليعة الاشتراكيين » كما سماه جمال عبد الناصر ، كان هو المحاولة الرابعة لجمال عبد الناصر لكي يجعل للثورة تنظيمًا ، كانت هيئة التحرير تنظيم الثورة الأول ، وتلاها الاتحاد القومي ، أما الثالث فكان الاتحاد الاشتراكي العربي . ثم كان التنظيم الطليعي آخر المحاولات كان رابعهم.

وبرغم أن عبد الناصر أجهد نفسه ، وأجهد فلاسفته ، كثيرًا ، لكي يؤيد في أكثر من مناسبة أن كل تنظيم من هؤلاء ، كان يخدم مرحلة ثورية معينة ، من مراحل الثورة العديدة . أي أن واحدًا من الثلاثة الأول ، لم يكن يشبه الآخر ، لا في عناصر تكوينه ولا في أهدافه ، برغم ذلك أراد عبد الناصر تنظيمه الرابع «طليعة الاشتراكيين » أن يكون تنظيما مختلفا عن التنظيمات السابقة جميعًا . إذا كان قد وعي الدرس .(أو هو ظن ذلك) في صعوبة بل استحالة تكوين تنظيم ثوري من موقع السلطة.

قرر جمال عبد الناصر أن يقيم تنظيمه الرابع بشكل سري ، أي أن يكون تنظيمه الطليعي سريًا، وكان لتلك السرية غرض - خفي أو مخفي - في نفس جمال عبد الناصر.

في الاجتماع التمهيدي الأول[1] الذي عقده جمال عبد الناصر ، لإنشاء تنظيمه . وحضره السادة على صبري ، محمد حسنين هيكل ، أحمد فؤاد ، عباس رضوان ، وسامي شرف . قال جمال عبد الناصر إنه يجب أن يضع أمام المجتمعين عدة نقاط . أولها : تقديره الكامل لصعوبة تكوين حزب من قمة السلطة أو بواسطتها (كان

(١) أعتمد في معظم ما جاء في هذه الجزئية « تنظيم عبد الناصر الطليعي » علي حوار في كتاب ، أجراه عبد الله إمام مع سامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات والرجل الثاني في التنظيم الطليعي ، سماه (عبد الناصر وكيف حكم مصر؟) مدبولي الصغير . القاهرة. الطبعة الأولي عام ١٩٦٩.

عبد الناصر يظن أنه وعي الدرس ولم يكن الدرس شيئًا سوي) لما يترتب علي ذلك من مصاعب ، ومشاكل من بينها ، محاولات تسلل العناصر الانتهازية إلى تنظيمات السلطة.

ثانية النقاط : الإصرار على السرية ، سواء في الاتصال بالكوادر، أو في الاجتماعات (التنظيمية) ، أو في تداول المناقشات (بين الأفراد في غير الاجتماعات التنظيمية)والتي تتم بين الأعضاء.

ثالثة النقاط : العمل بقدر الإمكان (خل بالك من قدر الإمكان هذه) علي مراعاة الطبيعة البشرية ، ونوعية العناصر التي تساهم في هذا العمل (هؤلاء الذين سوف يتم اختيارهم وتجنيدهم سرًا للعمل التنظيمي ، فطبيعي أن لا يتقدم الأعضاء بطلب التحاق أو ضم لحزب سري) ، علي أن تنطبق علي الشخص المرشح الشروط والمواصفات ، وألا تتم مفاتحة العضو في أمر اختياره وتجنيده إلا بعد أن يوضع فترة كافية تحت الاختبار تكفي لأن تدرس القيادة السياسية موقفه بالدقة اللازمة.

رابعة النقاط : كانت الشروط الواجب توافرها في العضو ، مع الوضع في الاعتبار العوامل الإنسانية والعوامل البشرية (محيرة تلك العوامل البشرية والإنسانية التي يرد ذكرها كثيرًا في الاختيار ، ألم أقل لك من قبل خل بالك !) ومنها أن المرشح لابد أن يكون مؤمنا بثورة ٢٣ يوليو وقوانينها (مع أن القوانين قابلة للتغير !!) عن قناعه ، مؤمنا بالنظام الاشتراكي وقادرًا علي الالتزام بالسرية ، أن يكون عنصرًا حركيًا يستطيع أن يناقش وأن يقنع الجماهير (خل بالك بقوة من يقنع الجماهير هذه يقنعهم، لا يسمع منهم، لا يتعلم منهم ، لا ينقل آراءهم لا .. من الأول كده .. يقنعهم) ، يقبل النقد ، ويمارس النقد الذاتي. (هل هذه عوامل إنسانية وبشرية ؟)

خامسة النقاط : أن تتوفر فيه الطهارة الثورية (ألم يكن من الواجب ضم تلك

النقطة على ما قبلها ، أليس هذه وما سيتلوها شروطًا من الواجب توافرها في العضو المختار؟) مع الوضع فى الاعتبار العنصر البشري (مرة ثالثة !!!) ، كما أن يكون المرشح عنصرًا مفيدًا في حركة التنظيم ، بمعني أن يكون جماهيريا خاصة في المرحلة الأولى (!!!) فتُرشح العناصر التي لها القدرة علي التحرك ، وسط الجماهير بشكل مقبول ومقنع (..) القادرين الذين يعتمد عليهم في الدعوة والفكر وفي كل المهام السياسية (خل بالك أيضا وبقوة من الدعوة والفكر تلك الدعوة والفكر لما سيأتي العضو من فوق بالطبع).

هذا ما قاله جمال عبد الناصر في الاجتماع التمهيدي الأول لإنشاء حزبه الرابع ، حزب طليعة الاشتراكيين ولعل القارئ قد لا حظ أنني - مؤخرًا - قد استبدلت صفة حزب بصفة تنظيم . فالحقيقة . التي سنوردها بعد قليل . أن عبد الناصر أراد تنظيمه الطليعي هذا حزبًا ، أيضا لغرض في نفس جمال عبد الناصر . لكن ما يعنينا أن نركز علي :

- إصرار عبد الناصر على سرية تنظيمه الذي سيتحول إلى حزب.

- ورود لفظ «بقدر الإمكان » بعد أي جملة تتضمن العوامل البشرية.

وفي الاجتماع التمهيدي الثاني لإنشاء التنظيم الطليعي. قال جمال عبد الناصر « لابد من التعرف على الوسائل الإيجابية التي تمكن من التوصل إلى العمل السياسي بحيث يكون التنظيم موصلًا جيدًا بين القيادة والقاعدة (بعد ثلاث محاولات لإقامة تنظيمات للثورة . يري جمال عبد الناصر ضرورة التعرف علي الوسائل الإيجابية التي تمكن من التوصل للعمل السياسي !!، أيضا خل بالك من الترتيب في جملة »موصلًا جيدًا بين القيادة والقاعدة يعني لا توصيل في الاتحاد الآخر من القاعدة إلى القيادة !!) وأن يكون مستعدًا للكفاح والنضال من أجل تحقيق الأهداف التي أعلنتها ثورة يوليو ١٩٥٢ .

وقال أيضا :

« نريد أن نغير الوضع ، ونبتعد عن العمل بالكلام فقط (يقصد أن القول كان بديلًا للفعل) الناس شبعوا «كلام » ، ونريد مزيدًا من العمل ، الناس يريدون معرفة (خل بالك من معرفة هذه) ماذا تم بالنسبة لأهدافنا بتحقيق المجتمع الاشتراكي (عبد الناصر في كل عيد ثورة كان يكلمنا عن إنجازات الثورة منذ قامت عام ١٩٥٢ إلى تاريخ العيد الذي يتكلم فيه . ومازال وهو ينشئ تنظيمه الطليعي حزب جمال عبد الناصر المستقبلي متصورًا أن الناس تحتاج إلى أن تعرف ما تم !!) وهي أهداف واسعة ، والعملية ليست مرسومة في تقارير ، فليس هناك رسم معين للعملية[1] (هو هنا يقصد الخطة العملية لتنظيمه) (..) أتصور أن أمامنا عمليتين أساسيتين هما :

عملية التفسير (خل بالك !!) وتنشيط العمل السياسي القائم .

عملية التنظيم السياسي الداخلي

ولكي نفهم جيدًا ما قاله جمال عبد الناصر في الاجتماعين التمهيديين – الأول والثاني – دعونا نفهم فكرة التنظيم أولًا .

اصطياد عصفورين .. بتنظيم واحد

لقد استفاد جمال عبد الناصر من أن فكرة وجود تنظيم داخل الاتحاد الاشتراكي كانت قد وردت في الميثاق الوطني ، إذ ذكر الميثاق أنه «لابد أن يكون في الاتحاد الاشتراكي ، جهاز يكون بمثابة القلب من الجسم أي أنه هو الذي يحرك الاتحاد الاشتراكي، التنظيم الكبير الواسع ، استفاد عبد الناصر مما جاء في الميثاق ليضرب عصفورين بتنظيم واحد !.

(١) الاضطراب الحادث في بعض الجمل ، الذي يؤدي إلى صعوبة في الهضم ، ليس من عندي فأنا أنقل عن الكتاب مباشرة . وأحاول التفسير قدر الإمكان وخل بالك من «قدر الإمكان» هذه أيضًا.

الأول : أن يحرك الاتحاد الاشتراكي (وخل بالك من تحريك هذه) بجهازه الذي أسماه « طليعة الاشتراكيين » ، مخططا لأن يعمل تنظيمه الجديد السري في كل مستويات الاتحاد الاشتراكي من القمة إلى القاعدة ، لينشط العمل بأساليب جديدة ويعطى دفعة قوية لعملية التفسير (!!) وفي ذلك قال «أنت تعمل خلال جماهير الاتحاد الاشتراكي والقاعدة قاعدة الاتحاد الاشتراكي ، ومن خلالها تحدث مناقشات ولقاءات ، والتعرف علي مشاكل الجماهير والعمل على حلها (دون أخذ رأي الجماهير في حل مشاكلهم)» ذلك لأن «التنظيم هو الذي يجعل القيادة متصلة بمشاكل الناس ، ويعمل علي حل مشاكل الناس ، والمشاكل لن تنتهي ، وهي ليست موجودة في مجتمعنا فقط ، فهي موجودة في كل المجتمعات ، ولا شك أن التنظيم (الطليعي) هو الذي يجعلنا قادرين علي التحرك نحو حلها ، وأن نرد بصراحة ووضوح وإقناع ، حتى تتم التوعية السليمة في المشاكل التي لا يمكن حلها » (خل بالك من كلمتي «يرد »و«التوعية»)[1].

الثاني : (ثاني العصفورين اللذين أراد عبد الناصر ضربهما بتنظيم واحد) أن يجعل من هذا الجهاز (التنظيم) حزبه (حزب جمال عبد الناصر) عندما يعلن تعدد الأحزاب ، في قول بعد تحرير الأرض العربية (عبد الناصر لم يكن يعني أبدًا بتحرير الأرض الأرض المصرية ، كان يعني دومًا – وهذه حقيقة نذكرها للرجل – بتحرير الأرض ، تحرير الأرض العربية كلها التي أغتصبها العدوان الصهيوني عام ١٩٦٧) وفي

(١) أخبرني المهندس أحمد الحمدي وكان من قيادات الطلبة البارزين في جامعة عين شمس ، ومن قيادات التنظيم الطليعي البارزين أيضا ، والذين كان اتصالهم مباشرًا بسامي شرف أن التنظيم كان له فرع داخل القوات المسلحة وكان يشرف علية سامي شرف شخصيًا ، ذلك أن عبد الناصر كان قد لسع من «شوربة» عبد الحكيم عامر فكان لابد وأن ينفخ في «زبادي»محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة بعد النكسة.

قول ثان ، بعد إزالة آثار العدوان (أي بعد أن يحرر الأرض العربية ويزيل آثار العدوان !) وفى قول ثالث ، أنه كان سيعلن تعدد الأحزاب بدلًا من حزبه الأوحد الحاكم ، بعد إعادة البناء . (أي بعد أن يحرر الأرض ، وبعد أن يزيل من الأرض المحررة آثار العدوان ، وبعد أن يعيد البناء الذي دمرته الحرب والذي توقف أيضا بسببها !).

يقول سامي شرف « في أيامه الأخيرة - علي نحو ما تثبت المحاضر - قرر عبد الناصر أن يكون هناك أكثر من حزب سياسي بعد تحرير الأرض (هذا هو القول الأول) ومن المفارقات أن الذي أعترض على ذلك ، هو أنور السادات ، الذي لم يكن عضوًا في تنظيم طليعة الاشتراكيين» ص ١٨٣ .

ويقول أيضا « لم يكن غائبًا عن فكر جمال عبد الناصر تعميق الديمقراطية بشكل عام ، وقد تطور في تفكيره عام ١٩٧٠ في أيامه الأخيرة بالفعل ، فقد توفي في نفس العام إلى تقرير أنه لابد من وجود أكثر من حزب (..) وكان قد استقر منذ فترة علي أن يكون تنظيم طليعة الاشتراكيين حزبًا ص ١٩٢ .

ويقول سامي شرف أيضا : « عبد الناصر كان قد قرر أن تأخذ مصر بنظام التعدد الحزبي بدءًا من عام ١٩٧٥ ، حيث نكون قد أزلنا العدوان من الأرض العربية تماما و أزلنا آثار العدوان ص ٢٠٥ » (القول الثاني) وبعد «إعادة البناء ص٢٢٧ (القول الثالث).

هذان إذن العصفوران اللذان أراد عبد الناصر ضربهما بتنظيمه . وإن كان من الواضح إذا ما دققنا في جملة سامي شرف » وكان قد استقر - جمال عبد الناصر - منذ فترة علي أن يكون تنظيم طليعة الاشتراكيين حزبًا «أن العصفور الأول (تفعيل الاتحاد الاشتراكي وتنشيط عملية التفسير ، أو شرح ما هو كائن للجماهير) كان هو العصفور الأهم لدى جمال عبد الناصر .. من الواضح أن عبد الناصر أراد العصفور

الأول ، ثم بعد ذلك استقر علي أن يضرب العصفور الثاني بتنظيه الطليعي ..علي أن يضرب العصفور الثاني بعد تحرير الأرض العربية ، وإزالة آثار العدوان عن الأرض المحررة ، إعادة البناء (يعني حِلَني!!).

المهم الآن – بعد كل ما ذكرنا – أن نستطيع رسم صورة للديمقراطية كما كان يفهم جمال عبد الناصر معناها ، وليس كما يجب أن تكون ، والتي في سياقها عمد جمال عبد الناصر – بعد النكسة – إلي إقامة الطليعي الطبيعي (وهي صورة نستكمل بها الصورة التي استخرجناها عن بيان ٣٠ مارس).

صورة .. والفرشاة كلمات جمال عبد الناصر.

إن الملامح التي تستطيع أن ترسم لنا الصورة فيما سبق من كلمات – لابد وأن تكون :

أ- إصرار عبد الناصر علي سرية تنظيمه.

ب- كلمات وجمل مثل «الدعوة والفكر » ، « يناقش – التنظيم – ويقنع الجماهير » ، أن يكون التنظيم « موصلًا جيدًا بين القيادة والجماهير » ، الناس يريدون معرفة ما تم .« ترشيح العناصر التي لها قدرة علي التحرك ، وسط الجماهير » ، «عملية التفسير» ، تحريك الاتحاد الاشتراكي » ، « من القمة إلى القاعدة »،« حتى تتم التوعية السليمة ».

ج- جملة «قدر الإمكان » التي ترد بعد كل ما ذكر للعوامل البشرية والطبائع البشرية (بشكل محير!!).

هذه هي الملامح .. ولعل القارئ قد لا حظ أن كلها ملامح قديمة قدمت الثورة كلها ، لم يضف عبد الناصر جديدًا إليها – في نهاية حياته « وقد تطور في تفكيره !» – غير « السرية » (إذا كانت تنظيمات الثورة – بعد قيامها – تنظيمات علنية ، تسعي إلى

حشد الجماهير – الشعب – المواطنين ، حول مبادئ الثورة.

ولكن فلننته من السرية أولًا (تلك الجديد المضاف) حتى نخلص إلي رسم ملامح الديمقراطية (الناصرية) (بعد أن تطور فكر جمال عبد الناصر في أيامه الأخيرة).

لماذا « السرية » .. ولماذا توقيتاتها الدقيقة !!

لقد أصبحت السرية مطلبًا أساسيًا مُلحًا لعبد الناصر في آخر تنظيمات الثورة ، خصوصًا بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ [1]. بل وبالتأكيد بعد مظاهرات الطلبة في فبراير ١٩٦٨ ، ولا أظن – كما يشاع – أن عبد الناصر قد قصد بالسرية تأمين النقاء الثوري لعناصر تنظيمه ، حقيقة أن السرية كانت ستمنع أعضاء التنظيم من إعلان أنهم «واصلون »، بما يعوق محاولاتهم للانتفاع بـ « وصولهم » هذا ، فلا يبقى لهم إلا الجدية الثورية والنقاء الثوري ، لكن التوقيت الذي ألح علي عبد الناصر باحتياجه المُلَّح إلي السرية هذه – بعد النكسة – يظهر أن جمال عبد الناصر – فى المقام الأول – كان يشعر خوفًا من الثورة المضادة [2] ، من الثورة عليه (عبد الناصر كان يسمي الثورة علية في أي اتجاه تقدمي أو رجعي ثورة مضادة !) ، لقد أحس جمال عبد الناصر بعد النكسة بأن شرعيته قد اهتزت [قلنا من قبل أن عبد الناصر فهم وقفة ٩ ،١٠ يونيو علي حقيقتها ، فهمها وقفة ضد أن يفرض أعداء الشعوب « الإمبرياليون » – بقيادة ورعاية الولايات المتحدة الأمريكية – ما يريدون علي هذا

---

(١) التنظيم الطليعي بدأ قبل نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وكان سريًا ، لقد بدأ منذ ١٩٦٥ ، منذ الفترة التي أظهرت المؤسسة العسكرية بقيادة عبد الحكيم عامر فيها أنيابها لجمال عبد الناصر ، وقد أراد جمال عبد الناصر أن يكون تنظيمه السري قوة له في مواجهتها ، مثلما كان الأمر مع الاتحاد الاشتراكي . ومنظمة الشباب الاشتراكي ، لكن التنظيم الطليعي توسع للغاية بعد النكسة مباشرة وضم أعدادًا كبيرة من الطلاب بعد مظاهرات فبراير ١٩٦٨ ، وهذا هو ما نقصده عندما نقول » خصوصا.

(٢) منذ ١٩٦٥ وقبل للنكسة كان يستشعر خوفًا من النمو الأسطورة لسلطة القوات المسلحة.

الشعب ، لقد كانت دعوة للاستمرار ، وللحفاظ علي المكتسبات ، ولم تكن تأييدًا شخصيًا له ، فقد كان عبد الناصر أكثر ذكاء من أن يتصورها تأييدًا شخصيًا ، في الوقت الذي يصل إليه فيه أنكاسات النكسة علي مؤيديه أنفسهم ، ومطالبة الجميع بالتغيير في نفس الوقت الذي يعلنون فيه تمسكهم به كرمز في مواجهة أعداء الشعب – أعدائه – ، لقد فهم جمال عبد الناصر أن الناس الذين كانوا يفوضونه – قبلا – أصبحوا الآن يتمسكون به ولكن « بشروطهم » أيضا فإن عبد الناصر كان يعلم أن وقفة ٩، ١٠ يونيو ، تمت والجماهير لم تكن قد استوعبت بعد حجم النكسة ، ولم تكن تدري شيئا من أسبابها ، أو لم تكن تدري أسبابها الحقيقية على وجه اليقين .. ، ولقد رأى عبد الناصر بأذنيه كيف كان انعكاس محاكمات عبد الحكيم عامر ومجموعته (حوكم المشير بعد وفاته علنا) ومحاكمات صلاح نصر وإدارته ، ومحاكمات الطيران علي الجماهير ، التي بدأت تستوعب فساد النظام الذي أدى إلى النكسة ، وتفشي الجهل الذي تفاقم بحجمها. وكان عبد الناصر يدري أن المسألة مسألة وقت ، وقد صرح هو نفسه في مجلس الوزراء أن الناس لن تحتمل أكثر من ثمانية شهور ، وكأنه كان يقرأ في الغيب ميعاد مظاهرات الطلبة في فبراير ١٩٦٨ .

تأكد عبد الناصر بعد النكسة مباشرة ، شرعيته و شرعية نظامه قد اهتزت ، وقد أوضح هذا الأمر الأستاذ محمد حسنين هيكل أحسن إيضاح ، عندما أورد علي لسان « ديجول» تلك المقولة العظيمة «إن النظام الذي لا يستطيع أن يحافظ علي الأرض، يفقد شرعيته»[1] ، كان عبد انناصر وهيكل يعيان الأمر بكل أبعاده ، ويعرفان أن المسألة مسألة وقت وأظن أن هذا – وليس كل الظن إثم – مبعث إلحاح السرية علي جمال عبد الناصر في شأن توسيع تنظيمه الجديد – أراد عبد الناصر أن

(١) راجع الطريق إلى ١٠ رمضان للأستاذ هيكل.

يتواجد في كل مستويات الاتحاد الاشتراكي وبين الجماهير بمن لا تعرف الجماهير انتماءهم المباشر له ، وبهذا يستطيع أن يتابع أعداء ثورته – أعداءه- وأعداء نظامه في كل الاتجاهات الفكرية عن كثب دون أن يعرفوا هم أنه أقرب إليهم بأنه مما يتصورون (راجع فيما قاله جمال عبد الناصر رغبته فيمن يؤمنون بالثورة وقوانينها ، المستعدين للدفاع عنها ، وإقناع الجماهير ، وتعريفهم بها تم ..و..و..و..).

أراد عبد الناصر تنظيما يدافع عن نظامه ، ضد أعداء نظامه (لا أقول ثورته ، فالرجعية والإخوان المسلمون ، الذين طالما استعملهم عبد الناصر بعد النكسة ، كخيال مآته وفزاعة ، تهش العصافير الثورية عن قمحة السلطوي.. لم تكن لهم تلك القوة .. إذ كان عبد الناصر ومنظروه يعلمون جيدًا أن الشعب الذي خرج ٩ ،١٠ يونيو ، خرج ضد الرجعية وضد أنصار الخضوع للغرب أيا كانت مواقعهم الطبقية أو الفكرية).

لم يكن الأمر إذن أمرًا للديمقراطية .

كان الأمر أمر حماية النظام ، وتسكين ثورة الناس ، حتى يستطيع النظام – في رأي عبد الناصر – إصلاح الأخطاء. (التجنيد للتنظيم الطليعي ، كان يتم علي أساس رغبة العضو المرتقب في الدفاع عن ثورة ٢٣ يوليو ونظام جمال عبد الناصر) .

لم يكن الأمر أمر ديمقراطية ، ولو كان عبد الناصر – كما يدعي أنصاره ممن لا يرون أخطاءه ، أو ممن لا يرون أخطاءه بحجمها الحقيقي ، وانعكاساتها المدمرة علي حركة الجماهير الثورية ، لو كان عبد الناصر يريد ديمقراطية حقيقية وثوريين شرفاء أنقياء ، لما لجأ إلى السرية وكان قد لجأ للديمقراطية التي يكرهها ، فليس أكثر مدعاة لفرح الجماهير – أنصار – الثورة – من أن يروا ويعرفوا – علنا – رجالًا جددًا لجمال عبد الناصر يتسمون بالديمقراطية الحقيقية وبالنقاء الثوري ، والطهارة. ودليلي الواضح علي هذا الأمور ، أن بعض الديمقراطيين فى تنظيم عبد الناصر الطليعي ،

الشرفاء عن حق ، عندما أخذوا الأمور جدًا ، دفع بعضهم الثمن غاليا ، بل ودخل بعضهم السجون والمعتقلات كأعداء للثورة (لم يكونوا أعداء للثورة بالطبع ، لكن جمال عبد الناصر كان يري منتقدي نظامه أعداء للثورة).

كان الأمر أمر حماية النظام . وليس سرًا أن التجنيد للتنظيم الطليعي كان يري تصاعدًا جديدًا ومكثفًا ، بعد أي مظاهرات تنتقد النظام (حتى وإن كان بعضها لم ينتقد جمال عبد الناصر شخصيًا ، ودليلي الآخر استخدام جمال عبد الناصر ، أعضاء التنظيم الطليعي لتهدئة مظاهرات المنصورة والإسكندرية في نوفمبر ، أو هكذا أراد منهم ، وإن كان - كعادته - في عدم الثقة حتى في رجاله ، أرسل معهم إلى المنصورة نائبه أنور السادات الذي لم يكن عضوًا بالتنظيم الطليعي (كما يؤكد سامي شرف) ، لإحداث التوازن بمجموعتين متنافرتين تكون الواحدة - دون قصد - فيهما عين علي الأخرى.

الأمر أكثر سهولة .. فلماذا كل هذا التعب ؟

ولكن لماذا نجهد أنفسنا إلى هذا الحد لنثبت أن التنظيم الطليعي لم يكن بغرض الانتقال إلى ديمقراطية حقيقية أو إصلاح عيوب النظام . لماذا نجهد أنفسنا ، برغم أننا مقتنعون أن الديمقراطية كما كان يفهمها جمال عبد الناصر ، لا تشبه الديمقراطية إلا في خياله هو .. لقد جاء الوقت لنري في الملمحين الآخرين من دقائق الصورة .. [وأقصد بهما (أرجع قليلا) الكلمات والجمل المعبرة عن فكر جمال عبد الناصر ، الخاصة بالشروط الواجب توافرها في أعضاء التنظيم وإضافة جملة « قدر الإمكان » إلى كلام عن الطبائع البشرية] فكرته عن الديمقراطية.

إن الكلمات والجمل التي أوردناها من قبل تظهر بجلاء بقاء عبد الناصر (بعد تطوره) علي مفهومه القديم للأمر .. هذا المفهوم الذي يؤكد أن جمال عبد الناصر هو الإداري بمصلحة الجماهير وأن ما هو مطلوب من رجاله إقناع الناس بذلك .

وأن عبد الناصر سيفعل كل شيء بالنيابة عن الجماهير ، وليس علي أعضاء تنظيمه الرابع إلا أن يكونوا موصلين جيدين بين القيادة والجماهير (لاحظ خط التوصيل المطلوب .. من فوق إلى تحت .. لكن من تحت إلى فوق يقابله دومًا الإقناع والدعوة والفكر)، وأن ليس في الإمكان أفضل مما كان وأن «نرد بصراحة ووضوح وإقناع حتى تتم التوعية السليمة في المشاكل التي لا يمكن حلها » ، هذه كانت – حتى وفاة جمال عبد الناصر - رؤيته للديمقراطية. وهي تعني التفويض بنسبة ١٠٠٪ ، والثقة المطلقة .. بينما الديمقراطية الحقيقية تعني أن الشعوب أدري بمصالح أفرادها (المصالح تختلف بين الطبقات ، وبين فئات وشرائح الطبقة الواحدة أيضا) وأنها قادرة بمبادراتها علي حل مشاكلها .. (عبد الناصر اعتبر مبادرة الطلاب لرسم صورة التغيير الذي يريده الشعب ، والوسائل الموصلة له ، شغب وأن الرجعية وأعداء الثورة قد تلاعبوا بهم ، وفي أحسن الأحوال نفاد صبر غير مطلوب والعدو يقف وقفته الشرسة علي أبوابنا ، وقد سيطر علي بعض أراضينا بالفعل).

وتعالوا نر بعض مقولات الرجل الثاني في تنظيم جمال عبد الناصر الطليعي المستمدة مباشرة من الزعيم ..

يقول سامي شرف :

أي تقييم لتجربة الديمقراطية ، يجب أن ينطلق من نوعية النظام ، وهي ربط الديمقراطية السياسية بالديمقراطية الاجتماعية ، منذ ٥٦ تستطيع أن تقول إنه كانت هناك خطوات لمشاركة الجماهير بتطبيق الأبعاد الاجتماعية لحرية المواطن (شفت الأبعاد) ، بمعني توسيع التعليم ثم مجانيته الكاملة ، ومجانية العلاج ، وحق الانتخاب للمرأة ، وتخفيض سن الإدلاء بالصوت (الانتخابي) إلى ١٨ سنة ، سنة ١٩٦١ (..) انتقل – جمال عبد الناصر – إلى خطوة متقدمة أكثر وهي العمل علي

منع الاستغلال.

* بالنسبة للديمقراطية« كلمة مطاطة جدًا » ، بالنسبة للديمقراطية المفروض أن تطبق في مصر ذات المضمون الاجتماعي وفقا لرؤية جمال عبد الناصر.

* وبالنسبة لمشاركة الجماهير في صنع القرار يري « سامي شرف » أن الجماهير قد شاركت في أزمة مارس ١٩٥٤ وفى « ٩و١٠ يونيو» « وفي ٢٨ سبتمبر ، عندما مات الرجل خرج مليون يبكونه بالدم ، بعد أن مات ماذا يخيفهم ؟، لقد كانت هذه مشاركة (!!!).

- ولا الذي يعارض هو الذي يعطيني مؤشرًا ..(!!!) .

* وعن المشاركة أيضا يقول (معبرًا عن سلبياتها في نظره) في نهاية ٦٧ ، بداية سنة ٦٨ ، بدأنا نقوم بعمليات عسكرية وفدائية داخل الأرض المحتلة ، نعبر قناة السويس بفصيلة عسكرية، ثم سرية وبعد ذلك كتيبة ، في صمت (صمت علي مَن؟!!) ، لو كانت لديك أحزاب في تلك الفترة ، فإنها (كانت) سوف تزايد وتكشف الأمر . (تكشفه لمن ؟! لإسرائيل التي تقوم بالعمليات ضد جنودها!!، وهل يعني تعدد الأحزاب شيوع الأسرار العسكرية).

* وعندما يتساءل عبد الله إمام، يرد سامي شرف قائلا :

* لا نستطيع أن نعتبر خروج مظاهرات تؤيد أي رئيس أو زعيم هو رمز للديمقراطية (يقصد لا نستطيع اعتبار مظاهرات التأييد رمزًا للديمقراطية .

* نفاجأ برد سامي شرف :

* ولتبرير موقف الثورة من الديمقراطية ، ووعودها (الدائمة) بشأنها بدءًا من بيان الثورة الأول الذي أعلن ضمن أهدافها « إقامة مجتمع ديمقراطي سليم »، تلك

الوعود – لم تعرف إلا التأجيل (بنجاح منقطع النظير) يقول سامي شرف « قبل سنة ٦٧ كنا نمر بظروف كان التوازن فيها مختلا (..) بمعني أن المؤسسة العسكرية (يقصد القوات المسلحة بقيادة عبد الحكيم عامر) كان دورها في الداخل أكبر من حجمها الذي كان من المفروض أن تكون عليه ، وبذلت محاولات خلق هذا التوازن وحدث تفكير في الاتحاد الاشتراكي (ليعدل الميزان بين العسكريين والمجتمع المدني ، (لكن الاتحاد الاشتراكي كان يقوده العسكريون بطريقة غائرة في غياهب العسكر تارية هو الأخر.. لقد كانت القوات المسلحة والاتحاد الاشتراكي – جناحين للعسكرية يتصارعان علي السلطة أحدهما يستخدم القوات المسلحة والآخر يستخدم الجماهير التي فوضت جمال عبد الناصر ، والتي لم يكن يتقبل منها عبد الناصر شيئا أكثر من أو دون التفويض!)

- ويستطرد سامي شرف : إن الظروف التي مرت بها مصر من سنة ٦١ إلى ٦٧ غير طبيعية (بدءًا من إعلان القوانين الاشتراكية ، وحدوث الانفصال بين مصر وسوريا – الجمهورية العربية المتحدة – بدأ صراع السلطة بين مؤسسة القوات المسلحة وجمال عبد الناصر بشكل في غاية الشراسة ، (وإن كان الصراع ظل مخفيا عن الجماهير الحقيقية ، وخصوصًا عن الطبقات الدنيا التي استفادت دون شك من الثورة ، وقد كانت الجماهير قادرة علي حسم الأمر لصالح جمال عبد الناصر دون خسائر ، فقط لو أعلن لها الأمر ، لكن جمال عبد الناصر ، وهيكل اللذين روجا واقتنعا بأن الفئة الوحيدة القادرة علي إحداث تغيير في العالم الثالث هي القوات المسلحة ، لم يقتنعا يومًا بقوة المارد الذي يتجاهلانه ، حتي عندما رأي هيكل الثورة الإيرانية ،والتي كانت فيها السلطة والقوات المسلحة في جانب دون انقسام ، والجماهير الثائرة في الجانب الآخر ، ورأي الصراع يُحسم لصالح الجماهير العريضة .

لم يستطع هيكل أن يغير نظريته .. ولم يكن صعبًا عليه بالطبع أن يجد أسبابًا تبدو منطقية لعدم تغيير وجهة نظره !!!).

والغريب إن لم تكن هذه رؤية جمال عبد الناصر ومحمد حسنين هيكل للأمر وحدهما ، لقد بات الكثيرون مقتنعين أن القوات المسلحة هي القادرة وحدها – والفاعلة دون شريك – في تغيير أنظمة الحكم ، بل وإحداث التقدم ، لقدرتها على إحداث الضبط والربط المطلوبين لنجاح كل الأعمال ، أيضا لقدرة أفرادها على تشغيل من هم أكثر منهم علمًا ، والأخذ من كل حسب ما يستطيع ، (طبعا نحن نتكلم عن الناجحين منهم ، ولا نتكلم عن الكثيرين الذين فشلوا – أفشلونا – في إدارة القطاع العام ، بعد بدايات ناجحة ، لم يكتب لها قمعَها للآخرين – الاستمرار)، لقد بات هذا الأمر قناعة عند الكثيرين ، وكأن الضبط والربط خاصية لا تلتصق إلا بالقوات المسلحة وحدها ، حتي أن كاتبًا كبيرًا مثل الدكتور عبد الملك عودة (وهو ماركسي وطني كما يحب أن يسمي نفسه ، وكأن بقية الماركسيين ليسوا وطنيين !!) وضع سيطرة القوات المسلحة ، جزءًا من الموروث العام لمصر في إدارة الأمة ، تلك الأمة التي لم يكن لها في تاريخها الطويل ، أو في أكثر فتراته طولًا، قوات مسلحة علي الإطلاق إلا إذا اعتبر المرتزقة الذين أضاعوا فترات مزدهرة من العصر الفرعوني ، وجيوش الاحتلال التي اعتمدت علي المرتزقة في عهود كثيرة ، ولقد كان المماليك المثل الأكثر شهرة بينهم منذ الأيوبيين وإلى نهاية العصر العثماني ، إن هذا الشعب لم يعرف له قوات مسلحة إلا في فترات قليلة في عهد الأسرات ، إذ لم يكن في معظم الفترات مفهوم الجيش النظامي سائدًا ، ومنذ انتهاء عصر الأسرات الفعلي باحتلال قمبيز لمصر ، وحتى المجموعة العربية انتي حاولت أن تجد لها مكانا في جيش يعتمد علي سيادة العنصرين التركي والشركسي ، لم تعرف مصر لها قوات مسلحة ،

وسرعان ما خبا نجم القوات المسلحة المصرية بالاحتلال الإنجليزي ٧٢ سنة كاملة إلى أن خرج آخر جندي بريطاني في عام ١٩٥٦ (!!) .

• لكننا مازلنا مع سامي شرف وهو يقول « إن الظروف التي مرت بها مصر من سنة ٦١ إلى سنة٦٧ – غير طبيعية (الانفصال ، مساندة الثورة اليمنية ، القوانين الاشتراكية الثانية ، مشاكل التنمية ، الحصار الاقتصادي ، مؤامرة الإخوان الثانية سنة ٦٥ ، لجنة تصفية الإقطاع (بعد حادث كمشيش الشهير) حرب ١٩٦٧ (وقد كان دور المؤسسة العسكرية في الثلاثة الأخيرات واضحًا وجليا، وهادفًا إلى إظهار سطوتها ، وأنه لا يوجد مالا تستطيع أن تتدخل فيه من أمور الوطن) ، هناك معوقات ضخمة حالت دون أن نطبق ما نسعى إليه وما نتمناه (لا تنس أنه كان يتكلم عن التحول إلى الديمقراطية !!) (..) اللي إيده في النار غير اللي إيده في الميّة ، مثلا يمكن أن تضع توقيتات معينة ، إنه شهر كذا ، سنة كذا ، ستعلن كذا ، (لا تنس أنه يتكلم عن الديمقراطية ، وبصراحة لو نسيت فلك الحق كل الحق) وقبل الموعد بخمسة عشرة يوم مثلا تظهر مشكلة من تحت الأرض ، لم تكن في الحسبان ، تأخذ جهدك وتلغي البرنامج (الديمقراطي ؟!!) وتضطر إلى تأجيله (لعل القارئ لم ينس أن في بيان ٣٠ مارس كان جمال عبد الناصر – من تحت لتحت – يؤجل الخطوات الديمقراطية – كما أوضحنا من قبل – ويحيلها كلها إلي الدستور الدائم ، وقد توفي جمال عبد الناصر وليس لمصر دستور دائم ، لقد كان – دوما – يختار من الدساتير « المؤقت » ، ومن الديمقراطية « المؤجلة »!!).

• وبرغم إصرار سامي شرف علي أن يؤكد لنا أن فكر عبد الناصر قد تطور إلى الديمقراطية في أواخر أيامه ، إلا أنه أجاب بتلقائية عندما سأله عبد الله إمام :

- من الذي يقدر المصلحة العامة ؟!

- صاحب القرار (خل بالك)

- أنا كمواطن ، لماذا لا أقدر هذه المصلحة ؟

- هل لديك الصورة الكاملة ، كما هي عند رئيس الجمهورية ؟! (صاحب القرار .. وحده).

- لا بالتأكيد ، لكن من حقي أن أعرف.

- من حقك أن تعرف ما يخصك كمواطن(١)

هل رأينا تطور الفكر إلى الديمقراطية ، هذا التطور الذي يوافق علي أن من أمور الوطن مالا يخص المواطن !!.

* ومرة أخري عن إخفاء المعلومات (ديمقراطيًا) [ولابد أنها أيضا مما لا يخص المواطن !!] ،يقول سامي شرف : « لا تستطيع أن تقول إن المسؤول الفلاني منحرف أخلاقيا ، فتفضحه أمام الناس ، وأمام أسرته. (ما كل هذا الحنان مع المنحرفين ؟، لماذا لم نر حنانًا كهذا ؟ لا نقول مع أعداء الثورة ، بل نقول – مع أنصار الثورة الذين تخطوا الخط الأحمر ، ذلك الخط الذي يفصل بين التفويض الكامل والرغبة في المشاركة في صنع القرار ؟!).

(١) هذه فلسفة خطيرة حكمتنا ومازالت ، اعتبار أمور كثيرة – (غير الأسرار العسكرية، الخاصة بكيفية استخدام ، السلاح بطريقة خاصة بنا ، وهي الأسرار الوحيدة التي لا يمكن أن يعرفها موردو الأسلحة وغير التقنيات الخاصة بأجهزة تخابرنا والتي يجب ألا يعرفها العدو) ، أمورًا تتعلق بالأمن القومي ، لعل الباحثين في أي مجال يقرون إذا ما سئلوا بأي صعوبة تواجههم إذا ما أرادوا الحصول علي بيانات وأرقام موثقة عن أي شيء في هذا البلد ، والمثير للضحك الذي هو كالبكاء ، أن باحثينا ، كانوا ولا يزالون – يحصلون علي البيانات والأرقام من مصادر أجنبية ، أهمها التقرير السنوي للسفارة الأمريكية لمصر ، وتقارير البنك الدولي .. وقبلها الكتب التي كانت تكتب عن مصر بواسطة الخبراء الأجانب ، علي من تخفي؟! الأمور إذا وندعي أنها تمس الأمن القومي ، إن السلطات في العالم الثالث ، وإن ادعت الثورية أو أدعت العقلانية لا تمارس الإخفاء القسري إلا علي شعوبها .

* لكنه فيما يبدو لم يكن محرمًا علي المواطن العادي وحده المشاركة في صنع القرار ، لقد كانت محرمة أيضا علي رجال النظام (فيما عدا جمال عبد الناصر – بالطبع – والمؤسسة العسكرية من موضع القوة) إذ يقول سامي شرف ردًا علي سؤال من عبد الله إمام عن وجود سيد مرعي (الإقطاعي) علي رأس برنامج الإصلاح الزراعي (الثوري):

- لكنة نفذ أم لم ينفذ ؟ ، ولقد كان جمال عبد الناصر يقيده ، رجل فني ومن أهل الخبرة ، كما أنه لم يكن صاحب القرار .(الوزراء ليسوا أصحاب قرار من يومها).

* وعن أصحاب الرأي المخالف ، ولو كانوا يريدون تعميق مسار الثورة الاشتراكي ، يقول سامي شرف : « الاعتقال بالنسبة للعناصر الماركسية ،كان للحد من نشاطات تؤدي إلى إحداث بلبلة في أوساط عمالية أو طلابية ، أو تطغي عليها شكل المطالبات (تصوروا !!) لا يستحقها من يطالب بها (تصوروا !) في حين أن النظام يعطي من الحقوق ما هو أكثر من المطلوب (تصوروا !) في حدود الإمكانيات المتاحة .

* ويقول سامي شرف : موضوع التعذيب لابد من الكلام فيه بمنتهي الصراحة والأمانة ، وهو أن أي واقعة تعذيب وصلت إلى الرئيس ، اتخذت فيها أجزاءات عنيفة اتخذت ضد التعذيب الذي كان يتم من وراء ظهر جمال عبد الناصر !! فعبد الناصر لم يكن يقبل أن يهان أي إنسان (والاعتقال ألم يكن إهانة ،وتشريد الأسر بعد القبض علي عائلها ، وإرهاب كل من يمد لها يد المعاونة ، ومعاقبة الأقارب حتي الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة ، ألم تكن فيها مهانة ؟!! إن منتهي المهانة أن تقضي علي حرية إنسان وكبريائه فقط لأن مطالباته التي لا يستحقها !! - من وجهة نظرك - تحدث بلبلة)

* أما تزوير الانتخابات . فيقول عنه إذ سأله عبد الله إمام :

- « ثم ما يقال عن تزوير الانتخابات لأشخاص معينين ، ليكونوا أعضاء في مجلس الأمة ؟»

- لا يوجد تزوير من لديه تزوير يثبته، يقول في هذا المكان حدث تزوير وهذه هي العلامات (حد كان يقدر؟!) ، لم يحدث ، لا النائب العام قال أن هناك تزويرا ولا قاضي من رؤساء اللجان الانتخابية (قبل أم بعد مذبحة القضاة ؟) تحدث عن تزوير ، ولا تقرير من الأجهزة تحدث عن ذلك ، إنه كلام علي علاته أطلق في مرحلة حول الانتخابات وفي اعتقادي أن المفروض كان القصد منه تشويه الصورة ، ثم إذا افترضنا جدلًا أن هناك تزويرًا ، لمصلحة من يتم ؟، وقد كنا ومازلنا رجال عبد الناصر (أنت فاهم أيها القارئ ؟!!، علي كل ، فكل من كان يقطن في دائرة قصر النيل وفي جاردن سيتي منها بالذات ، كان يعرف أن مجدي حسنين – من الصف الثاني للضباط الأحرار ، وكان وقتها مسئولًا عن مديرية التحرير – كان قد جاء بكل أسماء العاملين في مديريته ، وسجلهم في دائرتنا ، وفي كل موعد للانتخاب كانوا يجيئون بالأتوبيسات يهتفون للمسئول ، وكان مجدي حسنين ينجح دائما في دائرتنا ، ولا أذكر أنني قابلت أبدًا من يؤيده ، بل إن الدائرة كلها كبارًا وصغارًا قادت حملة شرسة لإنجاح عبد العزيز الشوربجي – نقيب المحامين في فترة من الفترات. ولكن نجح رغم أنف الناخبين السيد مجدي حسنين ، وحينها غضب عليه جمال عبد الناصر ، أصبح ينجح عندنا عبد اللطيف بلطية الذي – وإن كان مشهورًا في نقابة العمال وفي حلوان – ولم يكن يعرف أحد في دائرتنا .. ولكن يبدو أن هذا ما يقصده سامي شرف عندما قال « إذا افترضنا جدلًا أن هنالك تزويرًا ، لمصلحة من يتم ؟، وقد كنا – ومازلنا – رجال عبد الناصر »، أي أن تزوير رجال عبد الناصر لإنجاح رجال عبد الناصر ، لا يستثير غرابة ، إذا ما افترضه هو جدلًا ،

وشاهدناه ونحن واقعًا !. وإذا ظللنا نعاني من محترفيه (أصدقاء النظام القديم والأحدث والأكثر حداثة ، هم ، حتى الآن)!.

الآن نقدم تعريفًا لديمقراطية جمال عبد الناصر :

والآن لنلخص الديمقراطية كما كان يعرفها جمال عبد الناصر (وضمنها المؤجلة بالقطع)كانت الديمقراطية تعني لديه :

١- النظام يقوم بكل ما هو ممكن لتحقيق مصالح الناس (الشعب ، الجماهير ، الأمة ، الوطن) ، وما لا يقوم به النظام غير ممكن ، وليس التقصير أمرًا واردًا فيه ، والذي يطالب بشيء - لم يحققه النظام بعد - يحدث بلبلة يستحق عليها الاعتقال .

٢- المشاركة في صنع القرار ، تعني التأييد [ديمقراطية الموافقة ، التعبير السياسي الذي نحته محمد حسنين هيكل] ولا تعني ما هو أكثر من هذا .

٣- المطلوب من أنصار النظام ، «التفسير» ، أي يفسرون للجماهير ما تقوم به الثورة من أعمال حسنة أو سيئة (من نوع لماذا قبض علي فلان لأنه يحدث بلبلة لا تحتملها المرحلة التاريخية الدقيقة ، والمنعطف الخطير للثورية في العالم الثالث ..و.. ولا يظنني القارئ أتفاكه) ، ومطلوب أيضا من أنصار النظام التوعية بأن الثورة لا تستطيع الآن أن تحقق كذا وسوف تحققه في الوقت المناسب ، أيضا المطلوب منهم ، حماية النظام برصد التحركات المريبة (أي تحرك كانت تراه الثورة مريبًا ، وكان يراه السلطويون موجها ضد جمال عبد الناصر شخصيًا ، حتي لو كان هذا التحرك ضد سرقاتهم هم وتجاوزاتهم هم ، فلوجه الحقيقة لم يكن جمال عبد الناصر بالشخصية التي تسرق ، إن كان يمكن أن يتجاوز عن بعض السارقين فيما يراه مصلحة نظامه، وللإمساك بعنق رجاله مهددًا بفضحهم وقت اللزوم) وللإبلاغ عنها ، وأن ينقلوا نبض الناس وطلباتهم المسالمة في تقارير رأي عام إلى السلطة ولا ينتظرون ردًا لأن لا

أحد يلوي ذراع السلطة العسكرية).

٤- عدو النظام : كل من ينتقد تصرفات السلطة علنًا (أما الذي ينتقدها سرًا مع آخرين فيستحق الاعتقال لأنه متآمر) . وكل من يتساءل عن أمر لا يعجبه وينتظر ردًا . (وبهذا توسع مفهوم العداء للنظام ليضم الأنصار الذين لا يجيدون بلع لسانهم) .

٥- التنظيم السياسي: موصل جيد بين القمة والقاعدة (عد إلى مواضيع التفسير والتوعية والدعوة التي لابد وأن تلازم 'لفكر .. والذي يدعو إلى تحقيق مصالح أصحاب المصلحة في ثورتهم ، بين أي موقع فكري ، آثم ويفضل (فليس ما يقوله فكرًا وإنما بلبة مالا يدعو للنظام ويحمل وجهة نظره) وليس موصلا جيدًا بين القاعدة والقمة (أرجع إلى موضوع أن انتظار الرد تآمر واضح) ولعله – أيضًا – من سخرية القدر أن عبد الله إمام يحاول بعد مرور ستة وعشرين عاما علي وفاة جمال عبد الناصر أن يتساءل عن مصير التقارير التي كان يقوم بكتابتها أعضاء التنظيم الطليعي وكان هو واحدًا منهم ، وهل كان يقرأها جمال عبد الناصر ، فتكون الإجابة « كانت المحاضر (محاضر اجتماعات التنظيم في مستوياته المختلفة) ، تجمع وتُصعَد حتي أمانة التنظيم ، التي تعد تقريرًا أسبوعيًا ، وتقريرًا شهريًا ، تشمل أهم النقاط الواردة في محضر اجتماعات لجان التنظيم .. مع هذا أو متوازيا معه ، كانت تقارير شفوية ، وبلاغات في مسائل ذات طبيعة هامة ، ومسائل حيوية تمس الجماهير ، أو أوضاعًا عامة بالنسبة للعمل ولا تنتظر محضر الاجتماع فتصعدها فورًا (..) ومع مرور الزمن كان يستطيع – جمال عبد الناصر – أن يميز هذه المحاضر من نظرة واحدة (!!!) ، هناك محاضر يهتم بها جدًا ، أن إجابة سامي شرف هذه تعني أن كان المطلوب ، كل المطلوب ، إعلام الرئيس بكل شيء بما فيه نبض الناس ولم يكن المطلوب – ويوحي بهذا السؤال المتأخر لعبد الله إمام.

- أن تتلقي ردًا.

هذه هي الديمقراطية التي كان يفهمها جمال عبد الناصر حتي آخر أيامه.

ولعل ما قاله سامي شرف عن المؤسسة العسكرية (بقيادة عبد الحكيم عامر) وتعويقها للديمقراطية ، ينطبق أيضا علي جمال عبد الناصر « العسكري جدًا» ، قال سامي شرف : « نعم كانت تقيد الحركة – المؤسسة العسكرية – لأنها لم تكن حسيَسة ، فمن الصعب أن تقبل الديمقراطية لأن العسكري بطبيعته يأمر فيطاع ».

والآن وقد كدنا أن ننتهي .. لابد وأن ننتهي بهذه الأسئلة لعبد الله إمام وإجاباتها لسامي شرف ، وتعقيب منا ..

- هل تعتقد أن أمراض الإتحاد الاشتراكي تسللت للتنظيم (الطليعي) ؟.

- نعم.

- ولماذا؟

- لا يرجع ذلك إلى عدم دقة الاختيار فقط (خل بالك من فقط هذه .. بعد هذا كله !!) ، وإنما ترجع أيضا إلى اختلاف أسلوب الثواب والعقاب (..) كان يتم التغاضي عن أخطاء تنظيمية على حساب العمل العلني ، في حين المستهدف كان أن تحافظ علي الانضباط والثواب والعقاب في العمل الحزبي بصورة أكثر ثقة وأكثر حزمًا (خل بالك أيضا).

- ما هي من وجهة نظرك أخطاء التنظيم الطليعي ؟

١ - لم يكن يضم أحيانا الاشتراكيين الحقيقيين (!)

٢- كانت بعض قياداته تمثل البيروقراطية من القيادات الإدارية والتنفيذية (هذا الأمر ليس مستغربًا في تنظيم يحاول أن يقبض علي الأمور من فوق) (..) في حين أن

القواعد ذات المصلحة الحقيقية كانوا محجوبين (خل بالك .. جدًا)

٣- كانت أمانة التنظيم في بعض المحافظات توكل إلى المحافظ (شخصية تنفيذية) الذي كان غريبا عن الإقليم ، ولا يعرف قياداته ، ويحيط نفسه بهاله من السكرتارية ورؤساء المدن والمصالح (تنظيم فوقي .. وفي التنظيمات الفوقية يعز أصحاب المصالح الحقيقية ، إذا كيف يجري الماء في العالي ؟!).

٤- البناء كان يتم من موقع السلطة ، ولم يتعرض لمواقف نضالية للفرد ، وكان الصوت العالي (المؤيد بالطبع ، ولا يخطرن ببالك غير هذا !) هو جواز المرور للعضوية في بعض القطاعات (وأنا أقول كلها).

٥- لم يراع الانتماء الطبقي (في تنظيم طليعة « الاشتراكيين »!!!!) بالدرجة الكافية للعضوية .

إن كل ما قاله سامي شرف ينطبق علي موضوع واحد ، أو يدور حول محور واحد هو « سوء اختيار الأعضاء» ، الذي أدي إلي تسلسل العناصر الانتهازية إلى التنظيم . بأمثلة مثل سابقيه جميعًا دون استثناء من تنظيمات الثورة .

ولكن كان الأمر مجرد سوء اختيار وقع فيه النظام – بحسن نية – في محاولته لإنشاء تنظيم سياسي شعبي (مثله مثل سابقيه جميعًا دون استثناء من تنظيمات الثورة) .

لا أظن ذلك .

لقد جاء الآن الوقت الذي يجب أن نتكلم فيه «قدر الإمكان » التي كانت تتلازم في مقولات جمال عبد الناصر ، مع «العوامل البشرية» . و« العوامل الإنسانية» (ولعل القارئ يذكر أننا وضعناها ملمحًا ثالثا يرسم صورة الديمقراطية كما كان

يفهمها ويريدها جمال عبد الناصر).

لقد كان سوء الاختيار – سواء بإرادة جمال عبد الناصر أو بدونها – متعمدًا في تنظيمات الثورة . فعندما كان يفاضل جمال عبد الناصر بين « من تشوبه شائبة ، وبين أحد الشرفاء الخالصين من الذين اعتادوا تجاوز الخط الأحمر الفاصل بين المشاركة بالتأييد ، والدفاع « عمال على بطال » عن السلطة ، وبين الرغبة في المشاركة الحقيقية التي تعني إصلاح أخطاء النظام بلا هوادة لتحقيق نقاءه وفعاليته الثورية ، كان جمال عبد الناصر قبل رجاله ، وكان رجاله الناصريين أكثر من جمال عبد الناصر !! يسارعون باختيار من «تشوبه شائبة » ذلك أن جمال عبد الناصر ومن هم ناصريون أكثر من رئيس الجمهورية ، لم يكونوا يحبون وجع الدماغ ، ولم يكن وجع الدماغ شيئًا آخر غير المشاركة الحقيقية الفعالة.

إن شواهد كثيرة في اختيارات جمال عبد الناصر ورجاله تؤكد أنهم كانوا يقربون الانتهازيين أصحاب الصوت العالي المؤيد للنظام.

ولقد كانت للانتهازيين ميزة أخري ، أو أكثر ، كان عبد الناصر ورجاله يقدرونها حق قدرها ، فالانتهازي – دوما – له يد توجعه والنظام يستطيع أن يضغط على هذه اليد التي « توجعه » عندما يحاول أن يتجاوز – انتهازيا أيضا- الخط الأحمر المذكور ، ثم أن الانتهازي منتفع انتفاعا عاجلًا ، وأصحاب الانتفاع العاجل يحمون النظام من باب الحفاظ على « لقمة العيش الطرية » وذلك عكس الشرفاء الذين يدافعون عن « لقمة العيش » الجماعية ، سواء قدمها النظام أو شاركوا في صنع نظام أفضل يستطيع أن يقدمها (على نفس مبادئ النظام الذي تهرأ ، ودقت فيه البيروقراطية ، والمباحثيه ، والفساد أوتادهم).

ولعلي أذكر هنا مثالًا شديد الوضوح على ما قلت ، حدث في الحياة الطلابية ،

فبعد مظاهرات الطلبة الأولي في فبراير ١٩٦٨ هرع التنظيم الطليعي في محاولة واسعة لتجنيد عدد من القيادات الطلابية البارزة في جامعتي القاهرة وعين شمس ، وبرغم أن أفراد التنظيم في عين شمس كانوا أكثر نجاحًا (وأستطيع أن أقول أشد أيمانا وصلابة واستمساكًا بمبادئ الثورة) من أمثال أحمد حمادة ،أحمد المحمدي ، طارق النبراوي ، أحمد الجمال ، بسام مخلوف ، ماهر مخلوف وغيرهم ، إلا أن « عبد الحميد حسن » هو الذي أخذ نجمة في الارتفاع (حتى صار إلي ما صار إليه بعد ذلك !!) [1] عن طريق سامي شرف (كان عبد الحميد حسن رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة ، وكان سامي شرف مسؤولا عن جامعة عين شمس ضمن دائرة « شرق القاهرة » برغم هذا صعده ، ولم يصعد الناجحين المخلصين ممن يشرف عليهم شخصيًا ، وليس إشرفًا خاصا بأوامر من عبد الناصر كما في حالة عبد الحميد حسن !!!) لا لشيء إلا لأن عبد الحميد حسن عادي طموحات الحركة التي أفرزته وقال مخفيًا مطالب الطلاب « لا خلاف بين الثورة وشبابها » ، وهيهات لأعداء الشعب » (!!) .

ولقد كان يجري أيضا – استبعاد بعض الشرفاء ، وتحجيم أدوار الكل ، بل ونال بعض الشرفاء (المستمسكون بطموحات الشباب في ثورتهم) عقوبة السجن (أحمد حمادة).

وحين رد الطلبة علي حركة الالتفاف الظاهرة التي قادتها السلطة علي اتحاد طلاب جامعة القاهرة ، وعزلوا عبد الحميد حسن (رجل سامي شرف ، الذي هو بدوره رجل جمال عبد الناصر) وولوا الطالب « حسن عيد » مكانه ، لم يتراجع

(١) لعل القارئ ليس في حاجه إلى أن أذكره ، برحلة صعود عبد الحميد حسن ابتداء من رئيس المجلس الأعلى للشباب ، ثم وزير للشباب بعد ضرب تنظيمه الطليعي (!!) إلى أن أنتهي محافظًا للجيزة وتم تقديمه للمدعي الاشتراكي في الثمانينيات.

النظام عن تقديم أجل الخدمات لمن والوه ولاءً أعمي (ثم والوا بعد ذلك نظامًا يمشي في عكس الاتجاه ولاء أعمي أيضًا) وأبقي علي تصعيد نجم عبد الحميد حسن (المعزول طلابيا !).

كان النظام يهتم ب « الطبيعة البشرية !!» ، « والعوامل الإنسانية !!، التي ينجح في السيطرة على أصحابها ، ولهذا كان جمال عبد الناصر كلما تكلم عن النقاءالثوري أردف وراءه جملة «قدر الإمكان » ، فبالطبع لم يكن يريد جمال عبد الناصر أو يقبل انتهازيين خلصاء ، إن كل ما كان يريده « مشرع انتهازي » ، يبقي تحت السيطرة بيد موجوعة (لم يتعلم جمال عبد الناصر أبدًا إن هؤلاء الذين يسيطر عليهم بالضغط علي أيديهم الموجوعة ، يستطيع أي آخر السيطرة عليهم بنفس الأسلوب ،وفي الاتجاه الآخر المعاكس أيضا).

لقد كان سوء الاختيار العمدي والتصعيد العمدي لأصحاب الصوت العالي المؤيد للنظام (أخطائه قبل حسناته) علي حساب المؤمنين الفعليين ، واحدًا من الأسباب الكبرى ، التي مكنت أنور السادات فيما بعد من أن ينفخ في تنظيم مكون من ١٥٠ ألف ، نفخة بسيطة في ١٥ مايو ١٩٧١ ، فيطير التنظيم (الضخم) في الهواء ، ويذريه ، ليكتشف الجميع كم كان التنظيم ضعيفا ، وقليل الحيلة رغم ضخامة جسده ، إن تنظيما يسيطر عليه أصحاب الأيدي الموجوعة ، تنظيم هش (يسهل السيطرة علي قياداته واستمالتهم وإرهابهم وتدجينهم).

أيضا فإن سوء الاختيار العمدي والتصعيد لأصحاب الصوت الجعجاع في تبرير أعمال السلطة إجادة الدفاع عن أخطائها ، وكان وراء الارتياح الجماهيري العميق غير المذكور لإزاحة تنظيم جمال عبد الناصر ورجاله في ١٥ مايو ١٩٧١ (لا يستطيع منصف أن يزعم أن المصريين لم يتنفسوا الصعداء عندما أزاح أنور السادات قيادات

هذا التنظيم في ١٥ مايو ١٩٧١ ذلك أن الجماهير كانت تراهم عليها لا معها !).

وعليها ، لامعها .. كانت ديمقراطية جمال عبد الناصر

وعليها ، لامعها .. كانت تنظيماته ..

كان عبد الناصر (الذي يعمل لصالح الجماهير الغفيرة حقا) يري أنه قادر علي إصلاح الأخطاء (دون تدخل الجماهير) لذلك عزل الناس عن مصالحهم الحقيقية فلما مات جمال عبد الناصر ، ترك جماهير لا تستطيع الدفاع عن مصالحها ، جماهير يمكن خداعها ، إذا ما ادعى أحد أنه يمشي علي طريق عبد الناصر (وانحني لتمثاله) ، وترك عبد الناصر – جوته – لنا أنور السادات (الذي يؤكد هيكل أن كان عبد الناصر يعرف أن له يدًا توجعه بل أياد) تركه لنا (وكان اختياره) ليمشي علي طريق عبد الناصر بالأستيكة (تعبير شعبي عبقري) دون أن يجد ممن يرفضون أن يتفرعن الفرعون – أحدًا (سليما، خاليا من الجراح) في مواجهته[1].

وهكذا لم يوفر لنا تنظيم جمال عبد الناصر - الرابع – قوة ترعي مصالح الجماهير ومكتسبات الفقراء أصحاب المصلحة في الثورة ، ترك لنا مجموعة من الشرفاء المحبطين الذين حاولوا فيما بعد أكثر الصمود والصعود بفكر عبد الناصر، من مرة ولم يستطيعوا) وترك لنا أصحاب « الصوت العالي » محترفي الدفاع عن أي سلطة ، وعن كل الأخطاء ، محترفي تزوير رأي الشعب ، وقمع المعارضة الشرعية (بممارسة الردح المتعقلين) وترزية القوانين المقيدة للحريات ، والمستفيدين من الاشتراكية

(١) هل يسمح القارئ ، أن أقول له نكته حدثت بالفعل ورواها لي محمد فريد حسنين العضو البارز في التنظيم الطليعي عن الطلاب ، قال محمد فريد حسنين ، عندما دخلنا السجن في حكاية (١٥ مايو) سألت قيادة التنظيم ، لماذا لم تخرج المظاهرات ضد السادات لتأييدنا ، فأجابه واحد منهم (ربنا أمر بالستر) قائلا : لأنهم قبضوا علينا يوم الخميس والجمعة أجازة.

(الذين بنوا قصورًا ، ويعيشون ملوكا ، ويتشدقون بالعدالة الاجتماعية) ، منظري « ليس في المكان أحسن مما كان » ، والتنفيذيون الذي لا يفعلون شيئًا إلا بـ« توجيهات سيادة الرئيس » (كأن الرئيس يستعين بهم لأنه يفهم أكثر منهم في تخصصاتهم) تركهم ليمتلئ بهم كل حزب للسلطة ، في كل وقت من الأوقات ، إلى يوم يبعثون يوم تقوم قيامة الشعب.

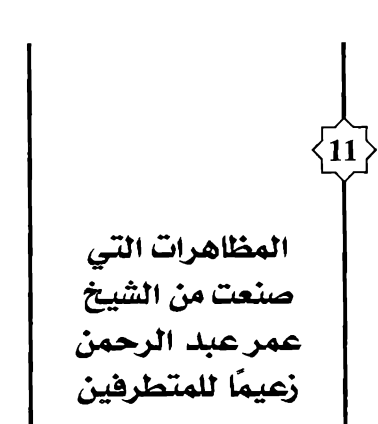
شيء يجب ألا يفوتنا :

لعل القارئ الكريم احتار أمام حرص عبد الناصر على أن ينقل لمن اختارهم كمسؤولين عن التنظيم آراء الجماهير ، ولابد أن البعض قد ظن أن نقل آراء الجماهير عملية عظيمة ، لكنني أقرر أن نقل أخبار الناس وآرائهم كانت عملية مباحثية ، آراءها من يمتلك عديدًا من الأجهزة المباحثية في رئاسة الجمهورية وحدها ، غير المباحث العامة ، والمخابرات الحربية التي لم تعرف مدى طائرات إسرائيل المعدلة في عام ٦٧ وعرفت عن الداخل أكثر من غيرها : وبالطبع فإن المستفيدين الأكبر من كتابة التقارير كانوا الانتهازيون ، أما الشرفاء فبعضهم كتب باقتناع يؤكد له أنه يدافع عن ثورته ، والأغلب كتب خوفًا من «عِلمَ ولم يُبْلغ» ، وهي تهمة لو تعلمون عظيمة ، ومريعة ، لقد كان كل واحد يعلم أنه إذا لم يبلغ سيبلغ غيره ويوقعه في موقف عصيب ، فكان يبلغ .

وفي رأيي أن هذا كان الهدف الرئيسي - في نفس جمال عبد الناصر وهو يعد تنظيمه الرابع ، ومن أجله جعل الانضمام له سريًا .

لقد أراد جمال عبد الناصر تنظيمًا يضاف إلى مباحثياته العديدة ، تنظيم مباحثي آخر من متطوعين ، امتلأ بالشرفاء ، ثم أحبط الشرفاء .

///



11

المظاهرات التي صنعت من الشيخ عمر عبد الرحمن زعيمًا للمتطرفين

بدأت حركة الطلبة في نوفمبر ١٩٦٨ في ١٨/ ١١/ ١٩٦٨ ، بصدور قانون جديد للتعليم العام (أصدره الدكتور محمد حلمي مراد وزير التعليم في ذلك الوقت تضمن وضع نظام للاختيارات الدورية للطلاب ، واضعًا شروطا أصعب لنجاحهم (في نهاية كل عام دراسي) محددًا سنوات رسوبهم بعدد معين من السنين بعدها يتم رفت الطالب من التعليم .

قال الأهرام وقتها في ٢٠/ ١١/ ١٩٦٨ إن طلبة مدرسة خاصة في المنصورة (في ذلك الزمان ، كانت المدارس الخاصة للفاشلين أو للمتعثرين في التعليم العام ، فلم يكن الانفتاح قد قلب الموازين بعد) هم من قاموا بالاضطراب والتظاهر ، لكن الثابت أن المعترضين لم يكونوا هم الفاشلون وحدهم ، يقول د. أحمد عبد الله في كتابة (الطلبة والسياسة في مصر ص ١٩٣):

سرعة انضمام طلاب المدارس الأخرى بالمدينة إليهم – إلى الفاشلين أو المتعثرين – تجعل من الصعب إرجاع تلك المظاهر إلى مدرسة واحدة فقط ».

وكان أن أنتهي أول أيام التظاهر – في المنصورة بتأكيد المحافظ لتجمع طلابي كبير ، في مدرسة حكومية (وليس المدرسة الخاصة إياها مما يؤكد صحة ما وصل إليه د. أحمد عبد الله بأن القانون لن يطبق بأثر رجعي ، وقال ناظر المدرسة الحكومية – ولم يكن قوله عاريًا من الصحة – إن د. حلمي مراد – شخصيًا – وعده في مكالمة تليفونية بأن تيسيرات ليست بالقليلة ستتم بالنسبة للطلاب الذين كانوا مقيدين بالمدارس وقت إعلان القانون ، انتهي الاجتماع بين المحافظ وطلبة الثانوية بصياح أحد الطلبة :

لا بد من الإضراب .. من يضمن لنا ما قاله المحافظ.

(ألا يعكس هذا صورة لانعدام الثقة في كلام السلطة بعد النكسة ، وبعد

ألاعيب المتسلطين التي تلت مظاهرات الطلبة في فبراير ، تلك الألاعيب ، التي استهدفت إخماد الحركة ، ونزع المبادرة من الجماهير بالقول المعسول ، بينما غابت الأفعال التي تجعل لذلك العسل في الأقوال حلاوة المصداقية) .

وفي اليوم التالي ٢١/ ١١/ ١٩٦٨ حدث شيء غريب للغاية .. أعلن طلاب المعهد الديني بمدينة المنصورة الإضراب عن الدراسة ، وسرعان ما تحول إضرابهم إلي مسيرة تطوف بشوارع المدينة ، وما أن اقتربت المسيرة من مديرية الأمن حتى تكررت مأساة حلوان التي راح ضحيتها عدد من العمال في فبراير ١٩٦٨م فقد فتح عليهم – طلاب المعهد الديني – البوليس – الرصاص ليسقط أربعة طلاب صرعى للغدر ، وتتفجر المدينة بأسرها مطالبة بالديمقراطية وسقوط وزير الداخلية (لا تنسى ..وزير الداخلية هو نفسه ويا للغرابة ح التي لم يندهش لها أحد – أمين التنظيم السياسي الشعبي !! وأمين التنظيم الطليعي السري الذي قيل إنه كان نواة لتغيير ديمقراطي مزمع !!) .

والشيء المثير للدهشة– وما هو أكثر أيضاً – أن الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه « خريف الغضب» (ص٢٢٢ من طبعته الأولى) عندما أراد أن يستكمل محاسبته الرئيس أنور السادات ، (تلك المحاسبة التي احتلت الكتاب كله ، بل ووصلت إلى حد « المحاكمة» ولا اعتراض لي على الأمر) قال : ولقد اختار (السادات) رئيس وزرائه– في ذلك الوقت – السيد ممدوح سالم – ليرأس هذا الحزب (يقصد حزب مصر) ولم يكن ذلك اختيارًا سعيداً، فقد كانت شهرة ممدوح سالم الأساسية ، أنه رجل أمن ، وبصرف النظر عن مزايا كثيرة للرجل فإن الأمر بقى مثيراً للجدل(!!!) ولقد كان يمكن فهم ضرورة تعيين رجل أمن في منصب رئيس الوزراء في حالة طوارئ ، ولكنه كان من الصعب رؤية رجل أمن يحاول لم

شتات حزب سياسي صدر له قرار بأن يصبح حزب الأغنية (وماذا عن حزب قالوا أنه سيقود التحول إلى الديمقراطية !!!!) وللإصناف فإن ممدوح سالم حاول أن يعطى نفسه هوية سياسية ، وفي بعض الأحيان فإنه كاد ينجح لكن الوضع كله كان ضد طبيعة الأشياء (!!!) ، انتهي كلام الأستاذ هيكل ، فهل أصابتكم الدهشة ـ وما هو أكثر من الدهشة ـ مثلما أصابتني ، أن هذا الوضع الذي ينتقده الأستاذ هيكل في حكم السادات كان هو الوضع عينه في أيام جمال عبد الناصر فيما تلا نكسة ١٩٦٧ ، فقد كان السيد شعراوي جمعة رجل الأمن ، بل وزير الداخلية ،أمين التنظيم السياسي .. الاتحاد الاشتراكي ، وحزبه الطليعي أيضًا .. فلماذا لم ينتقد الأستاذ هيكل ذلك الوضع في عهد عبد الناصر أو بعد عهده ؟، لماذا ترك الناس في مصر يتجهون إلي أمين الاتحاد الاشتراكي ليفاجؤوا بأنهم بين براثن وزير الداخلية ، رجل المعتقلات ..(لا أظن أن عذراً للأستاذ هيكل يلوح في هذا الأمر،حتى إذا ما فهمنا إشارته الخفية عن «حالات الطوارئ» ذلك أن الوقت بعد نكسة ٦٧ كان وقتًا تحاول البلاد فيه أن تلم شتات نفسها بالتغيير ، هل كان سيتم التغيير وأصحاب المصلحة مهددون ؟ ، لا عذر للأستاذ هيكل ، فهو نفسه الذي أشار إلي أن مزايا أي رجل لا تبرر الخطأ ..وأن هذا الخطأ «ضد طبيعة الأشياء !!] .

ولقد تصرف السيد شعراوي جمعة في مواجهة مظاهرات ١٩٦٨ في المنصورة والإسكندرية في (نوفمبر) كوزير داخلية ولم يتصرف كأمين الاتحاد الاشتراكي أو كأمين للتنظيم الطليعي أيضًا ! .. وأبقي لنا تصرفه .. أسئلة كثيرة محيرة ،تتعلق برفض الناس لحزب يدار بطريقة بوليسية ..ذلك أن أحدا لم يتجه إلي حزب الاتحاد الاشتراكي من القاعدة إلي اللجنة المركزية والتنفيذية العليا !! ، فالناس ، كل الناس ، كانوا يعلمون ويرددون وقتها أن الانتخابات مزورة ، وأن مراكز القوى لم تصفي ،

مثلما هلل بيان ٣٠ مارس] .

والغريب ، بل المذهل ، أن الطلاب كانوا قد طلبوا بذلك المطلب الأخير «قيام دولة المؤسسات (الوتر الذي لعب الرئيس السادات فيها بعد عليه ، وأفرغه من محتواه الحقيقي بالطبع) بدلاً من دولة أجهزة الأمن ، بعد أقل من شهر واحد ، من إصدار جمال عبد الناصر ، في أول نوفمبر ١٩٦٨ ، قرارات جمهورية قوانين لضمان الحرية الشخصية للمواطنين ، الأمر الذي يفهمنا أن الطلاب وأساتذتهم المتضامنين معهم ، كانوا يتعاملون مع جمال عبد الناصر علي أساس المثل المعروف (اسمع كلامك أصدقك ،أشوف قياداتك أستعجب) والحقيقة أن الطلاب «شافوا أموره » ولم يتعجبوا ..تظاهروا ، وجمح بهم الغضب إلي أقصي حدود الجموح .

وكانت مظاهرات نوفمبر هي أقصي حدود الجموح ..تلك المظاهرات التي تصاعدت في المنصورة ، برغم تأكيدات لمسئولين بأن الأمور إلي حل(كما قلنا) وكان أن التحم المعهد الديني معها في اليوم التالي .

إن أكثر من علامة استفهام تفرض نفسها في هذا السياق .

أولها : لماذا خرج طلاب المعهد الديني ..والقانون لا يمسهم كما يقول د. أحمد عبد الله في كتابه ؟!.

ثانيها : لماذا كررت الشرطة مأساة حلوان بعد تسعة أشهر ، كانت كافية لمراجعة النفس !!

ثالثها : لماذا لم يصدق الطلاب تأكيدات المحافظ .

رابعها : كيف يثور الطلاب بهذا العنف في مواجهة قرار تعليمي كان صحيحًا وتقدميً .

خامسها : لماذا كافأت السعودية أساتذة المعهد الديني بإعطائهم وظائف لديها

فيما بعد ،. هؤلاء الأساتذة الذين عاد منهم إلينا «الشيخ عمر عبد الرحمن » في السبعينيات ».

والآن :

لا يخطئ نظام عاقل الخطأ مرتين ، لكن نظام عبد الناصر فعلها .. «لدغ من جحر واحد مرتين » .. ولأن النظام وقتها كان عاقلا ، فلابد لنا الآن ـ لكي نقترب من حقيقة ما حدث ، أن نتصور أن نظام عبد الناصر لم يخطئ عن جهالة ، لكنه أخطأ متعمداً ..(هل يمكن هذا الأمر ؟) .فما أن خرج المعهد الديني في المنصورة بمظاهرة في صبيحة الخميس ٢١ نوفمبر ١٩٦٨ م ، يقلل عدد أفراها عن ألفين (كل طلاب المعهد الديني في المنصورة كانوا ألفين في ذلك الوقت ، ولا يعقل أنهم خرجوا جميعاً متظاهرين) ووصلت المظاهرة إلي مديرية أمن الدقهلية (مسافة ليست بعيدة) .حتى انطلقت رصاصات الشرطة ، ليسقط ثلاثة طلاب وفلاح شهداء (نفس السيناريو الذي حدث في حلوان في فبراير ١٩٦٨م) فتستشيط المدينة غضباً ويستشري فيها وميض كان يري تحت الرماد (ويوشك أن يكون له اضطرام) وتشتعل نار مظاهرات عارمة في الشوارع ، مطالبة بسقوط وزير الداخلية ، وبالديمقراطية ..(متي ؟ بعد بيان ٣٠ مارس بثمانية أشهر .. تم فيها انتخاب أعضاء الاتحاد الاشتراكي ، ومؤتمره القومي من القاعدة للقمة لأول مرة بعد سلسلة مملة ـ سابقة ـ من التعيينات !!).

لماذا تكرر نفس الخطأ مرتين ؟؟ هذا هو السؤال الذي نحاول أن نجد له الآن إجابة ..

في اليوم التالي ـ الجمعة ـ بينما أجتمع عدد من طلاب كلية الهندسة جامعة إسكندرية من أبناء المنصورة (لابد كانوا في زيارة أهلهم في عطلة نهاية الأسبوع)

ليتفقوا على عقد مؤتمر في كليتهم بالإسكندرية في صبيحة السبت ٢٣ نوفمبر، يناقشون فيه ما حدث في مدينتهم ..كانت الصحف تلعب لعبتها القديمة، لعبة التشويه، وكان الأهرام يزعم «أن المظاهرات قد أندست فيها عناصر غير طلابية لا يملون من تكرار هذه العبارة، عبارة صمويل هور وصدقي وجمال عبد الناصر والسادات !!)، حاولت مهاجمة مديرية الأمن بالمنصورة، ولم تنس بالطبع أن تؤكد على أن الظروف العصيبة التي تجتازها البلاد »،« تقتضي توجيه كل الجهود لمواجهة العدو »، هل تتذكر نفس المقولة في بيان ٣٠ مارس أيضاً؟!.

هل يمكن الآن تصور شيء آخر .. غير أن هؤلاء الطلبة الدقهليين، قد أيقنوا بأن الحكومة ستعمد إلي الشراسة في المواجهة لأي تحرك شعبي، وستمارس تشويهه ..وكأن بيان ٣٠ مارس لم يكن إلا كلمات، فما حدث قبله، يحدث بعده .. وربما كان - أو هو كان بالفعل - الذي يحدث بعده أشد ضراوة وجورا

ثم تأتي مفاجأة ثانية:

في فجر السبت ٢٣ نوفمبر، يطب زوار الفجر ليعتقلوا عددا من القيادات الطلابية السكندرية والذين هم من أصول دقهلية (محمد ناجي أبو المعاطي - محمد خيرت سعد - بهاء الدين مكاوي) وتهددهم بضرورة إلغاء المؤتمر الذي كان انعقاده مجرد نية في صدورهم، كانوا يحلمون بتحقيقها في ضحي اليوم نفسه !! (هكذا اتضح للطلاب أن الحكومة قد رتبت نفسها بمنتهي الدقة للمواجهة !!).

برغم حسابات الحكومة الدقيقة - أو بسببها !! (وخلي بالك من هذا الأمر) بعقد المؤتمر في كلية هندسة الإسكندرية .ويبدأه الطالب محمد ناجي أبو المعاطي (الذي قبض عليه وهدد قبل أن يشرق الصباح) حاكياً ما حدث له في الفجر، وما حدث في مدينته - المنصورة - فتقاطعه الهتافات (يا شعراوي يا سفاح .. ولي زمانك ..ولي

وراح) ، ويستمر المؤتمر مزجياً الغضب في النفوس .

وتأتي مفاجأة ثالثة !!

يقول «رماح أسعد » (في كتابه سطور من يوميات الحركة الطلابية المصرية ١٩٦٨م ـ١٩٧٣، والذي أعود إليه لقص الأحداث) : إن المؤتمر قد فوجيء بدخول عاطف الشاطر (رئيس اتحاد كلية الهندسة بالإسكندرية) ومعه حسين عيد(رئيس اتحاد طلاب الجمهورية .. الذي جاء به الطلاب ، بعد أن عزلوا عبد الحميد حسن ، في تحد واضح وجري لعملية الاحتواء التي نجح فيها جمال عبد الناصر لعبد الحميد حسن، عن طريق رجله المخابراتي سامي شرف) ليتصدى كلاهما للطلاب مدافعين عن النظام متهمين طلاب المنصورة بالعمالة لإسرائيل ..(تصوروا !!) .

وتأتي مفاجأة رابعة .. لكنها في هذه المرة للحكومة وليست منها!!

فوجئت حكومة المفاجآت ..بعاطف الشاطر الذي أرسلوه ليهاجم زعامات الطلاب الغاضبة ـ نفسه ـ يخرج قائداً لمظاهرة كبيرة يحمل فيها علم الكلية بعد ساعتين من النقاش العاصف في المؤتمر ، تصدي له فيهما الطالب تيمور الملواني (يرحمه الله فقد توفي مناضلاً منذ سنوات) قالباً الدفة ليس على الحكومة ولكن على عبد الناصر شخصياً معتبراً إياه وراء كل ما يحدث (بعد فبراير ١٩٦٨ لم يعد الطلبة يستثنون جمال عبد الناصر من المسؤولية عما يحدث من شرور) مفجراً غضب الموجودين في المؤتمر .

هذه المظاهرة تطرح سؤالاً ملغزاً (من الواضح أن ألغاز نوفمبر ١٩٦٨م لا تنتهي) هذا السؤال الملغز هو لماذا قاد عاطف الشاطر الذي لحق بالمؤتمر مع رئيس اتحاد طلاب الجمهورية لوقف التحرك الطلابي السكندري من أجل عملاء إسرائيل » (!!!) من طلبة الثانوي وطلبة الإعدادي في المنصورة) بنفسه مظاهرة تخرج إلى الشارع ، هل

تم إقناعه داخل المؤتمر بأن ما جاء من أجله غير عادل ، فقرر أن يواجه من أرسلوه .. أن يواجههم في الشارع ؟، أم أن غرضاً آخر كان يكمن وراء قيادته للمظاهرة ؟!!

هذا السؤال سنحاول أيضاً أن نبحث له عن إجابة مقنعة .. سنحاول ذلك مجتهدين؟!

والحقيقة أن البوليس المصري لم يحاول مثلنا أن يسأل نفسه هذا السؤال فما أن شاهد المظاهرة ، حتى بدأ العمل معها بوحشية ، وسارع بالقبض على عاطف الشاطر وآخرين بينها (وخلي بالك من هذه أيضاً) كان عاطف الشاطر يحاول التفاهم مع رجال الأمن !!

وكان أن تراجع الطلاب إلى داخل الجامعة أمام ضراوة ووحشية قوات الأمن ... وفي تلك اللحظة قرر المحافظ أحمد كامل محافظ الإسكندرية. اقرأ آخر فصل في الكتاب: «ثم تكلم أخيرًا عاطف الشاطر» : (كان من قبل أمين التنظيم الشبابي وقيادة كبرى من المخابرات العامة!!!! أن يغير من خططه ، وأن يواجه الطلبة بنفسه داخل أسوار الجامعة ، ليقنعهم بألا يعمدوا إلى تصعيد حدة التوتر في الموقف (كان المحافظ قد أشرف بنفسه على وضع الترتيبات الأمنية والجامعية لمواجهة الاضطرابات في مساء اليوم السابق – الجمعة –مؤكداً على مدير الأمن ضمان خطر خروج الطلاب إلى الشارع في مظاهرات) ،

(انظر الطلبة والسياسة في مصر د. أحمد عبد الله ص ١٩٥) ..

ولعل من الأوفق الآن أن تترك لبطل الحادثة فرصة الكلام عنها بنفسه.

في مذكراته المنشورة بالمصور عدد ٢٠/ ٤/ ١٩٩٠ م قال أحمد كامل: «ذهبت إلى الجامعة كانت تحت حصار بوليسي مكثف ، لم أكن بعد وجها مألوفاً كمحافظ (!!) كان قد عين كمحافظ منذ أيام) . ولذلك وجدت إلى جواري ضابط شرطة يطلق

بندقية رش في اتجاه الطلاب المعتصمين، خطفت البندقية من يده ، وكادت تنشب معركة جانبية (!!!) لولا أن رآني سيد فهمي مدير مباحث الإسكندرية آنذاك (وبعدها وزير الداخلية الذي واجه مظاهرات ١٩٧٧ التي سماها أنور السادات«انتفاضة الحرامية». وكأن الحرامية هم من كانوا ينتقضون في عصره من الجوع!!!!!) .

قلت له (الكلام مازال الأحمد كامل): أخرج هذا الظابط بعيداً من هنا ... وأحضر عاطف الشاطر من السجن فوراً (!!!) .. جاءني سيد فهمي بعاطف الشاطر وهو في نوبة بكاء حادة ، قال (عاطف الشاطر) : ضربوني يافندم قلت له : كن رجلاً (السجن للجدعان والضرب كمان!!) أدخل إلى الجامعة الآن واجمع زملاءك في القاعة الكبيرة، وسوف أدخل وراءك ونجلس ونتناقش جميعاً ..جلست في مواجهة الطلاب الغاضبين ، وقد أحضروا طالباً ينزف من طلقات البندقية ، ثم قال أحدهم بصوت محرض ، أنظر ماذا يفعلون !!! أي تفاهم يمكن أن يكون بيننا ؟ قلت أنا لا أعرف شيء(!!) ووزير الداخلية هو الذي أعطى تعليماته لمسئولي الأمن بهذا الخصوص ، وهو قرار خاطيء تماما(!!) واستمر الحوار المنفعل ..بينما مسؤولوا الأمن خارج حرم الجامعة في حالة ترقب وقلق (يقصد خوفاً على المحافظ بالطبع) ، وهكذا اتصلوا بوزير الداخلية ، واتصلوا بمكتب الرئيس ، وقالوا إن المحافظ دخل مبنى الجامعة، ونحن نخشى أن يفتك به الطلاب الغاضبون ، ماذا نفعل ؟! هل نقتحم الجامعة الإنقاذ ؟! ونقل سامي شرف على الفور الموقف إلي الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان رده «لا اقتحام .. اتركوه يتصرف وحده» .

هذه رواية أحمد كامل لما حدث ، لكن الطلبة ورماح أسعد و د. أحمد عبد الله (في كتابيهما المذكورين سابقا) يجمعون على رواية أخري تتضمن أن الطلبة احتجزوا

أحمد كامل داخل أسوار الجامعة إلي أن أمر بالإفراج عن عاطف الشاطر وزملائه المعتقلين (ولم يكن الأمر مما تفتق عنه ذهنه السياسي) وهذه هي الرواية الحقيقية بالفعل، التي خجل أحمد كامل - رحمه الله - من إعلانها (وتلك الرواية الحقيقية تعني أن المحافظ أمر - مرغما- بالإفراج عن عاطف الشاطر) .. وأنهم قبل مغادرتهم الجامعة أرسلوا نسخة خطية من المطالب الطلابية التي تضمنت، محاكمة شعراوي جمعة وكل من شارك في أحداث المنصورة / حرية الصحافة والنشر / الإفراج عن المعتقلين السياسيين / قيام دولة المؤسسات محل دولة أجهزة الأمن / (ثم هذا الأمر الملفت للنظر) تطبيق برنامج ٣٠ مارس تطبيقاً صحيحاً !!، (إن هذا يرد على من يصورون أن بيان ٣٠ مارس كان غاية المراد من المتحكم في حرية العباد!!).

الطلاب يطبعون المنشورات :

استمر اعتصام الطلاب واستولوا على ماكينة طباعة «رونيو» خاصة بالكلية، (كلية الهندسة)، وبدؤوا في كتابة سلسلة البيانات، وزعت - بطريقة ما - على نطاق واسع بمدينة الإسكندرية، وبعضها وزع بالطبع أثناء مظاهرات تلت بدء اعتصام كلية الهندسة .. وقد ساعد الطلاب أقلية من هيئة التدريس على رأسهم الدكتور عصمت زين الدين، رئيس قسم الفيزياء النووية، الذي أسهم بدور فعال لن ينساه له التاريخ، ولن تنساه له الوطنية المصرية في الانتفاضة الطلابية .

ثم مفاجأة خامسة !!

في اليوم التالي أعلنت الحكومة إغلاق الجامعة . وكانت المفاجأة الخامسة للحكومة أيضا وليست منها .. فقد انفجرت المظاهرات خارج الجامعة والتي يقول عنها د. أحمد عبد الله في كتابه «الطلبة والسياسة في مصر ص ١٩٧ » في يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر حدث إضراب بالإسكندرية كما شهدت المدينة مظاهرات على نطاق لم

تشهده من قبل ، انتهت بصدام دام مع الشرطة ، وكما توضح أرقام الخسائر فإن الطلاب لم يكونوا وحدهم في هذه الأحداث ، إذ لقي ستة عشر شخصًا مصرعهم [٣ طلاب ، ٢ من الأهالي وتلميذ عمره ١٢ سنة ـ سقط تحت أقدام المتظاهرين (المذعورين من إطلاق الرصاص)] ، بينما أبلغ عن وصول ١٦٧ مصابًا من الأهالي إلى المستشفيات وأعلنت الشرطة إصابة ٢٤٧ من رجالها (١٩ ظابطا٢٢٨ جندياً) ، وألقي القبض على ٤٦٢ شخصاً ، استمر حبس ٣٦٥ منهم على ذمة التحقيق .. وبالطبع حصلت خسائر في الملكيات العامة والخاصة (أورد الأرقام ليري القارئ حجم المظاهرات الذي تتحدث عنها هذه الأرقام).

أما الطلبة المعتصمون داخل الجامعة ، والذين قال عنهم الأهرام في ٢٨/ ١١/ ١٩٦٨م ، أنهم أنهوا اعتصامهم بسبب « إحساسهم بالندم والأسف لما حدث من تخريب في المدينة مؤخراً .. كما أنهم شعروا «بانفضاض الشارع عنهم ، ودهشته (دهشة الشارع) من موقفهم ، الذي كان يبدوا بدون مسوغ واضح «هؤلاء الطلبة الذين قال عنهم الأهرام ما قاله ، وروي عنهم أحمد كامل رواية أخري في المصور (بنفس التاريخ السابق) لابد أن نعانيها هي الأخرى .

قال أحمد كامل : خرجت من الجامعة بانطباع أن تجربة الحوار (الذي أجراه مع الطلبة داخل الجامعة) لن تحقق النتائج المنتظرة ،اتصلت بسامي شرف وقلت له : أبلغ الرئيس أنني أطلب تدخل الجيش لإنهاء الاعتصام (عند الأهرام وقتها على إخفاء هذه الحقيقة الخطيرة ، عملا بحرية الصحافة !!!) .. بعد دقائق جاء رد سامي : الرئيس أمرني بأن أتصل بالفريق أول محمد فوزي : القائد العام للقوات المسلحة ، وأن أبلغه بأن يتصل بك ، بعد دقائق أخري كلمني الفريق أول محمد فوزي وقال : لقد وضعت قائد المنطقة العسكرية الشمالية تحت قيادتك ..(قيادة أحمد كامل)

أخبره بطلباتك وسوف يقوم بتنفيذها على الفور » (سيحاربون!!) قلت (أحمد كامل) بعدها لقائد المنطقة العسكرية الشمالية أن يعطي أوامره لقيادة الطيران في المنطقة ليتم إرسال عدد من طائرات الهليكوبتر فوق مواقع اعتصام الطلبة .. كما طلبت منه وضع بعض قوات الجيش لتدخل إلى المحافظة وتمر بدباباتها وأسلحتها في استعراض للقوة أمام كلية الهندسة ..عندما وصلت مجموعة طائرات الهليوكوبتر فوق كلية الهندسة ، شاركت الطبيعة في إخراج مسرحي للموقف فقد تزامن معها رعد وبرق ومطر ، ومع أصوات الرياح والسحب تصور الطلاب أن الطيران قد بدأ القصف والهجوم ، في الوقت الذي مرت فيه بعض قوات الجيش أمام الجامعة ، وتمركزت بعض الوحدات في الاستاد الرياضي المجاور .. ورن جرس التليفون في مكتبي ..كان المتحدث أحد قادة الاعتصام .. قال : « لقد قررنا إنهاء الاعتصام » .

هكذا انتهت الأحداث الدامية في نوفمبر ١٩٦٨ ، وبدأ المجتمع مناقشتها والنظام أيضاً ، مناقشات مستفيضة ..

أما وقد مرت تسع وعشرون سنة الآن .. فقد وجلب علينا أن نناقشها نحن من زاوية لم يتطرق لها في ظني أحد ..وربما كانت ـ في ظني أيضا ـ هي الزاوية التي كان يجب أن يتجه إليها نظر المحللين .

نتوقف لتحليل المفاجآت الخمس :

لقد عرضنا الأمر في مفاجئات خمس ..ثلاث منها فاجأت الحكومة بها الطلاب ، واثنتان فاجأ بهما الطلاب والشعب والحكومة .

المفاجآت الثلاثة الأولي : تؤكد أن الحكومة كانت قد اتخذت قرارا ـ أعدت له عدتها جيدا ـ منذ مظاهرات فبراير التي فاجأتها ـ بألا تسمح لما حدث في فبراير ١٩٦٨ بأن يتكرر .. وأن قرارها تضمن مواجهة أي تحرك شعبي إذا ما حدث

بمنتهي القوة وبمنتهي الشراسة (لهذا صنعوا قوات الأمن المركزي) تحت غطاء إعلامي يخفي الحقائق يستبدلها بما يشوه الطلاب وحركتهم البريئة .. إن قرارا كهذا لا أظن أن المجال والشواهد يسمحان بأن نظن الظنون بغيره) يرد على أسئلة كثيرة غامضة : أولها : لماذا قررت الحكومة مأساة حلوان في المنصورة ..وبدأت بإطلاق الرصاص ؟!!! بل لماذا اعتبرت مظاهرات طلبة الثانوي من أجل مطالب تعليمية مظاهرات تستحق مواجهة ساخنة على نغمة (اضرب المربوط يخاف السايب) وأيضاً يشرح الأمر لماذا لم تتردد الحكومة حينما رأت عاطف الشاطر على رأس المظاهرة في أن تضرب .. وأن تضرب بعنف.

إن عاطف الشاطر- الذي يوحي رماح أسعد(ولديه أسبابه) بأنه متعدد الأقنعة .. بل ويوحي أيضاً بأنه أراد توريط الطلبة في المظاهرات ليتم ضربهم.

بينما أخذته (ولم تقبض عليه) قوات الأمن بعيداً عن الموقعة!! لا يمكن أن يكون ذلك الرجل الذي أراد رماح أسعد تصويره بهذا السوء .. والدليل أن عاطف الشاطر دفع ثمن ما حدث سنوات أبعد فيها إلى الحدود الجنوبية مجنداً في القوات المسلحة متأخراً عن إخوته في سنوات تخرجه .. فقد اضطر إلى أن يكمل تعليمه في الجامعة بعد قضاء سنوات تجنيده الذي احتسب له على أساس مؤهله العادي فما بالك والوقت كان وقت حرب!!،.. عاطف الشاطر الذي عوقب هذا العقاب القاسي ..لا يمكن أن يكون الرجل الذي يوحي به رماح أسعد .. برغم هذا يبقي ما حدث لغزاً .. فعاطف الشاطر كما رأينا، في كتاب رماح أسعد .. دخل الجامعة مهاجماً طلاب المنصورة واصفاً إياهم بأنهم عملاء لا يستحقون أن يثور طلبة جامعة الإسكندرية من أجلهم ، ثم خرج من الجامعة على رأس مظاهرة تندد بالنظام الذي واجه عملاء- إسرائيل في المنصورة- على حد زعمه- بالرصاص !! هل أقنعه

الطلاب بغير ما دخل به ؟!! إذا كان قد اقتنع فأي تفاهم كان يقصده مع رجال الأمن (كما علمناه)؟!

عاطف الشاطر، بطل تراجيدي

في تقديري أن عاطف الشاطر واحد من أبطال تراجيديين في هذه الفترة وقعت عليهم يد النظام ، والتقطتهم بغرض احتواء الحركة الطلابية .. وتوزعوا ما بين الاتحاد الاشتراكي ومؤتمره القومي ، وبين التنظيم الطليعي ، وبين مجموعة تستطيع أن تتصل مباشرة بالسيد شعراوي جمعة الأمين العام للاتحاد الاشتراكي (ووزير الداخلية في نفس الآن!!) ومجموعة ثانية تتصل مباشرة بسامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات ، والرجل الثاني في التنظيم الطليعي أو والثالث على الأكثر .. أقول أنهم أبطال تراجيديين .. لماذا؟ لأنهم كانوا – حائرين- بين التزامهم بما تنفق عليه تنظيمات النظام، وبين موقفهم أمام الطلاب فهم إذا ما تجاوبوا مع الطلاب اعتبرهم النظام خونة يجب ألا يفلتوا من العقاب، وهم إن تجاوبوا مع النظام ، اعتبرتهم القواعد الطلابية خونة أو مباحث على أقل تقدير (لا ينفي كونهم أبطالاً تراجيديين، أن بعضهم انتفع ومازال بثمار موقفه التراجيدي هذا ، وبعضهم لم ينتفع ودفع ثمناً غالياً لازدواجية فرضت عليه فرضاً) وخصوصاً في لحظات الصخب الطلابي المعارض.

ولقد وضع عاطف الشاطر البطل التراجيدي في هذا الموقف ، أرادوا له أن يشارك في إنهاء حركة الطلاب قبل أن تستشري .. ولكنه وسط المؤتمر الصاخب عجز عن تنفيذ ما أرسل من أجله ، فتصور – وهذا تخيلي للأمر- أنه إذا خرج بمظاهرة سلمية (الأمر الذي كان يصر عليه الطلاب) تعلن رأيها فإذا قد اتفق مع رجال الأمن على ألا يتعرضوا لها ، فإنه يكون بذلك قد حقق ما يتمناه الطلاب وما

لا يقلق النظام إذ ستكون المظاهرة تحت سيطرته ، سيقول الطلاب ما يريدون وينتهي الأمر عند هذا الحد.. لكنه لم يستطيع أن يقنع رجال الأمن .. وقبضوا عليه ..وحسب ما كانوا قد أعدوا له أنفسهم سلفاً ، واجهوا المظاهرات بعنف، بل وضربوا عاطف الشاطر كما أكد – أحمد كامل – في مديرية الأمن لأنه تجاسر وفعل ما تجمعت كلمتهم على حتمية ألا يحدث ، وهو خروج المظاهرات إلى الشارع .. وعندما عاد عاطف الشاطر إلى الجامعة بضغط طلابي .. لم يستطع البطل التراجيدي إلا أن يتخذ موقفاً يرضي عنه من أخرجوه من الاحتجاز ، وأنقذوه من الضرب المبرح، هكذا سيق البطل التراجيدي إلى حتفه .. وإلى منفاه في أبعد نقطة على الحدود الجنوبية الشرقية لمصر.. وإلى شك بعض أبناء الحركة الطلابية في نواياه حتى اليوم (عاطف الشاطر الآن في المغرب على ما أظن يعمل بالتجارة) .

أما المفاجأة الثانية والتي عبرنا عنها بأن زوار الفجر هددوا القيادات الطلابية بالويل والثبور وعظائم الأمور إذا ما حدث المؤتمر الذي كانوا يزمعون إقامته ، فتعني أن نوعاً آخر من أبطال غير تراجيديين – مباحثيين – قد اخترقت بهم أجهزة الأمن النشاط الطلابي (بينما منعت ـ في العلن ـ حرس الجامعة من التدخل في نشاط الطلاب السياسي !!) كانوا يؤدون واجبهم على أحسن وجه، وهو الأمر الذي أضاف إلى مطالب طلبة الإسكندرية مطلبهم ، قيام دولة المؤسسات بدلاً من دولة أجهزة الأمن !!

ومرة أخرى ، نتوقف عندما وصلنا إليه قبلا.

لقد فوجئت الحكومة – كما فاجأت الطلاب – بتلك المواجهة الشعبية العنيفة لإجرائها – العنيفة أيضاً – (ارجع إلى المفاجأتين الرابعة والخامسة) لكن بدا – في ذلك الوقت- أن الحكومة (وقصة تدخل الجيش الذي طالب به أحمد كامل

وتدخل بالفعل كما رأينا توضح ذلك) لن تتواني عن التصعيد في مواجهة أي تصعيد .. الأمر الذي خشي مغبته الطلاب فهو من ناحية سيعرض البلد لما يجب ألا تتعرض له .. ومن ناحية أخرى لن يوفر مناخا لتحقيق أي مطالب ، وهكذا عندما أغلقت الحكومة الجامعات وراح طلاب الجامعة لاعتصام كلية طب جامعة القاهرة الذي أعلنت عنه الكلية قبل يوم الإغلاق .. تفرقوا لا يعرفون ماذا يفعلون في مواجهة حكومة مصرة على التصعيد ؟!! في مواجهة سلطة أرادت ألا تتصرف إلا كسلطة !!!!١ مصممة على ألا تتغير وعلى أن تفجر الدنيا تفجيراً لا تتراجع عنه إذا ما لمس أحد أِنفها .. مجرد أنفها

والحقيقة أيضاً .. أن عفريتّا آخر في الطريق إلينا .. إن مواجهة مظاهرات المنصورة بالرصاص ، تلك التي ضمت أقل من ألفين (عدد بسيط للغاية) من طلاب المعهد الديني ، فتحت فتحاً على أساتذته (معيدين ومدرسين وأساتذة) فقد تلقفتهم المملكة العربية السعودية مثله مثل الإخوان المسلمين.. وعاد إلينا منها فيمن ذهبوا غاضبين ، الشيخ عمر عبد الرحمن ومعاونوه الذين أصبحوا فيما بعد أعمدة للإرهاب ، يتخذون حجة في مواجهتنا تبرر إرهابهم بأن إرهابا قد وقع عليهم في المظاهرات .. وفي السجون ، وفي حيلة الملايين غير المحتملة أيضاً.

النور في جنازة عبد المنعم رياض

لكن – برغم هذا السواد- فإن نورا باهراً قد سطع وهدأ النفوس .. هذا النور هو حرب الاستنزاف العظيمة .. تلك الحرب التي لولاها لتبعثر الوطن شظايا ، ولعل جنازة العظيم عبد المنعم رياض .. رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية ،البطل الذي مات شهيداً في أقرب النقاط إلى العدو (المعدية رقم ٦) والتي ضمت الألوف المؤلفة ، توحي بأن التحاماً بين الشعب وقيادته لن يتم إلا في طريق

بذل كل ما هو غال في سبيل حرية هذا الوطن ، وليس أغلى على الوطن من أبنائه الذين يفدونه بحياتهم ، ليبقوا أحياء ، ولكن البعض لا يعلمون..

في جنازة عبدا لمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة وصاحب اليد البيضاء في إعادة بنائها .. والوصول بها إلى مستوى بدأ يقلق العدو ويسعى لاستنزافه ، وجد جمال عبد الناصر نفسه والجماهير تدفعه من الخلف – فعليا – في مآقيها دموع ، وفي قلبها نشوة بأن القيادات تستشهد في مواقع شديدة القرب من العدو ، تستشهد حيث يجب أن تكون الوقفة وأن يكون الاستشهاد .. نشوة إلى جانب الحزن الشامخ لفقدان رجل عظيم..

وجد عبد الناصر الجماهير تدفعه في اندفاعها وراء الجثمان.

وفهم جمال عبد الناصر الذي كان يفهم نبض الجماهير .. أن الجماهير لا تدفعه إلى جامع الكخيا.. فهم أن الجماهير تدفعه إلى سيناء ، وأن دفعها له يرضيها ويهدئ خواطرها لحين تحقيق الأمر الأهم .. وبين هذه الجماهير كان الطلاب ، وكانت الحناجر ترفع هتافاتها إلى عنان السماء «ح نحارب .. ح نحارب» .

الطلبة تعد لميثاق وطني جديد:

في أثناء اشتعال حرب الاستنزاف ،ذلك الاشتعال المقدس ، اكتفى الطلاب بمجلات الحائط في كلياتهم يعبرون فيها عن قناعتهم .. يقول عادل بدوي ، (طالب كلية التجارة جامعة عين شمس وقتها والمحاسب الآن) : منذ أوائل ١٩٦٩م ، ظهر الخلاف جليا بين أعضاء التنظيم الطليعي الناشئ (بعض الأبطال التراجيديين) ، وبين كتلة كبيرة من الشباب الوطني، الذي اتسعت شقة الخلاف بينه وبين رجال النظام القائم (لكن حرب الاستنزاف كانت- كما قلنا – تلقي الثلج المدمم على الغليان الغضوب) وقد تمحور الخلاف، حول قضيتين أساسيتين أو هما :

ضرورة الجدية في تغيير نية وأساليب الحكم في إطار حرب التحرير الوطنية، وثانيتهما : ضرورة إرساء قواعد الديمقراطية وحرية التعبير .. وراحت المجلات تتجه بهذين الهمين إلى مناقشات غاية في العمق، حول الأوضاع السياسية لمصر والعالم (بالطبع كان أعضاء التنظيم الطليعي يرون أن للسلطة مبررات لموقفها الرافض أو في أحسن الأحوال المؤجل للتغيير، تكمن في خطورة المواجهة مع العدو الصهيوني، وإن التغيير المطلوب وجزء كبير منه قد تم بالفعل من وجهة نظرهم وحدهم!!! يجب أن ينتظر التحرير الذي يجب أن يكون – بكل معنى الكلمة – الهم الذي لا هم قبله و لا بعده، وكان بعض الأساتذة – ولعلهم أيضاً كانوا أعضاء في التنظيم الطليعي - يساعدونهم على هذه التحليلات ويوفرون ظروفاً معاكسة لمجلات الحائط المعارضة).

ويقول عادل بدوي أيضاً (محاسب الآن) : أنه في أوائل عام ١٩٧٠ م، أصدر طلاب كلية التجارة جامعة عين شمس ثلاثة أعداد متتالية من مجلة التجارة أقام على إصدارها محمد لطفي حسونة (أستاذ في كلية التجارة الآن) وهاني الحسيني (محاسب ومن قيادات حزب التجمع اليساري الآن) وعادل بدوي، لم تكلف أو تطلب من اتحاد الطلبة مليماً واحد . فقد تم تمويلها من الإعلانات..

كانت الأعداد الثلاثة من المجلة تحتوي على مقالات مناهضة لما طرحه هيكل من أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا (في ذلك الوقت المبكر !!، بينما الجميع يظنون أن هذه الأطروحة المدمرة كانت اكتشافاً ساداتيا) وتؤكد على الدور الشعبي الوطني في مقاومة العدوان، عارضة للتجارب الثورية العالمية، وكيفية مقاومتها للتسلط الأمريكي المباشر ..

وفي عدد من هذه الأعداد الثلاثة تم عرض برنامج عمل وطني جديد (ذلك أن

ميعاد تعديل الميثاق الوطني كان سيحل بعد سنتين ، كما أوضح جمال عبد الناصر وقت إعلانه مؤكداً أن الميثاق الوطني سيتم تعديله بعد عشر سنوات) لتبدأ المناقشات حول البرنامج الجديد ومازال أمام الشعب فسحة من الوقت تمكنه من المناقشة .. والحقيقة أن هذه الدعوة وجدت استجابة في الحركة الطلابية الأمر الذي جعل الأستاذ الدكتور محمد فتحي محمد علي (أستاذ الإحصاء والذي أصبح وزيراً للتعليم في وقت لاحق) يحذر القائمين على المجلة من تخوفه بأن اعتقالهم سيتم قريبًا (فقد كان على حد تعبير عادل بدوي «واصلاً») في نفس الوقت الذي كان حق) يحذر القائمين على المجلة من تخوفه بأن اعتقالهم سيتم قريباً (الدكتور مصطفي زهير عميد الكلية يقف مع الطلاب مؤكداً على حقهم في التعبير عن إرادتهم المستقلة (وبطبيعته تلك ـ المؤيدة للجماهير ـ لم يكن بالتأكيد واصلاً) .

وفي يونيو ١٩٧٠ م يقول عادل بدوي : وليام روجرز بمبادرته الشهيرة بإيقاف إطلاق النار تمهيداً للتسوية بين مصر وإسرائيل .. تلك المبادرة التي رفضها السادات !! نائب رئيس الجمهورية !!!! ووافق عليها جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية ، ليتمكن من إقامة حائط الصواريخ «سام» لحماية العمق ، المصري من غارات العدو الصهيوني !! ذلك الحائط الذي صنع أمجاد أكتوبر العظيم ١٩٧٣م) ، على الأطفال في مدارسهم ، والعمال في مصانعهم والنيل عند جسوره ، وبينها السد العالي وأيضاً ليتمكن الجيش من العبور في ظلها).

يقول عادل بدوي : كانت لدينا قناعة كبرى في أن جمال عبد الناصر سوف يرفضها ، لما لها من تأثير سيئ على المقاتل المصري ، والوضع العربي الساخن والمؤهل لحرب التحرير الوطنية ، وفوجئنا بقبول جمال عبد الناصر لها وقمنا بإعداد بيان في منشور يوزع على شعب مصر ، مؤكدين أن قبول المبادرة (في رأيهم) بداية

للتنازل عن اللاءات الثلاث التي اتفقت عليها الأمة العربية كلها في الخرطوم .. وقبل توزيعهم للبيان فاجؤوا بالقبض عليهم ظهر ٥ أغسطس ١٩٧٠ (محمد عيد ، عادل بدوي ، صلاح زين الدين ، عادل عبد العظيم ، محمد عبد الغفار « كان مناضلاً وموظفًا في الشئون الاجتماعية ، وعضوًا في تنظيم شيوعي سري » رواية عبد العظيم (ناشره الآن وصاحبة دار سيناء للنشر) فاطمة الديساوي : وسمية عدلي وزينب عبد العظيم (كان قرانها معقوداً على محمد عيد») واقتيدوا من مزرعة بالهرم كانوا يطبعون فيها البيان - كما زعمت وزارة الداخلية - إلى سجن المخابرات العامة لمدة خمس أيام ، ثم إلى سجني الاستئناف والقناطر (للنساء) ليقضوا تسعة شهور حتى إبريل ١٩٧١ م ، حين أفرج عنهم أنور السادات في الإفراج الشامل الذي أراد أن يزيد به حجم شعبيته قبل حركة مايو ١٩٧١ .

إن كلمة عادل بدوي تؤكد ما وصلنا إليه.. من أن الهدوء الظاهري لحركة الطلاب لم يكن إلا نتيجة لحرب الاستنزاف العظيمة ، وأن بداية السخونة في حركة الطلاب جاءت مع وقف إطلاق النار (برغم أن أسباب عبد الناصر لوقف النار كانت مقنعة ، ودور حائط الصواريخ المصرية العظيم وأبطاله الأعظم خير شاهد على كون أسبابه عبد الناصر مقنعة) لأن حلم التحرير لم يكن يحتمل أي تلكؤ أيا كان سببه !!.

نقول : إن الهدوء كان ظاهرياً ذلك أن الجماعات الدينية في الكليات المختلفة وعلى قمتها كليتا الطب والهندسة كانتا تعدان لشيء .. وكانت جماعة أنصار الثورة الفلسطينية بكلية الهندسة ، والجمعية العلمية بكلية الطب جامعة القاهرة تعدان – علموا أم لم يعلموا – لحركة ١٩٧٢ العظيمة ..

12

على مسئولية قائد سلاح الطيران في ١٩٦٨ عبد الناصر

قال:

اضربوا الطلبة بالطيران!

« النظام كان وقتها (نوفمبر ١٩٦٨) عاقلاً، فلا بد لنا الآن لكي نقترب من حقيقة ما حدث أن نتصور أن نظام عبد الناصر لم يخطئ عن جهالة ، لكنه أخطأ متعمداً» .

عندما كتبت ذلك كنت أستقرئ أحداث نوفمبر ١٩٦٨ ، ودلني الاستقراء على أن مظاهرات المنصورة في اليوم الأول لم تكن تستأهل كل هذه المواجهة الساخنة ، وأن مظاهرة للمعهد الديني في اليوم التالي لم يتعد عددها الألفين من طلبة فب المرحلة الإعدادية (لفظ المعهد الديني لفظ خداع لمن لا يعرفون نظام الأزهر الشريف ، و معاهده ، التي في حقيقتها مدارس) ما كان يجب أن تخيف أحداً ، ولا أن تتم مواجهتهم بالرصاص ! ، ليسقط أربعة من الشهداء ، وتشتعل المدينة ، وتمتد الأوزار إلى الإسكندرية مع الطلبة الدقهلاويين ، ليفاجأ الطلاب في الإسكندرية بشراسة أشد ، وبشهداء أكثر ، وصل عددهم إلى ستة عشر !! .

كنت أقصد أن السلطة كانت قد بيتت النية لمواجهة أي تظاهرات بمنتهي العنف ، ومنذ اللحظة الأولى ، حتى بعد أن تعلمت درس حلوان في فبراير ١٩٦٨ ، عندما أطلقت الرصاص ، فأطلقت الغيظ المكبوت ، والحناجر ضد الظلم والديكتاتورية ، كانت قد بيتت النية على أن تلدغ من نفس الجحر مرتين ، لكي ترى المعارضين عينها الحمراء!!.

والحقيقة أنني كنت أتوقع ردود فعل عنيفة لهذا المقال .. فالذين يحبون عبد الناصر – ولست بعيداً عنهم – لن يقبلوا بسهولة هذا الاستقراء، الذي كان اجتهاداً بسيطاً في متابعة أحداث شديدة الوضوح ناصعة الدلالة .. ولقد حدث ما توقعت .

ولكن حدوث ما توقعت لم يكن هو المهم ..

المهم أن حدث ما لم أتوقع ..

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة مساء ـ بقليل ـ حين دق جرس التليفون في منزلي .. رفعت السماعة .. وجاءني الصوت ـ ير المألوف لي ـ من الناحية الأخرى، قائلاً:

- أنا اللواء متقاعد مصطفي الحناوي .

ولابد أن الرجل لاحظ ارتباكي .. وأن ذكاءه ألهمه سبب الارتباك .. فبادرني مستطرداً :

- لقد كنت قائد سلاح الطيران المصري فيما تلا نكسة يونيو ١٩٦٧ ، بعد الفريق مدكور أبي العز ، وحتى يونيو ١٩٦٩ .

و تذكرت الرجل :

ـ أهلا و سهلاً ..

و سكت ليقول الرجل ما تكلم من أجله ..

وقال لي الرجل الكريم: إنه تابع المقالات الفائتة ، و إنه أخذ بصدقها ، وإن لديه ما يريد أن يقوله، وأن هذا الكلام على حد تعبيره ، يرسم تفاصيل الصورة على الجانب غير المرئي من الجبل .. (تعبير طائر!) .

و قال لي إن ما أخبرني به سيادة الشهيد مقدم عادل حافظ عبد المجيد (زوج ابنة خالتي) كان عين الحقيقة .. و هو ما شجعه على محاولة الحصول على رقم تليفوني ، حتى نجح أخيراً .

و قال هل تتصور أن جمال عبد الناصر أمرني عبر الفريق أول محمد فوزي أن أضرب الطلاب بالطيران في شارع أبي قير في مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ !! ..

ـ ماذا !! ..

ـ ما سمعته و أذهلك هو الحقيقة بعينها ..

حضرتك تريد أن تقول ..

و قاطعني الرجل :

ـ أريد أن أدلي بشهادتي للتاريخ ..

قلت لسيادة اللواء ، و ذهولي يربك كلماتي :

ـ سأكلم سيادتك بعد دقائق .

حاولت التخلص من ذهولي واتصلت مباشرة بعادل حمودة ، و ما أن أخبرته بما كان ، حتى تمددت قرون استشعاره الصحفية الموهوبة و المدربة ، و قال :

ـ لو مستعد يسجل بصوته ، هات اللي عنده حالاً للعدد الجاي ، ده مانشت غلاف يا هشام .. و أنا ح ابعت لك مصور في الوقت اللي تتفق معاه عليه ، و انت من ناحيتك خد معاك كاميرا .

و عاودت الاتصال باللواء الحناوي :

ـ سعادتك مستعد تسجل لي الكلام اللي ح تقوله ..

ـ و اكتبه ، و أمضي عليه كمان ..

ـ عظيم .. حضرتك تحب نتقابل امتى ؟! .

و قابلت اللواء الحناوي ، و أشهد أن الرجل كان غاية في الكرم معي ، كان كريماً في دعوته، وكريما في استقباله ، و كريماً في إسهابه أيضاً عندما جلست إليه في منزله وبيننا شريط التسجيل دائراً في الجهاز ، وحولنا الكرم الشرقاوي الشهير ..

قال الرجل:

ـ نقطتان أثرتها في مقالاتك ، استفزتاني ، جعلتاني أقرر أن أنفس بخاراً مكتوماً

عـذبني لسـنوات طـوال .. الأولى : أن الفسـاد هـو الـذي هزمنـا في يونيـو ١٩٦٧ ، وليست إسرائيل .. الجهل ، وليس جيش الدفاع الإسرائيلي ، لقد كنت محقا عندما قلت إن قيادات حرب ٦٧ بكل مستوياتها ظلمت الجيش المصري .. حقيقة .. الجيش المصري كان مظلوماً .. مظلوماً .. مظلوماً ..

راغت عينا الرجل وترغرغتا .. فأشاح ناظراً إلى السقف .. ولما عاد .. كان يبلع في ريقه غصة ، ويقول:

- النقطة الثانية كانت عن العنف الذي قررت السلطة ـ وقتها ـ أن تواجه به الطلاب المتظاهرين في نوفمبر ١٩٦٨ ، و أن تدبيرها للعنف الشرس لم يكن مقبولاً ولا مقنعا .

تنهد الرجل نافساً بعض بخاره المكتوم .. وأردف والغضب يرجه :

ـ للأسف الشديد .. لقد كنت شاهد عيان على النقطتين .. ولن يريحني إلا أن أدلي بشهادتي كاملة.

لحظتها أدركت أن الرجل لن يكون في حاجة إلى أسئلة تقود الحديث .. لقد أيقنت أن الرجل - كما قال تماماً ـ لا يريد إلا أن ينفس بخاراً قرر ألا يظل مكتوماً .. وأنه لن يكون على - بعد - إلا أن ألتقط بعض البخار ، و أكثفه ، و اسيله حبراً ، وأنقله لكم:

و بدأ اللواء تنفيثه عما اختزنه داخله ناراً لسنوات طوال :

ـ في أول مايو ١٩٧٦ خطب جمال عبد الناصر قائلاً : إن أحداً لن يفرض عليه أن يحارب إسرائيل ، فنحن من يختار الزمان والمكان للمعركة المقبلة ، وقال: « لما أبني مصنع أبقى با أحارب إسرائيل ، لما أعمل مشروع أبقى با أحاربها » ، برغم هذا أعلن عبد الناصر التعبئة العامة في منتصف مايو بحجة أن إسرائيل تهدد الجولان بحشود عسكرية!!.

وفي الأسبوع الأخير من شهر مايو طلب عبد الناصر من عبد المنعم رياض تقريراً عن حالة الجبهات العربية لدول المواجهة ، أرسلني عبد المنعم رياض إلى الأردن.. هناك قابلت الشريف ناصر بن جميل خال الملك حسين .. وآخرين تربطني بهم جميعاً صداقه من العمل المشترك.. قال لي الشريف ناصر: إن إسرائيل لم تحشد حشودا في مواجهة السوريين .. وليس لديها نية للهجوم على سوريا.. وما يحدث تدبير من المخابرات المركزية الأمريكية ، لاستنفار مصر ، وخروج قواتها إلى العراء في سيناء لتصبح صيداً سهلاً ، ويتم تدميرها .. (نفس الكلام قاله الملك حسين لعبد المنعم رياض) ، وذهبت إلى سوريا .. في سوريا قالوا إن هناك حشوداً .. لكنهم لم يقولوها بشكل قاطع ، ولم يؤيدوا كلامهم لا بصور ولا تقارير استطلاع ، ولا حتى بإخباريات من العملاء ، والمزروعين في إسرائيل.

هذا الكلام نقل لعبد الناصر .. برغم هذا أغلق خليج العقبة وإغلاق خليج العقبة يعني إعلان الحرب!! ..

و برغم إغلاق الخليج (إعلان الحرب) فإن قواتنا في سيناء لم تعرف لها مهمة محددة .... « راحت ومفيش مهمة » ، لا تعرف هل ستهاجم ؟ ، هل ستدافع ؟ ، هل هي تستعرض وحسب ؟! ، نحن الذين درسنا خطة القتال مع إسرائيل في موسكو (٤٢ ضابطاً) لم نكن - أيضاً - نفهم .. إذا كنا سندافع .. فلماذا تجاوزنا خط الممرات ؟! ، خط الدفاع عن مصر والقناة كما كنا قد خططنا .. إذا كنا سنهاجم .. فالهجوم له ترتيبات لم تتخذ !! ، إذا كنا نستعرض فلماذا أغلقنا خليج العقبة ؟!! .. بعد ذلك أكد جمال عبد الناصر أننا لن نهاجم إسرائيل ، إلا إذا هاجمتنا ، وهكذا اطمأنت إسرائيل ، وراحت تسعى لمخططها ونحن في هذا التخبط .

جاء الملك حسين إلى مصر ليقول إنه مع العرب إذا حاربوا وطلب قيادة مصرية

لجيشه الأردني ، حتى لا تكون هناك شبهة خيانة أو ما شابه ، وما أشيع عن أبيه في حرب فلسطين كان الرجل يريد أن يتجنبه ..وهكذا أُرسل عبد المنعم رياض إلى الأردن قائداً للجبهة الشرقية ، وذهبت معه قائداً للطيران ..

وصلنا قبل الحرب بثلاثة أيام ، لم نجد لدى الأردنيين ما يمكن أن نحارب به حرباً حقيقية .. بالنسبة للطيران كان عندهم اثنتا عشرة طائرة (هنتر) فقط ، ولم نجد مطاراً حربياً مجهزاً ، برغم أنه في القيادة العربية الموحدة كانت هناك خطط ، وكان هناك تمويل ، لكن لم يتم شيء .. مطار عمان مطار مدني .. وبينه وبين المطارات الإسرائيلية سلسلة الجبال التي تفصل بين الأردن وإسرائيل .. « لو طلعت إسرائيل من مطاراتها .. مش ح نلحق نعمل حاجة .. والجبال ح تخلي الردار ما يلقطش طياراتها ، حملت تقدير الموقف تاني يوم ..(قبل الحرب بيومين) إلى الملك حسين ضمن القادة جميعاً .. طلبت أن تنقل الطائرات إلى مطار عراقي أعرفه جيداً ، وقلت إن مدى الطائرات يسمح بالذهاب والعودة من العراق إلى إسرائيل وبالعكس .. رفض الملك حسين لأن الشعب الأردني سيشعر أن طائراته هربت إذا ما ذهبت إلى العراق !! .. الشيء الوحيد الممتاز في الأردن كان محطة رادار « عجلون » .. محطة جديدة موقعها عال ، وممتاز ويشعرك بأنك تطل على إسرائيل كلها من شرفه / بلكونة..

بالنسبة للقوات البرية الأردنية كانت متمركزة عند الحدود من ١٩٤٨ ، ولا شيء يحدث ، فالضباط جاءوا بعائلاتهم ، وكذلك الجنود .. أي أن العائلات تسكن في الجبهة !! ، وهذا كان من شأنه أن يربك القوات بالخوف على الأهل إذا ما نشب قتال .

جاء خمسة يونيو ولم نكن قد استطلعنا بما فيه الكفاية ، ولا عرفنا وضع القوات بما يمكننا من تحريكها .. وجاءنا من محطة " عجلون " أن الطائرات الإسرائيلية قد تركت

مطاراتها للهجوم على مصر .. وهنا حدثت المصيبة التي ما بعدها مصيبة !! ..

كنا متفقين مع القيادة في مصر على أن نصيح في اللاسلكي عنب .. عنب.. عنب.. (ثلاث مرات) إذا ما غادرت الطائرات الإسرائيلية مطاراتها إلى مصر لتبدأ الحرب .. صحنا في اللاسلكي ، ولا حياة لمن تنادي .. بعد الحرب ، وكنت واحداً من ثلاثة اختارهم محمد فوزي كلجنة لتقصي الحقائق عما حدث في القوات المسلحة أثناء الحرب ، علمت أنهم كانوا قد غيروا التردد حتى لا تنكشف رسائلنا .. لكننا في الأردن لم نخبر ولم يعطونا جدول تغيير الترددات ، الذي هو عالي السرية !! ..

وأقول إنها المصيبة التي ما بعدها مصيبة لأنهم لو سمعونا في مصر كانوا سيجدون أمامهم نصف ساعة يرتبون فيها لصد الهجوم الجوي ، وكان مسار التاريخ قد تغير ١٨٠ درجة .. وحتى يوجعنا قلبنا ، يوجعنا أكثر مما هو موجوع ، علمنا فيما بعد من الأسري الإسرائيليين (الطيارين) أن التعليمات التي أخذوها من قيادتهم كانت تؤكد عليهم بعدم إتمام الهجوم البادئ للحرب إذا واجهتهم أية مقاومة!!

لم تكن حرب سبعة وستين حرب الأيام الستة كما قالت إسرائيل ، لقد انتهت الحرب – بالفعل – لحظة بدأت بتدمير الطائرات فوق ممرات المطارات ، وما بعد ذلك كان تخبطا ، ولم يكن حرباً .

على الجبهة الأردنية أمرت الطائرات الاثنتي عشرة بالطلوع ، عشر منها تهاجم المطارات الإسرائيلية .. واثنتان لحماية العشر عند الإقلاع ، وعند العودة ، ولقد عادت الطائرات سليمة ، ليتم تدميرها فوق أرض المطار بمجرد نزولها ومغادرة الطيارين لطائرتهم ، وعلمنا أن إسرائيل كانت أخلت مطاراتها إلا مطارين لتركز الحماية عليهما .. ومن هذين المطارين طلعت الطلعات كلها على ارتفاع قريب جداً من سطح البحر مستهدية بنبضات الكترونية كانت تطلقها السفينة ليبرتي الأمريكية .

مقر قياداتي في مطار عمان ، كان مكاناً من الطوب اللبن ، ضُرب وسُوى بالأرض ، واعتبروني استشهدت ، لولا أن جاء قائد القوات البرية ، ليتفقد الموقف ، فوجدني حياً لا أريد مغادرة موقعي المدمر.

كنت قد طلبت من الطيارات السورية أن تضرب مطارات إسرائيل بين الطلعات التي بدأت الحرب .. لكن السوريين أجابوا بأنهم لم يستطيعوا ترتيب أمورهم في الوقت المناسب .. طلبت من العراق فرتبت ثلاث طائرات تي يو ١٦ ، واحدة تعطلت قبل الإقلاع ، وواحدة تاهت ، والثالثة دخلت المجال الجوي الإسرائيلي ، وأفرغت حمولتها من القنابل ، لكن لم يأت لنا تقرير بأنها دمرت شيئاً .. وقطع الطيار العراقي إسرائيل من الشمال إلى الجنوب قبل أن يعود .. لا أعرف لم ؟! .. لكن المهم أن أحداً لم يعترضه، ولم تطلق عليه طلقة واحدة ..

إسرائيل لم تواجه جيوشاً عربية .. لم نرها ولم ترنا .. لقد واجهت مهزلة عربية بكل المقاييس .. إنني حزين على البطولات التي أبداها البعض لأن جهل القيادات كان قد حسم الأمر منذ البداية ، والإهمال كان قد تكفل بالهزيمة المرعبة، مع التخبط والـ .. « نقول إيه بس !!!»..

القوات البرية العربية لم تكن أحسن حالاً ، موضوع سكني العائلات في الجبهة.. تكفل بإرباك القوات خوفاً على ذويهم ، وشتتهم في محاولات مستميتة لإنقاذ زوجاتهم والأولاد!! ، برغم هذا سخر العرب منا ومما حدث :. فهم كانوا ينظرون لمصر على أنها أم الدنيا .. وأنها كانت ـ حسب التوقع ـ قادرة على إسرائيل ، سخريتهم كانت تمزق قلوبنا .. بل ونظرات جنودنا أيضاً ..

كنا نخجل حتى من زوجاتنا !!!.

عدنا إلى القاهرة والغضب والخجل يفتكان بنا .. كنا قيادة وضباطاً وجنوداً نريد

أن نعرف حقيقة ما حدث .. وذات يوم استدعاني القائد العام ..قلت سيقبض علي .. فقد كان محمد فوزي يستدعي قادة الطيران ويقول لهم اذهبوا إلى الكلية الحربية ، وخذوا من قائدها التعليمات .. وكانوا يذهبون ويتم سجنهم هناك ، لكن محمد فوزي قال لي : تم اختيارك عضواً في لجنة تقصي الحقائق .. في اللجنة عرفنا الهول كله..لكن أهم شئ عرفناه .. أن القيادات التي لا تعلم شيئاً عن فنون القتال الحديثة ، على كل المستويات .. والتي كانت تتمتع بعنجهية « أنا الأقدم وكلامي يمشي» كانت وراء ما أصابنا كله ، هكذا العسكريون في كل موقع ..كنا نتندر ونحن بعد صغار في القوات المسلحة ..فيقول الواحد منا لزميله : أسمع يا واد يا فلان ..أنا أقدم منك ، نلعب تنس ..أنا أشوط وأنت ما تصدش ..نلعب طاولة أنا يجيلي في الزهر «شيش» (ستة) وأنت يجيلك «يك»(واحد) ، أنا ما أعرفش إيه أنت أيه .. وفوجئنا ونحن كبار بأن الأمور علي مستوي الدولة تدار هكذا ..ليس المهم من يعرف ..المهم أن آمرك فتطيع ..وهكذا كما قلت ، إننا هزمنا بجهل قياداتنا على كل المستويات ..

المهم .. أعددنا تقريرنا وقلنا إن عبد الناصر لا يمكن أن يقرأ هذه الآلاف من الأوراق ..لابد لنا من أن نلخص له الأمور في صفحة أو اثنتين ..وهكذا أضفنا بابا سابعًا لمحاضر التحقيقات ، التي قامت بها لجنة تقصي الحقائق ..وضعنا فيه كل شيء ، من أول الخطأ في إغلاق خليج العقبة ، وإخراج قوات الطوارئ الدولية ..إلي سوء وضع قواتنا في سيناء ، الذي أدي إلي تدميرها بسهولة ، إلي ..إلي ..إلي.. وأرسلنا التقرير لجمال عبد الناصر ، ..وأرسلت نسخة منه إلي المدعي العسكري ..طبعًا المحامون الذين جاء بهم المتهمون ..ما أن قرأوا الباب السابع حتي صاحوا ، هذا هو دفاعنا عن المتهمين ..ثم فوجئوا بعد ذلك بأن الباب السابع تم نزعه من ملف التحقيقات ..والسبب واضح !.

بعـد ذلـك اسـتدعاني أمـين هويـدي وقـال :إن قـرارا جمهوريـا صـدر بـأن أتـولي الطيران .. والحقيقة أن الطيران كان مشكلة في ذلك الوقـت بعـد النكسـة مباشرة ، قادته كلهم في السجن ، وهيكل قال لي فيها بعد ذلك بسنوات ، أن عبد النـاصر كـاد يفرج عن واحد مـن المسجونين ليتـولى قيـادة الطـيران ..إلي أن أهتـدي إلي أن يوكـل المهمة إلي الفريق أول مدكور أبو العز .... وكان محافظا لأسوان في ذلـك الوقـت ... الحقيقـة الفريـق مـدكور أخـلاق و حسـن إدارة و انضـباط مفـيش بعـد كـده ، و أنـا شخصيا كنت معجب به ، و عمل أشياء عظيمة في الطـيران ، جـاء بأسـاتذة الجامعـة لكـي يصـمموا لـه دشـما تحمـي الطـائرات .. و وضـع خطـه .... لكـن المشـكلة إن معلومـات الطـيران بتغيـير كـل يـوم ، العلـم مـا بيفضـلش عـلي حـال ... كـل لحظـه اكتشاف جديد .. و الفريق أول مدكور كان سايب الطيران من فترة ، لخلافات بينـه و بين صدقي محمود .

جئت بعد الفريق أول مدكور، جئت أكمل مـا بـدأه .. وأبـدأ مـا لم يبـدأ بعـد .. و الحقيقة عملنا حاجات كثيرة لدرجة أن أحد القادة الروس، الذين كانوا يعاونوننا .. زارني في مكتبـي ، و أفخـر أنـه قـال لي : إنـه لم يـزر أحـد غـيري ، لأن مـا فعلتـه في الطيران، في عشرين شهر ،لم يكن من الممكن أن يتم في عشرين سـنة .. الحمـد الله .. كنت أعمل ليل نهار وننجز . وكان عبد الناصر قد استقبلني في البـدء ... و الحقيقـة صِعب علي ، و هو يشرح لي كيف أنه لم تكن له يد فيها حـدث ، فلـم يكـن يسـتطيع أن ينقل أمباشيا إلا بمعرفه المشير .. و أن المشير كان يعتبر الجيش إقطاعـه .. وكـان قـد وجه مدافع في الماظة لتقذف بيت عبد الناصر – كما قـال عبـد النـاصر – بالقنابـل إذا ما حدث شيء استلزم ذلك ، من وجهة نظر المشير و.. و.... و... وكنـت أقـول لـه ربنا يخليك لينا يا أفندم .. ما كنتش قادر أقول حاجة غيرها ، وبقينا نسعى جاهـدين

لإصلاح الأمور حتى قمتم أنتم بمظاهراتكم !! ..

و قال سيادة اللواء مصطفي الحناوي :

هكذا نكون قد تكلمنا باختصار مخل .. عن شهادتي بالنسبة لحرب ١٩٦٧ الوكسة .. النكسة .. المصيبة السوداء ..

و الآن جاء دور شهادتي عن مظاهرات الطلبة ...

قلت :

- إنها الشهادة القنبلة التي لا أكاد أصدقها ...

قال في تواضع شديد :

- ولا يمكن لأحد أن يصدقها لولا شهودها الأحياء ..

نظرت للجهاز لأتأكد أنه مازال يسجل .

قال اللواء مصطفي الحناوي :

كانت المظاهرات في الإسكندرية علي قدم وساق في نوفمبر ١٩٦٨ ، وكنت أنا في مقر قيادة القوات الجويه . أشتغل عادي .. بامضي أوراق مهمة .. رن جرس التليفون ، وكان عل الخط الفريق أول محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة .. (كان أستاذي في الكلية الحربية ، و كان فيه جانب كبير من العنف .. لا أقصد بالعنف الشدة .. فالشدة ممكنه دون عنف) قال محمد فوزي :

- اللواء المراسي في إسكندرية طلع بالقوات بتاعته عشان يفرق مظاهرات الطلبة ما قدرش ، أنا بأديك أمر أنك تفرق المظاهرات دي بضرب النار من طائرات الهليوكوبتر ...

الفريق فوزي قال كده ، و أنا الدم غلي في دماغي، ما حستش بنفسي ... قلت :

ـ يا نهار أسود .. سيادتك بتقول إيه؟! ، نضرب الطلبه بالرشاشات المثبتة في الهليوكوبتر (تعديل لنا أجريناه في الهليوكوبتر ، وعاوننا فيه أحمد فهيم اللي مسك بعد كده الطيران المدني) أنت عارف سيادتكم النتيجة ح تبقي إيه ... حتبقي مجزرة !!.. هتبقي سلخانة !! ...

و قلت :

ـ الطلقة ٣٧ مللميتر .. مش ح تصيب واحد .. في الزحمة ممكن تصيب عشرة ورا بعض .. يعني دقيقتين أمشيهم فوق شارع أبو قير و شريط واحد أخلصه (ألف طلقة هي الحد الآدني) ونبقي محتاجين الجيش الثالث عشان يشيل الجثث .. إحنا جايبين الطيارات نحارب بيها إسرائيل ، و إلا نضرب بيها ولادنا ؟!!! .

قال محمد فوزي :

ـ دي أوامر السيد الرئيس جمال عبد الناصر .. السيد الرئيس بيقول إن مظاهرات الطلبة الغرض منا إسقاطه .. وبيطلب منا مساندته .

قلت ، وأنا ما زلت مذهولا:

– يافندم دي ح تنكتب في التاريخ .. زيها زي مذبحة القلعة .. مذبحة كوبري عباس .. التاريخ ح يكتب أننا قتله ، و الشعب مش ح يسامح ... وأفرض يافندم أديت أنا أمر لضبا ط الهليوكوبتر بضرب الطلبة ورفضوا .. ح نحاكمهم !!.. ح نحاكم الستة و تسعين ضابطاً !!! .. ح نحاكمهم يا فندم ؟! .. لا يافندم أنا مش منفذ ، و أنا جاهز يافندم تعملوا في إللي انتوا عايزينه .. أنا عاصي و مش منفذ ..

قال محمد فوزي :

–ح نقول إيه لعبد الناصر ؟!.

قلت :

- قول له يختار السجن اللى أتوجه له .. وأنا جاهز يافندم .. أنا عاصى و مش منفذ .. أنا لا لى فيهم ابن ولا أخ و برضه ما أقدرش أضربهم .

قال محمد فوزى :

- اضرب في الميه .

قلت :

- لو ضربت في الميه .. ما هو ضرب نار برضه يافندم .. لا يافندم .

قال :

- تصرف بأي طريقة ما تزعلش جمال عبد الناصر .

و ملامح أسى شديد ترتسم في وجهه ، قال اللواء الحناوي :

- وتصرفت .. وغضب جمال عبد الناصر .. وأسرها في نفسه .. قلت لقائد الهليوكوبتر في الإسكندرية .. كل اللى ح نعمله .. أنا ح نطلع الطيارات من الدخيلة ، تطير على البحر لحد ما توصل أبو قير .. خوفا من أن تقع على مناطق سكنية اذا وقعت لا قدر الله .. قلت له م تمشيش على الكورنيش ، أمشى فوق البيوت .. و ما تحملش ذخيرة نهائيا .. و تأكد بنفسك أن مفيش أي ذخيرة ـ و لا طلقة واحدة ـ على الطائرات .. تأكد بنفسك ..

قال اللواء الحناوي :

ـ كنت أخشى أن حد خسيس يحمّل الطيارات في السر .. عشان يرضى أسياده ، وطبعا أسياده ح يحموه .. و اللي اشترطته هوه اللي حصل .. و أبلغته لمحمد فوزى ، فقال : ماشى .

و سألت اللواء الحناوى :

ـ كيف عرفت أن جمال عبد الناصر غاضب منك ؟

قال :

ـ عبد الناصر ما كانش بيتكلم .. أسرها في نفسه .. لكنى عرفت بعد ذلك ما حدث من الأستاذ هيكل .. كنت بسجل للأستاذ هيكل في مكتبه ما حدث في حرب ٦٧ ، وقال لي الأستاذ هيكل :(عبد الناصر بعد المظاهرات قال لى : أنا ح أشيل الحناوى : قلت له يافندم ده عمل حاجات كويسة كثيرة في الطيران .. قال ح أشيله لأنه كان يعلم أن الهدف من مظاهرات الطلبة هو إسقاطي و لم يرد أن يساعدني !!

و الآن ..

هل كان يدور في خلدي و أنا أستقرئ حوادث نوفمبر١٩٦٨ أن هذا هو ما حدث ؟! .

بالطبع لم يدر في خيالي أي شيء من هذا ..

لكن شهود الواقعة أحياء .. الفريق فوزى حى،

الأستاذ هيكل حى،

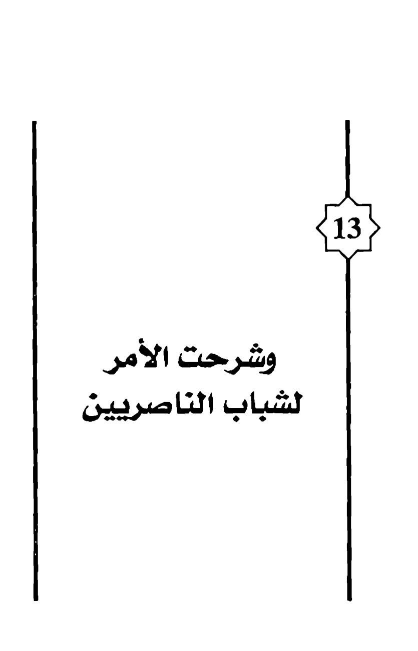
و اللواء جبر شاهد الواقعة حي

و اللواء نبيل كامل الذي تلقى الأمر و نفذه .. حي ..

و أنا و أنتم أحياء ،

ومن يحيا ياما يشوف و اللي يكتب ويقرأ «يشوف » أكثر !!

مد الله في أعمار الجميع .



13

وشرحت الأمر لشباب الناصريين

أول ما جلست إلى اللواء الحناوي - أمد الله في عمره ، و زاده صحة و قوة - في بيته الجميل بألماظة ، و بيننا جهاز تسجيل يدور ، بادرته بالسؤال :

- هل هناك شهود للواقعة التي سترويها حضرتك لى ...

وبمنتهى الثقة رد على الرجل الكريم :

- نعم هناك شهود أحياء ..

- من هم ؟.

- اللواء طيار د. جبر على جبر و كان ضمن قيادة الطيران بين ٩٨ و ١٩٧٤ . و اللواء نبيل كامل ، قائد فرقة الهليكوبتر بالقوات الجوية من تاريخ الواقعة و حتى إحالته إلى التقاعد .

- و هل هما مستعدان للشهادة في أمر خطير كهذا ؟.

وقال الرجل منتصرا لرجال سلاحه :

- كل اللي في سلاح الطيران رجالة ، ولا يمكن أن يتراجعوا عن شهادة حق .

طلبت ساعتها من اللواء الحناوى ، قبل أن نبدأ التسجيل أن يعطيني أرقام التليفونات الخاصة بالشاهدين .

فهم الرجل الحصيف ما أرمى إليه .. فقام من فوره قائلا :

- سأعطيك أرقام تليفوناتها ... و سأتصل بهما الآن لتكلمها بنفسك .

وكان أن اتصل اللواء الحناوى بهما ... و كان أن أكدا لي أن الواقعة حقيقة ، و كان أيضا أن تساءلا : ما الذي ذكر اللواء الحناوى بهذا الأمر الأن ؟. (أى أنه لم يكن بين الرجال الثلاثة أي اتفاق مسبق) ، و كان أن سألتهما هل هما مستعدان للإدلاء بشهادتيهما إذا جد الجد ، و كان أن رد كل منهما غاضبا من سؤالي .

- نحن لا نستطيع أن نخفي شهادة حق .

و بانتهاء المكالمتين ، قلت لسيادة اللواء الحناوى .. و قد غمرني إحساس بأنني سأحصل على كل ما أريد :

- نبدأ التسجيل الآن ...

و بدأ اللواء الحناوى التسجيل (الذي مازلت أحتفظ به إلى الأن) بسؤال .

- هل نبدأ بأن نتكلم عن الواقعة ؟

ساعتها قفزت إلى عقلي فكرة ، رأيت أنها الصواب ، قلت لنفسي اسأل الرجل أولا عما أعرف ، وأرى و أقيس قدرته على التركيز . و كان أن فعلت ، وكان أن أذهلني الرجل بذاكرته القوية التي ما زالت تحتفظ بالتفاصيل ، بل الثلاث ٣٠ مايو و إحنا بنعمل كذا وكيت ، و دخل علينا فلان الساعة حداشر ، و ... ، و بسرعة كنت أروح أحسبها ، ٥ يونيو كان يوم أثنين ، فيكون الثلاثاء قبله بالفعل ٣٠ مايو (لأن شهر مايو ٣١ يوما) ، أي أن شيئا لم يسقط من ذاكرة الرجل حتى التفاصيل الدقيقة .

والحقيقة أنني سجلت له قبل أن يتكلم عن الواقعة أكثر من ثلاث ساعات ، و أدهشتني الساعات الثلاث كلها بدقة الحكي ، و انضباط التسلسل ، بل و براعة العين التي تحتفظ في لماحية مؤكدة بالصور بكل تفصيلاتها « من كان على يمين من ، ومن الذي دخل في اللحظة الفلانية ، و ماذا كان يلبس ، وما الكلام الذي قاله بالضبط » .

ولقد أصررت بعدها على أن انشر ملخصا وافيا للساعات الثلاث التى تكلمنا فيها عن النكسة و أسبابها ، و الفرص الضائعة ، التى كان المرتجى من انتهازها أن يغير النتائج التى أسفرت عنها الحرب ، أصررت على نشره ، لا لشئ إلا لكى أعطى القارئ فكرة عن قوة ذاكرة الرجل ... حتى يصدق القارئ أن الرجل يتذكر بدقة في حادثة أمر جمال عبد الناصر الذى نقله الفريق فوزى إليه (إلى اللواء الحناوي) ،

بضرب الطلاب في الإسكندرية في مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ بالرشاشات ذات العيار الثقيل ، من الطائرات الهليوكبتر ، التى كانوا يجهزونها لأعداء الوطن ... اليهود الصهاينة !!.

ولقد صدق القارئ ما جاء على لسان اللواء مصطفي الحناوى .

لهذا آلمنى جدا أن يقول الأستاذ محمد حسين هيكل في رأيه الذي أملى نقاطه للأستاذ عادل حمودة « ليس لدى تفسير سوى أن اللواء الحناوى يعيش الأن في عزلة (لم أر الرجل في عزاه ، رأيته يعيش مع زوجة و أولاده و أحفاده ، في فيلا جميلة بألماظة ، ودعاني إلى بيته الكبير في بلده وسط الأرض الزراعية التي ورثها عن أبيه ، و الذى تنتقل عائلته معه إليه حين يذهب إلى هناك .. وأن كنت شكرته مخلصا و لم أذهب ، أية عزلة هذه التي يتكلم عنها الأستاذ هيكل بلهجة الرجل الذي يعرف الأسرار كلها ؟!!!) ، بل وآلمني أن يستطرد الأستاذ هيكل فيقول « وبدلا من أن يحلق بالطيارات فهو – اللواء الحناوى – يحلق في الأوهام » !!.

و الحقيقة أن الرجل كان في غاية من الموضوعية ، سواء التي نقلتها عنه إلى صفحات المجلة ، أو تلك الأسرار التي احتفظت بها لنفسي ، و التي ربما أعلنتها في أوقات أخرى ...

المهم ... انتهى حديثي مع الرجل ... وذهبت به إلى منزلي ... ورحت أديره مرة أخرى ، و أنا اسأل نفسي :

– هل ستنشر هذا الكلام عن جمال عبد الناصر ؟

الحقيقة أن قلبى لم يكن يريد أن يطاوعني في أن أقول عن جمال عبد الناصر علنا هذا الكلام!.

لجأت إلي زوجتي ، وابنتي الكبيرة ، وحكيت لهما ما كان ، وأسمعتهما التسجيل

الذي حصلت عليه من اللواء الحناوي ..

قالت زوجتي (الناصرية) :

ـ ما الذي ستستفيده من تشويه الرجل (جمال عبد الناصر) إلي هذا الحد .. المستفيد من هذا التشويه ، سيكون هو القوي المضادة لكل شيء جميل في المرحلة الثورية المصرية وأهدافها ..

وقالت أبنتي (وكانت لحظتها في الثانوية العامة ، و هي الآن طبيبة متخصصة في أمراض النساء و التوليد) :

ـ ما دام حصل .. حضرتك أنشره ..

لكن ابنتي لم تكن مرتاحة لما قالته ، كان الأسى يشوب حماسها ، الذي أرادت أن تنقله عليّ من وراء قلبها ..

وقررت لحظتها ألا أنشر شيئاً مما قيل لي .. ورحت أعلل نفسي بأن سوء تفاهم قد يكون وراء فهم اللواء الحناوي للواقعة التي أوردها بهذا الشكل .. وقلت لنفسي ، إن حادثة خطيرة كهذه كان لابد وأن يرد لها ذكر ولو بالتلميح في مذكرات الذين كتبوا عن تلك الفترة ..

هكذا نبتت في ذهني فكرة أخري .. قلت لنفسي : لماذا لا أعود إلي المذكرات المكتوبة عن تلك الفترة ، لأري إذا ما كان فيها أي تلميح عن الأمر ، فإن لم أجد ، سيكون هذا إعفاء لي من تحمل هم الكتابة في موضوع شائك كهذا .

الغريب أنني رأيت في مذكرات أحمد كامل ، ليس تلميحًا ولكن إثباتاً لصحة الواقعة ! (كنت قد نقلت عنها في المقال السابق لحديثي مع سيادة اللواء) .

وعاد السؤال يلح علي :

ـ الواقعة صحيحة ، والرجل كان يقطر صدقاً وهو يكلمك ، والشهود أكدوا كل حرف قاله .. والمذكرات التي كتبها أحمد كامل تثبت هي الأخرى صحة الواقعة ، ومع كل هذا ، هل ستنشر هذا الكلام ؟.. ولمصلحة من ؟ .

وفجأة لم أصبح متردداً على الإطلاق ، فجأة أحسست أن لزاماً على أن أنشر الواقعة كما عرفتها ، وكما تأكدت من حدوثها ، لقد كانت كلمة «لمصلحة من » هي مفتاح تغير موقفي من التردد الحائر إلي التصميم الحاسم .

وجدت نفسي أقول لنفسي ..«سأكتبها لمصلحة الوطن ، ليعرف الوطن أن العسكريين إذا حكموه لا يتورعون عن أي أمر إذا ضاقت بهم السبل في السيطرة على الناس ، سيطرة لا تعترف بالمشاركة ، سأكتبها من أجل دم زملائي الطلبة ، و إخوتي العمال ، الذي أهدره جمال عبد الناصر في شارع رمسيس والعباسية والمنصورة والإسكندرية ، ولكونه كان مستعداً لإهدار دم المزيد منهم ، دون ذنب جنوه في الإسكندرية .

ساعتها بدأت أكتب الموضوع ..

وأنا أكتب الموضوع قررت ألا ألقي بأوراقي كلها من المرة الأولي ، قررت أن ألقي ببعض الأوراق في مقالتي ، وأن أحتفظ ببقية الأوراق ، وأن أنشر الأوراق تباعاً إذا حاول أحد أن يكذب الواقعة ، وكنت واثقاً من أن أوراقي ستستطيع أن تفحم كل مكذب ..

ولقد حاول البعض تكذيب ما كتبته .. [1]

حاول الأستاذ محمود الجيار سكرتير جمال عبد الناصر التكذيب ..

(1) محاولات التكذيب موجودة في الملاحق تحت عنوان «شهود النفي والإثبات يتحدثون عن ضرب المظاهرات بالطائرات . وكذلك ردي على جريدة العربي.

وأصر الناصريون على ضرورة أن يكذِّب الفريق فوزي الواقعة (و لأن الواقعة تشينه ، قرر أن يحاول خداع التاريخ ، و تكذيب الوافعة).

وقال بعضهم لن يستطيع تكذيبها رجل أفضل مما يستطيع الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يفعل (خصوصًا وأنني ذكرت الأستاذ هيكل في مقالي ..) .

ثم بعد هؤلاء ألقي الأستاذ عبد الله إمام بدلوه في محاولة التكذيب .

الأوائل نشروا تكذيبهم في روز اليوسف في العدد ١٤١٨ بتاريخ ١٢ مايو ١٩٩٧ .

والأخير نشر تكذيب الفريق أول محمد فوزي (الذي كان قد أرسله إلي روز اليوسف ، قبل أن تنشره المجلة المعنية !!) في جريدة «العربي» لسان حال الحزب الناصري (في صفحتها الأولي ، باتساع النصف الأعلي من الصفحة ، تحت أسم الجريدة) ، ثم نشر مقالاً مطولا كله هجوم على اللواء الحناوي وعلى شخصي في العدد التالي من جريدته العربي ، التي يرأس تحريرها .

آخرون أيضا حاولوا الهجوم على ما كتبته وعلى شخصي لكنني لم أر أهمية فيما كتبوه ..

قررت أن أكتفي بردي علي الأستاذ هيكل والفريق أول محمد فوزي ، وإظهار شهادة شاهدي الإثبات في الواقعة في روز اليوسف ، لكن محاولة الأستاذ عبد الله إمام لأن يثبت أن الكلام الذي أوردته محض تحريف من اللواء الحناوي ، استفزتني ، فكتبت رداً لجريدة العربي وذهبت به إلي مقر الجريدة لأسلمه ..وبالفعل سلمته للأستاذ «وائل قنديل» ، ولم ينشر الرد .. وقيل لي إن على أن أرسله إلي الجريدة على يد محضر ، ولكنني لم أرد أن أفعل هذا ، إذ تأكد لي أن ما كتبه الأستاذ عبد الله إمام لم يحدث التأثير الذي أراده .

موقف آخر أظن أن من الضروري أن أرويه ..

عندما ذهبت إلي منزل اللواء طيار د. جبر على جبر ، لأسجل له شهادته ، التي نشرتها في روز اليوسف قال لي سيادته أن الفريق أول محمد فوزي أتصل به بشأن ما نشرته .. قلت :

- غريبة إنني لم أت بسيرتك في الموضوع المكتوب !!..

(من فضلك أرجع إلي الهامش في نهاية الفصل الفائت).

قال سيادته:

- الفريق أول فوزي يعرف أنني من شهود الواقعة ..

سألت متوجساً :

- ماذا قال لك الفريق أول فوزي بالضبط ؟ .

- قال لي شفت التخاريف اللي نشرها صاحبك في روز اليوسف ..قلت له ..الواقعة اللي أتكلم عنها اللواء الحناوي حقيقية يا فندم ..قال أنت كمان بتتكلم زي صاحبك !..

وقال لي اللواء د. جبر :

- سيادة الفريق أول زعل مني ..وبرغم إني بعمل معاه أبحاث خاصة باحتفالية لجمال عبد الناصر بتشرف عليها السيدة هدي عبد الناصر - وممكن يزعلوا كلهم من اللي ح أقوله ..إلا أن الحق ..حق.

وبدأت أسجل مع الرجل (بحق) .

ولما عدت لمنزلي ..فوجئت بمكالمة تليفونية متعجلة من السيد اللواء قال لي فيها :

- أقرأ لي اللى أنا قلته من فضلك في الشريط ..

وراح يتفق معي على ما ينشر منه ومالا يريد له أن ينشر (الأن) . وقد نفذت كل ما أراده الرجل..إذ كان ما بقي من الكلام يفي بالغرض تماماً .

وأقول للقارئ : الحق أنني بعد جلستي هذه مع السيد اللواء د. جبر أصبحت متأكداً ١٠٠٪ من صحة الواقعة.

ـ المهم الآن ..عندما ذهبت إلي جريدة العربي ، ألتف حولي بعض من المحررين الناصريين الشباب (وقد حدث نفس الأمر لي مع رفاق ناصريين في أماكن أخري) الشباب .. يعاتبونني على ما كتبت ، ويعلنون أنهم لم يصدقوا ـ و من غير الممكن أن يصدقوا ـ أن جمال عبد الناصر من الممكن أن يفعل شيئًا كهذا .

قلت لهم :

ـ لقد كتبت ما تأكدت من أنه الحقيقة ..

ردوا في حدة تخفيها دماثه أخلاقهم ، وابتسامات حائرة خجلى ترتعش حول الشفاه:

قلت :

ـ وماذا لو أوضحت لكم الآن وجهة نظري..

وكان أن سمحوا لي:

قلت لهم ، إذا رجعتم لمذكرات الأستاذ أحمد كامل ـ التي نشرت أجزاء منها قبل أن أنشر مقالي عن حديثي مع اللواء الحناوي ـ ستجدون الأستاذ أحمد كامل يقول الأتي :

١ـ خرجت من الجامعة بانطباع أن تجربة الحوار ، لن تحقق النتائج المنتظرة ، اتصلت بسامي شرف ، وقلت له أبلغ الرئيس أنني أطلب تدخل الجيش لإنهاء

الاعتصام (أي أنه كان هناك طلب لتدخل الجيش ضد الاعتصام .. هذه واحدة) .

٢ـ بعد دقائق جاء رد سامي : الرئيس أمرني بأن أتصل بالفريق أول محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة ، وأن أبلغه أن يتصل بك (أي أن عبد الناصر لم يقل لا لتدخل القوات المسلحة .. هذه ثانية).

٣ـ بعد دقائق كلمني الفريق أول محمد فوزي وقال :

«وضعت قائد المنطقة العسكرية الشمالية تحت قياداتك . أخبره بطلباتك وسوف يقوم بتنفيذها على الفور (ماذا كان يطلب أحمد كامل غير تدخل القوات المسلحة ضد الطلبة ؟! ، أي أن القوات المسلحة كانت موافقة على ما يريده أحمد كامل ، وأن جمال عبد الناصر كان موافقًا ، فهذا أمر لا يستطيع الفريق فوزي أن ينفذه دون العودة إلي القائد الأعلى للقوات المسلحة .. هذه هي الثالثة).

٤ـ قلت (أحمد كامل) بعدها لقائد المنطقة الشمالية أن يعطي أوامره لقيادة الطيران (هذا كلام أحمد كامل ـ تذكر) في المنطقة ليتم إرسال عدد من طائرات الهليكوبتر فوق مواقع اعتصام الطلبة (إذن كان في الأمر طيران ، و من نوع الهليوكوبتر .. هذه الرابعة).

٥ـ كما طلبت منه (من قائد المنطقة الشمالية) وضع بعض قوات الجيش لتدخل إلي المحافظة وتمر بدباباتها وأسلحتها أمام طلبة الهندسة (أي أن القوات المسلحة شاركت بالفعل وليس كما يتنصل الفريق أول فوزي من الأمر ،كاذباً على التاريخ .. هذه الخامسة).

٦ـ شاركت الطبيعة في أخراج مسرحي للموقف ، فقد تزامن رعد وبرق ومطر ، ومع أصوات الرياح والسحب تصور الطلاب أن الطيران قد بدأ القصف والهجوم ، (أي أن الطيران كان متواجدا وبشكل يوحي بأنه سيبدأ القصف والهجوم) في الوقت

الذي مرت فيه بعض قوات الجيش أمام الجامعة وتمركزت بعض الوحدات في الاستاد الرياضي المجاور ، ورن جرس التليفون في مكتبي ..كان المتحدث أحد قادة الاعتصام ، قال : لقد قررنا إنهاء الاعتصام .

هذه هي النقاط التي جاء بعضها في مذكرات الأستاذ أحمد كامل (ويمكن بسهولة الرجوع إلي مذكراته).

وقلت للناصريين الشباب الأعزاء..

ما الذي قاله اللواء الحناوي ولا يستقيم مع رواية أحمد كامل محافظ الإسكندرية وقت اندلاع المظاهرات في نوفمبر ١٩٦٨؟.

إن الأستاذ أحمد كامل أقر بأنه طلب تدخل القوات المسلحة وأن عبد الناصر لم يمانع ، وان الفريق أول محمد فوزي قد سهل له كل الأمور لتدخل القوات المسلحة ، وأن الأستاذ أحمد كامل طلب من قائد المنطقة الشمالية تدخل طائرات الهليوكوبتر.

ـ ألم يقل الأستاذ أحمد كامل كل هذا؟ ..

قال شباب الناصريين..

ـ قاله ..

قلت :

ـ لننظر الآن فيما لم يقله الأستاذ أحمد كامل ..الأستاذ أحمد كامل لم يقل إن خروج الطيران لا يتم بأوامر من قائد منطقة عسكرية ، خروج الطيران قرار القائد الأعلى والقائد العام وقائد الطيران ..

وما دام أحمد كامل قد أقر بأن الطيران قد جاء ، وظن الطلبة أنه سيضربهم ، فإن الأمر لابد أنه احتاج إلي أن يتم الطلب في هذا الشأن من قائد الطيران . والذي يستطيع أن

يعطي أوامر لقائد الطيران بهذا الخصوص واحد من اثنين ..جمال عبد الناصر أو محمد فوزي .

وهكذا يكون الفاعل جمال عبد الناصر .

أو أن الفريق أول محمد فوزي فعلها من دماغه ، ولا أظن أن هذا الأمر صحيح ، ذلك أن جمال عبد الناصر لم يمانع في تدخل القوات المسلحة بل وفي وضع كل إمكانياتها في خدمة إنهاء الاعتصام وتفريق الطلاب .

ثم سألت الناصريين الشباب :

ـ كيف تطلبون مني بعد كل ذلك ألا أصدق ما قاله اللواء الحناوي ، وبه تكتمل الصورة التي رسمها أحمد كامل .

وابتسموا في حيرة أشد ..

قلت :

ـ وكيف تطلبون مني ألا أنشر هذا الكلام ما دمت صدقته .

الحقيقة أن الواقعة صادقة . ولا أظن إلا أن عبد الناصر فعلها لأسباب شرحتها قبلا .

فهل يمكن بعد كل هذا أن يقول الفريق أول محمد فوزي (بعد خمسة و عشرين سنة ، في رده على الأمر إن القوات المسلحة لم تتدخل نهائياً !!!..

وهل يمكن بعد كل هذا أن يقول الأستاذ هيكل إنه لم يطلق رصاص على الأرض ليطلق من السماء ..(بينما الأهرام تحت رئاسته ـ وقت الأحداث ـ قد أشار عدة مرات إلي إطلاق الرصاص واستخدام القوات المسلحة !!!![1]).

(1) راجع الملحق

وهل نصدق الأستاذ محمود الجيار إذا قال لنا أن جمال عبد الناصر لا يفعلها ! .

لم ينشر ردي في » كما قلت ، وكان من حقي أن ينشر وانتظرت العربي سنة كاملة لتنشر (بعد العيد الذي لا يفتل فيه كحك بسنة كاملة!!) حديثا من بعض المشاركين في الحركة الطلابية ، حاولت فيه أن تنفي أمر استعمال الرصاص ضد المتظاهرين ، وأن تعفي جمال عبد الناصر من المسئولية ، سنة كاملة جعلتني أفهم أن كانت قد قررت أن تتهرب من المواجهة السافرة ، وأن تتسلل ـ كاللصوص في الصفحة قبل الأخيرة ـ بعد ذلك بسنة في محاولة لمحو الفكرة .

والآن ماذا ستقول العربي .. إذا قلت لها أنني أخفيت أخر أوراقي وهي دفاع عبد الناصر عما حدث من إطلاق للرصاص ، في المؤتمر القومي للقوي الشعبية بعد الأحداث ..

ماذا ستقول العربي...

وماذا سيقول الناس؟..

خاتمة

في جنازة عبد الناصر ، خرجت الملايين تبكي تبكي فتاها ، تشق عليه كما قال يوسف إدريس(ذو العيون المصرية) جلبابها الوحيد الذي يستر عريها ...كان زن الناس صادقاً وعظيماً ، بقدر ما كانت الفجيعة هائلة ، وأشد ضراوة من أن تحتمل ..لقد كان عبد الناصر فرصة الملايين التاريخية ، وبين هؤلاء الذين كان عبد الناصر فرصتهم ، كنا نحن الجيل الذي واجهه .

إن مشاعر الجماهير لا يمكن تزييفها ..آراؤها تزيف..أصواتها الانتخابية حتى بعد الموت تزيف !! لكن المشاعر كالأفكار ، حكر على أصحابها في حصن من الأجساد حصين لا يمكن أن يطال ..وما لا يطال لا يمكن تزييفه ..

لقد بكي الناس جمال عبد الناصر بدموع صادقة ..حارقة ..كانت تسيل وما زالت من قلوب صادقة .. محروقة .

لقد قيل الكثير عمن بكوا جمال عبد الناصر ..ولا أظن إلا أن أكثر الكثير الذي قبل لم يمس الحقيقة !!

قالوا أننا شعوب عاطفية لا تحكم المنطق !!! وقالوا أننا متخلفون نبكي أبا مات ..لأننا غير ناضجين لم نفطم بعد على الفارق بين الأبوة وبين الزعامة (ورئاسة الجمهورية) ، وقيل أن الدعاية المهولة استطاعت أن تخدعنا وقيل وقيل وكل ما قيل لم يستطع أن يشرح صدق الدموع ..وتفجر المشاعر في لحظة لا تحتمل إلا البراءة .

في مثل هذه اللحظة تبكي الشعوب فرصتها التاريخية .

الذين تكلموا عن أننا شعوب عاطفية لا تحكم المنطق ..لا أظنهم بقوا على رأيهم بعد أن رأوا جنازة الرئيس السادات .

الذين قالوا أننا متخلفون نبكي أباً مات ..لا أراهم قد وضعوا في اعتبارهم أن هذا الشعب كان أباً لجمال عبد الناصر في لحظات لا يمكن إنكارها (العدوان الثلاثي ـ الانفصال ٩،١٠ يونيو ١٩٦٧) عندما رأي عبد الناصر أبنا تهزه الحوادث الفاجعات ..ولا أراهم أيضا وضعوا في اعتبارهم تلك المعارضة التي لاقاها عبد الناصر في حياته من اتجاهات مختلفة ، أكثرها كان يعارض من باب الحفاظ على الفرصة التاريخية حتى لا تفلت .

الذين يرددون أن الدعية المهولة استطاعت أن تخدعنا ..لا أخالهم يقدرون حجم الدعاية المضادة التي حملتها رياح يونيو ١٩٦٧ وما بعدها لهذا الشعب ..

مرة أخري نقول أن الشعوب تحب ..وتغفر ..وتبكي ..من أجل فرصتها التاريخية ..

لقد هزم عرابي ..هزيمة مروعة ، وبكي الشعب المصري عليه فرصته التاريخية الضائعة ..

ولقد مات سعد زغلول بعد أن أكد بنفسه أن تصريح فبراير ١٩٢٢ ليس إلا استقلالا صوريا ، وأن الديمقراطية وهم في ظل حراب الإنجليز ، وعطايا ولي النعم ، مات ولم يحقق ما خرج من أجله .. وبكت الجماهير المصرية عليه فرصتها التاريخية الضائعة .

ومات وسيموت الكثيرون ، ولم ولن تبكي عليهم الجماهير لأنهم لم ولن يكونوا فرصتها التاريخية ، الجماهير تبكي من يقول لها حسبها المصلحي أنهم كانوا لها ..

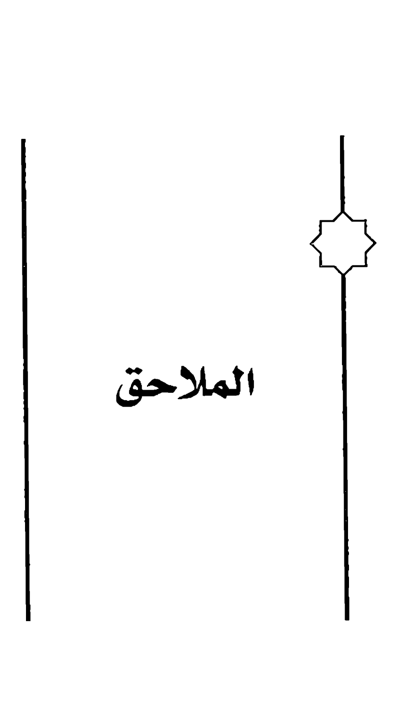
الجماهير لا تبكي أباها .. تبكي فتاها ..

لقد كانت الجماهير أبا لأحمد عرابي ، وهو في التل الكبير ، كانت أبا له لأنه كان فتاها حتي وهو في التل الكبير !!! وكانت أبا لسعد زغلول وهو في المنفي ، وفي لحظات رأت أن قامته أقصر من حراب الإنجليز ، ومن برج ولي النعم الذي يتفيآ كأباته ظل الحراب الإنجليزية ، ذلك لأن سعد زغلول كان فتاها ، حتي وهو في المنفي ، وحتى وهي التي ترفعه لتطول قامته حراب العدو ، وفوقية لص النعم ..

ثم ألم تبكي الجماهير مصطفي النحاس فتاها في عهد فتاها جمال عبد الناصر لتثبت لكل ذي غرض ، ولكل قصير النظر أن فتي لها لا يلغي فتي عندها ..فالكل أبناؤها الفتيان .

بهذا المنطق بكي الطلاب الذين واجهوا جمال عبد الناصر ، لقد أرادوا برغم صغر سنهم أن يكونوا آباءه ، لكي يكون لمستقبلهم بكوة هم الذين لم يتوقفوا عن مواجهته ، كما أوضحنا بكوة عليه فرصتهم التاريخية التي واجهوه من أجلها ، إلي أن انبري لهم من لا طاقة لهم على مواجهته .. الموت !!!

إن حسابات الجماهير جدلية .. أكثر تعقيداً عما يبحث عنه الكتاب ، غربيين ومستغربين وغرباء ، من سبب ونتيجة .



الملاحق

ملحق رقم (١)

شهادة الصديق «معتز الحفناوي» رئيس اتحاد جامعة عين شمس

في فترة مظاهرات ١٩٦٨ الأولي والثانية :

ماذا حدث في جامعة عين شمس

تعليقا على حلقات «جيل الهزيمة [1] » الذي واجه رصاص عبد الناصر والسادات » أقول :

تعتبر هزيمة ١٩٦٧ هي نقطة الفصل الأساسية بين مشاركة جماهير الشباب عامة والطلاب خاصة في العمل السياسي من خلال الأشكال والمنظمات التي تكونها وتقودها سلطة عبد الناصر ، وبين العمل السياسي خارج هذه الأشكال والمنظمات لرفع الشعارات الوطنية والديمقراطية وتحقيقها .ولقد ظهر جلياً داخل جامعة عين شمس منذ بداية العام الدراسي ٦٧ـ ٦٨ ثورة الطلاب على الأوضاع غير الديمقراطية والفاسدة ، والتي لم تتغير رغم الهزيمة . وظل حوار الطلاب خلال مجلاتهم وندواتهم الصغيرة تعبر عن رفض هذه الأوضاع ، وتزيد اشتعال ثورة الطلاب سواء أعضاء منظمة الشباب الذين كانوا متعودين على الإتحادات الطلابية أو غير المنتمين لهذه التنظيمات .وعند ظهور أحكام قادة الطيران في فبراير ٦٨ ثم لم تكد الجامعة تفتح أبوابها في الصباح حتى تجمع مئات الطلاب ليعبروا عن سخطهم على هذه الأحكام ومجمل الأوضاع غير الديمقراطية حيث عقد في كليات الجامعة .وفي مقدمتها هندسة عين شمس مؤتمر طلابي كبير غاضب حضره آلاف

(١) نشر هذا التعليق في روز اليوسف أثناء نشر المقالات .

الطلاب بعد أن أوقفوا الدراسة مطالبين بإلغاء هذه الأحكام ومحاسبة المسئولين الحقيقيين عن النكسة وطرد العناصر الفاسدة في الحكومة والإتحاد الاشتراكي .

وعندما قابل الوفد السيد / محمد أحمد سكرتير عبد الناصر وسلمه مطالب الطلاب ، أستأذن خارجا ، ليعود بعد عشر دقائق ،ليخبرنا بأن عبد الناصر سيرد على هذه المطالب في خطبة جماهيرية عامة ، وأنه يعرف أن وطنية الطلاب هي التي دفعتهم إلي تقديم هذه المطالب له ، كما يطلب أن نعود إلي الطلاب ، ونخبرهم بذلك وننهي الاعتصام فاستجبنا لطلبه ، وعدنا لمنازلنا ليقبض علينا في الفجر ، بعد أقل من ١٢ ساعة من لقاء سكرتير عبد الناصر . وفي الصباح التالي تغلق الجامعة أبوابها فيتجمع الطلاب بعد أن علموا بالقبض على وفدهم ويخرجون بمظاهرة كبيرة من هندسة إلي حرم الجامعة فتتصدي لهم قوات الشرطة في أول صدام منذ أحداث ١٩٥٤ ، وتطلق الرصاص(الأستاذ وحده يقول لم يكن هناك رصاص!!) ليسقط عدد من الطلاب الجرحى وقتيل واحد وتستمر المظاهرة الكبيرة حتي ميدان العباسية ، لتزداد شراسة قوات الشرطة في محاولة منع المظاهرة من الوصول إلي قلب القاهرة ، فتتفرق المظاهرة إلي عدة مظاهرات صغيرة ، وتسلك الشوارع الجانبية والحواري . ويصل جزء كبير منها إلي مجلس الأمة ، ويلتقون بمظاهرات جامعة القاهرة ويزداد ضرب الشرطة قسوة ، ليتفرقوا ثانية ، وفي ضمير وعقل كل منهم بأنه لا بديل عن الديمقراطية لتحقيق آمال هذا الوطن في تحرير أرضه المحتلة وبناء مجتمعه الحضاري .

///

ملحق (٢)

جزء من شهادة هاني الحسيني ، القائد الطلابي البارز في تجارة عين شمس ، والمحاسبة الآن ورفيق الكفاح الطويل الذي لم ولن يهدأ

يسقط الخونة

عزيزتي روز اليوسف

سوف أروي لكم مشهداً مما حدث في عام ١٩٦٨ :

* الساعة الحادية عشر صباحاً ..مدرج السنة الثانية كلية تجارة عين شمس ، طالب بالسنة الثانية (ليس عضوا بالمنظمة) يقف أعلى أحد صفوف المدرج ويعلن الاحتجاج على أحكام الطيران الهزيلة . ويهتف ...يسقط الخونة .

إندفاع لا يستطيع أحد إيقافه ..الكل في الساحة .. ارتعشت ..اغرورقت عيناي بالدموع .. أندفع إلي الفصول «السكشن» ..أخرجت جميع الطلاب .. إلي ساحة الكلية ..جريت مخترقاً المباني ..وعادل بدوي يقف عند مدرج «شعبة الإدارة » ..ينظم الصفوف ..وينتقي الشعارات .

د. عبد العزيز حجازي يسألني :

- ما الذي يحدث ؟!

- أخيراً سنخرج لنقول رأينا !! .. طب القاهرة على أبواب الكلية ..سنخرج جميعاً .

- د . عبد العزيز حجازي .

فلتخرجوا جميعاً ..لا يبقي طالب في الكلية ..!

اندفعت مرتعشاً من الفرحة ..ها هو عميد الكلية يؤيدنا .

د. على لطفي .. «رائد الطلاب»!

ـ ما هذا الشغب ؟ سوف تحال إلي مجلس تأديب! صرخت في وجهه :

د. حجازي يؤيدنا ..لا شأن لك ..

خرجنا إلي النور .. شارع قصر العيني الجميل .. الذي كان شديد الكآبة منذ تسعة شهور .. يحملنا إلي التحرير ، إلي شارع رمسيس وقنابل الدخان ..وطلقات البنادق ، وطلقات حناجرنا تهتف للحرية .. الديمقراطية ..

وصلنا جامعة عين شمس .. يطالبنا بعض الأساتذة باحترام «الشرعية» نصرخ :

«لا شرعية بدون ديمقراطية ».

ونلتئم في الجامعة ، وخلفنا طب عين شمس ، وهناك في عبده باشا الهندسة ، ولا نتوقف حتى المساء .

في مساء ٢٤ فبراير عدت إلي تجارة عين شمس .. وحفل لعشيرة الجوالة ، يحضره د. حجازي .. ويسألني :

ـ «كيف تقول لعلي لطفي أنني أؤيدكم ؟» ، «لم يكن مطلوبا أن تقول له ذلك »!!

هاني الحسيني

ملحق (٣)

بيان ٣٠ مارس

(١٩٦٨)

الأهرام[1]

أيها الأخوة المواطنون

الآن يصبح في إمكاننا أن متطلع إلي المستقبل .

وقبل الآن فإن مثل ذلك لم يكن ممكنا إلا بالاستغراق في الأحلام أو الأوهام وكلاهما لا تستسلم له الشعوب المناضلة ، فضلا عن أن يقع فيه ، بينما هي عند مفترق الطرق الحاسمة وأمام تحديات المصير .

قبل الآن لم يكن في مقدورنا أن ننظر إلي أبعد من مواقع أقدامنا ، فلقد كنا بعد النكسة مباشرة على حافة جرف معرض للانهيار في أي وقت ..وكان واجبنا في ذلك الظرف يحتم علينا قبل أي شيء آخر أن نتحسس طريقنا إلي أرض أصلب تتحمل وقفتنا ..وأرض أرحب تتسع لحركتنا .

ولقد كانت جماهير الشعب بموقفها يومي ٩ و ١٠ يونيو هي التي جعلت ذلك قابلا للتحقيق بفضل ما أظهرته من تصميم يرفض الهزيمة ويثق في النصر .

لأن الموقف المؤمن والبطولي الذي اتخذته جماهير شعبنا في ذلك الظرف العصيب هو وحده الذي مكن للتحولات الهامة التي وقعت منذ ذلك الوقت من أن تحدث فعلها وآثرها بحيث يكون في مقدورنا اليوم أن نقول ـ بأمل من الله ـ عظيم أنه الأن

(1) قدمته الأهرام وقتها هدية مع الجريدة .

يصبح في إمكاننا أن نتطلع إلي المستقبل .

ومن دلائل الخير أن يكون ذلك في مقدورنا اليوم ، في ذكري عيد الهجرة بما تحمله إلي المؤمنين من معاني التضحية فداء للمبدأ والنضال المستمر من أجل الحق ، والصبر على المشاق في سبيل نصر الله عزيزًا وصادقًا .

أيها الأخوة المواطنون

إن الموقف البطولي المؤمن لجماهير شعبنا يومي ٩ و ١٠ يونيو هو وحده الذي صنع عددا من التحولات الهامة مكنت لعملنا من أن يبتعد عن الحافة الخطرة ، التي كان عليها في أعقاب النكسة ، ليقف على الأرض الأصلب .. وليستشرف الأفق الأوسع الذي يستطيع أن يتحرك عليه نحو أهداف نضاله الشريفة والغالية .

وأبرز هذه التحولات كما يلي :

أولا ـ أننا استطعنا إعادة بناء القوات المسلحة ..وكانت تلك بداية ضرورية ـ وبغير بديل ـ إذا كنا نريد جدا وحقا أن نصحح آثار النكسة .. وأن نزيل العدوان وأن نسترد ما ضاع منا فيه .

بغير إعادة بناء القوات المسلحة لم يكن أمامنا غير تقبل الهزيمة مهما كانت آمالنا ..ومهما كان إيماننا . ذلك أن منطق هذا العصر ـ ولعله منطق كل العصور ـ أن الحق بغير القوة ضائع .. وأن أمل السلام بغير إمكانية الدفاع عنه استسلام ..وأن المبادئ بغير مقدرة على حمايتها أحلام مثالية مكانها السماء .. وليس لها الأرض مكان ..

ثانياً ـ إننا استطعنا تحقيق مطلب الصمود الاقتصادي أي وقت كانت الأشياء كلها تسير في اتجاه معاكس لفرصة تحقيقه .

ولقد ساعد على ذلك رضا الشعب بالمزيد من التضحيات ..وساعد عليه موقف عربي أصيل في مؤتمر الخرطوم .. وساعد عليه أصدقاء لنا على اتساع العالم كله

..وقفنا معهم فوقفوا معنا .

ولقد كان محتما أن يسير مطلب الصمود الاقتصادي جنباً لجنب مع عملية إعادة بناء القوات المسلحة ، فلم يكن في استطاعتنا بغير اقتصاد سليم أن نوفر لاحتمال الحرب ..ولا كان مجديا أن نتف رابضين على خطوط النار ..بينما مقدرتنا على الإنتاج معطلة وراء الخطوط وشبح الجوع يهددنا بأسرع من تهديد العدو لنا .

ثالثا ـ إننا استطعنا تصفية مراكز القوي التي ظهرت .. وكان من طبيعة الأمور وطبيعة النفوس أن تظهر في مراحل مختلفة من نضالنا .

أن العمل السياسي لا يقوم به الملائكة ..وإنما يقوم به البشر والقيادة السياسية ليست سيفا بتارا قاطعا .. وإنما هي عملية موازنة ..وعملية اختيار بعد الموازنة ..والموازنة دائمًا بين احتمالات مختلفة .. والاختيار في كثير من الظروف بين مخاطر محسوبة ..

ولقد تجاوزت الأمور حد ما يمكن قبوله بعد النكسة ..لان مراكز القوي وقفت في طريق عملية التصحيح خوفا من ضياع نفوذها ومن انكشاف ما كان خافيا من تصرفاتها .

وكان ذلك لو ترك وشأنه ..كفيلا بتهديم جبهة الصمود الشعبي . ولذلك فلقد كان واجباً ـ بصرف النظر عن أي اعتبار ـ تصفية مراكز القوي ..ولم تكن تلك المسألة السهلة إزاء المواقف التي كان يعيشها الوطن .

رابعًا ـ أننا استطعنا ـ وهذه المسألة أخلاقية ومعنوية أعلق عليها قيمة كبيرة ـ أن نضع أمام الجماهير بواسطة المحاكمات العلنية .. صورة كاملة لانحرافات وأخطاء مرحلة سابقة ..

وكان رأيي أن هذه مسئولية يجب أن يتحملها نظامنا الثوري بأمانة وشجاعة ..

وكان رأيي أن الضمير الوطني الذي أحس بأن انحرافات وأخطاء قد وقعت ـ من حقه ومن مصلحته أن يعرف الحقيقة ... وأن يخلص وجدانه من أثقالها ..وأن ينفض عن نفسه كل رواسب الماضي لكي يدخل إلي المستقبل بصفحة نقية وطاهرة .

ومع كل العذاب الذي تحملته شخصياً ـ وتحمله المواطنون معي ـ خلال هذه العملية ..فلقد بقي إيماني بضرورتها كإيماني بطب الجراحة يقطع لينظف ويبتر لينقذ..

خامسا ـ أننا استطعنا أن نقوم بجهد سياسي واسع على جبهات عربية ..وجبهات دولية ..

وتنوعت جهودنا تعددت علي هذه الجبهات بالاتصال المباشر مع الأصدقاء في الدول الاشتراكية .. وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي .. الذي أكدت لنا ظروف النكسة صداقته المخلصة وتعاونه الصادق ووقوفه الصلب في جبهة الثورة العالمية المعادية للاستعمار وكذلك مع الدول غير المنحازة .. ومع الدول الآسيوية والأفريقية ..ومع الدول الإسلامية ..ومع كل الشعوب الراغبة في سلام قائم على العدل ..ومع كل الساسة العالميين الذين يستطيع بعد نظرهم أن يتجاوز نكسة عارضة في تاريخ أمة كان لها دورها العظيم في التاريخ .. وسوف يكون لها الدور العظيم في مصير الإنسانية . إن هذه التحولات كلها قادها ودعمها إحساس عميق بالواجب لدي كثيرين من رجالنا في كل مجالات المسئولية ..في القوات المسلحة ..ومن خبراء الاقتصاد والعاملين في وحدات الإنتاج .. ومن الملتزمين بأهداف النضال الشعبي ..والقادرين علي خدمتها .. ومن المشتغلين بالسياسة والفكر والدبلوماسية .

كل هؤلاء ساهموا في قيادة ودعم هذه التحولات التي تقارب المعجزة والتي

نستطيع بعدها أن نقول اليوم .

الآن يصبح في إمكاننا أن نتطلع إلي المستقبل .

أيها الأخوة المواطنون

والآن ونحن نتطلع إلي المستقبل ..فإن اعتقادي الأكيد أن خير ما نستطيع أن نتسلح به لمواجهة مسئولياتنا المقبلة .. هو أن يكون في يدنا برنامج عمل محدد ندرسه معا .. ونقره معا.. وتتفق عليه إرادتنا جميعاً ..

برنامج عمل يكفل وصولنا إلي الأهداف القريبة لنضالنا ..ويقرب منا يوم الوصول إلي الأهداف البعيدة لهذا النضال .

برنامج عمل لا يختلف فيه الاجتهادات ولا تتصارع الآراء ولا تتصادم القوي .

برنامج عمل نمسك به في أيدينا ..وبعد أن يتحقق لقاء فكرنا عليه .. ثم نمضي على طريق الكفاح الطويل ..وفي يدنا خريطة للأفق الفسيح أمامنا وخطة عمل لتقدمنا على هذا الأفق ..

برنامج للتغيير يستجيب للآمال العريضة التي حركت جماهير شعبنا إلي وقفتها الخالدة يومي ٩ و ١٠ يونيو ..وهي الوقفة التي سأظل دائما ..وإلي آخر لحظة في العمر ..مؤمنا بأنها كانت بعثا للثورة وتجديدا لشبابها .وإلهاما لا يخيب وضوءا لا يخبو أمام طريق المستقبل .

ولقد بدأت التغيير ـ كما تعرفون ـ بإعادة تشكيل الوزارة .. والذي يعينني في تشكيل الوزارة الجديد أنه جاء إلي مواقع الحكم بصفوة شباب هذا الوطن ..لا يدين أحد منهم بمنصبه لأي اعتبار سوي اعتبار علمه وتجربته في العمل السياسي .. وهم على أي حال يمثلون جيلاً جديدا يتقدم نحو قمة المسئولية .

وإلي جانب ذلك .. فهناك تغيرات أخري قادمة في قيادات الإنتاج .. وفي السلك

الدبلوماسي وفي المحافظين وفي رؤساء المدن ..

عن الكثيرين ممن يشغلون هذه المناصب أدوا مسئوليتهم بجدارة واستحقاق .. ولكن بعضهم لم يكن على مستوي المسئولية سياسياً وتنفيذيا .. ومن الضروري عليهم وعلينا إفساح المجال للأقدر والأجدر..

لكن التغيير يبقي بعد ذلك أكبر من أن يكون مسألة أشخاص ..وإنما التغيير الذي نريده يجب أن يكون أكثر عمقاً من مجرد استبدال شخص بشخص .

أن التغيير المطلوب يجب أن يكون فكراً أوضح وحشداً أقوي وتخطيطٌ أدق ...

وبذلك يكون للتصميم معني ..وتكون للإرادة الشعبية مقدرة احتجاج كل العوائق والسدود نافذة واصلة إلي هدفها .

أيها الأخوة المواطنون

ان المسئولية التاريخية للأيام العصيبة ـ والمجيدة ـ التي نعيش فيها ..ونعيش لها .. تطرح بنفسها علينا برنامج عمل له جانبان :

الجانب الأول ـ حشد كل قواتنا العسكرية والاقتصادية والفكرية على خطوطنا مع العدو لتحرير الأرض وتحقيق النصر .

والجانب الثاني ـ تعبئة كل جماهيرنا بما لها من إمكانيات وطاقات كامنة من أجل واجبات التحرير والنصر .. ومن أجل آمال ما بعد التحرير النصر .

أيها الأخوة المواطنون

سوف أبدأ بالجانب الأول من برنامج عملنا المقترح ..وهو الحشد ..

وإني لأرجوا أن يكون اتفاقنا كاملا على أنه ليس هناك الأن ـ ولا ينبغي أن يكون هناك الأن ـ صوت أعلي من صوت المعركة ولا نداء أقدس من ندائها ..

أن أي تفكير أو حساب لا يضع المعركة وضروراتها أولا وقبل كل شيء لا يستحق أن يكون تفكيراً ولا تزيد نتيجته عن الصفر .

إن المعركة لها الأولوية على كل ما عداها .. وفي سبيلها وعلى طريق تحقيق النصر فيها يهون كل شيء ويرخص كل بذل ، مالاً كان ..أو جهدًا أو دمًا ..

ومهما كان السبيل الذي نسلكه إلي تحرير الأرض وتحقيق النصر ..فإنه يصبح سبيلاً مسدودا بغير استعدا للمعركة ..

وسواء يئساً من العمل السياسي وتركناه ..وواجهنا أقدرانا في ميدان القتال ..فإن النتيجة معلقة على استعدادنا للمعركة ..

ولقد أبدينا استعدادنا ولا نزال للعمل السياسي عن طريق الأمم المتحدة أو غيره من الطرق ..

ونحن نضع من أشقائنا العرب كل وسائلنا ..سواء بواسطة مؤتمرات القمة ..أو بواسطة التنسيق الثنائي المباشر ..

ونحن نتعاون مع كل القوي الشعبية العربية .. من أجل المقاومة المسلحة وكافة أشكال المقاومة الأخرى ..

ونحن نفتح عقولنا للعالم كله من نفس المنطلق الذي حكم نضالنا الطويل .. وهو أننا نصادق من يصادقنا ..ونعادي من يعادينا .

نحن نفعل ذلك كله عن تقدير واع لنتائجه الواقعة والمحتملة ..لكننا بعده يجب أن نكون مستعدين للمعركة مهما كلفتنا ..وحتى إذا وقفنا فيها وحدنا ..

أن الأرض أرضنا .. والحق حقنا ..والمصير مصيرنا..ولا نستطيع أمام أنفسنا وأمام أمتنا العربية ..وأمام الأجيال القادمة ..من أبنائنا وأحفادنا ..إلي الأبد ..أن

نتردد أو نتخاذل أو نوزع التبعات على الآخرين ..مهما اقتضانا ذلك من التكاليف على مواردنا وعلى أعصابنا وعلى أرواحنا ..

هذا هو الجانب الأول من برنامج عملنا .. ولا أظنه بيننا موضع خلاف .. ذلك لأن الخيار فيه هو : النصر أو الهزيمة .. الشرف أو العار ..الحياة أو الموت..

وليس هناك خيار حقيقي في ذلك كله ..لأن القرار حتمي وهو أننا نختار النصر ، ونختار الشرف ، ونختار الحياة ..

أيها الأخوة المواطنون

أنتقل الأن إلي الجانب الأخر من برنامج عملنا المقترح وهو تعبئة كل جماهيرنا بما لها من طاقات وإمكانيات من أجل واجبات التحرير والنصر ومن أجل آمال ا بعد التحرير والنصر .

وفي هذا الصدد فإني أطرح النقط التالية :

١ـ إنه من الضروري والحيوي حشد كل القوي الشعبية وبوسيلة الديمقراطية وعلى أساسها وراء أهداف نضالنا القريبة والبعيدة أي وراء واجب المعركة ، ووراء أمل أتمام بناء المجتمع الاشتراكي الذي حققنا منه كثيرا وينبغي أن نحقق منه أكثر .

٢ـ أن صيغة الاتحاد الاشتراكي هي أكثر الصيغ ملاءمة لحشد القوي الشعبية بوسيلة الديمقراطية وعلى أساسها وهي تجسيد حي وصحي لمعني أن تكون الثورة للشعب وبالشعب ثم أنها الضمان بعد ذلك لتجنب دموية الصراع الطبقي ولكفالة فتح أسرع الطرق وأكثرها أمانا إلي التقدم .

والإتحاد الاشتراكي كما تذكرون وفقا للميثاق هو واجهة عريضة تضم تحالف قوي الشعب العاملة كلها ، ثم تنظيم سياسي يقوم وسطها من الطلائع القادرة على قيادة التفاعل السياسي نحو هدف تذويب الفوارق بين الطبقات .

ولم تكن المشاكل التي عاناها الاتحاد :لاشتراكي ترجع إلي قصور أو عيوب في صيغته العامة ، وإنما كانت أسباب القصور والعيوب ترجع إلي التطبيق وأول هذه الأسباب هو أن عملية إقامة الاتحاد الاشتراكي لم تبن على الانتخابات الحر من القاعدة إلي القمة .

٣ـ أن علينا الآن نعيد بناء الاتحاد الاشتراكي عن طريق الانتخاب من القاعدة إلي القمة أي من اللجان التأسيسية في القرية والحي والمصنع والوحدة إلي المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي ، وإلي لجنته المركزية ، وإلي اللجنة التنفيذية العليا .

وتذكرون أنني كنت في خطابي يوم ٢٣ يوليو الماضي ناديت إلي تكوين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي وكان التصور في ذلك الوقت أن تكون بالتعيين ولقد أجلت ذلك خلافا لما قلته ووعدت به عن اقتناع بأن أسلوب التعيين ليس أفضل الأساليب وأن التعيين في النهاية قد لا يعطينا إلا ما تفرزه مراكز القوي أو ما تقدمه المجموعات المختلفة والشلل .

وليس ذلك هو المرجو وليس هو ما يحقق لنا الهدف من الدور الذي كنا نطلبه للجنة المركزية .

أن طريق الانتخابات سوف يعطينا الحل الأوفق

أن يتم بناء الاتحاد الاشتراكي بالإرادة الشعبية وحدها .

أن تقوم قوي الشعب العاملة باختيار قياداتها المعبرة عنها ، والمستوعبة لأمالها الثورية ثم تدفعها إلي مواقع القيادة السياسية .

أيها الأخوة المواطنون

من هذه النقط الثلاث فإني أقترح البرنامج التنفيذي التالي:

١ـ تجري الانتخابات للوحدات التأسيسية للاتحاد الاشتراكي العربي وتتدرج

الانتخابات حتى تصل إلي المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي الذي ينتخب بدوره اللجنة المركزية التي تنتخب بدورها رئاستها وهي اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي .

٢ـ يظل المؤتمر القومي المنتخب للاتحاد الاشتراكي العربي قائما إلي ما بعد إزالة آثار العدوان ويعقد دورة عامة بكامل هيئته مرة كل ثلاثة شهور لكي يتابع مراحل النضال ويوجهها ويصدر في شأنها ما يراه .

٣ـ تظل اللجنة المركزية المنتخبة من المؤتمر القومي في حالة انعقاد دائم وتقوم لجانها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية برسم سياسات العمل في جميع المجالات استهدافا لتحقيق النصر وإعادة البناء الداخلي .

٤ـ أن مجلس الأمة الحالي قد قارب على استيفاء مدته الدستورية ، وهو لم يفرغ بعد من المهمة الأساسية التي أوكلت إليه وهى وضع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة .

وإذا كان المجلس لم يتمكن من أداء هذه المهمة فينبغي للإنصاف أن نذكر دوره الكبير وما قام به من عمل يستحق التقدير .

والمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي وهو أعلي سلطة ممثلة لتحالف قوي الشعب العاملة قد يري أن يقوم بنفسه بعملية وضع مشروع الدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة ، وقد يري في الأمر رأيا آخر ومهما يكن فإنه من المهم أن يكون مشروع الدستور الدائم معدا بحيث يمكن فور انتهاء عملية إزالة آثار العدوان أن يطرح للاستفتاء الشعبي العام وأن تتلوه مباشرة انتخابات لمجلس امة جديدة على أساس الدستور الدائم وانتخابات لرئاسة الجمهورية .

٥ـ أن اللجنة المركزية للمؤتمر القومي سوف يكون عليها غير واجباتها المحددة

في قانون الاتحاد الاشتراكي وغير مسئوليات الظروف الخاصة للنضال الوطني في مرحلته الحاضرة عدة مهام أضافية هي :

بناء التنظيم السياسي لطلائع الاتحاد الاشتراكي .

وتحديد مهام العمل الوطني للمرحلة الجديدة والتنسيق بينهما . ثم المشاركة في وضع الخطوط العريضة للدستور الدائم للجمهورية العربية المتحدة .

أيها الأخوة المواطنون

لكي يكون هناك ضوء كاف على طريقنا فإنني أريد من الان أن أضع أمامكم تصوري لبعض المهام الرئيسية في المرحلة القادمة من نضالنا :

١ـ تأكيد وتثبيت دور قوي الشعب العملة وتحالفها وقياداتها في تحقيق سيطرتها بالديمقراطية على العمل الوطني في كافة مجالاته .

٢ـ تدعيم عملية بناء الدولة الحديثة في مصر والدولة الحديثة لا تقوم بعد الديمقراطية إلا استنادا على العلم والتكنولوجيا ولذلك فإنه من المحتم إنشاء المجالس المتخصصة على المستوي القومي سياسياً وفنيا لكي تساعد على الحكم وإلي جانب مجلس الدفاع القومي فإنه لابد من مجلس اقتصادي قومي يضم شعبا للصناعة والزراعة والمال والعلوم والتكنولوجيا ، ولابد من مجلس اجتماعي قومي يضم شعباً للتعليم والصحة وغيرها مما يتصل بالخدمات المختلفة ، ولابد أيضا من مجلس ثقافي قومي يضم شعباً للفنون والآداب وللأعلام .

٣ـ إعطاء التنمية الشاملة دفعة أكبر في الصناعة والزراعة لتحقيق رفع مستوي الإنتاج والعمالة الكاملة مع الضغط على أهمية إدارة المشروعات العامة إدارة اقتصادية وعلمية .

٤ـ العمل على تدعيم القيم الروحية والخلقية والاهتمام بالشباب وإتاحة الفرصة أساسة للتجربة .

٥ـ إطلاق القوي الخلاقة للحركة النقابية سواء في نقابات العمال أو نقابات المهنيين .

٦ـ تعميق التلاحم بين جماهير الشعب وبين القوات المسلحة .

٧ـ توجيه جهد مركز نحو عمليات البحث عن البترول لما أكدته الشواهد العلمية من احتمالات بترولية واسعة في مصر ولما يستطيع البترول أن يعطيه لجهد التنمية الشاملة من أمكانيات ضخمة .

٨ـ توفير الحافز الفردي تكريما لقيمة العمل من ناحية واحتفاظا للوطن بطاقته البشرية القادرة وإفساح فرصة الأمل أمامها .

٩ـ تحقيق وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

١٠ ـ ضمان حماية الثورة في ظل سيادة القانون ولعله يكون مناسباً ان تقوم اللجنة المركزية بتشكيل لجنة خاصة ويكون لهذه اللجنة حق نظر كل الإجراءات التي تري السلطة اتخاذها لدواعي الأمن الوطني في الظروف الراهنة .

أيها المواطنون

طلبا لمزيد من الضوء والوضوح أمد البصر ـ أيضا ـ إلي بعض خطوط العامة التي يجب ـ في تقديري ـ أن يتضمنها الدستور لكي تكون من الان تحت سمعنا وبصرنا دليلاً ومرشداً .

أن الدستور الجديد يجب أن يكون حقيقة عملية وسياسية تعيش في واقعنا وتنبع منه .

ولهذا فإنني أقترح من الآن أن تتضمن مواد الدستور الخطوط الأساسية العامة التالية :

١ـ أن ينص الدستور على تحقيق وتأكيد الانتماء المصري إلى الأمة العربية تاريخيا ونضاليا ومصيريا ، وحدة عضوية ، فوق أي فرد وبعد أي مرحلة .

٢ـ أن ينص الدستور على حماية كل المكتسبات الاشتراكية وتدعيمها بما في ذلك النسبة المقررة بالميثاق للفلاحين والعمال في كل المجالس الشعبية المنتخبة ، واشتراك العمال في إدارة المشروعات وأرباحها ، وحقوق التعليم المجاني والتأمينات الصحية والاجتماعية ، وتحرير المرأة وحماية حقوق الأمومة والطفولة والأسرة .

٣ـ أن ينص الدستور على الصلة الوثيقة بين الحريات الاجتماعية والحرية السياسية وأن تتوفر كل الضمانات للحرية الشخصية والأمن بالنسبة لجميع المواطنين وفي كل الظروف .

وأن تتوفر أيضا كل الضمانات لحرية التفكير والتعبير والنشر والرأي والبحث العلمي والصحافة .

٤ـ أن ينص الدستور على قيام الدولة العصرية وإدارتها لأن الدولة العصرية لم تعد مسألة فرد ولم تعد بالتنظيم السياسي وحده وإنما أصبح للعلوم والتكنولوجيا دورهما الحيوي ولهذا فإنه يجب أن يكون واضحا أن رئيس الجمهورية يباشر مسئولية الحكم بواسطة الوزراء وبواسطة المجالس المتخصصة التي تضم خلاصة الكفاءة والتجربة الوطنية بما يحقق إدارة الحكومة عن طريق التخصص واللامركزية .

٥ـ أن ينص الدستور على تحديد واضح لمؤسسات الدولة واختصاصاتها بما في ذلك رئيس الدولة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية .

ومن المرغوب فيه أن تتأكد سلطة مجلس الأمة باعتباره الهيئة التي تتولى الوظيفة

التشريعية والرقابة على أعمال الحكومة والمشاركة في وضع ومتابعة الخطة العامة للبناء السياسي وللتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

كذلك فإن المرغوب فيه إفساح الفرصة لوسائل الرقابة البرلمانية والشعبية لتحقيق حسن الأداء وكفالة أمانته .

٦ ـ أن ينص الدستور على تأكيد أهمية العمل باعتباره المعيار الوحيد للقيمة الإنسانية .

٧ـ أن ينص في الدستور على ضمانات حماية الملكية العامة والملكية التعاونية والملكية الخاصة وحدود كل منها ودوره الاجتماعي .

٨ـ أن ينص في الدستور على حصانة القضاء وأن يكفل حق التقاضي ولا ينص في اجراء للسلطة على عدم جواز الطعن فيه أمام القضاء ذلك أن القضاء هو الميزان الذي يحقق العدل ويعطي لكل ذي حق حقه ويرد أي اعتداء على الحقوق أو الحريات .

٩ـ أن ينص في الدستور علي انشاء محكمة دستورية عليا يكون لها الحق في تقرير دستورية القوانين وتطابقها مع الميثاق ومع الدستور .

١٠ـ أن ينص في الدستور علي حد زمني معين لتولي الوظائف السياسية التنفيذية الكبري وذلك ضمانا للتجديد وللتجديد باستمرار .

أيها الأخوة المواطنون

لقد قصدت أن أتناول أكبر قدر ممكن من رؤوس المسائل وتفاصيلها ويكون برنامج العمل الذي تمسك به أيدينا في المرحلة القادمة على الوفاء وعلى التحقيق .

وبعد ذلك فإني أري طرح هذا البرنامج الذي أقترح أن نسميه اختصارا بتاريخ هذا اليوم ٣٠ مارس ـ للاستفتاء العام .

وبطرح برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ للاستفتاء العام فإني أقصد بذلك أن يكون واضحا لنا جميعا ما نريد وأن يكون موضع اتفاقنا .كذلك أريده أن يكون واضحا أمام أمتنا العربية ومدعاة لثقتها في وحدة النضال واستمراره .

وأريده أيضا أن يكون واضحا أمام الصديق وأمام العدو على حد سواء وموضع اعتبار كل الذين يقفون منا وكل الذين يقفون ضدنا .

إن الدستور المؤقت الصادر ـ سنة ١٩٦٤ يعطي «لرئيس الجمهورية الحق أن يستفتي الشعب في المسائل الهامة المتصلة بمصالح البلاد العليا» وذلك وفقا للمادة ١٢٩ منه .

وإذا كان هناك من تصور صعوبة الاستفتاء العام في مثل الظروف التي نعيش فيها فإننا نري أن ذلك وقته وظروف المعركة ليست حائلا دونه بل أننا نراه ضرورة من ضرورات المعركة .

أن المعركة ليست معركة فرد وليست معركة جيش وإنما هي معركة شعب ومعركة أمة بأسرها ، وهي في نفس الوقت معركة حياة أو موت .

أن قوي الشعب العاملة هي وحدها التي تستطيع توفير كل ضرورات النصر وحشد كل الطاقات اللازمة لتحقيق وإعطاء أكبر قدر من إرادة الصمود بجبهة ميدان القتال .

إن أي نظام ثوري يستند على الجماهير وحدها لا يكفيه أن يكون الشعب وراءه راضيا ومؤيدا وإنما هو يحتاج إلي كثير من ذلك .. يحتاج إلي أن يكون الشعب أمامه موجها وقائدا .

أيها الأخوة المواطنون

إذا كان هذا البرنامج تمثيلا صحيحا لأفكارنا جميعا فإنني أري الخطوات

التنفيذية التالية :

١ـ أن يجري الاستفتاء العام على برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ في يوم الخميس ٢ مايو سنة ١٩٦٨ .

٢ ـ بعد ظهور نتيجة الاستفتاء وإذا كانت النتيجة بنعم فسوف أصدر قرارا بتشكيل لجنة مؤقتة للاشراف على انتخابات المؤتمر القومي ويحق لها أن تنضم إلي عضويته العاملة بعد انتهاء عملية انتخابات المؤتمر .

٣ـ على هذا الأساس فإنه يمكن للمؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي العربي ان يجتمع يوم الثلاثاء ٢٣ يوليو ١٩٦٨ ويعقد دورة افتتاحية ينتخب في نهايتها لجنته المركزية .

أيها الأخوة المواطنون

إن سجل نضالنا يشهد لشعبنا .

إن الشعب الذي غير بكفاحه خريطة الشرق الأوسط وأزال من فوقها سيطرة الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة ، وتصدي في وسطها لمحاولات الاستعمار الجديد .وتحمل تبعات الوحدة العربية سلما وحربا وفجر عصر الثورة الاجتماعية وبني وعظم السدود وقهر الصحراء وأقام أول قاعدة عربية للصناعة المتقدمة ..هذا الشعب يملك المقدرة ويملك التجربة لتجاوز هزيمة عارضة في تاريخه وتاريخ أمته .

إننا سوف نحقق كما حققنا ، وسوف ننتصر كما انتصرنا . ولتعل إرادة الحق فوق كل إرادة لأنها جزء من إرادة الله .

///

ملحق رقم (٤)

تكذيب الفريق أول محمد فوزي لمقالي الذي تضمن حديثًا مع السيد اللواء الحناوي ..والذي نشرته العربي بعرض الصفحة الأولي تحت عنوان الجريدة وكلمة موحية لجمال عبد الناصر ، (دون أن تنتظر هل ستنشره روز اليوسف أم لن تنشره .. ولقد نشرته روز اليوسف .. أما العربي فلم تنشر الرد الذي أرسلته إليها !!) .

إن الأمل الحقيقي هو في استمرار النضال . ويتأكد الاستمرار حين يكون هناك في كل وقت جيل جديد على أتم استعداد للقيادة ولحمل الأمانة ومواصلة التقدم بها .. أكثر وعيا من جيل سبق ..أكثر طموحاً من جيل سبق . إن علينا بالصبر أن نستكشفه دون من عليه ولا وصاية .

جمال عبد الناصر

ما جاء على لسان قائد القوات الجوية «تخاريف»

الفريق أول فوزي : عبد الناصر أمر بعدم التعرض لمظاهرات الطلبة.

نفي الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية الأسبق ما جاء في شهادة اللواء مصطفى الحناوي قائد القوات الجوية الأسبق حول ما حدث أثناء مظاهرات الطلبة بالإسكندرية عام ١٩٦٨ . ووصف الفريق أول فوزي ما جاء على لسان الحناوي ونشرته مجلة «روز اليوسف» من أن عبد الناصر أمر بإطلاق النار على المظاهرات باستخدام طائرات الهليكوبتر بأنه محض تخاريف ، وأكد أن تعليمات عبد الناصر المباشر في تلك الاحداث شددت على عدم التعرض للمظاهرات .

وكان الفريق أول فوزي قد أرسل ردا إلي «روز اليوسف» بشأن هذه الواقعة

وهذا نصه:

تأسفت كثيرا عندما اطلعت على ادعاءات لواء طيار متقاعد مصطفى الحناوي قائد القوات الجوية الأسبق . عندما سجل حديثا لمجلة «روز اليوسف» نشر بالعدد ٣٥٩٤ بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٩٧، نسب فيه إلي الرئيس عبد الناصر بعد ربع قرن ضرورة تفريق مظاهرات الطلبة بضرب النار بواسطة طائرات الهليكوبتر . بالإسكندرية في نوفمبر ١٩٦٨ . هذه التخاريف التي صدرت من قائد القوات الجوية الأسبق في حديث منتصف الليل ، وأحب أن أؤكد أن التوجيهات السياسية بالنسبة لمظاهرات الطلبة والموضحة في أذهان القيادات العسكرية هي عدم تدخل القوات المسلحة في شأن هذه المظاهرات وأن مسئولية فضها يقع على كاهل التنظيم السياسي .

وكان تأكيدي لنائب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة وهي الهيئة المسئولة عن جميع تحركات القوات المسلحة - اللواء محمود جاد تهامي واللواء طلعت مسلم[١] - بعدم التعرض لمظاهرات الطلبة حتي لو وصلت هذه المظاهرات إلي مبني هيئة العمليات نفسها[٢] ، وذلك طبقا للتوجيهات السياسية الصادرة من الرئيس جمال عبد الناصر .

إن الطلاب هم فلذة أكبادنا ومستقبل مصر والذين تطوع الآلاف منهم لخدمة الجبهة أثناء حرب الاستنذاف في فصائل خدمة الجبهة والذين شكلوا العمود

---

(١) اللواء طلعت مسلم كان في هيئة عمليات القوات المسلحة أم كان كما قال عن نفسه في المقال الذي تلا هذا التكذيب بأسبوع «رئيسا لغرفة العمليات بأحدي فرق القوات المسلحة (متمركزة في دهشور) في هذه يسأل الفريق أول (!!!) ، ورأيي أن سيادة الفريق أول كان قد جهز كلاما بقوله مع سيادة اللواء طلعت مسلم (الذي وجده ليشهد) وأراد أن يرقيه هنا بأثر رجعي (!!) لكي يجعل لكلامه

(٢) اللواء طلعت مسلم قال في رده حتى لو وصلت إلي «الثكنات» ذلك أنه لم يكن في هيئة العمليات

النصري للقوات المسلحة في حرب أكتوبر المجيدة .

إذن كيف يتصور ويتخيل قائد القوات الجوية الأسبق أن تمس شعرة منهم .. وهم الذين قال عنهم جمال عبد الناصر :

«الشباب موضع الصدارة .. لا يمكن أن يحدث تناقض بين الثورة وشبابها .

والمعروف أن الفريق أول محمد فوزي كان يشغل منصب وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة في ذلك الوقت .

ملحق (٥)

هجوم «جريدة العربي» على المقالات ..وعلى كاتبها

عفواً : «تخاريف اللواء الحناوي .. وحقيقة أحداث مظاهرات الطلبة !

* هل أصبحت مواجهة الصهيونية ورفض التطبيع جريمة الناصرين .

* عبد الناصر احتضن رفض شباب الثورة وأيده .

* كيف يلتقي اللوبي الصهيوني مع قائد أسبق .

* كل الشهود أجمعوا على كذب ما نشر عن المظاهرات .

*تعليمات القيادة كانت تشدد على عدم التعرض للطلبة حتى لو وصلوا الثكنات العسكرية .

* اللواء الحناوي خرج من الخدمة بشكل غير مرض له شخصياً .. والسن له أحكامه .

* عبد الناصر كان يعتبر نفسه واحدًا من جماهير الشعب فكيف يأمر بقصف الطلبة بالطيران ؟! .

يحاول النكرات أن يصنعوا لأنفسهم تاريخا ودورا وطنيا ، ولا يجدون في ذلك غضاضة ، بعد أن كتب المقاولون مذكراتهم السياسية ، وتحول رفض إقامة علاقات مع الصهاينة إلي جريمة ، وارتفعت أصوات أتباع الأعداء وأنصارهم ، يدافعون عن علاقاتهم المشبوهة والمأجورة تحت ستار الدفاع عن الآخرين . وأصبحت جريمة الناصريين هي رفض الاحتلال والوجود الصهيوني على الأرض العربية ، ويقوم موظفو المركز الثقافي الصهيوني بتكثيف جهودهم لهدم صورة عبد الناصر

وتشويه نضال الشعب لحساب أعدائه ووصل بهم الأمر إلي حد الدفاع صراحة ، وبلا خجل عن الجواسيس وعملاء المخابرات المركزية .

ولقد أصيبوا بفزع من يقظة مصر وانتفاضة شعبها ضد التطبيع وضد إقامة علاقات مع الصهاينة ، وراحوا يستعدون للسلطة التي أبرمت اتفاقيات ضد رافضي إقامة هذه العلاقات التي يرفضها ويقاومها الشعب العربي ليس في مصر وحدها بل وفي جميع البلاد والتي رفضتها في بلادنا الجمعيات العمومية للهيئات والنقابات وهذه الجمعيات العمومية تمثل جموع الأعضاء المنضمين إليها ، ويعرف الصغار قبل الكبار أن عدم تنفيذ قراراتها أو العصف بها يعني رفضها لرأي الأغلبية لحساب الصهاينة وحدها الإرهاب .

هؤلاء الذين يقاتلون بكل أسلحتهم ضد الديمقراطية حتى لا تتخذ مواقف من المطبعين تنفيذا لرأي الأغلبية هم بكل أسف من المصريين .. الذين تناسوا الدماء التي سالت والشهداء الذين سقطوا ، ومذابح الأعداء البعيدة والقريبة وتناسوا فوق ذلك احتلال فلسطين ، ومحاولات تهويد القدس ، ولا يخجلون من أن يصمدوا بهذه الآراء الشارع العربي خصوصاً في هذه الظروف ، وبعد أن قرر وزراء الخارجية العرب ضرورة إعادة إحياء المقاطعة .

في الوقت الذي يضيق فيه الرسميون الخناق على الصهاينة ، ويقررون المقاطعة ، وتعيد الجامعة العربية إحياء مكاتب المقاطعة ، يظهر من يدافعون عن إقامة علاقات شعبية مع العدو ، وهو خيط يتشبث به الصهاينة ، ويدفعون رجالهم إلي تبنيه والدعوة له .

اختلطت الأمور ، حتى أصبح الذين يخضعون لرأي الأغلبية ديكتاتوريين ، والذين يطبقون قرارات الجمعيات العمومية للنقابات إرهابيين وفاشيين فكانت

هذه القرارات بالإجماع وليس بالأغلبية وكأنها دعوة سافرة لإقامة علاقات شعبية مع الصهاينة في هذا الوقت بالذات ـ وأن علينا معاقبة اتحاد نقابات المهن الفنية واتحاد الكتاب ، وغيرها لسعيها للخضوع لرغبة الأعضاء بإيقاف التطبيع ، وأن على هذه الهيئات أن تحشد أعضائها ليسافروا إلي القدس المحتلة وإلي تل أبيب ليتبادلو الأحضان مع الصهاينة ، بينما ما زالوا يحتلون الأرض ، ومسيرة السلام تتعثر ، وهوية فلسطين تضيع .. بل وإن علينا سلفا أن ننسي مذابح الصهيونية ، وقيام الدولة العبرية العنصرية غصباً وبالاحتلال على الأرض العربية .

وذلك هو منطق دعاة الصهيونية ، وأتباعها والمتعاملين معها .. وهذا هو رأيهم الذي يحاولون بأساليب مكتوبة ومستفزة أن يفرضوه بالغصب حتى إنهم يرون الخضوع للأغلبية الساحقة هو ديكتاتورية ، وأي طفل صغير ما زال يتعلم في كتاب القراءة الرشيدة سوف يضحك لهذا المنطق وربما يزول عنه العجب لو فهم الدوافع ، والأهداف ، ووقف على حقيقة الذين يحملون هذا الرأي ومن هم وراءهم .

كانت هذه مقدمة سريعة عن اللوبي الصهيوني الذي تكون في مصر تحت لافتة الاستفادة فباع شرف أمته ، وتاريخها ، ونضالها ،وفرط في أقدس قضاياها .

وهناك لوبي أخر يلتقي معه في نفس الهدف بالهجوم على جمال عبد الناصر ، يضم أقصي اليمين ، مع أقصي اليسار .

وقد ظهر ذلك واضحا بواسطة شخص مجهول ، لم يسمع عنه أحد ولا يعرفه حتى زملاؤه ، يكتب سلسلة مقالات عن مظاهرات الطلبة التي قامت سنة ٦٨ احتجاجا على الأحكام الهينة التي صدرت ضد قادة الطيران ، وهو يري أن هذه المظاهرات قادها يساريون متطرفون ، ويمينيون متخلفون جميعا وراء مظلة منظمة الشباب .وكل الذين شاركوا في منظمة الشباب والذين قادوا حقيقة هذه المظاهرات

من منطق وطني غير مدفوع ، يستنكرون الأكاذيب والادعاءات التي طفحت على سطح كل ما نشر ، ويمكن أن نلتمس العذر لشاب مجهول يريد أن يصنع لنفسه تاريخاً ، ودورا وطنيا ، وكان ذلك ممكنا دون اللجوء إلي التشويه ، والتجني علي الحقيقة .

لقد أخرج قائد القوات الجوية الأسبق ـ ولن أذكر اسمه حتى أفوت عليه فرصة الشهرة التي سعي لها ـ هذا القائد من مرقده ، ليقول كلاما عبيطا تافها لا يصدقه احد .

وهذا القائد لم يسمع به أحد ، ولا يذكره أحد ، فلا هو ترك بصمة أو أثرا ، ونسيه الناس ، ولعله ـ وقد وجد ضجة أثيرت حوله ، وأسمه بدأ يفكر [1] أن يواصل افتراءاته ، ويخترع أكاذيب جديدة ، بل لعله يفكر أن يكتب مذكراته ليصنع لنفسه تاريخا أو ليصبح موضع حديث الناس .. قال قائد القوات الجوية الأسبق أن عبد الناصر أصدر أمرا بضرب مظاهرات الطلبة بالمدافع من الطائرات ..ويعرف الجميع أن عبد الناصر كان ضد إراقة الدماء العربية ، ورحل بينما يسعى لوقف الاقتتال العربي ، وكان موقفه بارزا عملا وفكراً بعد استخدام السلاح العربي ضد العرب في الكويت ، وفي سوريا ،وفي ظل ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد ، هذا الرجل يقول عنه قائد الطيران الأسبق بعد ثلاثين عاما أنه أمر بضرب الطلبة المصريين بالطائرات ، ولكن قائد القوات الجوية رفض ..!

وليس منطقيا أنه بعد رفض الأمر ، أن يستمر في موقعه بعد ذلك ثمانية أشهر .. لكنه استمر ، حتي أحيل للتقاعد في يونيو من العام التالي .. ولقد استشهد الرجل بمحمد حسنين هيكل .. ولكن هيكل كذب الواقعة تماما ، وقال أنها غير صحيحة

---

(١) هكذا في الأصل وأظنها يذكر .

وأن الرجل يحلق في أوهام وكان قائد الطيران قد قال أنه تحدث مع هيكل في الأمر إلا أن الأستاذ هيكل رد بأنه لم يتحدث معه أبدا في هذا الموضوع ، وأن ما يدعيه مخالف للتعليمات التي أصدرها عبد الناصر وتساءل كيف لم تطلق رصاصة ضد الطلاب من الأرض ، وأن يضرب الطلاب بالطيران في الشوارع !

وقال الفريق أول محمد فوزي قائد الجيش أن ما ذكره القائد النكرة غير صحيح أي أن كل الأطراف قالت أنه كذاب فيما عدا اثنين من شلته وأصدقائه وزملائه ..

تكتسب شهادة اللواء طلعت مسلم ، حول أحداث مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ أهمية خاصة لأكثر من سبب .. الأول هو أن الرجل كان واحدا من القليلين جدا الذين عاصروا أحداث مظاهرات الطلبة عن قرب بحكم موقعه كرئيس لغرفة العمليات بإحدى فرق القوات المسلحة في ذلك الوقت ، والثاني أن الرجل ـ متعه الله بالصحة والوعي دائما ـ لا يزال يواصل عمله السياسي داخل تنظيمات حزب العمل المصري السياسية ، وفوق ذلك كله مواقفه الوطنية لا تخفي على أحد .

أن يدلي اللواء طلعت مسلم بشهادته الآن حول أحداث انتفاضة الطلبة في ٦٨ فإنه ـ كما قال للزميل أحمد أبو المعطي في حوار طويل في رحاب جامعة القاهرة ـ فإنه يدلي بها للأجيال القادمة ، ولتصحيح رؤية حاول البعض ـ معذورا ـ أن يجعلها ضبابية وباهتة .. ومغايرة للواقع والحقيقة .

* بداية ما هو تعليقك على ما جاء على لسان اللواء مصطفي الحناوي رئيس القوات الجوية الأسبق فيما يتعلق بأحداث ٦٨ ؟! .

شهادة اللواء الحناوي كانت مفاجئة بالنسبة لي ولعدد كبير من الذين عاصروا الأحداث عن قرب ، وما زلت حتى الآن مدهوشا من هذه الرواية الغريبة ، وأذكر

أني كنت مع بدايات عام ٦٨ في فرقة بمنطقة دهشور واستمرت[1] في هذه المنطقة حتى قامت أحداث مارس ٦٨ والتي كانت تتركز في القاهرة وحدها ، يومها صدرت الأوامر لجميع فرق القوات المسلحة بعدم التعرض للمظاهرات وكانت التعليمات واضحة للجميع حتى وصلت المظاهرات إلي منطقة دهشور وهو الأمر المستبعد[2] ..

بل وحتى ولو حاول المتظاهرون الاعتداء علينا داخل الثكنات العسكرية .

* وهل ينطبق ذلك أيضا على أحداث مظاهرات الإسكندرية في نوفمبر ٦٨ ؟!

بالطبع لم يتغير في الأمر شيء ، وكنت بصفتي رئيسا لغرفة العمليات[3] في ذلك الوقت ملما بجميع الأحداث والأوامر التي تصدر من القيادة العليا ، وما أذكره جيدا في تلك الفترة أن الأوامر جاءت مشددة هذه المرة من القيادة العليا بالابتعاد تماما عن الاحتكاك - مجرد الاحتكاك - بالمتظاهرين حتى لو تعرضنا لاستفزازات من خارج ثكناتنا العسكرية .

* إذا لماذا يحاول اللواء الحناوي الآن تشويه التاريخ ولى عن الحقيقة ؟! .

أستطيع أن أقول أن السن له أحكامه في كثير من الحالات ، وبعيدا عما تعرض له

---

(1) هكذا هي في الأصل .

(2) الجملة هكذا في الأصل ولا معني لها في السياق إلا إذا كان يريد أن يطول ، أن التعليمات كانت بعدم التعرض للمظاهرات حتى لو وصلت إلي دهشور (!!) ، ولعلها محاولة من الأستاذ عبد الله إمام أن يجعل لقائد من قواد القوات المسلحة كان في دهشور مصداقية لحديثه عن مظاهرات جرت في القاهرة .

(3) هكذا في الأصل ، وأظن بتر الجملة كان مقصودا فالمقال قال قبل ذلك عن اللواء طلعت مسلم أنه كان رئيسا لغرفة عمليات بإحدى فرق القوات المسلحة في ذلك الوقت ، إن هذا البتر يوحي بأنه كان في غرفة عمليات القوات المسلحة شخصيا وليس في فرقة دهشور .

آحد الكتاب في الحوار مع اللواء الحناوي فإنه في شهادته لم يكن منصفا إذا استبعدنا مسألة السن ، فلقد خرج من القيادة - قيادة القوات الجوية - بشكل غير مرض ، ومن يومها أصبح لديه ميل واضح لمهاجمة كل من تصور أنهم كانوا وراء خروجه من الخدمة . ولو كان اللواء الحناوي قد هاجم الفريق فوزي مثلا لأصبح الخلاف بين فردين على قيد الحياة يستطيع كل منهما أن يرد على الآخر ، ولكن أن تمتد «تخاريف» اللواء الحناوي إلي عبد الناصر شخصيا فالأمر يختلف .

ربما حسبه اللواء الحناوي في رأسه بأنه إذا وقف بشهادته أمام عبد الناصر فإنه يكون رد اعتباره من نظام الحكم في مصر في تلك الفترة ومن الزعيم أيضا وبالتالي فقد يشفي ذلك شيئا من غلّه ، ووفقا لما قاله أحد الكتاب على لسان اللواء الحناوي لم يحدث بينه وبين عبد النصر أي حديث حول الموضوع أما إذا كان جري قد تم بينه وبين الفريق فوزي فالأمر يختلف لأنه يصبح هنا بعيدا عن عبد الناصر .. أعتقد أن اللواء الحناوي - بهذا الكلام - يريد أن يأخذ حجما أكبر من حجمه .

* بحكم موقعك .. وقربك من الأحداث هل كان يمكن لعبد الناصر أن يصدر أمرا بالتصدي للطلبة هكذا ؟!

* مستحيل لأكثر من سبب ، أولا لقد قابلت عبد الناصر ، وحسب معرفتي به كان يرفض تماما أن يكون بينه وبين الشعب أي تناقض مهما كان حجمه ، ولعل الجميع يذكر أحاديث الزعيم في العديد من المناسبات لقد كان حديث عبد الناصر ينصب حول جمل بعينها عندما كان يقول «الشعب يطالب بكذا وأنا معه » .. لقد كان الزعيم يضع نفسه دائما في صفوف الجماهير ، وبالتالي فالكلام حول وقوف عبد الناصر أمام الشعب وفي القلب منه طلابه هو أمر غير منطقي بالمرة .

* لكن اللواء الحناوي يؤكد أن الأوامر صدرت من عبد الناصر شخصيا؟!

هذا غير صحيح على الإطلاق .. لقد كنا نتابع أحداث الإسكندرية بقلق بالغ ، لكن القوات المسلحة كانت بعيدة كل البعد عن هذه القصة[1] ، وأذكر أنني كنت قد سألت السيد أمين هويدي - وكان وقتها رئيسا للمخابرات - حول الموضوع[2] ووفقا لكلامه فقد رفض عبد الناصر وقتها تدخل القوات المسلحة لفض المظاهرات وبالتالي فالكلام حول هذا الموضوع الآن ليس له أي معني .

* ما هو السر إذا في تفجير مثل هذه الروايات الآن ؟!

بقطع وقبل كل شيء الأعداء قبل الأصدقاء لا يختلفون على أن شخصية مثل شخصية الزعيم جمال عبد الناصر لا تزال باقية حتى الآن رغم مرور أكثر من ٢٧ عاما على رحيله .. وسوف تظل شخصية جمال عبد الناصر مثيرة للجدل على مر السنين ... الناس الذين لم تعد تذكر السادات وغيره من الرؤساء المصريين مثلما تذكر عبد الناصر، كما أن اسم عبد الناصر ظل مثارا للاختلاف والتأييد الماضيين وسيظل مثار للمعارضة أيضا فلقد كانت ثورة يوليو هي بداية طوفان التغيير الجذري في المجتمع المصري ، فغيرت العلاقات بين الطبقات ، وأصبح وطن الأقلية وطنا للأغلبية وبالتالي فكل من شعر بأنه قد أضير من هذا النظام سوف يظل في نفسه شيء ..هذه هي القصة .

---

(1) راجع مذكرات أحمد كامل الذي كان محافظا للإسكندرية والتي يؤكد فيها أنه طلب من سامي شرف موافقة عبد الناصر على تدخل القوات المسلحة لإنهاء اعتصام الطلاب ، وجاء الرد من سامي شرف بأن الرئيس موافقه ، وأنه قد وضع محمد فوزي القائد العام للقوات المسلحة في خدمته ..وتأكد بنفسك أن كان أحمد كامل ما طلبه من جمال عبد الناصر لتعرف القيمة الحقيقية لشهادة اللواء طلعت مسلم .

(2) عن أي شيء سأل أمين هويدي ؟ هل سأله عن موضوع الطيران .. هل تتوقع إذن أن كان الموضوع حقيقيا وأن كاد اللواء أن يقول خذوني !! ، أم سأله في ذلك الوقت عن تدخل القوات المسلحة عموما وهو الذي يؤكد أنه كان في غرفة العمليات ويعرف كل شيئ ..هل يسأل من يعرف كل شيء ؟.

لقد احتضن عبد الناصر غضب الشباب ، واستوعبه وأيده وتحدث عنه في خطب علنية وشرحه ، ورآه مشروعا من جيل الثورة «يمكن أن نعود إلي هذه القضية بتفاصيل أوسع، وشهادات أوثق من الذين عاشوا الحقيقة على أرض الواقع ، ولا يسعون لشهرة ، أو لتصفية حسابات تافهة ، ولم تبرد جراحهم بعد كل هذه السنوات الطويلة ، فما زال الحقد يمزقهم ، ويدمر تفكيرهم ..فيخرجون بين الحين والآخر تخاريف لا يحترمون فيها أنفسهم ، ولا أدوارهم بحثا عن شهرة أو سطر في جريدة قبل أن تنشر أسمائهم في صفحة الوفيات .

أوردنا مجرد عينات من الذين يهاجمون جمال عبد الناصر ..

لوبي صهيوني يهيل التراب على دماء الشهداء العرب ، ولا يهمه أن إسرائيل ما زالت تحتل أرضا عربية ، وتهود القدس ، وأنها اغتصبت فلسطين ويطالب بتطبيع العلاقات معها ويهاجم إجماع الذين يتخذون موقفا وطنيا مع جماهير الشعب العربي ومع الفلسطينيين الذين ما زالوا يتساقطون كل يوم برصاص الإرهاب الصهيوني .

ولوبي آخر يضم أقصي اليمين وأقصي اليسار ، ليس معروفا سبب اختياره هذا التوقيت بالذات ليعزف مع المتصهينين نفس النغمة ! .

عسكري سابق وصل إلي موقع قيادة القوات الجوية لا كفاءة ، ولا عملا وإنما بعلاقات شخصية كانت تربطه بالشهيد عبد المنعم رياض ..

ومن يدري ماذا سيخرج علينا من تخاريف جديدة ..من هؤلاء وهؤلاء ..أو من آخرين من دونهم ..لا يخفون على جماهير شعبنا ..كما أن [1] .

---

(1) انتهي الأصل عند هذه الكلمة ـ في الجريدة ـ ولم يكن للمقال تكملة !!

ملحق (٦)

صورة للردود التي وردت إلي مجلة روز اليوسف

تعقيبًا على ما طرحه اللواء الحناوي

شهود النفي والإثبات يتحدثون :

ضرب المظاهرات بالطائرات

الفريق فوزي : أمرت الجيش ألا يقترب من الطلبة حتى لو هاجموا مبني العمليات .

محمد حسنين هيكل : اللواء الحناوي يحلق في الأوهام بعد أن توقف عن التحليق بالطائرات .

اللواء نبيل كامل : في القاهرة والإسكندرية طرنا فوق الطلبة بالهليكوبتر .

اللواء جبر على جبر : الطائرات كانت فوق الطلبة ولم يكن هذا هو خط سيرها .

اللواء الحناوي : تحركات الطائرات محفوظة في غرفة العمليات بالجيوش ..أقرأوها !

محمود الجيار : تعليمات لشعراوي جمعة بألا يطلق النار على الطلبة .

كنا نتوقع أن ما أثاره اللواء الحناوي سوف يقيم الدنيا ولا يقعدها .

إن اللواء الحناوي كان قائد لسلاح الطيران في عام ١٩٦٨ ، وقد قال لهشام السلاموني في حلقاته عن مظاهرات الطلبة عام ١٩٦٨ و١٩٧٢ : إن عبد الناصر أمر بتفريق هذه المظاهرات بنيران الطائرات الهيلكوبتر [١].

(١) اللواء الحناوي قال لي أن الفريق فوزي قال له أن عبد الناصر يريد ضرب مظاهرة الطلبة بالرشاشات مع عيار كبير ، ولم يقل لي أن المطلوب كان تفريقها فقط .

والمعلومة خطيرة بالطبع وخاصة أن سلاح الطيران في ذلك الوقت كان رمزا لهزيمة ١٩٦٧ ، قبل أن يصبح رمزًا للنصر ..وفوق كل هذا فإن أمرًا من ذلك النوع ليس متوقعاً على الإطلاق من زعيم كان يتوجه أساساً ببرنامجه إلي الشباب .

ومن هنا لم يكن غريباً أن تتوالي ردود الفعل من أطراف مختلفة تحدثت عنها القصة .

ولنبدأ بالفريق أول محمد فوزي ، وزير الحربية الأسبق الذي قال :

تأسفت كثيراً عندما اطلعت على ادعاءات لواء طيار متقاعد مصطفي الحناوي ، قائد القوات الجوية الأسبق ، عندما سجل حديثًا لمجلة روز اليوسف نشر بالعدد ٣٥٩٤ بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٩٧ ، ونسب فيه إلي الرئيس عبد الناصر بعد ربع قرن ضرورة تفريق مظاهرة الطلبة بضرب النار بواسطة طائرات الهيلكوبتر بالإسكندرية في نوفمبر ١٩٦٨ ، هذه التخاريف التي صدرت من قائد القوات الجوية الأسبق في حديث منتصف الليل ، وأحب أن أؤكد أن التوجيهات السياسية بالنسبة لمظاهرات الطلبة ، والموضحة في أذهان القيادات العسكرية ، هي عدم تدخل القوات المسلحة في شأن هذه المظاهرة ، وأن مسئولية فضها يقع على كاهل التنظيم السياسي .

وكان تأكيدي لنائب رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة ، وهي الهيئة المسئولة عن جميع تحركات القوات المسلحة ـ اللواء محمود جاد تهامي ، واللواء طلعت مسلم بعدم التعرض لمظاهرة الطلبة حتى لو وصلت هذه المظاهرة إلي مبني هيئة العمليات نفسها ، وذلك طبقا للتوجيهات السياسية الصادرة من الرئيس جمال عبد الناصر .

أن الطلاب هم فلذة أكبادنا ومستقبل مصر ، والذين تطوع الآلاف منهم لخدمة الجبهة أثناء حرب الاستنزاف في فصائل خدمة الجبهة ، والذين شكلوا العمود الفقري للقوات المسلحة في حرب أكتوبر المجيدة .

إذا كيف يتصور ويتخيل قائد القوات الجوية الأسبق أن تمس شعرة منهم .. وهم الذين قال عنهم جمال عبد الناصر :

«الشباب موضع الصدارة لا يمكن أن يحدث تناقض بين الثورة وشبابها ».

أما الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فلم يرسل رداً ،لكنه قابل بعض الزملاء الصحفيين من روز اليوسف في عزاء والد عادل إمام ، فتحدث معهم عن عدة نقاط :

١ـ أنه لم يعرف شيئاً عن هذه الواقعة على الإطلاق ، وأنه لا يعتقد أن جمال عبد الناصر ، أعطي هذا الأمر أبداً، وأنه لم يسبق له أن تحدث في هذا الموضوع مع اللواء الحناوي .

٢ـ أن ذلك مخالف للتعليمات التي كانت موجودة لدي شعراوي جمعة ،بألا يتجاوز رجال الشرطة مهما كان نوع الاستفزاز ، وفي هذا السياق كان عدد الضحايا في الشرطة أكثر من عدد ضحايا الطلبة [(١)].

٣ـ وفوق هذا هل يعقل أنه في الوقت الذي لم تطلق فيه رصاصة ضد الطلاب على الأرض ، أن يضرب الطلبة بالطيران في الشوارع .

٤ـ كان سلاح الطيران في ذلك الوقت مشغولا ببناء نفسه ، بعد أن أصبح رمزاً لهزيمة ١٩٦٧ ، وكان الهدف استعادة سمعة هذا السلاح الهام ، فجاء مدكور أبو العز ، ثم اللواء الحناوي ، وعلى بغدادي .. ثم استقر الأمر عند اللواء طيار حسني مبارك .. في هذا الوقت كنا نبحث عن بناء الطيران ، فكيف يمكن أن يتم توريطه في هذه المهمة الغريبة .

٥ـ ليس لدي تفسير سوي أن اللواء الحناوي يعيش الآن في عزلة ، وبدلاً من أن

(١) لم يقتل أحد من رجال الشرطة ،لكن ضحايا الطلاب والشعب قاربت الثلاثين شهيدًا !!!

يحلق بالطائرات فهو يحلق في الأوهام .

وبخلاف هذا قال اللواء نبيل كامل ، قائد فرقة الهليكوبتر بالقوات الجوية حتى الإحالة إلي التقاعد (في مكالمة تليفونية) :

ما قاله اللواء الحناوي في روز اليوسف هو اللي حصل فعلاً ، لقد اتصل بي اللواء الحناوي قبل فجر يوم الواقعة الساعة الثالثة صباحاً ، وكانت هناك مظاهرات «جامدة» عاماها الطلبة ، وسيادته قال لي : أطلع وقود التشكيل بنفسك يا نبيل ، وتتأكد بنفسك قبل الطيران إن الطائرات ليس فيها ذخيرة (ولا طاقة) ،وفعلت تماماً ما أمرني به سيادته وتأكدت من أن المدافع والرشاشات والطائرات لا توجد بها أي نوع من الذخيرة تنفيذا للتعليمات ، وقدت التشكيل بنفسي ، ولم نقم بأي عمل هجومي أو عدائي بالنسبة للطلبة في المظاهرات ، وهذا الأمر حدث في مظاهرات الإسكندرية ، وأيضا في القاهرة .

وقال اللواء طيار جبر علي جبر ، الذي كان ضمن قيادة الطيران بين ٦٨ ، ١٩٧٤ ، وشارك في اعداد التاريخ الرسمي لحرب أكتوبر :

«بداية أري ..أنني لا أوافق ـ بمنتهي الأمانة ـ على نشر هذه الواقعة الآن ، فليس كل ما يعرف يتم نشره ، وهناك دائما توقيتات ملائمة للنشر .

ولعلي أقرر أيضا أنني أكن للفريق أول فوزي كل تقدير واحترام وحب ومودة ، وأني على اتصال وثيق به حتى الآن برغم اختلاف الرتبة والفارق في العمر والخبرة ، بالإضافة إلي أنني أري في دوره الذي قام به في إعادة بناء القوات المسلحة المصرية بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، دور خالد عظيم لا يستطيع أحد نكرانه ، وأنا شخصيا دافعت عنه ـ بما يستحقه ـ في دراسات عديدة ضد من أرادوا التقليل من حجم هذا الدور الكبير ، والإنجاز الخالد .

بالنسبة للواء الحناوي ، فلعلي أقرر أيضاً ، أنه كان أفضل قادة القوات الجوية الذين خدمت معهم سواء من ناحية أدائه كقائد أو من ناحية خبرته ومعلوماته العسكرية في الطيران ، والتي يجب أن تتوافر لمن يتولون قيادة هذا السلاح الخطير ، كان قائدا مميزا بمعني الكلمة ، ولم يكن أداؤه في رأي سبب خروجه من الخدمة ، إذ كان موضع تقدير من الرئيس جمال عبد الناصر ، حي بعد انتهاء خدمته ، وهذا الكلام كرره على مسامعي من أسبوعين فقد كان أحد معاوني الرئيس جمال عبد الناصر ، الزعيم الخالد .

أما الواقعة التي ذكرها اللواء الحناوي لـروز اليوسف في العدد (٣٥٩٤) ، فاقر أنني كنت موجودا بالخدمة في ذلك الوقت ، أعمل رئيسا لفرع التدريب التعبوي (تدريب العمليات) ، مما يجعل العلاقة بيني وبين اللواء الحناوي متصلة ومتواصلة وهناك جاني لا يمكن لي أن أنكره في الواقعة ، وهو أن اللواء الحناوي قال لي ولزملاء آخرين مضمون الواقعة ، ونحن بعد في الخدمة ولقد اندهشت لجرأته ، ذلك أن ما قاله في وقتها كان من الممكن أن يسبب له الكثير من المشاكل ، فالمعروف أن الرئيس جمال عبد الناصر كان يمتلك من الأجهزة ما يجعله يعرف دبيب النملة إذا دبت ، أما نص الحديث التليفوني كما ذكره ، فأنا لا أستطيع أن أؤكده ، لأنني ما كان لي أن أسمعه .. لكن الطائرات خرجت بالفعل . ومرت في طريق تدريبها فوق تجمعات الطلاب ، علماً بأن ذلك لم يكن مسارها اليومي العادي .

وفي السياق نفسه أرسل لنا محمود الجيار ، سكرتير عبد الناصر ،يقول معلقا على الواقعة : بعد اندلاع المظاهرات لم يكن أمام عبد الناصر ساعتها وقت لتقدير هذا الموقف الجديد الذي نشب في الداخل ، لكنه أصدر أمراً واحدًا وحاسما هو : سحب ذخيرة قوات الأمن التي تواجه المظاهرات بعد الذي حدث في المنصورة

والإسكندرية وحلوان[1] ، وقد قالها الرئيس الراحل أمامي لشعراوي جمعة : ما فيش عسكري واحد ينزل وفي أيده طلقة واحدة يا شعراوي .

وكانت النتيجة أنه في الاشتباكات بين المتظاهرين وقوات الأمن ، كانت خسائر قوات الأمن أكبر ،ولم يسبق حدوث ذلك في تاريخ المظاهرات في مصر . ولكن المفاجأة الحقيقية كانت لعبد الناصر نفسه أن الشرارة الأولي لهذه المظاهرات كانت من تدبير الحكومة علي يد شعراوي جمعة ، وعلى صبري[2] .

وكانت الشرارة الأولي التي أطلقت المظاهرات برقية مفتوحة موجهة من منظمة الشباب إلي جمال عبد الناصر تحتج على أحكام قضية الطيران ، وموقعه باسم أمين التنظيم في ذلك الوقت أحمد كامل ، ولم أصدق عيني عندما قرأت الاسم ، وقد كنت مسئولاً عن مكتب الرئيس للشئون الداخلية ، فأحمد كامل من المجموعة الحاكمة ، مسئول معها ، وليس معقولاً أن يتزعم الاحتجاج علنا ، وأسرعت أتصل بأحمد كامل الذي قال لي : أنا فعلا أرسلتها ، فذهلت ، وعدت لأسأله : هل فكرت قبل أن ترسلها؟ وما هي الحكمة ؟ وإذا به يرد ببساطة ، وأنا مالي أسأل سامي شرف ، هو الذي طلب مني إرسالها هو وشعراوي جمعة .

وفي تقديري أن أحد دوافعهم كان لتجربة نفوذ هذه المجموعة ، ومدي سيطرته على الشارع ، وكفاءة أدواتها !! رغم إعلانهم في ذلك الوقت أن بعض المنظمات العملية كانت المحرك للمظاهرات .

وقد عادت هذه المجموعة التي تحاول مرة أخري في حلوان من نفس العام

---

(1) نحن نتكلم عما حدث في المنصورة والإسكندرية وحلوان ، ولا نتكلم عما بعده .
راجع ملاحظتنا عما قاله الأستاذ هيكل.
(2) معقول هذا الكلام يا أستاذ جيار !؟!

وأشرف على المظاهرات بنفسه شعراوي جمعة ، وعبد المجيد فريد ، وعبد الطيف بلطية ، ورغم أن شعراوي كان وزيرا للداخلية ، إلا أنه لم يبلغ الشرطة بتدبيره ، وكانت النتيجة أنه ما كادت تبدأ المظاهرات حتى تصدي لها مأمور حلوان بمنتهي التزوة والعنف ،وأفلت الموقف من أيدي شعراوي للمرة الثانية .

وأذكر في هذه الآونة خطاب عبد الناصر بمناسبة افتتاح مجمع الحديد والصلب في نفس العام ، حينما غلبت على عبد الناصر روح الفكاهة ، وهو يتناول قصة المظاهرات وهو على الهواء في الإذاعة «أعمل إيه إذا كان اللي مطلع المظاهرات هو نفسه بتاع الأمن ، ونسي يقول للمأمور بتاعه » .

وضحك الذين سمعوا هذه النكتة ، لكن بالنسبة لرجال الكواليس في الحكم ، فلم تكن مجرد فكاهة، إنما كانت إعلانا عن أن الرجل الذي كان منصرفًا بكل ذرة في كيانه إلي مهمة بناء الجيش قد بدأ ينتبه إلي الداخل أيضا ، ويستعد لمعالجة ما يجري فيه .

وأخيرًا وحديثي موجه للشباب والطلاب الذين عاصروا أحداث ١٩٦٨ وللأجيال الجديدة ، أقول كيف يعقل أن الذي أصدر أوامره بعدم حمل جنود الشرطة الذخيرة ، أمر بضربهم بالهليكوبتر بالذخيرة الحية لأنه يخشى أن يسقطه الطلاب ، بل ويسرها في نفسه للواء الحناوي ، ويقصيه من موقعه لأنه لم ينفذ أوامره بضرب المظاهرات !!؟ ثم لماذا سكت اللواء الحناوي طوال هذه المدة ؟ وما هو دافعه للكلام ، خاصة أن شهود كلامه في الأحياء ، ومنهم الفريق محمد فوزي ، والكاتب الكبير محمد حسنين هيكل ، وبالمناسبة اللواء الحناوي ليس شرقاويا كما جاء بالمجلة ، فهو من نكلا العنب - آيتاي البارود - بحيرة ، ولكن الذي تعلمه الحركة الطلابية أن عبد الناصر دعاهم إلي منزله واجتمع معهم[1] ، وتحدثوا طويلاً

(1) وقبض في الليل على من اجتمع معهم سكرتير عبد الناصر السيد محمد أحمد وليس عبد الناصر نفسه راجع شهادة معتز الحناوي .

بمنتهي الصدق ، وأمر عبد الناصر بإصدار جريدة الطلاب لتعبر عن فكر هذا الجيل ، الذي نجح بعد وفاة عبد الناصر في الدفاع عنه وعن الثورة في وجه أعدائها في الداخل والخارج .

الآن .. ما هو رد اللواء الحناوي ـ القائد الأسبق للقوات الجوية المصرية ـ على كل هذا :

إنه يقول : أطلعت على رد الفريق أول متقاعد محمد فوزي القائد العام الأسبق للقوات المسلحة ، وقد خاب ظني في أستاذي بالكلية الحربية ، وقائدي العام إبان تشرفي بقيادة القوات الجوية ، فما كنت أعتقد أن كبر السن ينسيه واقعة لا تنسي ، ويجعله يبعد الشبهة عن نفسه قائلا أنني نسبت إلي الرئيس عبد الناصر الأمر بضرب المظاهرات بالهليكوبتر ، الأمر الذي لم يحدث ، وأرجوا أن يعيد قراءة ما جاء في روز اليوسف على لساني ، وهو يؤكد أن الأمر صدر من الفريق فوزي ، وأنه من ذكر أن الأمر لجمال عبد الناصر . فهل استخدم اسم الرئيس جمال عبد الناصر ليرهبني بعد أن رفضت تنفيذ أمره .إن الفريق فوزي يحاول التنصل من إصداره للأمر باستخدام الطائرات في تفريق المظاهرات ، وقد حملها على الرئيس جمال عبد الناصر في ذلك الوقت ، وذلك بنفي الواقعة من أساسها ..وأساله بدوري : هل خرجت الطائرات الهليكوبتر الاثنتا عشرة أم لم تخرج ؟! وهل خرجت بدون علمه وهو القائد العام ؟ فلماذا لم يرفع التيفون ليسأل عن ماهية هذه الطائرات التي خرجت ، علما بان اليوم لم يكن شم النسيم ، ولا عيد الثورة ، ثم أليست هذه التحركات مسجلة كغيرها بغرفة العمليات الرئيسية بالجيوش .

إنني أعطي للفريق فوزي العذر في أن يتخيل الأوهام بسبب سنه ، وأنني اسف إذا اضررت لأن أشتد في الرد علي من يكبرني سنا ، لكن السن بالسن ، والعين

بالعين والبادي أظلم .

لقد مضت ثلاثون سنة تقريبا على الحدث ،وما ذكرت هذا إلا لأكمل للتاريخ موضوعا أنا أعلم الوجه الآخر منه ، عبرة للأجيال القادمة ، وحتى يعلموا عقليات قادتنا في الحروب من ٤٨ إلي النكسة ٦٧ ، والتي استشهد فيها ١٠٠ ألف شهيد ، كانت أرواحهم في يد القائد العام للقوات المسلحة ، والذي يحاول أن يتنصل الآن من تبعاته ، معذرة يا سيادة القائد العام ، ألم تكن رئيسا لهيئة أركان حرب القوات المسلحة في حرب ٦٧ ، ومسئولا عما جري ، أن في قلبي جرحا لن يندمل من تصرفاتك في نكسة ١٩٦٧ ، ومما نشر قبلا من تخارف الشعوذة فيما يخص تلك الحرب المأساة ..وأرجو لك كامل الصحة والعافية فيما تبقي لك من عمر مديد إن شاء الله .

أما الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل . فأقول له : يا من كنت موضع ثقتي وآخرين غيري ، وكنا نكن لك كل شعور طيب .. لم يكن العشم يا أستاذ ، أرجوا أن تعيد قراءة ملف الجبهة الشرقية والاستماع إلي الـ١٢ ساعة تسجيلات بصوتي في الأهرام لتعلم أنني لا أحلق في الأوهام ، كانت ثقتي بك كبيرة ، ولكن بعد ردك ..ماذا أقول غير أن كبارنا وقت المواجهة يتهربون .. هذا قدرنا .

وعلى الرغم من أن هشام السلاموني :، كاتب الحلقات غير مسئول تاريخيًا عما ورد على لسان اللواء الحناوي ، لكنه عقب قائلا : لا أظن أن الفريق أول محمد فوزي ، أو الأستاذ محمد حسنين هيكل ، أو الأستاذ محمود الجيار يستطيعون أن ينفوا الواقعة محل النزاع : بمثل هذه السهولة ، ولا أن يعفوا جمال عبد الناصر من المسئولية بمثل ما قالوه من كلمات .

دعنا من الكتب التي كتبها الطلبة الذين عاصروا الأحداث ، وذاقوا مرارتها

ورصاصاتها (المذكورة) وكل هذه الكتب ذكرت وقائع إطلاق الرصاص وتدخل القوات المسلحة لفض الاعتصام والطائرات الهليكوبتر لإرهاب الطلاب .. بل دعنا من أن الطلاب وأهل الإسكندرية المعاصرين للأحداث رأوا ما رأوا وذاقوا ما ذاقوا وإن لم يكتبوا معاناتهم.

أن الفريق أول محمد فوزي على خلاف ما أرسل لنا يقول شيئًا أخر في شهادة الأستاذ أحمد كامل ، محافظ الإسكندرية في ذلك الوقت ، التي نشرت بمجلة المصور ، ولم يعترض عليها أحد ، وهي تؤكد على الآتي :

- أنه طلب بنفسه أي الفريق فوزي تدخل قوات الجيش لفض الاعتصام .

- أن الرئيس جمال عبد الناصر وافق على تدخل القوات المسلحة وأحال الأمر للفريق أول فوزي.

- أن الفريق أول فوزي وضع قائد المنطقة الشمالية تحت قيادة أحمد كامل ليطلب منه ما يشاء ، وأن الفريق أول فوزي أعلم قائد المنطقة العسكرية الشمالية بأوامره بتنفيذ ما يريده أحمد كامل على الفور (هل كان أحمد كامل يريد شيئاً غير فض الاعتصام بالقوات المسلحة؟) .

- ماذا يقول الفريق أول فوزي في أن أحمد كامل ذكر الطيران (الهليكوبتر) ضمن ما ذكر من دبابات وأسلحة .وأن كتيبة مدفعية احتلت مواقعها في الاستاد الرياضي المجاور .

- ماذا يقول الفريق أول في 'التعبير ذي المغزى الذي لا يفوت الأذكياء من القراء ، والذي جاء على لسان أحمد كامل «تصور الطلاب أن الطيران قد بدأ القصف والهجوم »!!

هل يكفي مع كل ذلك أن يقول الفريق أول محمد فوزي الذي نقدر دوره في

إعادة بناء القوات المسلحة بعد النكسة (بانضباطه الذي لم يكن يستطيع اختراقه أحد !) أن التوجيهات السياسية بالنسبة لمظاهرات الطلبة ، والموضحة في أذهان القيادات العسكرية هي عدم تدخل القوات المسلحة في شأن هذه المظاهرات ، وأن مسئولية فضها تقع على كاهل التنظيم السياسي (وليس حتى وزارة الداخلية !!).

أما الأستاذ هيكل .. فإننا تأدبا نطلب منه أن يراجع أهرامه ، وما نشره في ظل رئاسته لتحريرها . ولعلي أقرر أيضا أن التعبير قد خان الأستاذ محمود الجيار في كل ما يريد أن يقوله ، فأوصل لنا العكس ما يريد قوله .. ضمن ما قاله أن الرئيس جمال عبد الناصر «أصدر أمرا حاسما هو سحب ذخيرة قوات الأمن التي تواجه المظاهرات بعد الذي حدث في المنصورة والإسكندرية وحلوان »!! .

صورة مما أورده الأهرام تحت رئاسة الأستاذ هيكل لتحريره ويرد على ما يقوله الأستاذ:

تحت عنوان النائب العام يشرح قرار الاتهام (في أحداث نوفمبر ١٩٦٨) ويفسره .. نشر الأهرام بتاريخ ٣١/ ١٢/ ١٩٦٨ .

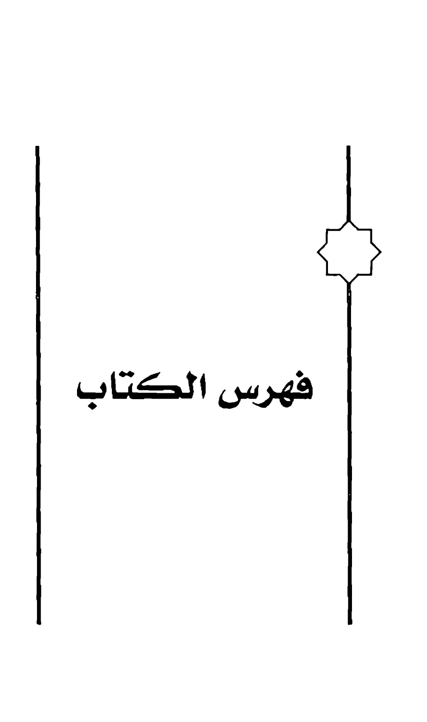
«أنه رغم تدخل المسئولين وعلى رأسهم السيد محافظ الإسكندرية (أحمد كامل) والسيد مدير الجامعة ، وعميد الكلية(كلية الهندسة) ، وبعض أساتذة الجامعة ، ينصح الطلبة المعتصمين لإنهاء هذا الموقف الخطير حرصاً على سلامة الوطن ، إلا أن عوامل الإثارة والتحريض قد أعمتهم عن المصلحة العليا للوطن ، فاستمر اعتصامهم طوال الأيام الثلاثة ، حتى اضطرت السلطات إلي التهديد باستخدام القوة إلي إنهاء اعتصامهم .

وفي تحقيق أعده مكرم محمد أحمد بعنوان «تلاميذ المنصورة لماذا كانت غضبتهم من قرار وزير التعليم ؟!!» نشر بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٦٨ بالأهرام ..جاء فيه :

«لقد أكد التحقيق وتقرير الطبيب الشرعي أن ٣ من القتلى قد أصيبوا نتيجة طلق ناري من بندقية إما القتيل الرابع (المعصراوي عبد الحليم) فثمة احتمالان واردة بشأنه ، أما أن يكون قد أطيب بطلقة من بندقية بعيدة أو مسدس قريب والأرجح في ظل التقرير أن يكون سبب الإصابة رصاصة البندقية أيضا.

وجاء به أيضا : وقال عبد النعيم (يقصد جمال عبد النعيم طالب الإعدادية ذا السترة البرتقالية اللون ، والذي قدمه البوليس إلي التحقيق باعتباره هو الذي قاد المتظاهرين إلي مبني مديرية الأمن وبدأ أعمال العنف) أنه شاهد القتلى الأربعة في الحديقة المواجهة إلي مبني مديرية الأمن ، أمام الباب الجانبي ، بينهم رجل في السبعين ، مزارع في أحدي القرى المجاورة ، سكن المنصورة للإشراف على تعليم أولاده ..وهبط الشارع ساعة المظاهرة فأصابته الرصاصة .

في هذا النطاق المضطرب(مهاجمة طلبة الإعدادي لحديقة مديرية الأمن !!)جري إطلاق الرصاص وسقط ٤ وأصيب(٥) آخرون من الطلبة .



فهرس الكتاب

فهرس الكتاب

الموضوع **الصفحة**

الإهداء ٣
مقدمة الطبعة الثانية ٥
قبل أن تقرأ .. محاولة للفهم ١٣
للكتاب قصة ١٥
١ - قالت أمي : عيناه زائغتان .. سيعلن مصيبة ٦٧
طفولة عاشقة : ٧١
سطوح المدرسة الإعدادية وجمال عبد الناصر : ٧١
الإبراهيمية الثانوية وإصلاح الكون : ٧٢
كانوا يعلموننا كيف نحمي النظام !! ٧٤
المبعوث .... ضاع منه الكلام ونساه ٧٦
عند الامتحان ... انتكس الوطن ٨٠
من التنحي إلى السفارة الأمريكية : ٨١
٢ - يا أمريكا لمي فلوسك ..... عبد الناصر بكره يدوسك ٨٥
آه من الحصان.. آه ٨٧
وكان أنور السادات ممثلاً ـ جيدًا ـ كعادته : ٨٩
هل نقول حقيقة ؟! ٨٩
ضباط القوات المسلحة يصطادون الطلبة : ٩١
علي صبري ، هو علي صبري ، مهما حدث : ٩٤

الموضوع	الصفحة

برتقالة د. مفيد شهاب : ٩٦

حكاية شنطة هاني عنان : ١٠٨

٣- وقال المتهم الأول ١١١

وما أدراك ما منظمة الشباب : ١١٤

رجال الثورة الذين نزلوا من القطار في طنطا : ١١٩

العمال يبدؤونها والطلبة بعدهم : ١٢٣

السلطة هي السلطة في أي وقت : ١٢٣

وبدأت الاتجاهات الدينية في الظهور : ١٢٥

وتتصارع أجنحة منظمة الشباب الاشتراكي : ١٢٨

د. محمود الشريف يتنبأ بالأحداث القادمة! : ١٣٠

٤- أخطاء النظام ..وسوف يكرر غلطته !! ١٣١

هاني عنان يستثني جمال عبد الناصر !! ١٣٥

لا وألف لا للتفويض : ١٣٦

عودة قصيرة إلى الوراء : ١٣٨

٥- هوه سيادتكم مباحث ؟!! ١٤٧

الآن يتكلم محمد فريد حسنين : ١٥٦

رُكَب شعراوي جمعة تخبط في بعضها : ١٥٨

٦- السادات يدخن الـ«كنت» في مجلس الأمة........................ ١٦١

٧- غلطة عُمر جمال عبد الناصر ١٨٣

يا عيني على الديموقراطية : ١٨٦

مأساة جيلنا ... الفاجعة !! ١٨٧

الموضوع	الصفحة

محاولة متواضعة لمراجعة النفس : ١٨٨

الطلاب يواجهون السادات في عصر عبد الناصر : ١٩٧

حكاية ضياء الدين داود : ١٩٩

كان ، وكأن الثورة لم تقم : ٢٠٠

٨- عندما بكى جمال عبدالناصر ! ٢٠٧

انفعال ، وليس تفاعلاً ديمقراطيًا : ٢٠٩

حديث صحفي يفضح ديمقراطية جمال عبد الناصر : ٢١١

لقطة لابد من التمعن فيها : ٢١٢

تحليل لتقرير النيابة العامة : ٢١٤

الألوان الطبيعية تشاركنا الهم ، والتساؤل : ٢٢٠

مقابلة مع رجل يستحق كل تقدير : ٢٢٩

٩- بيان تأجيل الأحلام الجماهيرية إلى أجل غير مسمى ٢٣٥

نعم للديمقراطية المؤجلة : ٢٤١

المستعجل ينتظر الدستور الدائم : ٢٤٤

١٠- تنظيم جمال عبد الناصر «الطليعي !!» ٢٤٧

اصطياد عصفورين .. بتنظيم واحد ٢٥٢

صورة .. والفرشاة كلمات جمال عبد الناصر ٢٥٥

لماذا « السرية » .. ولماذا توقيتاتها الدقيقة !! ٢٥٦

الأمر أكثر سهولة .. فلماذا كل هذا التعب ؟ ٢٥٩

١١- المظاهرات التي صنعت من الشيخ عمر عبد الرحمن زعيمًا للمتطرفين ٢٧٧

عاطف الشاطر، بطل تراجيدي ٢٩٢

الموضوع	الصفحة

النور في جنازة عبد المنعم رياض ٢٩٤

الطلبة تعد لميثاق وطني جديد: ٢٩٥

١٢- على مسئولية قائد سلاح الطيران في ١٩٦٨ عبد الناصر قال :أضربوا الطلبة بالطيران ٢٩٩

١٣- وشرحت الأمر لشباب الناصريين ٣١٥

الخاتمة ٣٢٩

ملاحق الكتاب ٣٣٣

